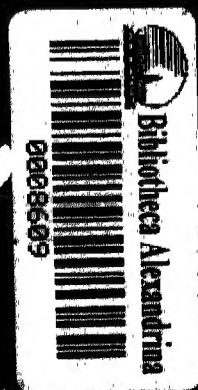


بين المعدادى وقزوى طوقان

صفحات مجرولة في الأدب العربي المعاصر

رجاء النفاذ



بين المعداوى وفدوى طوقان
صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

© دار المريح للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،
(الطبعة الثانية) ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ - (الطبعة الأولى ١٩٧٦ ...
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار المريح للنشر - الرياض
المملكة العربية السعودية — ص.ب ١٠٧٢٠ — تلکس ٤٠٣١٢٩
لا يجوز استنساخ أو طباعة أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب
أو اختراجه بأي وسيلة إلا بإذن مسبق من الناشر.

رجاء النقاش

بين المعدادى وفدوى طوقان

صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر



ص.ب: ١٠٧٢٠ - الرياض: ١١٤٤٣ - تليكس ٤٠٣١٢٩
الملكة العربية السعودية - تليفون ٤٦٥٨٥٢٣ - ٤٦٤٧٥٣١

”لا أظنني أعرف أدباً مقيداً
غالبياً في الاحتياط كأدبنا العربي
الحديث، الذي ينشئه أصحابه
وهم يفكرون في الناس أكثر
مما يفكرون في أنفسهم،
حتى أطمعوا الناس فيهم،
وأصبحوا عبيدًا للجماعة..
وخدمًا للقراء، فلنتمرد على
الجماعة، ولنشر بالقراء. ولننبذ
الاحتياط كله إلا هذا الذي
يشير الشر.. أو يؤذي الأخلاق”

طه حسين

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٧٦ ، ولم تكند تمضى شهور قليلة حتى كانت هذه الطبعة قد نفذت من الأسواق ، حيث كان من حظ هذا الكتاب أن يهتم به القراء والنقاد والباحثون على نطاق واسع ، وقد كان من المفروض أن أعيد طبعه بعد ذلك ، ولكن السنوات التى تلت صدور الكتاب فى طبعته الأولى كانت بالنسبة لى سنوات تعب وعناء ، وكانت فترة تحملت فيها كثيرا من المشاغل والمشاكل ، مما أضاع الفرصة أمامى لإعادة طبعه بعد مراجعته ، خاصة أننى لاحظت أن الطبعة الأولى كانت مليئة بالأخطاء المطبعية الفادحة فى حجمها ونوعها ، وذلك لأن الكتاب قد تمت طباعته فى بيروت بعيدا عنى ، فلم أتمكن من مراجعته وتصحيح « بروفاته » . ومنذ صدور الطبعة الأولى ونفادها وأنا أحلم بإعادة النظر فى الكتاب ، وتصحيح أخطائه ، وتقديمه فى صورة نهائية

سليمة ، ولكن مشاغلي التي فرضتها ظروف عملى الصحفى ، واضطرارى للخروج من مصر للعمل فى دولة قطر الشقيقة مديرا لتحرير جريدة الراية ورئيسا لتحرير مجلة الدوحة لمدة ثمانى سنوات متواصلة ، كل ذلك لم يتح لى وقتا كافيا ولا فراغا مناسبيا لإعادة النظر فى هذا الكتاب أوفى غيره من كتبى المنشورة أو التى لم تنشر بعد . لقد كان عملى يلتهم وقتى كله ، ليلا ونهارا ، وصيفا وشتاء ، وما كنت خلال هذه السنوات الطويلة أستطيع أن أحصل على إجازة صغيرة ، فإن حصلت عليها فقد كنت أقضيها فى حالة من التعب الشديد الذى لا يتيح لى أن أنجز شيئا مما أريد ، حتى لقد بدا لى أن العمر سوف يفلت منى دون أن أحقق حلمى بنشر مجموعة كتبى - ومنها هذا الكتاب - بالصورة الدقيقة المنشودة ، وأخذت أحدث نفسى فى أسى بأن جهادى الطويل الشاق فى الحياة الأدبية والثقافية سوف يضيع ويتبدد ، بعد أن اختطفتنى الدوامة القاسية التى تعرضت لها مع معظم أبناء جيلى من المشتغلين بالأدب والثقافة ، وخاصة هؤلاء الذين حرصوا ، فى صمت وصبر وهذوء ، على أن يسيروا فى طرق مستقيمة ، دون أن يغيروا شيئا مما يؤمنون به ، أو يكسبوا رزقهم بغير جهد شاق يبذلونه ، وبغير عرق غزير يسيل من فوق الجبين ، التماسا لراحة الضمير واحترام النفس ، مهما كان الثمن غاليا ، ومهما كانت المتاعب والألام . على أن الحياة التى ملأت أيامنا بالمتاعب والمصاعب ، لم تخل من لحظات إشراق وأمل ، فعندما عدت إلى مصر بصورة نهائية فى يناير ١٩٨٧ ، وجدت الكثيرين من الأصدقاء والزملاء ، بل وحتى من القراء الذين تربطنى بهم صلة روحية ولا تربطنى بهم صلات شخصية ، وجدت هؤلاء جميعا يطالبونى - فى مودة صادقة وتشجيع كريم - بإعادة إصدار كتبى التى نشرت من قبل ، ومنها هذا الكتاب ، ويطالبونى بنشر الكتب الأخرى التى أكملتها ولم أتمكن - لضيق الوقت -

من نشرها ، ووجدت من هؤلاء جميعا فيضا من المشاعر الحارة ، التي زادت إيماني بأن أى جهد يبذله الإنسان لا يضيع ، ولا بد له من أن يشمر في يوم من الأيام .

وأعود بعد ذلك إلى هذا الكتاب في طبعته الجديدة ، فقد غيرت عنوانه تغييرا طفيفا التماسا لمزيد من الدقة والوضوح ، فبعد أن كان العنوان في الطبعة الأولى هو « صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر » جعلت العنوان الجديد : « بين المعداوى وفدوى طوقان - صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر » ، كذلك فقد قمت بتصحيح الأخطاء الواردة في الطبعة الأولى ، كما أضفت بعض الهوامش التي وجدت أنها ضرورية لتوضيح ما بدا لي أنه بحاجة إلى هذا التوضيح .

بقي أن أقول إن هذا الكتاب عند صدور طبعته الأولى قد تعرض لنقد بعض الأقلام ؛ فقد انزعج البعض من المنهج الذي اعتمدت عليه في هذا الكتاب ، وهو منهج يلتزم بالصراحة الكاملة ، مما اعتبره البعض خروجاً على المألوف في حياتنا العامة وحياتنا الأدبية ، حيث تعودنا على عدم الخوض في الحياة الشخصية للأدباء ، حتى لو كانت هذه الحياة الشخصية هي السبيل الوحيد لتفسير الظواهر الأدبية المختلفة ، ولفهم الواقع الاجتماعي وما يعانيه من مشاكل وتعقيدات ، وهذا النوع من النقد لم يقنعني بعكس ما أراه ، ولم يغير موقفي . فالخوض في الحياة الشخصية بغير هدف ، أو بدافع الثروة والفضول ، هو الخطأ الذي ينبغي أن نحاسب عليه من يقع فيه ، أما الخوض في الحياة الشخصية لتفسير مأساة كاتب ، أو لفهم المجتمع والعصر الذي نعيش فيه من أجل الوصول إلى حل للمشكلات

المعقدة القاسية التي نعاني منها ، فذلك كله أمر مطلوب وضروري ،
مهما أثار غضب البعض ممن يفضلون التستر والتظاهر والتصنع على
المواجهة والصدق والبحث الأمين عن حل وعلاج .

ولقد قيل عن هذا الكتاب عند صدور طبعته الأولى ، إنه يتضمن
رسائل أنور المعداوى إلى فدوى طوقان ، ولا يتضمن رسائل فدوى
إلى أنور ، وهذا خطأ كان ينبغي تجنبه ، وردى على ذلك أن رسائل
فدوى إلى المعداوى ليست موجودة ، وأن المعداوى كان في حياته
شديد المسؤولية تجاه فدوى ؛ وكان يخشى من أن ينتهى به المرض
الذى يعانيه إلى الموت الفجائي وهو ما حدث بالفعل ، من أجل ذلك
قام المعداوى بإتلاف رسائل فدوى جميعا قبل وفاته ، فلم يبق منها
شيء ، لا عند فدوى ، ولا في أوراق المعداوى التى تركها بعد موته .

على أننى ما كان لى بعد ذلك كله أن أنشر رسائل المعداوى لو أنها
كانت مجرد رسائل شخصية خاصة ، ولكننى اقتنعت بضرورة نشرها
والتعليق عليها بإسهاب وتفصيل ، لأننى وجدت فيها أثرا أدبيا
وإنسانيا بالغ القيمة والأهمية كما أشرت إلى ذلك فى مقدمة الطبعة
الأولى من هذا الكتاب .

ولقد كان من أهم النتائج التى خرجت بها من دراستى لرسائل
المعداوى إلى فدوى طوقان أنه كان هناك بينهما « حب عاطفى » وليس
حبا قائما على الإعجاب والصدقة الأدبية فقط ، وأن هذا الحب كان
عنيفا مؤثرا على الطرفين ، ولكن هذا الحب كان من النوع المأساوى ،
لأنه كان حبا رومانسيا ، وكان حبا « عذريا » أو « أفلاطونيا » .
فالنقاد المصرى والشاعرة الفلسطينية لم يلتقيا فى أى يوم أكثر من اللقاء
الروحى الخيالى عن طريق الرسائل ، ومع ذلك فقد كان بينهما حب

عفيف ولكنه عنيف ، تماما كما نشأ الحب بين « مى » و « جبران » على
 البعد ، فقد كانت « مى » فى مصر و « جبران » فى أمريكا ، ولم يحدث
 قط أن التقى الاثنان أو تبادلًا . « النظرة والابتسامة والكلام والموعِد
 واللقاء » ، حسب المعادلة التى رسمها شوقى فى أحد أبياته للحب
 الواقعى .

وقد اعترض البعض على هذا الاستنتاج الذى توصلت إليه ، من
 أنه كانت هناك عاطفة عنيفة وحقيقية تربط بين فدوى طوقان
 والمعداوى ، وأن هذه العاطفة قد قتلها إصرار الطرفين على الالتزام
 بالموقف الرومانسى الحساس المحتمى بالخيالات والأوهام ، دون أن
 يحاولا معا ، أو يحاول أحدهما أن ينقل هذه العاطفة المتمكنة منهما إلى
 علاقة واقعية ، فالمسافة بين « نابلس » ، حيث تقيم فدوى و « القاهرة » ،
 حيث يقيم المعداوى ، لم تكن ببعيدة ، ولم يكن من الصعب
 اجتيازها ، على عكس الأمر بين مصر وأمريكا أيام « مى »
 و « جبران » فى العشرينات والثلاثينات ، ولقد كانت « فدوى » تتردد
 أحيانا على القاهرة ، ولكن الحبيين الرومانسيين ظلت أفراحهما
 وأحزانها تجد تعبيرها الوحيد على صفحات الورق ، حتى تحطمت
 العلاقة وتهشمت ، وانتهى الأمر كله بموت المعداوى سنة ١٩٦٥ فى
 سن الخامسة والأربعين وفى نفسه جرح عاطفى عميق وألم دفين
 لفقدان هذا الحب ، أما فدوى فقد اعتصمت بعالمها الداخلى
 ومشاعرها الخاصة ، وأقامت بينها وبين الحياة الخارجية نوعا من العزلة
 الشفافة التى كانت مع ذلك قوية وغير قابلة للكسر ، وتوالت عليها
 المحن المختلفة ، ولكنها لم تسمح لنفسها بالخروج من عالمها الداخلى
 الحصين حتى الآن ، رغم ما هو معروف عنها من رقة ودماء ولطف

ولين وحسن معاملة للآخرين وحرص على الاتصال بالحياة والناس ، ولكن دون الخروج من سجنها الروحي الذي صنعتها لنفسها اتقاء منها لشرو الحياة وفواجعها المختلفة .

وكان من بين الذين أنكروا استنتاجي حول وجود حب رومانسي عنيف بين فدوى والمعداوى ، الناقد العربي الأردني المعروف الدكتور عيسى الناعوري ، وذلك في كتاب له بعنوان « مع الكتب والناس والحياة » ، فقد تضمن هذا الكتاب فصلا طويلا بعنوان « مع رجاء النقاش في كتابه صفحات مجهولة » ، وفي هذا الفصل ينكر الناقد الأردني إنكارا كاملا وجود أى عاطفة بين فدوى والمعداوى أكثر من عاطفة الصداقة ، ويتهمنى الناقد في مقاله بالمبالغة وخطأ الاستنتاج ، بل لقد نسب الناعوري في مقاله إلى فدوى أنها قالت له في حديث بينهما إنها لا توافق على ما ذهبت إليه من حب بينها وبين المعداوى .

وقد اطلعت فدوى طوقان على ما كتبه الناعوري قبل نشره في كتاب ، لأنه نشره قبل ذلك في إحدى المجلات الأدبية ، وهنا كتبت فدوى إلى الناعوري رسالة صريحة تخالفه فيها حول ما انتهى إليه من رأى وما نسبه إليها من أقوال ، وقد تحلى الدكتور الناعوري في كتابه بالأمانة النقدية والعلمية ، فنشر في الكتاب نص رسالة فدوى إليه والتي تعارضه فيها معارضة كاملة ، وفي هذه الرسالة تقول فدوى موجهة حديثها إلى الدكتور الناعوري بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٨٥ :

« شكرا صادقا على استجابتك لرغبتي في نشر تعليقي على بعض ما جاء في مقالك « مع رجاء النقاش في كتابه صفحات مجهولة في الأدب العربي المعاصر » في كتابك « مع الكتب والناس والحياة » وإليك التعليق :

جاء في صفحة ٨٥ من كتابك قولك : وكان من السهل أن يلتقيا « أى المعداوى وفدوى » لو كان في الأمر أكثر من صداقة بالمراسلة ، فقد زارت فدوى مصر أكثر من مرة .

في الواقع إن أول زيارة قمت بها لمصر كانت في شهر أغسطس عام ١٩٥٠ ، ولم تكن صلتى بأنور قد بدأت بعد ، والزيارة الثانية كانت في إبريل عام ١٩٥٤ ، وكان أنور قد انقطع عني ذلك الانقطاع المفاجيء الذى تكرر أكثر من مرة ؛ مما انتهى بى إلى الظن بأنه يتلاعب بعاطفتى تجاهه ، أما الزيارة الثالثة فكانت بين شهرى ديسمبر ١٩٥٥ ويناير ١٩٥٦ حين كانت العلاقة بيننا قد انتهت تماما »

ثم تقول فدوى بعد ذلك في رسالتها إلى الناعورى عن علاقتها بالمعداوى :

« نعم ، كان هناك حب حقيقى ، وعبرت عنه بسأكر من قصيدة » . ثم تقول فدوى بعد ذلك في الرسالة نفسها :

« أما بشأن مصير رسائلى لأنور فحقيقة الأمر هى أننى كنت حدثت أنور فى بعض تلك الرسائل عن إصابتي بمرض بغض الأهل لشدة ما كنت أعانى من اضطهاد وظلم وفضاظة من قبل بعض أفراد أسرتى ، وقد رجوته أن يبقى هذه المعلومة سرا مكتوما ؛ إذ كنت أرى فيها مهانة لى ولرکزى الأدبى ، فأكد لى أنور أن رسائلى لن تقع يوما فى يدى إنسان ، وهذا يؤكد أن أنور قد قام بإتلاف تلك الرسائل وفاء بعهد قطعه على نفسه ، ومن عرف أنور فقد عرف مدى ما كانت تتحلى به شخصيته من مروءة وشهامة . . »

هذا هو بعض ما جاء في رسالة فدوى طوقان إلى الدكتور الناعوري الذي كان يصبر على القول بأن ما كان بين المعداوى وفدوى لم يخرج عن حدود الصداقة العادية ، وأن من المبالغة ومجافاة الحقيقة أن نقول إنه كان حبا عنيقا وقويا .

وتأتى فدوى طوقان لتحسم الأمر في شجاعة روحية تمتد جذورها إلى الصدق الذي تقوم عليه شخصية فدوى ومشاعرها ويقوم عليه فنا أيضا ، من هذا الصدق الذي دفعت فدوى ثمنه غاليا في حياتها تستمد الشاعرة شجاعته فتقول : نعم كنت أحب المعداوى وكان يحبني ، والاستنتاجات التي توصلت إلى وجود هذا الحب بيننا صحيحة .

إن شجاعة فدوى وصدقها هما شيء جديد في حياتنا الأدبية . فما أكثر الأدباء والأدبيات الذين يخفون حقيقة مشاعرهم وحقيقة صراعاتهم الروحية التي كانت مصدرا لأدبهم وفنهم وأفراحهم وآلامهم ، ومن هنا أصيب أدبنا في حالات كثيرة بالعمى ، وفقد تلك الروح المضيئة المؤثرة المنفتحة على الدنيا ، والتي يمكن أن يخرج منها أدب جديد ومجتمع جديد وعلاقات إنسانية جديدة ، وهذا الجديد الذي ننشده لا بد أن يعتمد على الصلح والشجاعة الروحية ، كما فعلت فدوى طوقان حين اعترفت بحقيقة حبها للمعداوى دون أن تحاول تغطية ذلك بأى لون من ألوان الغموض والإنكار .

وهنا ، في هذا الميدان الأصيل من الصدق ، فليتنافس المتنافسون إن أرادوا لنا أدبا حيا ونفسية قادرة على مواجهة الواقع والاعتراف بكل ما نشعر به دون خوف أو هروب من الحقيقة ، فالصادقون الشجعان من المهوبين هم القادرون وحدهم على الإبداع العظيم ، وهم القادرون على أن يؤثروا تأثيرا حقيقيا في الحياة والناس .

وأحب أن أنهى حديثى عن الحب بين فدوى والمعداوى بعبارتين وردتا فى رسالة تلقيتها من فدوى بتاريخ ١ / ١ / ١٩٨٠ ، أما العبارة الأولى فهى قولها : « إن قصتى مع أنور توجع القلب دائما بما انتهت إليه وبما حملته نهايتها من طابع مأساوى » ، أما العبارة الأخرى التى وردت فى الرسالة نفسها فتقول فيها فدوى عن هذا الكتاب الذى بين يديك : « . . . إن الكتاب لو صدر قبل عشرين عاما لكان مصدر فضيحة أخلاقية بالنسبة لى فى محيط نابلس ، المدينة المحافظة المتزمة ، أما اليوم وبحكم قانون التطور فى المفاهيم والأفكار والأشياء فقد تغيرت مواقف الناس تجاه مثل هذه الشئون » .

هاتان العبارتان من رسالة فدوى الخاصة ما كنت لأسمع لنفسى بنشرهما فى هذه المقدمة ، لولا أن فدوى نفسها قد أصدرت سيرتها الذاتية فى كتاب رائع هو « حياة جبلية ، حياة صعبة » شرحت فيه بصدق شديد وأمانة عالية وفن رفيع كل ما عانته من ظروف قاسية مع أسرتها ومدينتها نابلس ، وألقت فيه ضوءا كاشفا على كل العوامل التى أثرت فى شخصيتها وخلقت ما فى هذه الشخصية من تناقضات ، « لاسيما فيما يتعلق بتراوحى طيلة حياتى بين حبى للناس والعلاقة الإنسانية العميقة التى تشدنى إليهم وبين خوفى منهم ونزوعى إلى مصادقة النفس وإلى العزلة والتوحد » .

هذه هى نفسية فدوى وشخصيتها الإنسانية التى تلتزم بالصدق مع النفس ومع الآخرين ، والتى لم ترتكب أى خطأ يمكن أن يحاسبها عليه إنسان منصف ، وكل ما حدث هو أن قلبها نبض بحب صادق عبرت عنه فى عدد من قصائدها الجميلة ، مما أشرت إليه بالتفصيل فى هذا الكتاب ، وكان حبها متجها لكاتب وناقد موهوب وإنسان صادق

جاد ، فتنه شعر فدوى وشخصيتها ، على البعد . وكان المعداوى جديرا بفدوى وكانت جديرة به ، لولا مرض أنور في بدايات هذه العلاقة ولولا ما أحاط بعلاقتها من ظروف إنسانية واجتماعية شديدة التعقيد ، ولولا ما تميز به العصر الرومانسى من مشاعر قائمة على الخوف والسلبية والهروب من مواجهة الواقع الصعب ، مما أدى إلى وجود فجوة قاسية حطمت هذا الحب الكبير الذى كان قابلا للنجاح لو كان العصر مختلفا والظروف الاجتماعية فى المجتمع العربى غير ما كانت عليه فى أوائل الخمسينات .

على أننى أحب أن أشير أخيرا إلى أن النظر إلى هذا الكتاب على أنه لا يعالج شيئا آخر غير قصة الحب بين فدوى والمعداوى ، هو أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فهذه القصة لا تمثل فى الكتاب إلا الخيط الرفيع الدقيق الذى يربط بين أجزائه المختلفة ، أما الكتاب فهو فى جوهره دراسة للحياة الأدبية والاجتماعية فى الخمسينات والستينات فى مصر والمجتمع العربى كله ، وهو محاولة للكشف عن محنة جيل بأكمله فى تلك الفترة الحساسة من تاريخنا العربى ، والاقتصار فى النظر إليه على أنه قصة حب بين ناقد وشاعرة هو أمر يخرج تماما عن الهدف الواسع البعيد الذى وضعتة أمامى وأنا أقوم بإعداد هذا الكتاب وجمع مادته وتحليل الظواهر التى تعرضت لها فى فصول الكتاب المختلفة . وأرجو صادقا أن تكون هذه الرؤية واضحة أمام القارئ والباحث ، وأن يكون الكتاب قد استطاع تقديم البرهان على صحة هذه الرؤية ، فبذلك وحده أشعر أن الجهد الذى بذلته فيه لم يخطئ الهدف ، ولم يصل إلى نتيجة مغالفة للنتيجة التى وضعتها أمامى منذ أول كلمة فى الكتاب وحتى آخر كلمة فيه .

رجاء النقاش

القاهرة فى أغسطس ١٩٨٩

مقدمة الطبعة الأولى

في أوائل سنة ١٩٧٤ تلقيت رسالة من الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان ، وكنت قد التقيت بفدوى في بيروت سنة ١٩٦٧ في مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا الذي انعقد قبل حرب يونيو بشهرين تقريبا ، وفي لقائي العاجل السريع مع فدوى طوقان دارت بينها وبينى أحاديث متعددة كان من أهمها حديث عن الناقد المصرى الراحل أنور المعداوى ، وكان المعداوى بالنسبة لى أستاذا وصديقا ، وكنت أعلم منه أنه كان على صلة وثيقة بفدوى عن طريق رسائل متبادلة بينها ، وإن كانا لم يلتقيا أبدا ، وكنت أعلم منه أيضا أنه يحمل في قلبه لفدوى طوقان عاطفة عميقة تفوق عاطفة الصداقة ، وكانت هذه العاطفة الخاصة هى فى صراحة وبساطة عاطفة حب كبير ملأ عليه قلبه ووجدانه .

وفي حياء شديد سألت فدوى طوقان فى لقائنا السريع عما إذا كان بإمكانى أن أحصل منها على رسائل المعداوى إليها ، لعل فى هذه الرسائل ما يساعدنى على ما عاهدت نفسى عليه من تأليف كتاب عن

أدب المعداوى ومأساة حياته ، ووافقت فدوى على ما طلبته منها بلا تردد ورحبت به ، ثم انتهى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا وعادت فدوى إلى نابلس وعدت أنا إلى القاهرة ، ولم تمض أسابيع قليلة حتى قامت الحرب بيننا وبين إسرائيل ، وحلت بالامة العربية نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ وحملت معها كثيرا من العواصف والأعاصير ، ومرت الأيام والسنوات وتصورت أن فدوى قد نسيت لقاءنا الوحيد في بيروت وما دار فيه من أحاديث ، والتمست لفدوى الأعذار ، لأن الضفة الغربية للأردن حيث توجد نابلس ، مدينة فدوى ، قد وقعت في قبضة الاحتلال الإسرائيلي ، وكانت هموم هذا الاحتلال كفيلة بأن تشغل فدوى عن المعداوى وعن كل شيء ، ولكنني فوجئت بعد سبع سنوات برسالة من فدوى طوقان تحمل معها في نفس الوقت كل رسائل المعداوى إليها ، وقد هزنتى رسالة فدوى ، وأتاحت لى أن أطل على جانب من عالمها الإنسانى الشفاف ، وأمس عن قرب مدى ما فى نفسها من صفاء ووفاء وصدق وتكوين روحى شديد الأصالة .

ماذا كتبت فدوى فى رسالتها وماذا قالت ؟ هذا هو ما نعرفه من سطور هذه الرسالة الكريمة الوفية التى أنقلها هنا بالنص :

« تحية خالصة . . لعلك تذكر لقاءنا فى بيروت عام ١٩٦٧ قبل الحرب . . ولعلك تذكر وعدى بموافاقى برسائل الصديق العزيز أنور المعداوى . ولقد هجمت علينا حرب حزيران بعد لقائنا بأقل من شهرين وشغلنا فيما بعد بالاحتلال الصهيونى عن كل ما عداه . . كان فى نيتى المجيء إلى القاهرة هذا الشتاء . . ولكن ظروف القاهرة أجبرت نيتى تلك وكما كان بوى أن أجىء إليك بنفسى ومعى هذه الوديعة العزيزة لأضعها بين يديك ويتاح لى الحديث معك بحرية أكثر . . لقد اضطرت إلى السفر إلى « انكلترا » لمراجعة الجراح بشأن عملية

جراحية كان قد أجراها لى ، ومن عاقد أن أراجع قبل سفرى البعيد أوراقى الخاصة فالغى منها ما لا أحب أن يبقى بعدى فى حالة حدوث سقوط طائرة أو أى شىء محتمل وقوعه . وهكذا وجدتنى مع رسائل أنور ، ووجدتنى مع وعدى لك ، وأحسست بدافع غريب يدفعنى إلى إرسالها إليك وعدم تأجيل ذلك إلى حين يتاح لى فيه السفر إلى القاهرة . سترى أننى حذفته صفتين من الرسالة المؤرخة فى ٤ / ١١ / ١٩٥٢ فى هاتين الصفتين ورد ذكر أسماء وحديث بصدد تلك الأسماء - وهم من نابلس - أوثر أن أبقيه مطويا . . وأؤكد لك أن الحديث ذاك لا يغنى المعرفة ولا يضيف إليها جديدا . حقا ان فيه دليلا على خفة روح أنور وحس النكتة لديه ، ولكن أعتقد أنك وأصدقائه وعارفه لا يعوزهم هذا الدليل .

مسألة أخرى أود أن أقف عندها قليلا . . فى العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذى كان يسببه لى أنور بانقطاعه المفاجئ عني ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتى تجاهه . وتسلمت على تبعا لهذا الوهم كبرياء غبية وحمقاء خلقت عندى إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مائة فى المائة ، لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلى ، وصممت على رفع جدار بينى وبينه ، وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت .

وحين قرأت ما كتبه الدكتور لويس عوض فى الأهرام عن « رفض الحياة » وهو المقال الذى أتى فيه على ذكر مرض أنور ، انجلى ما كان غامضا ، وملأنى حزن شديد ، وندم قاتل ، كنت فى هذه الفترة أعانى هبوطا نفسيا على أثر فجيعتى بمصرع شقيقى « نمر » فى حادث

تحطم طائرة . . . وزادنى مقال الدكتور عوض كآبة وحزنا ، ثم توفى
أنور والتحم حزنى عليه بحزنى على « نمر » . . لا أزال أذكر تلك
الليلة التى كتبت فيها قصيدتى « فى ليلة ممطرة » ، كنت قد وضعت
صورة لأنور كان أهدانيها فى « ألبوم » صور « نمر » ، وكانت رسائل أنور
مبعثرة على مقعدى فى تلك الليلة الماطرة ، ووجدتني محكومة للحالة
الغامضة التى تعتربنى كلما حاصرني الانفعال ، وكتبت القصيدة :

.. أحباى تحت الرياح وتحت المطر
وأصغى إلى وقع أقدامهم فى الممر
وتعبر ضحكاتهم من رواق الظلام
إلى ونحيا

بمعنى منهم صور
أقبل هذا الجبين وأمسح هذا الشعر
والمس كم قميص دفىء ، أشم رباط عنق
والمح أعينهم بالأمانى تبرق ،
توغل خلف الأفق
وأسمع تلك القلوب الطموحة
تنبض بالمتنظر

بما خططوا لقد لن ينجىء يا
قسوة الموت ، مال الردى
بما خططوه ومال القدر

.....

وتسقى الشجر
رياح الشتاء ويهمى مطر
ويهمى مطر
ويهمى مطر

أقسم لك لقد كان أنور مع شقيقى : « إبراهيم » و « عمر » فى هذه القصيدة . . ثم جاءت الحرب الحزيرانية لتخرجنى من دائرة أحزاني الخاصة وتلقينى فى دوامة الاحتلال الصهيونى اللعين ، ولتصهرنى مع شعبى فى بوتقة المأساة الكبيرة . . أختتم رسالتى بأصدق مشاعر التقدير والاحترام ، سلمك الله .

« فدوى طوقان »

هذه هى الرسالة التى تلقيتها من فدوى فى أوائل سنة ١٩٧٤ ، ومع هذه الرسالة - كما قالت - بعثت فدوى لى بكل ما كتبه أنور المعداوى إليها من رسائل ، وبمجموع هذه الرسائل سبع عشرة رسالة متفاوتة فى الحجم ، فبعضها يبلغ عشر صفحات وبعضها لا يتجاوز صفحة واحدة .

وقد عكفت على قراءة رسائل المعداوى بعناية ودقة ، وأذكر أننى قضيت ليلة كاملة مع هذه الرسائل حتى انتهيت من آخر صفحة فيها مع الخيوط الأولى من نور الصباح ، ثم ناقشت نفسى طويلا فى أمر هذه الرسائل ، هل أنشرها أم أطويها ؟ وبعد تفكير ومراجعة قررت أن أنشرها على رأى العام الأدبى مهما كانت النتائج ، وقررت إلى جانب ذلك أن أكتب تعليقا أو أكثر على كل رسالة من هذه الرسائل يتضمن شرحا وافيا لما فيها من إشارات أدبية وشخصية .

لقد ترددت أول الأمر فى نشر هذه الرسائل لأننى لست واثقا من أن الحياة الأدبية تستطيع أن تتحمل ما يمكن أن تكشفه هذه الرسائل من جوانب شخصية صريحة تتصل بالمعداوى وفدوى طوقان وأدباء آخرين ، كما أن هذه الرسائل قد فرضت على من ناحية أخرى أن

أكشف عما أعلمه من جوانب خفية في حياة المعداوى عما قد ترى تقاليدنا الأدبية أنه غير سليم . . كل ذلك لأن حياتنا الأدبية ما زالت تعيش في جو من المحافظة والكتمان ، واستنكار المصارحة في الكشف عن حياة الأدباء المعاصرين في أضواء ساطعة من الوقائع والحقائق ، فمازلنا نميل إلى الظلال والتلميح والإشارات البعيدة بدلا من النور الكاشف والضوء الصريح ، وهذا كله بالطبع يمثل عائقا كبيرا بالنسبة للدراسات الأدبية المعاصرة ، ويمثل نقصا خطيرا في هذه الدراسات ، وقد ينتهي الأمر أحيانا بوقوع كارثة من الكوارث لا يستطيع أحد أن يمنعها ، ومثل هذه الكوارث ليس لها سوى سبب واحد هو أننا نرفض الصراحة ونرفض مواجهة الحقائق ، ونفضل دائما أن نضع أفتنة فوق الوجوه حتى تبدو هذه الوجوه مناسبة للأفكار السائدة والتقاليد المقدسة الموروثة .

ولعل من المفيد أن أقف هنا قليلا لمناقشة هذه الفكرة وتوضيحها بالنماذج المختلفة ، ففي أوائل الستينات مات في مصر أحد الأدباء والمفكرين العرب الكبار ، وبعد وفاته بيوم واحد نشرت الصحف قصة فتاة انتحرت حزنا على هذا الأديب الكبير ، وقد لفتت هذه القصة نظري فتبعتها وحاولت أن أعرف ما وراءها ، وعلمت أخيرا أن هذه الفتاة في رأي عدد كبير جدا من أقارب ذلك الأديب المعروف وأصدقائه وتلاميذه هي ابنة غير شرعية له ، وأنه كان يحبها أشد الحب وكان يمنحها راتبا شهريا كبيرا ، وقد ترك في وصيته ما يكفل لها حياة سعيدة . . ولكن هذا الأديب الكبير لم يفكر قبل وفاته أن يعترف بأبوته لهذه الفتاة ، كما أن أهله طردوها من بيته يوم وفاته ومزقوا وصيته ، وكان دافع الأديب الكبير الى هذا التصرف ودافع أهله من بعده هو أنهم أرادوا أن يحتفظوا بصورة الأديب الكبير في أذهان الرأي

العام ، وقد كانت هذه الصورة هى صورة رجل من رجال الفكر الدينى ، وكان ظهور هذه الفتاة واكتشاف الناس لأمرها كفيلا بأن يחדش صورة هذا الأديب الكبير ويقلل من قيمته عند الناس .^(١)

وفى رأى أن ما حدث هو جريمة لا شك فيها ، وقد كان على الأديب الكبير أن يعالج الأمر بشجاعة فى حياته مهما كان الثمن ، ولا يغفر لهذا الأديب الكبير أنه كان يدفع لهذه الفتاة مالا ويمنحها حبا ورعاية . . لقد حرّمها من أهم شيء تحتاج إليه وتستحقه ، وكان بذلك يحكم عليها بالإعدام المذنى والأدب الذى انتهى بها إلى الانتحار .

نموذج آخر . . فقد أصدر الكاتب الكبير توفيق الحكيم منذ شهور كتابا يجمع فيه عددا من الرسائل التى وصلت إليه خلال حياته الأدبية ويعلق عليها ، وإذا قرأنا هذا الكتاب استطعنا أن نستجيع بسهولة أن توفيق الحكيم قد أبعد من صفحات هذا الكتاب كل ما يتصل بقلبه وعواطفه ، فليس فى الكتاب رسالة من امرأة . . حتى ولا من زوجته ، وكأن الحكيم قد عاش بعيدا كل البعد عن أى علاقات عاطفية من أى نوع ، ولذلك جاء الكتاب ناقصا فى الكشف عن حياة الحكيم ، والسبب واضح : فالحكيم أيضا ما زال يتصور أن مثل هذه العلاقات العاطفية يمكن أن تחדش صورته فى أذهان الناس ، ولذلك أثر أن يغلق هذا الباب ويطوى هذه الصفحة .

(١) لا أستطيع أن أذكر اسم هذا الكاتب الكبير ؛ لأننى لا أملك دليلا ماديا ثابتا على ما أقول ، ولكن القارئ المثقف يمكن أن يتهدى إلى اسم الكاتب الكبير من سياق الحديث عنه .

ونحن نجد أنفسنا أمام ظاهرة عامة في حياتنا الثقافية ، وهي أن « أدب الاعترافات » معدوم أو شبه معدوم ، فلا أحد من أدبائنا يوح بشيء ، ولا أحد يكشف عن جانب من جوانب ضعفه ، أو جانب من جوانب تجربته العاطفية الصادقة في الحياة ، ومثل هذا الكتمان المفروض على حياتنا الأدبية يؤثر تأثيرا كبيرا على المجتمع نفسه ، فالأدب في النهاية هو في جانب هام من جوانبه إنما يعكس مشاكل الإنسان والحياة حتى تصبح مواجهة هذه المشاكل ممكنة ، فإذا ما أصبح الأدب أدب كتمان وإخفاء لا أدب كشف وإفضاء ، فإن ذلك يعنى أن تتأخر مواجهة المشاكل الحقيقية التي يعانيها البشر .

أين هذا الكتمان الذى يغلف أدبنا المعاصر مما نجده في اعترافات « جان جاك روسو » واعترافات « أندريه جيد » ؟ وأين هذا الضباب الذى يحيط بأدبنا من كتاب أوسكار وايلد « من الأعماق » . . ذلك الكتاب الذى يكشف فيه الفنان الكبير حقيقة نفسه وخطاياها ، ويحاول من خلال هذا الكشف أن يعالج أمراضه الخاصة ويتخلص منها ويتغلب عليها ؟ . . إن هذه النماذج من الاعترافات الشهيرة في الأدب الغربى استطاعت أن تهز المجتمعات الأوروبية وتحركها للتخلص من أسباب الانحراف الذى يتعرض له الفرد والمجتمع ، وقد دفعت هذه الاعترافات علماء النفس وعلماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء القانون إلى البحث الدقيق في قضايا الإنسان ومشاكله ، ودفعتهم إلى التفكير في تنظيم المجتمع وقوانينه وأساليب التربية فيه بحيث يتوصل المجتمع إلى أفضل وسائل التماسك الإنسانى في السلوك والعلاقات البشرية المختلفة .

ولكن أدبنا ما زال يعيش في هذا الضباب الكثيف الذى يخفى المشاكل الحقيقية للإنسان خوفا من أن يعرف الناس ما قد يؤدى إلى

عدم احترام الكاتب أو الفنان إذا ما ظهرت في حياته بعض الأخطاء والعيوب ، أو إذا ظهرت في شخصه بعض جوانب المرض أو الضعف حتى لو كان غير مسئول عن هذه الجوانب .

وأذكر أنني قرأت دراسة عن أدب نجيب محفوظ لكاتب إسرائيلي هو «ميتتياهو بليد» ، وقد تقدم بهذه الدراسة إلى إحدى جامعات أمريكا لينال بها درجة الدكتوراه ، ولست أشك في أن هذه الدراسة الإسرائيلية - مثلها مثل غيرها من الدراسات الإسرائيلية - هي جزء مما تحتاج إليه أقسام المعلومات والأبحاث في المخابرات الإسرائيلية التي تعمل في خدمة أهداف إسرائيل البعيدة وأهمها فهم مصر والوطن العربي من الداخل ، وفي هذه الدراسة الإسرائيلية عن نجيب محفوظ سجل المؤلف في مقدمة دراسته ملاحظة صحيحة أنقلها هنا حيث يقول هذا الباحث الإسرائيلي : « إذا أردنا أن نبحث عن المعلومات التي تتصل بالحياة الخاصة لنجيب محفوظ فإننا لن نجد أماناً شيئاً ذا بال في هذا الميدان ، وعدم الاهتمام بالحياة الخاصة ظاهرة مميزة للحضارة العربية الإسلامية ، فقد استمرت هذه الحضارة عدة قرون متصلة تنظر إلى الشخصيات العامة ، وخاصة تلك الشخصيات التي تحظى بالحب والإعجاب ، نظرة تنزيه وتقديس ، وتميل هذه النظرة في المجتمع الإسلامي إلى تجريد الشخصيات العامة المحبوبة في المجتمع وتحويلهم إلى نماذج ومثل عليا وكأنهم في نظر مجتمعهم أدلة وبراهين تثبت نعمة الله على المجتمع والإنسان ، وهذه النظرة المثالية « شبه الدينية » تفرض الابتعاد عن الخوض في الحياة الخاصة للشخصيات العامة ، ومن هنا كان من الصعب أن تظهر دراسات تفصيلية عن التطور النفسي والثقافي لنجيب محفوظ ، استناداً إلى المعلومات الدقيقة عن حياته الخاصة ، ومن هنا أيضاً أصبح من

الصعب أن نتعرف بوضوح على التأثير الذي تركته تجربة الكاتب الخاصة في الحياة على المواقف والشخصيات المختلفة في رواياته . كل ما يستطيع الباحث أن يحصل عليه في هذا الميدان هو المعلومات المجردة العامة عن حياة الكاتب ، وهي نفسها المعلومات المحدودة التي تكرر ذكرها وسردها في مناسبات لا حصر لها .

وملاحظة الكاتب الإسرائيلي عن الثقافة العربية والأدب العربي صحيحة مع الأسف .

وفي رأيي أنه من الضروري أن تنتقل من عصر الكتمان هذا إلى عصر الكشف والمصارحة ، وعلينا أن نبدأ ذلك مهما صدمتنا الحقائق في أول الأمر ؛ لأننا بعد الصدمة سوف نستيقظ ونتنبه ونبحث عن العلاج الصحيح لمشاكلنا المطروحة أمامنا بوضوح .

وقد واجهتني أكثر من مشكلة وأنا أعد هذا الكتاب ، وهي كلها مشاكل تتصل بهذه القضية : هل أكون صريحا في الحديث عما أراه صحيحا أو ألزم الكتمان والإخفاء ؟ . . لقد ترددت كثيرا في الاختيار ، إلا أنني في النهاية قررت أن تكون الحقيقة هي الأساس الوحيد لكل ما يتصل بهذه الرسائل من تعليقات وشروح .

فالرسائل نفسها تكشف عن قصة حب بين المداوى وفدوى طوقان ، ولو أثرنا منهج الكتمان والإخفاء لكان من الأفضل ألا ننشر هذه الرسائل حرصا على ذكرى أنور المداوى من ناحية ، وحرصا على وضع فدوى طوقان الاجتماعي من ناحية أخرى ، ولكنني رأيت أن نشر هذه الرسائل بصورتها الأصلية ضرورة أدبية وإنسانية ، فماذا في أن نكتشف هذا الحب الذي كان قائما بين المداوى وفدوى

طوقان ؟ ، خاصة إذا ما تأكدنا أن هذا الحب لن يكن حبا شائنا أو علاقة
أثمة ، بل على العكس كان حبا طاهرا عفيفا مشاليا ، وكان في نهاية
الأمر حبا غير واقعي ، حتى أن الحبيين - فيما أعلم - لم يلتقيا على
الإطلاق وإنما اكتفيا بتبادل الرسائل وكتابة الأشعار حول هذا الحب .

وقد انتهى هذا الحب بالفشل ، كما انتهت كل علاقات المعداوى
العاطفية ، فلماذا كان الفشل دائما حليف المعداوى في تجاربه
العاطفية ؟ لماذا كان يفشل دائما في حبه حتى في تلك الأيام التي كان
فيها لامعا ومعروفا ومسموع الكلمة في الحياة الأدبية ، مع أنه
كان رجلا وسيما أنيقا مديد القامة مثقفا جذاب الشخصية بصورة
واضحة ؟ ! لقد بدا لي وأنا أفكر في هذا الموضوع أن هناك سببا أساسيا
وراء هذا الفشل الذي كان يلاحق المعداوى في حياته العاطفية ،
ووجدت أدلة تؤيدني في رأيي ، فهل أحجب هذا الرأي وأخفيه ، أو
أعلنه في وضوح وصراحة حتى لو كان فيه ما قد يغضب أو
يصدم ؟ . . . لقد اخترت أن أقول رأيي بصراحة دون أن أدعى أن
هذا الرأي هو الصواب ، فقد يأتي من يستطيع أن يثبت عكس ما أقول
به ، ولكنني حسب اجتهادي أرى أن الأدلة والبراهين التي تشير إلى صحة
ما أراه هي أدلة وبراهين قوية .

وهنا يواجهني سؤال آخر : إنني فيما توصلت إليه من رأى قد
اعتمدت على عدة مصادر من بينها ماعرفته من معلومات خاصة خلال
صداقتي الطويلة مع أنور المعداوى ، فهل يكون في ذلك إساءة
استغلال للصداقة ، وقلة حرص على كتمان ما ينبغي كتمانها محافظة
على ذكرى الرجل الذي كان لي بمثابة الأستاذ والأخ الأكبر
والصديق ؟ . . مرة أخرى أحس أنه لا تناقض بين حرصى على
المعداوى ومحبتى له وعرفانى بجميله الأدبي والشخصي وبين عرض

الحقائق كما توصلت إليها ، وخاصة أن المعداوى إنما هو فى النهاية شخصية عامة تملكها الحياة الثقافية والأدبية أكثر مما يملكها الأهل والأصدقاء .

ولكن ما هو الهدف من عرض هذه الحقائق ؟ . . الهدف فى رأى هو أن نعرف أمراضنا بصراحة ، وأن نعالجها بجرأة وشجاعة ، وأن نتخلص من ذلك الداء الكامن فىنا وهو إخفاء رؤوسنا فى الرمال ، والذعر من كل ما هو حقيقى ، محافظة منا على الشكل الخارجى والصورة الوهمية والوردية . . إننا لو تعودنا الصراحة والصدق فى حياتنا الأدبية والاجتماعية فإننا سوف نتخلص من مشاكل كثيرة معقدة تواجهنا ولا نلقى لها علاجاً ولا حلاً ، فحياة المعداوى هى مأساة كبيرة كان يمكنه فى تصورى أن يعالجها ويتخلص منها أو من جانب كبير فيها لو أنه كان يعيش فى مجتمع آخر ، ولكن هذه المأساة - بسبب الإخفاء والكتمان وعدم الصراحة - أودت بحياته كلها وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ، كما أنها جعلته يتعرض لألوان شتى من العذاب خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته ، وانتهى به الأمر إلى هذا الموت المفجع المفاجئ .

لست أهدف إلا إلى أن نعرف هذه القصة لكى نتجنب تكرار هذه المأساة ، سواء فى حياة أديب موهوب مثل أنور المعداوى ، أو فى حياة إنسان عادى ومواطن بسيط يمكن أن يتعرض لما تعرض له المعداوى من آلام دون أن يستطيع التعبير عن ذلك لأنه لا يملك موهبة المعداوى فى التعبير ولا قدرته على تصوير بعض همومه وأحزانه ومشاكله .

لا بد أن نلتزم بمنهج الصراحة والصدق والمكاشفة ، ولا بد أن نمزق الأقنعة التى تخفى الحقائق وتشوه الوجوه .

مرة أخرى . . هل ترائى أخطأت في نشر رسائل المعداوى إلى فدوى طوقان ؟ هل أخطأت في أن جعلت الصراحة منهجى وسمحت لنفسى بأن أبوح بما كان ينبغى أن يظل مكتوما في الصدور ؟ هل أخطأت في اجتهداى وما توصلت إليه من تفسير لجانب من جوانب المأساة في حياة المعداوى ؟ هل أسأت إلى صديق عمرى وأستاذى وصاحب الفضل علىّ بأن نشرت على الناس صورته العارية كما رأيتهما وفهمتهما وهيا لى الظن أنها صحيحة ؟

تلك كلها أسئلة لا أستطيع أن أجيب عنها ، فالإجابة متروكة للتاريخ والرأى العام الأدبى ، ولكننى أحب أن أنسب لنفسى شيئا واحدا لست أشك فيه ، هذا الشيء هو أننى حرصت على أن أكون صادقا ، وقد يكون فى هذا الصدق ما يصدم حياتنا الأدبية وحياتنا الاجتماعية . ولكن ما هو الضرر فى مثل هذه الصدمة ؟ ألا يمكن أن تساعد الصدمة مجتمعا على أن يستيقظ من نومه ، ويتخلى عن قسوته وعدم مبالاته فى بعض القضايا التى يقف منها موقف الجلاد ؟ . . ألا يمكن أن تساعد هذه الصدمة مجتمعا حتى لا يسقط فيه بعد اليوم أديب أو فنان موهوب لأنه حرص على كرامته ورأيه الحر ، ولا يموت فيه مريض لأنه لا يجد بيئة صالحة تكشف عن مرضه مهما كان هذا المرض عنيفا وقاسيا ، ولا يضيع فيه عاشق صادق لأن مجتمعا لا يحب العشاق الصادقين إلا إذا قيدوا أنفسهم بألف قيد وقيد ، ولا تخفت ذكرى إنسان موهوب حساس مثل أنور المعداوى بعد صراع طويل مع المرض والألم لأن مجتمعا لا يذكر إلا الضاحيين أصحاب الأصوات العالية المرتفعة ، والذين حرصوا على الدوام أن يكون لهم جاه وأتباع وجماعات تحمى ذكراهم وتستغلها على مر الايام ؟

ذلك هو ما حاولت إثارته في هذا الكتاب ، فإن كنت قد أصبت
شيئا من النجاح فإنى أهدي هذا النجاح إلى ذكرى أنور المعداوى
الذى عاش وأبدع وتعذب ومات . وأهديه للذين يرون أن الحقيقة
مهما كانت قاسية هى طريقنا إلى التقدم والنور فى العلم والأدب
والحياة والمجتمع ، وأننا لن نستطيع أن نبني حضارتنا على غير
الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شئ غير الحقيقة .

أما إذا كنت قد أخطأت فيما قصدت إليه ، فلكل مجتهد نصيب ،
ونصيبى الذى أطمع فيه هنا هو أن يعذرنى القارئ ويغفر لى .

رجاء النقاش

القاهرة - ديسمبر ١٩٧٥

أنور المعداوى ورسائله

ماذا تعنى هذه الرسائل التى كتبها أنور المعداوى إلى فدوى طوقان وما هى قيمتها ؟ . مع السطور الأولى من هذه الرسائل نشعر أن المعداوى قد كتبها بأسلوب رائع جميل يتدفق حيوية وعذوبة ، وقد كان المعداوى فى كل كتاباته من أصحاب الأساليب المتميزة ، وكان على الدوام حريصا على جمال اللفظ والعبارة ، وكان حريصا فى نفس الوقت على تحقيق نوع من الإيقاع الموسيقى فى كتابته مما أعطى لأدبه لمسة من لمسات الشاعرية الجميلة النادرة .

وقد ساعد المعداوى على تحقيق ذلك كله موهبة أدبية لاشك فى خصوصيتها وأصالتها ، وهذه الموهبة هى التى جعلت من رسائله إلى فدوى طوقان صفحة من الأدب الحى الجدير بأن يقرأه الناس ويهتموا به .

على أن الجمال الأدبى فى هذه الرسائل ليس هو وحده الذى يعطيها القيمة والأهمية ، فقد ضمت الرسائل مجموعة من الآراء النقدية

الذكىة الجرئئة ، وهى فى جملةآ آراء تشرح وتكمل الآراء النقدية التى نادى بها أنور المعداوى فى كتاباته المختلفة ، فالرسائل من هذه الناحية تمتاز بقيمة موضوعية إلى جانب قيمتها الجمالية ، وقد كان المعداوى يكتب هذه الآراء دون أن يفكر فى أنها ستنتشر على الناس فى يوم من الأيام ، وكان يكتبها لإنسانة يعتز بها ويحبها كل الحب ، ولذلك فقد كان يتحدث فيها بانطلاق وصراحة لا تعرف التحفظ ، وهذه الصراحة تزيد فى قيمة الرسائل ، فالصراحة هى قيمة هامة نفتقدها فى كثير من نقادنا المعاصرين ، على أن المعداوى لم يكن يوما من هؤلاء النقاد الذين يسترون آراءهم الموضوعية بستار من المجاملة أو محاولة إرضاء الناس ، بل كان على الدوام - فى نقده - صريحا وجريشا وصاحب رأى حر ، مما جر عليه المتاعب وأثار فى حياته كثيرا من العواصف والخصومات ، فالصراحة إذن ليست جديدة عليه ، ولكنها هنا وفى هذه الرسائل تصبح نوعا من المكاشفة وحديث القلب المفتوح والأعصاب الهادئة غير المتوترة ، لأن المعداوى كان يشعر أنه يتحدث الى انسانة تتعاطف معه وتصفى إليه بكل ما تملك من فكر وعاطفة .

وهكذا أضافت هذه الصراحة مزيدا من القيمة والعمق إلى رسائل المعداوى ، ولا يمنعنا ذلك من أن نختلف مع بعض ما جاء فى هذه الرسائل من آراء ونرفضها أو نعترض عليها . . المهم أنها آراء جادة تستحق المناقشة بالتأييد أو المعارضة .

وفى الرسائل قيمة أخرى تضاف إلى أسلوبها الجميل وما فيها من آراء نقدية جريئة وصريحة ، هذه القيمة هى ما تحمله الرسائل من روح السخرية الراقية والفكاهة الحلوة ، خاصة فى القسم الأول من هذه

الرسائل ، قبل أن يتعرض المعداوى للمرض وللازمات النفسية المختلفة التى أفقدته روح المرح والتفاؤل .

على أن أهمية الرسائل لا تقف عند هذه الحدود ، فهناك إلى جانب جمالها الأدبى وعمقها الموضوعى وما فيها من سخرية ذكية قيمة أخرى أكثر من ذلك كله أهمية ، فهذه الرسائل تحمل إلينا الخطوط الرئيسية لقصة أنور المعداوى الكاملة مع الأدب والحياة ، فقد بدأ هذه الرسائل سنة ١٩٥١ حيث كان فى قمة مجده وتألقه الأدبى من خلال باباه الأسبوعى الذى كان يكتبه فى مجلة « الرسالة » تحت عنوان « تعقيبات » ، وفى هذه الفترة كان يشعر بالنشوة والتفاؤل والإقبال على الحياة ، وقد أنهى المعداوى هذه الرسائل سنة ١٩٥٤ ، حين كانت محنته فى الأدب والحياة معا قد بدأت ، وحيث أخذت الدنيا تحاصره بالمتاعب والآلام ، وحيث بدأ المرض العضوى والمرضى النفسى يتحالفان عليه ، وقد سجلت رسائل المعداوى هذه القصة بفصولها المختلفة ، وأصبحت هذه الرسائل وكأنها نوع من المذكرات أو الاعترافات الصادقة الصريحة التى كتبها المعداوى عن نفسه وصراعه مع المجتمع والحياة الأدبية . لقد استطاع المعداوى فى هذه الرسائل أن يكتب دون قصد أو تعمدا قصة حياته فى صعودها ثم فيما تعرضت له من محنة حادة قضت عليه فى آخر الأمر .

وتكشف لنا هذه الرسائل من ناحية أخرى قصة حب المعداوى لفدوى طوقان ، وهى قصة يجب أن تظهر فى النور ؛ لأن المعداوى كتب فيها أدبا جميلا هو ما سجلته سطور رسائله ، ولأن فدوى طوقان قد كتبت فى هذه القصة مجموعة من أروع قصائدها ، بل هى مجموعة من أروع قصائد الحب فى أدبنا الحديث كله ، وقد كان حب فدوى والمعداوى يقوم على الرسائل المتبادلة بينهما فقط ، فهما لم يلتقيا ، ولم

ير أحدهما الآخر وجها لوجه فيما أعلم ، ومع ذلك فقد كان لهذا الحب في حياة المداوى وفدوى وفي أدبها شأن كبير ، ورسائل المداوى ، من هذه الناحية ، بالإضافة إلى قيمتها الذاتية ، فإنها تمثل مفتاحا من مفاتيح المعرفة والفهم الصحيح لشعر فدوى طوقان ، مما يتيح لنا فرصة ممتازة لقراءة قصائد فدوى على ضوء جديد ساطع ، ولقد قمت بهذه التجربة وحرصت على أن أشير إلى قصائد فدوى في تعليقاتي على رسائل المداوى ، بل حرصت في معظم الأحيان على أن أسجل هذه القصائد بنصها في تعليقاتي على الرسائل ، ولقد أحسست أن قصائد فدوى تزداد قيمة وجمالا وأهمية وتأثيرا في النفس عندما ترتبط برسائل أنور المداوى . إننا هنا لا نحس بأن هذه القصائد تتحدث عن حب مجرد ، بل نحس بها وهي مرتبطة بموقف محدد وإنسان معين ، وهكذا يفتح أمامنا في هذه القصائد عالم من المشاعر والأحاسيس لم يكن يخطر لنا على بال عندما كنا نقرأها دون أن نعرف ما وراءها من دوافع وأحداث .

ومن هنا تلعب رسائل المداوى دورا كبيرا في إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان ، وتساعدنا على فهم جانب هام من جوانب هذا الشعر الذي يحتل ولا شك مكانة كبيرة في أدبنا المعاصر .

على أن رسائل المداوى لا تقف عند هذا الحد من إلقاء الضوء على شعر فدوى طوقان الذي كتبته من وحي عاطفتها نحو المداوى ، بل إن هذه الرسائل تلقي ضوءا على حياة فدوى العاطفية حتى قبل لقاءها الروحي مع المداوى ، وقد استفدت فائدة كبرى من علاقتي الشخصية الوثيقة بالمداوى في معرفة الإشارات والتلميحات التي جاءت في رسائله حول حياة فدوى العاطفية ، وحرصت على تسجيل

ما أعرفه وربطه بقصائد فدوى المختلفة ، ولم أحاول إخفاء شيء إلا في لحظات قليلة ولأسباب سوف أشير إليها في حينها .

وهكذا فإن رسائل المعداوى تتيح فرصة لدراسة شعر فدوى طوقان وحياتها ، وهى فرصة لم يكن بالإمكان أن تتاح لأى باحث أو ناقد أدبى بدون هذه الرسائل ، فهذه الرسائل تضع أمامنا صورة واضحة لتجربة فدوى العاطفية ، وهى تجربة هامة وجديرة بالدراسة ، إذ أنها تمثل صراعا فى مجتمعنا ما زال قائما فى حياة المرأة العربية وقلبها . انها تجربة الحب المثالى الذى لا يقترب أبدا من الواقع وإنما يتحطم على أبوابه ويستهي ، ولا ينال من الدنيا إلا ما يناله الحلم والوهم والطيف والخيال ، ذلك لأن العقبات الاجتماعية والتقاليد الحادة الموروثة تحول بين هذا الحب وبين النجاح ، وتحول بينه وبين الخروج من دنيا الخيال إلى عالم الواقع ، وقد انتهى الأمر بفدوى إلى أن تقول كما يشير المعداوى فى إحدى رسائله - : « إن أملى من وراء الحب هو الحب ذاته » ، أى أنها انتهت إلى أن تستكشف من الحب بخيالها ومشاعرها العاطفية دون أن تفكر أو تعمل على أن يتحول هذا الحب إلى مشاركة واقعية فى الحياة . وفى اعتقادى أن فدوى طوقان قد ضحكت بنفسها وبسعادتها الشخصية فى سبيل التعبير عن الحقوق الإنسانية للمرأة العربية ، إلا أن حياتها الشخصية من جانب آخر قد عجزت عن كسر هذه القيود التى استطاعت أن تكسرها فى الشعر .

وهذه الحرية العاطفية المثالية التى لا تقابلها قدرة عملية على تحويل هذه العاطفة إلى واقع منتج خلاق ، هى الازدواجية التى عاشت فيها فدوى ، وانكشفت لنا بوضوح كامل خلال رسائل المعداوى إليها ، فهى تحب بخيالها ، وتحب فى رسائلها وقصائدها ، ولكنها لا تخطو

خطوة واحدة أبعد من ذلك ، ولا تسمح لنفسها ولا تسمح لها
قيودها الكثيرة أن تخطو مثل هذه الخطوة ، فهي لا تفكر في أى لقاء مع
حبيبها ، ولا تسعى إلى ذلك ، بل ربما سعت واجتهدت حتى لا يتم
مثل هذا اللقاء ، وفي هذه الدائرة القاسية يولد ما يمكن أن نسميه
« أحلام اليقظة العاطفية » ، لقد أحبت فدوى طوقان ، وقدمت لنا
أجمل الشعر عن هذا الحب ، ولكن هذا الشعر الجميل إنما يعبر عن
حياة عاطفية ناقصة وشقية وأسيرة للتعاسة . تقول فدوى بحق في
قصيدتها « هو وهى » :

كم فتاة رأت بشعري انتفاضات
رؤاها الحبيسة المكتومة
كان شعري مرآة كل فتاة
وأد الظلم روحها المحرومة

وهذا الذى تقوله فدوى هو الصدق والحقيقة ، ولكن فدوى لم
تستطع أن تتجاوز حدود التعبير عن المشاعر المحرومة إلى الثورة
الواقعية على الظروف التى خلقت هذه المشاعر . ظلت فدوى - فى
حياتها العملية - أسيرة لهذه الظروف ، بل لقد قدمت حياتها قربانا
للقيد القاسية والتقاليد الظالمة ، وهذا ما تكشف لنا رسائل المعداوى
إليها عن جانب منه حيث تؤكد لنا هذه الرسائل أنه كان بينها حب ،
ولكنه حب من بعيد ، حب يعتمد على الخيال والوهم ، ولا يفكر
لحظة فى أن يقترب من الواقع ، على أن المعداوى كان من جانبه هو
الأخر حريصا على أن يبقى حبه لفدوى فى هذه الحدود الخيالية البعيدة
عن الواقع ، بل إنه قد حاول يوما أن يقطع علاقته بها عندما تأكد له
أن فى قلبها وقلبه عاطفة أكثر من الصداقة هى عاطفة الحب ، ولم يعد
إلى فدوى إلا عندما تأكد له أن فلسفتها تقوم على : « ان أملها من

وراء الحب هو الحب ذاته ، وموقف المعداوى له تفسير سنحاول أن نقدمه بعد قليل ، أما موقف فدوى فسيبه هو عدم قدرتها على مواجهة التقاليد والقيود العائلية الموروثة ، وهذه القيود والتقاليد لها أكثر من وجه ، ومن هذه الوجوه ، أنها تفضل زواج المرأة من نفس عائلتها أو نفس بلدها على أن يتم الزواج بين مستويين متشابهين في الحياة الاجتماعية ، ومن هذه القيود أيضا أن التعبير « العلى » الواسع عن الحب فضيحة غير مقبولة ، مما يذكرنا بقصة « ليلي وقيس » ، فقد رفض أهل ليلي أن تتزوج بقيس لأنه ملأ الصحراء بقصة حبه لها عن طريق شعره مما عرضها للفضيحة ، وأصبح من المستحيل أن تسمح عائلة ليلي لها بالزواج ممن أقام الدنيا وأقعد لها حول هذه الفضيحة العاطفية .

وقد سجلت فدوى هذه القضية - قضية التقاليد الخائفة للحرية العاطفية - تسجيلا جميلا في قصيدتها « هو وهى » عندما كان بطل هذه القصيدة « عباس » يسألها عن حياتها فتقول له :

حياتى يا عباس حلم
مروع الأشباح
حلم أطبقت على به جدران سجن
داج رهيب النواحي
عشت فيه غنوة الروح ظمأى
لندى الفجر ، للشذى ، للنور
الهواء الثقيل يكتم أنفاسى وقيدى
يغل دفق شعورى
كلما ضقت بالظلام وبالكبت

تلقت مثل طير مكبل
علّ فجر الخلاص يلمح ، لا شيء سوى
الليل
ليل سجنى المقل
واذا انشق باب سجنى أطلت
منه عينا وحش رهيب كبير
هو جلادى اللثيم
رييب الحقد
والعنف والأذى والشرور
مستبد بالحكم ، يسكره الشر
وتعذيب كل روح ضعيفة
كان لى من شدوذه كل يوم
محنة سلطت على نحيفة
ولقد كنت أنزوى والأسى يطحن
نفسى الطموحة المخدولة
ووراء الجدران تصخب دنيا الانطلاقات
والحياة الجميله
الحياة التى بلىء اندفاعات خطاها
تسير نشوى غنيه
لاتبالى بنا ، تسير ولا تثنى خطاها
مأساتنا الفرديه . .
وتعلمت كيف تختلط الثورة والبغض
فى دم المظلوم
وبأعماقى التربص يخفيه هدوئى

في صمته المسموم
أرقب اللحظة التي كم تطلعت إليها
في شوقي المكبوح
لحظة العتق والفرار إلى آفاق حريقي
ودنيا طموحي

ثم تتحدث فدوى في هذه القصيدة نفسها عن « الحب » وعن
وظيفة هذا الحب بالنسبة لها في ظل الظروف التي عبرت عن قسوتها في
الجزء السابق من القصيدة وهي ظروف القهر الاجتماعي والنفسي
الذي تعيش فيه . وهنا نحس أن معنى الحب هو ذلك الحب الخيالي
المثالي الذي يعتمد على أحلام اليقظة والذي لا علاقة له بالواقع ،
وهنا أيضا ندرك الأسباب التي ربطت فدوى بهذا المعنى المحدود
للحب ، فهي في النهاية لا تستطيع أن تملك من الحب إلا هذا المعنى
الذي يتصل بشعورها وعواطفها وأحلامها ، وإن كانت القيود
المسيطرة على واقع حياتها لا تستطيع أن تسيطر في نفس الوقت على
مشاعرها وأحاسيسها .

تقول فدوى :

كان لي الحب مهربا أحتفى فيه
إليه أفر من مأساتي
كان دنيا في أفقها الرحب أسترجع حريقي
أحقق ذاتي
يا لقلبي الموتور كم رنحته
نشوة الانتقام من جلادي
وأنا في مشاعر الحب غرقى

وهو خلف الأبواب بالمرصاد
أبوسع السجون خنق الأحاسيس
وقتل الحياة في الأعماق ؟
من يصد الشلال عن سيره الكاسح
عن اندفاعه الدفاق ؟

هذا هو الحب كما تفهمه فدوى ، وهو حب مقيد يستحق أن يثور عليه مجتمعنا ويتحرر منه ، لأنه حب ناقص وهمي ، ليس له وجه واقعي ، مما يؤدي إلى الاضطراب والتعاسة في حياة الإنسان والمجتمع ، ولو كانت فدوى والمعداوى قادرين على أن يخرجوا بحبيهما إلى عالم الواقع فربما كان من الممكن ألا تقع المأساة في حياة المعداوى ، وربما لم يصبح الحزن هو النبع الرئيسي في شعر فدوى حتى الآن ، وقد كان بالإمكان أن يحل « الفرح » محل « الحزن » في شعر فدوى ويملاأ قصائدها بالنشوة والإقبال على الحياة .

على أن الخروج بهذا الحب المثالي إلى عالم الواقع لم يكن في قدرة فدوى بسبب ظروفها الاجتماعية ، ولم يكن في قدرة المعداوى بسبب الظروف التي سأحاول شرحها بعد قليل ، ولكن تجربة فدوى والمعداوى تعطينا نموذجا للتجربة العاطفية التي تمهد عادة للمأساة في حياة الإنسان ، لأنها تجربة عاطفية ناقصة لا تؤدي دورها السليم الكامل في حياة أصحاب هذه التجربة .

قد يخطر على البال أن نتساءل هنا : وأين رسائل فدوى إلى المعداوى ؟ لقد كان وجود مثل هذه الرسائل ولا شك فرصة لكشف المزيد من الحقائق حول هذه التجربة العاطفية ، ولكن من الواضح أن فدوى تعاني من شعور معين هو الجزع والخوف من أن يعرف أحد أسرار

قلبا عن طريق آخر غير طريق الشعر ، إنها تستطيع وترغب في أن تكتب شعرا عن الحب وعن مشاعرها العاطفية . . نعم ، أما أن يعرف الناس شيئا محددا عن هذه التجارب العاطفية فهو ما تحشاه وتهرب منه ، ولذلك فهي تحرص دائما على التخلص من رسائلها العاطفية باستردادها من أصحابها أو بأن تطلب اليهم إتلافها ، أو تتخلص من هذه الرسائل بأى وسيلة أخرى ، وقد حاولت أن أعرف مصير رسائلها إلى المداوى ، وكان المداوى قد وضع كل الرسائل التي كانت تصل إليه في صندوق كبير ، ومات المداوى فجأة ، فبقى هذا الصندوق على ما هو عليه حتى قام أحد أصدقائه وهو الأديب الأستاذ على شلش بالبحث في هذه الرسائل تمهيدا للنشر ما يستحق النشر منها ، ولم يجد في هذا الصندوق أى شىء من رسائل فدوى طوقان ، وقد سألت الفنان الشاب الأستاذ شاكر المداوى ابن شقيق أنور المداوى وهو الذى يحتفظ بأوراق عمه عن رسائل فدوى ، فقال لى إنه لم يعثر على أى رسالة لفدوى طوقان بين أوراق المداوى ، ولم يتح لى أن التقى بفدوى - بعد لقائنا الوحيد فى بيروت سنة ١٩٦٧ - لأسأله عن مصير هذه الرسائل . وفى اعتقاده أن فدوى قد استردت رسائلها فى حياة المداوى ، أو طلبت إتلافها وقام المداوى بإتلافها بناء على طلبها ، أو أن المداوى نفسه كان يحس بدنو أجله فقام وحده وبدافع ذاتى خاص بإتلاف هذه الرسائل^(١) ، وقد أشار فى إحدى رسائله المنشورة فى هذا الكتاب إلى أنه أوشك أن يفعل ذلك عندما تعرض لأزمة من أزمات مرضه ، المهم أن هذه الرسائل غير موجودة عند المداوى ، ولا يعرف سرها

(١) قالت فدوى فى رسالتها إلى عيسى الناعورى والمنشورة فى مقدمة الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، إن المداوى قد وعداها ألا تقع هذه الرسائل فى يد أحد ، وقد بر بوعده ، والأغلب أنه قام بتمزيق هذه الرسائل أو إحراقها قبل وفاته .

ومصيرها الآن سوى فدوى نفسها ، ولو أن هذه الرسائل كانت موجودة بين أيدينا لكان لها فائدة كبرى في إلقاء المزيد من الضوء على نوع هذه « التجربة العاطفية » التي عاشتها فدوى والتي كانت محاصرة بالخيالات والأوهام والأحلام والتقاليد والقيود .

نعود بعد ذلك إلى رسائل المعداوى لنقول إن هذه الرسائل لها أهمية أخرى تضاف إلى ما سبق كله ، ففي هذه الرسائل إشارات عديدة إلى صفحات مجهولة في حياتنا الأدبية المعاصرة ، وقد أتاحت لي فرصة اتصالى بالمعداوى أن أعرف الكثير من الحقائق حول هذه الصفحات المجهولة وحول مصادر المعلومات المختلفة عن هذه الصفحات ، ومن هنا حرصت على أن أقدم كل هذه الحقائق في تعليقاتى على رسائل المعداوى ، كما فعلت على سبيل المثال في قصة الشاعرة المصرية « ن . ط . ع » وفي قصة الأدبية السورية هجران شوقى ، وفي غير ذلك من الصفحات المجهولة الأخرى .

وهكذا فإن رسائل المعداوى إلى فدوى طوقان تمتد بجذورها الرقيقة الناعمة أحيانا ، المتأللة الحزينة أحيانا أخرى ، إلى أكثر من مجال في حياتنا الأدبية ، فهي تقدم إلينا قصة المعداوى وقصة صراعه العنيف في حياته الأدبية وحياته الاجتماعية والنفسية ، وهى تلقى أضواء جديدة على حياة فدوى طوقان وأدبها ، وعلى النموذج العاطفى الذى تمثله وتعبر عنه في حياتنا العربية ، كما أنها تكشف لنا عديدا من الصفحات المجهولة في حياتنا الأدبية المعاصرة ، كل ذلك بالإضافة إلى أن هذه الرسائل هى نفسها صفحة جميلة مجهولة في حياتنا الأدبية ، وهى صفحة جديدة بأن نقرأها وأن نستمتع بما فيها من فكر وفن وأن نتأمل وناقش كل ما تكشفه من حقائق ومعلومات .

أنور المعداوى وأدبه

تضعنا رسائل أنور المعداوى إلى فدوى طوقان أمام أسئلة متعددة ، وأول هذه الأسئلة وأهمها جميعا هو : أنور المعداوى نفسه ، فالمعداوى ليس معروفا بالنسبة للأجيال الأدبية الجديدة . . بل لأننى لست أشك فى أن معظم الذين يعرفونه من جيل الأربعينات والخمسينات - حين كان كاتباً لامعاً - لم يعودوا يذكرونه ولم يعودوا يهتمون به ؛ ولذلك لا بد من وقفة أمام حياته وأدبه ، وهذه الوقفة هى التى يمكن أن تحدد لنا قيمته الأدبية وتفسر أماننا كثيراً مما جاء فى رسائله إلى فدوى طوقان من آراء وأفكار .

من هو أنور المعداوى ؟ . . لقد ولد المعداوى فى ٣ مايو سنة ١٩٢٠ فى قرية صغيرة اسمها « معدية مهدى » بمنطقة « كفر الشيخ » فى دلتا مصر ، وكان الابن الوحيد الشقيق بين ثلاث بنات شقيقات له ، وتعلم فى المدارس الابتدائية والثانوية ثم دخل كلية الآداب بجامعة القاهرة وتخرج من قسم اللغة العربية بها سنة ١٩٤٦ وعمل بعد تخرجه فى إدارة الثقافة بوزارة المعارف ، ثم انتقل منها ليعمل

مدرسا بمدرسة خليل أغا الثانوية ، وفصلته وزارة المعارف لانقطاعه عن العمل فترات طويلة ، وبقي فترة بلا عمل ، ثم عمل بعد ذلك في وزارة الثقافة بعد إنشائها ، ثم ترك العمل فترة بسبب مرضه ، فقطعت عنه وزارة الثقافة راتبه ، ولكنه عاد في أواخر حياته إلى وزارة الثقافة مرة أخرى ، ومات في ٧ ديسمبر سنة ١٩٦٥ ، وكان في يوم وفاته ذاهبا إلى عمله في الصباح فأحس بشيء من التعب وعاد إلى بيته ليستريح قليلا ولكنه مات بعد عودته ، وكان يعيش مع أمه التي جاءت بعد مرضه من القرية لتكون بالقرب منه في بيته بحى الدقى في القاهرة ، وقد مات المعداوى في الخامسة والأربعين من العمر دون أن يتزوج .

أصدر المعداوى في حياته كتابين اثنين ، أولهما « نماذج فنية من الأدب والنقد » وكان صدره سنة ١٩٥١ ، أما الكتاب الثانى فقد أصدرته وزارة الثقافة العراقية بمساعدة الأديب الناقد الأستاذ محمى الدين إسماعيل ، وهو كتاب « على محمود طه الشاعر والإنسان » ، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٥ قبل وفاة المعداوى بشهور قليلة ، وكان المعداوى قد أتم هذا الكتاب في أوائل الخمسينات ونشر معظم فصوله مسلسلة في مجلة « الرسالة » القاهرية في سنة ١٩٥٠ ، ولكنه لم يستطع اصدار هذا الكتاب الا بعد اتمامه بأكثر من عشر سنوات .

أما الكتاب الثالث فهو كتاب « كلمات في الأدب » ، وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦٦ ، أى بعد وفاة المعداوى بشهور ، وقد أصدرته المكتبة العصرية في لبنان بمساعدة الأديب الناقد غالى شكرى ، على أن هذه الكتب الثلاثة لا تمثل كل إنتاج المعداوى ، فللمعداوى كثير

من المقالات والدراسات التي لو تم جمعها وتصنيفها لقدمت إلى المكتبة ما يقرب من ثلاثة كتب كبيرة أخرى ، وهذه الكتب هي التي أرجو أن أعكف على إعدادها وجمعها وتقديمها للقراء في أقرب وقت^(١) .

على أنني أعتبر أن الرسائل التي أقدمها في هذا الكتاب هي نفسها كتاب من تأليف المعداوى عن حياته بقلمه ؛ لأن هذه الرسائل تكشف الكثير من قصة حياته كما تقدم الكثير من آرائه ، وقد بذل فيها من الجهد ما كان يبذله في كتابة مقالاته ودراساته ، بل وأعتقد أن الجهد الذي بذله في هذه الرسائل يزيد على جهده فيما كان يكتبه من دراسات ومقالات ، ذلك لأنه وهو يكتب هذه الرسائل كان يخضع لحافز عميق من حوافز العاطفة التي كانت تدفعه وتحركه ، وهي عاطفة الحب لفدوى طوقان ، مما كان يثير لديه حماسا للكتابة والإفضاء بكل ما في قلبه وعقله من مشاعر وآراء .

كانت المرحلة الأولى من حياة المعداوى الأدبية هي مرحلة ظهوره وتآلق نجمه ، وقد امتدت هذه المرحلة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٢ ، وكان الأديب والناقد الكبير سيد قطب قد قدم أنور المعداوى إلى القراء في مجلة « العالم العربي » التي كانت تصدر في القاهرة ، وكتب المعداوى في هذه المجلة لفترة من الوقت ثم انتقل إلى مجلة « الرسالة » ابتداء من سنة ١٩٤٨ ، ويشير « سيد قطب » إلى تقديمه لأنور المعداوى في رسالة بعث بها إلى المعداوى سنة ١٩٥٠ عندما كان سيد قطب في أمريكا في بعثة دراسية ، حيث يقول سيد قطب في

(١) لم أتمكن حتى الآن « ١٩٨٩ » من أداء هذا الواجب ؛ لكثرة المشاغل التي حاصرتني في السنوات الماضية ، ولعل أحداً غيري من تلاميذ المعداوى وأصدقائه يتمكن من القيام بهذا الواجب وأداء هذه الأمانة .

هذه الرسالة : « .. كنت في حاجة نفسية إلى رسالتك لأفرح بك ولك ، ثم لأصدق ظني فيك ، فلقد كان الكثيرون يلومونني - في مواراة - إذ قدمتك للنقد الأدبي في مجلة العالم العربي ، وكنت أعرف ماذا أصنع وهم لا يعرفون ، وإنك لتزيدني فرحا وغبطة إذا أنت بعثت إلى بين الحين والحين بقصاصات من مقالاتك في الرسالة في شتى الموضوعات .. »

وقد نشر الأديب الأستاذ على شلش هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى في مجلة « الكاتب » القاهرية « العدد ١٧٣ أغسطس ١٩٧٥ » بعنوان « أنور المعداوى في رسائل معاصرة » .

وقد كانت صلة المعداوى بسيد قطب ذات أهمية أدبية خاصة سوف نشير إليها بعد قليل .

في الفترة ما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ لمع اسم المعداوى بسرعة كبيرة ، وأصبح خلال وقت قصير ويدون أى مبالغة أكبر ناقد أدبي في الوطن العربي كله في تلك الفترة التي تبلغ أربع سنوات متصلة .

كان يكتب حينذاك في مجلة « الرسالة » بابا أسبوعيا بعنوان « تعقيبات » ، وكان يترك هذا الباب أحيانا ليكتب مقالات أخرى في بعض الظروف الخاصة ، مثلما فعل بعد وفاة الشاعر على محمود طه ، حيث انطلق المعداوى ليكتب سلسلة من المقالات هي التي كانت أساسا لكتابه عن الشاعر على طه فيما بعد .

كان إنتاج المعداوى الأدبي في هذه الفترة غزيرا جدا ، وقد حصل على شهرته آنذاك لأسباب موضوعية واضحة ، أهمها أن ميدان النقد الأدبي - في تلك الفترة - في الوطن العربي كله كان خاليا من رواده الكبار .

كان العقاد وطه حسين قد انصرفا إلى الدراسات الدينية والفكرية والتاريخية فشملت كل إنتاجهما تقريبا ، وأصبح النقد الأدبي بالنسبة لهما على الهامش ، وكان هناك فارسان آخران في ميدان النقد الأدبي جاءا بعد العقاد وطه حسين وجيلهما من النقاد والكتاب الكبار الذين صمتوا بسبب الموت أو الشيخوخة مثل أحمد أمين والمازني وزكي مبارك . كان هذان الفارسان الكبيران هما محمد مندور وسيد قطب .

وفي هذه الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ انصرف مندور إلى العمل السياسي وانغمس فيه حتى أذنيه ، ولم يعد إلى ميدان النقد الأدبي إلا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو حينما أصبح باب السياسة مغلقا أمامه ، كان مندور قد انضم إلى حزب الوفد ، وأصبح علما من أعلامه ، كما أصبح أبرز كاتب في معسكر الوفد ، بل وفي معسكر الحركة الوطنية الشعبية في مصر كلها ، وكان يكتب تقريبا كل يوم في جريدة « الوفد المصري » أو في جريدة « صوت الأمة » أو في مجلة « البعث » أو في غير ذلك من الصحف والمجلات الوطنية . وكانت كتاباته السياسية من أخطر ما كان يقدمه الفكر الوطني اليساري الحر في ذلك الحين ؛ فقد جعل قضيته الكبرى هي فضح الاستعمار الاقتصادي والثقافي والعسكري ، وفضح الرجعية السياسية داخل مصر ، وفضح القصر الملكي المصري المتآمر مع الرجعية والاستعمار ، كان مندور قد تحول من ناقد أدبي إلى قديس وطني يحارب في معركة الاستقلال والتقدم ساعة بعد ساعة ، وبذلك خلا ميدان النقد الأدبي من هذا الناقد المثقف الحساس البصير بحقائق الجمال الأدبي ، كل ذلك لأنه أراد في عزم وقوة أن يواجه قبح الحياة ويحاربه ويدعو إلى التخلص منه قبل أن يواجه قبح الفن وينقده .

أما سيد قطب فقد ترك هو الآخر ميدان النقد ، وكان ناقدا ذكيا بصيرا بالتراث العربى و بروح العصر فى الوقت نفسه ، ورغم أن ثقافته الغربيه كانت محدوده بسبب تعليمه الأزهرى ، فإنه كان يعوض ذلك بذوقه وحرصه الواسع على قراءة المترجمات التى جعلت منه عصريا أكثر ممن تعلموا فى باريس أو لندن .

ولكن سيد قطب هو الآخر قد اتجه بعنف إلى قضية الإصلاح الاجتماعى ، وقادته ثقافته الخاصة إلى التحمس الكبير للفكرة الإسلامية فانضم إلى الإخوان المسلمين ، وحاول أن يقدم اجتهادات بالغة الأهمية فى التوفيق بين مبادئ الإسلام العملية والفكر الاشتراكى ، وأن يبرز إلى النور وبقوة قضية العدالة الاجتماعية فى الإسلام .

وقد سافر سيد قطب إلى أمريكا فى بعثة دراسية ، وقضى ما يقرب من سنتين هناك بين ١٩٤٩ و ١٩٥٠ ، وعندما عاد بعد ذلك تحول نهائيا إلى ميدان السياسة والصدعوة العنيفة إلى الثورة والتغيير ، يقول سيد قطب فى رسالته التى بعث بها إلى المعدادى والتى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة ، « ومن الواضح أنه يرد فى هذه الرسالة على رسالة من المعدادى كان بعثها إليه من القاهرة ، يقول سيد قطب :

« تنتظر عودتى لأخذ مكانى فى ميدان النقد الأدبى ؟ . .
أخشى أن أقول لك : إن هذا لن يكون وانه من الأولى لك أن تعتمد على نفسك إلى أن ينبثق ناقد جديد . . إننى سأخصص ما بقى من حياتى وجهدى لبرنامج اجتماعى كامل يستغرق أعمار الكثيرين ، ويكفى أن أجذك فى ميدان النقد الأدبى لأطمئن إلى هذا الميدان » .

ويبدو أن المعداوى كان قد أشار في رسالته إلى سيد قطب إلى أن طه حسين قد تولى وزارة المعارف ، وأن طه بينه وبين سيد قطب خصومة أدبية ، وسيد قطب موظف في وزارة المعارف ، وهنا يرد عليه سيد قطب في الرسالة نفسها فيقول :

« .. وأشرت إلى ما بيني وبين الدكتور طه .. إننى أعتقد على أية حال أنه من الخير للبلد أن يكون هذا الرجل في وزارة المعارف ، ولست أسأل عما يكون لى أو على ، فطريقى واضح أمامى وهلقى معروف فى جميع الظروف .. »

وأود قبل أن أعلق على رسالة سيد قطب إلى المعداوى أن أتوقف لحظة - هى نوع من الاستطراد - عند قصة سيد قطب وطه حسين ، فقد روى لى أنور المعداوى أن طه حسين استدعى سيد قطب الذى كان قد قدم استقالته إلى طه حسين باعتباره وزيراً للمعارف ، وقال طه حسين لسيد : إننى أعرف ظروفك الاقتصادية السيئة ، فلماذا تستقيل ؟ ، إننى لن أقبل هذه الاستقالة بحال من الأحوال ، وأنت وأمثالك من المفكرين والأدباء أمانة فى عنقى ما دمت وزيراً للمعارف ، أما ما قد يتبادر إلى ذهنك من أننا على خلاف أدبى فأرجو أن تمحوه من رأسك فنحن عائلة واحدة هى عائلة الفكر والأدب ، وأنا أبوكم جميعاً ، ولن أسمح لأحد منكم أن يتألم أو يسيء إلى نفسه ، ومزق طه حسين استقالة سيد قطب . وأنا لا أذكر هنا كلمات طه حسين لسيد قطب بنصها ، ولكننى أذكر معناها بكل ما أستطيع من دقة ، وأعتمد فى ذلك على ما رواه لى أنور المعداوى .

نعود - بعد هذا الاستطراد - إلى موقف سيد قطب لنرى أنه فى تلك الفترة من سنة ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ كان قد انصرف عن النقد الأدبى إلى

شيء آخر ، حيث يقول المعدادى : « إننى سأخصص ما بقى من حياتى وجهدى لبرنامج اجتماعى كامل يستغرق أعمار الكثيرين » ، ثم يقول مرة أخرى « لست أسأل عما يكون لى أو على ، فطريقى واضح أمامى وهدفى معروف لى فى جميع الظروف » .

لقد دخل سيد قطب دوامة العمل السياسى بكل قوة وعنف ، مثلما فعل مندور تماما ، وإن كان قد سار فى طريق آخر غير طريق مندور ، كان مندور يمشى فى طريق الاشتراكية والثورة الاشتراكية ، أما سيد قطب فكان يدعو إلى تجديد الإسلام والعودة إلى منابعه الأصلية وتحقيق الثورة المنتظرة عن طريق المبادئ الإسلامية .

مندور وسيد قطب ثائران ، ولكن كلا منهما يحمل راية مختلفة عن راية الآخر ، والتاريخ واحد من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ والقضية واحدة ؛ وهى قضية التغيير الكبير الذى أصبح ضروريا فى مصر فى ذلك الحين .

وهنا لابد أن أسجل ملاحظة عامة تحتاج إلى دراسة طويلة أخرى ، وهى أن النقاد الكبار فى الأدب العربى وفى سائر الآداب العالمية يبدعون حياتهم بنقد الأدب وينتهون فى سنوات النضج بنقد الحياة ؛ ولذلك فإن كثيرين منهم قد انغمسوا فى دوامة السياسة لأن الأدب الجميل لا يمكن أن يوجد فى حياة غير جميلة .

وهكذا خلا ميدان النقد الأدبى من فرسانه فى مصر ، فإذا تلفتنا إلى سائر أنحاء الوطن العربى فى تلك السنوات وجدنا صورة مشابهة ، ميخائيل نعيمة ومارون عبود فى لبنان سكنا عن النقد الأدبى بحكم تقدم السن وهبوط العزم ، ولم يعد لهما ذلك الصوت المدوى الذى

كان لميخائيل نعيمة في « الغربال » ولمارون عبود في « مجددون
ومجترون » و « على المحك » .

أما بقية أجزاء الوطن العربي فقد كانت غارقة في مشاكلها السياسية
والوطنية العنيفة .

في هذه السنوات المجدبة من النقد الأدبي ظهر أنور المعداوى ،
وتفرغ تفرغاً تاماً لوظيفة أدبية واحدة هي وظيفة الناقد ، وجاهد وثابر
وانتج بغزارة في هذه السنوات الأبع « ١٩٤٨ - ١٩٥٢ » ، وأصبح
الناقد الأول في الوطن العربي بل والناقد الوحيد في تلك الفترة .

ولكن هل خلو الميدان الأدبي من التقاد يكفي لتفسير النجاح الكبير
الذي حققه أنور المعداوى كناقد أدبي في تلك السنوات ؟

لا يكفي ذلك بالطبع ، فقد كان من الممكن أن يخلو الميدان ويظل
خالياً ويقال : لقد مات النقد الأدبي وجفت ينابيعه في تلك الأعوام .

ولكن الحقيقة أن المعداوى كان يملك من الموهبة والقدرة والرؤية
الأدبية الذكية - في ذلك الحين - ما كان يساعده ويمكنه من أن يملأ
الفراغ ويلفت الأنظار .

فقد كان أنور المعداوى يتمتع بأسلوب أدبي جميل متميز ،
ونستطيع أن نقول إنه كان من أجمل أصحاب الأساليب في أدبنا
المعاصر كله ، رغم أن هذا الأسلوب كان يعتمد أحياناً على الافتعال
والمبالغة والعاطفية المسرفة والصنعة اللفظية ، لكننا مع ذلك نستطيع أن
نبتين جمال أسلوبه وتمييزه بين شتى الأساليب الأدبية
المعاصرة من النظرة الأولى إلى أى مقال له أو دراسة ، وهذا الأسلوب

الأدبي المتميز يتضح تماماً من خلال رسائله المنشورة في هذا الكتاب .
ويكفي أن نقرأ هذه الفقرة من مقال وجداني له بعنوان « من
الأعماق » حتى تتبين لنا بوضوح هذه القيمة الجمالية في كتابات
المعداوى ويتبين لنا حرصه الكبير على هذه القيمة في أدبه ، يقول
المعداوى في هذا المقال الذي يتحدث فيه عن تجربة عاطفية له :

« . . وفي تلك الدار من ذلك الحى كان هواه . . يذهب إليها مع
الصباح ، وحين يقبل الليل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ، ولن
ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها : ملء يديه
زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، وملء نفسه دنيا من
الأحلام . . أبداً لن ينسى الوجه الذى كان يتلقاه باليدين حين
يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدعاء حين ينصرف مودعاً إلى لقاء
قريب . . ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن . .
ويملك عليها المشاعر كل معنى جميل . . ولن ينسى أن صلتها به كانت
عن هذا الطريق الذى جمع بين قلبها وقلبه . . وبين طبعها وطبعه . .
وبين شعورها وشعوره . . ومن أجل هذا كله كان يدفع إليها كل
كتاب يقرؤه وكل مقال يكتبه وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه يلقي من
نفسها هوى ورعاية . » .

على هذا النسق من الحرص على جمال الأسلوب كان المعداوى
يكتب ، دون أن يقتصر هذا الحرص الجمالى على كتاباته الوجدانية التى
كانت له في ميدانها محاولات عديدة ، بل لقد كان يحرص على هذا
الأسلوب نفسه في كتاباته النقدية المختلفة .

على أن الأسلوب الجميل وحده لم يكن ليلفت النظر الى
المعداوى ، خاصة أن هذا الأسلوب كان يميل أحيانا - كما أشرت من

قبل - إلى التصنع والافتعال اللفظي ، فلم يكن مثل هذا النوع من الجمال التعبيري كافيا لأن يجعل المعداوى ألمع ناقد عربى فى تلك السنوات الأربع من حياته النقدية التى تمتد من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ .

كان هناك شىء آخر فى كتابات المعداوى ، فالمعداوى لم يكن يكتب نقدا تقريريا جافا ، وإنما كان يقدم أفكاره النقدية ممتزجة بعاطفة حارة ساخنة ، فلم يكن يعرف البرود والوقار العلمى الهادىء المتردد المصطنع ، وهذه العاطفة التى تتمزج بآرائه كانت تخلق له شخصية ذاتية مستقلة سرعان ما ارتبطت بها عواطف القراء فى الوطن العربى .

على أن كتابات المعداوى كانت تتميز بميزة أخرى واضحة هى الجرأة البالغة ، فلم يكن المعداوى يتردد فى مهاجمة أى أديب كبير مهما كانت مكانته ، ولم يكن يجمال فى آرائه ، فقد هاجم طه حسين وهاجم العقاد وهاجم سلامة موسى ، وكان هؤلاء جميعا من كبار الكتاب والأدباء ، وكانوا قد صنعوا لأنفسهم مكانة راسخة فى الحياة الثقافية ، ومع ذلك لم يعبأ المعداوى بشىء من ذلك بل اشتبك معهم فى معارك أدبية وفكرية ، بعضها كان حادا عنيفا مثل معركته مع سلامة موسى ، وقد كان هناك مفكرون آخرون هاجمهم المعداوى هجوما بالغ القسوة والعنف ، حتى لقد اضطرب بعضهم إلى تقديم بلاغات إلى النيابة العامة على اعتبار أن ما كتبه المعداوى ضدهم هو نوع من القذف والتشهير ، فقد كتب المعداوى ضد الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهاجمه هجوما قاسيا فى إنتاجه الفكرى وفى إنتاجه الأدبى وفى تحقیقاته للتراث الإسلامى . وكتب المعداوى ضد

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني أستاذ علم النفس في جامعة القاهرة ،
وهاجم آراءه الأدبية هجوما قاسيا دفع الدكتور الأهواني إلى إبلاغ
النياحة العامة ضد المعداوى ، واستمرت القضية فترة ثم تنازل عنها
الدكتور الأهواني بعد أن هدأت ثورته .

وهناك آخرون هاجمهم المعداوى بقسوة وعنف مما خلق له أعداء
كثيرين ، ولكن هذا العنف وهذه الحدة جعلت له مكانة كبيرة عند
القراء الذين أحسوا بالاحترام له والتقدير لجرأته وصراحته في الرأى ،
وثقته بنفسه وعدم شعوره بأى تردد أو هيبة أو خوف أمام الأسماء
الكبيرة اللامعة التى سبقته فى الحياة الثقافية واحتلت مكانا راسخا قبل
أن يبدأ الكتابة ويظهر بآرائه أمام الناس .

والواقع أن آراء المعداوى هذه لم تكن كلها على صواب ، فقد كان
فيها آراء خاطئة ، ولقد تراجع هو عن بعض هذه الآراء بعد ذلك
بسنوات مثلما فعل مع رأيه فى سلامة موسى ، ولكن المهم أن هذه
الآراء الجريئة الحادة قد خلقت حول المعداوى وبسببه مناقشات
واسعة وعواصف أدبية فى كل مكان من الحياة الثقافية على امتداد
الوطن العربى كله ؛ مما أتاح الذبوع والانتشار لاسم المعداوى
وآرائه .

على أن هناك جانبا آخر فى المعداوى ساعد على تدعيم مكانته فى
تلك المرحلة من حياته الأدبية ، وهى ألمع مراحل حياته على
الإطلاق ، وهذا الجانب هو أن المعداوى قد بنى الكثير من القضايا
الخاصة للأدباء العرب ودافع عنها ، وهذا الجانب قد يبدو متناقضا مع
الجانب السابق فى شخصيته وهو الجانب العنيف الاستفزازى الذى
دفعه إلى أن يهاجم عددا كبيرا من الأدباء بأسلوب قاس لا رحمة فيه ،

ولكن هذا الجانب العاطفى الإنسانى فى شخصية المعداوى يكشف لنا عن أن العنف فى شخصيته لم يكن مصدره الحقد أو القسوة النفسية أو كراهية الناس أو أى شىء آخر من هذا الطراز ، بل كان نوعا من الحيوية واندفاع الشباب الذى كان يكره حالة الركون القائمة آنذاك فى الحياة الأدبية فأراد أن يحركها بالرأى الجريء والنقد الحر الصريح الذى لا يعبأ بشىء .

ولقد بدأت علاقة المعداوى بفدوى طوقان عندما عرض عليها أن ينشر لها شعرها فى ديوان ، وقد قام فعلا بنشر ديوانها الأول « وحدى مع الأيام » فى مصر ، كل ذلك قبل أن تتطور العلاقة بينهما لتصبح علاقة عاطفية ، وقد سهر المعداوى على طبع هذا الديوان واهتم بإخراجه كأنه عمل خاص به ، وهذا ما كان يفعله مع كثيرين من الأدباء ، حيث جعل بابه « تعقيبات » منبرا حرا لعرض قضاياهم الأدبية والشخصية والدفاع عنها ، فكتب عن الأديب المريض الذى يحتاج إلى رعاية وعلاج ، وكتب عن الأديب الذى يحتاج إلى إتمام تعليمه فى الخارج ويحتاج إلى مساندة الدولة ، وكتب عن الأديب الموهوب الذى ترك الإنتاج وينبغى أن يعود إليه ، ولم يترك المعداوى قضية إنسانية وصلت إلى علمه لأى أديب من الأدباء دون أن يعرضها ويتحمس لها ويدافع عنها .

وكما ترك عنفه ضد بعض كبار الأدباء انطبعا بأنه شخصية قاسية مدمرة ، ترك اهتمامه بعدد كبير آخر من الأدباء بقضاياهم الأدبية والإنسانية انطبعا مناقضا ؛ وهو أنه شخصية طيبة عاطفية مخلصه أشد الإخلاص لقضايا الأدب والأدباء ، وقد ترك الانطبعا معاً فى الحياة الأدبية دويا عنيفا حول اسم المعداوى وحول آرائه وكتاباتاته المختلفة .

على أن شيئا بارزا آخر ميز كتابات المداوى في تلك الفترة ، وهو أنه كان بعيدا عن أن يكون ناقدا مصريا محدود الاهتمام بقضايا الأدب والأدباء في مصر وحدها ، بل لقد مد بصره إلى شتى أنحاء الوطن العربي ، واهتم أشد الاهتمام بمتابعة الأدب العربي وقضاياها خارج مصر ، وكانت هذه النزعة العربية في كتابات أنور المداوى ميزة رائعة وبارزة ، وكان في الوقت نفسه سببا من أسباب انتشار اسمه في كل مكان من الوطن العربي .

يمكننا أن نتساءل بعد ذلك كله عن الإضافات التي قدمها المداوى إلى النقد الأدبي في تلك المرحلة التي تمثل الجانب الأساسي والأكبر - كما وكيفاً - من إنتاجه الأدبي .

إن الإضافة الأساسية التي قدمها المداوى هي نظريته التي أسماها باسم « الأداء النفسي في الفن » ، والسدى أطلق عليها اسم « النظرية » هو المداوى نفسه ، وكان أحيانا يسميها نظرية نقدية ، وأحيانا أخرى كان يسميها مذهباً في النقد ، والحقيقة أنها ليست مذهباً ولا نظرية ، ولكنها فكرة نقدية ذكية واضحة محددة حاول المداوى أن يجعل منها مقياساً يقيس به الإنتاج الأدبي ومدى قيمته وجودته ، وهي فكرة نقدية تأثر فيها المداوى بعدد من النقاد العرب السابقين عليه وبخاصة العقاد ومحمد مندور وسيد قطب ، وخلاصة فكرة « الأداء النفسي » هذه نجدها في الفصل العاشر من كتاب المداوى عن « على محمود طه » ، وعنوان هذا الفصل هو « الأداء النفسي » ، ويلخص المداوى فكرته في مقدمة هذا الفصل فيقول في الصفحة الحادية عشرة بعد المائة من هذا الكتاب :

« هناك فنان فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر محدود لا يتناسب وخبرته العميقة ولا يتفق وفهمه الأصيل ، فما هو الفارق بين طبيعة الفهم وطبيعة التذوق في حياة الفنانين . . ؟ »

« لتوضيح هذا الفارق الفني بين الطبيعتين نقول : إنك تفهم الشيء بعقلك وتتذوقه بشعورك . . نعى أن الفهم أداته الذهن الفاحص وأن التذوق أداته الشعور الرهيف . . إنها طاقتان . طاقة عقلية وطاقة شعورية . . والذين قويت عندهم الطاقة الأولى وضعفت الثانية هم الذين تتوقد في وجودهم شعلة الفهم وتخبو شعلة التذوق بالنسبة إلى أي قيمة من قيم الفن وأي معنى من معاني الحياة ، إن هناك مثلاً من يفهم قصيدة من الشعر ، يفهم فيها اللفظ والصورة ويفهم الوزن والقافية ويفهمها اتجاهاً إذا طلبت إليه الشرح والتفسير . . ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن « يتذوق » فيها وحدة العمل الفني ولا إيمائية التركيب اللفظي ، ولا تماسك التجربة الشعورية وهي معروضة عرضاً تفصيلياً من خلال مضمون ، وقل مثل ذلك عن الذي يفهم أصول النوتة الموسيقية للحن من الألحان ، ثم لا يتذوق جمال اللحن ، ولا يهتز لروعة الإيقاع ، ولا يتجاوب وتصويرية النغم » .

« إن فهم الحياة هو أن نفتح « لمشاهدها » أبواب العقل ، أما تذوق الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب الشعور . . إننا « نرقبها » هناك تحت إشعاع الومضة الذهنية ، ولكننا « نلتقها » هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية . . وعلى مدار هذه الكلمات نستطيع أن ننظر إلى كل عمل يمت إلى الفن بسبب من الأسباب » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« هذه الكلمات هي معالم الطريق إلى « الأداء النفسى » أو إلى هذه المحاولة المذهبية التى تحمل ذلك العنوان وهدفها أن تزن قيم الفن بميزان جديد ، سواء أكان الفن ممثلاً فى قصة تحليلية أم فى لوحة أم فى مقطوعة موسيقية أم فى قصيدة ، وسواء أكان الفهم أو التذوق فى كل أثر من هذه الآثار متعلقاً بموقف الفنان من مشاهد الحياة وتجارب النفس حين ينتج ، أم كان مرتبطاً بموقف الذين يحكمون على الفن ويقيمون له الميزان عن طريق الذهن أو عن طريق الشعور » .

هذه هي فكرة المعداوى عن « الأداء النفسى » فى الأدب والفن ، وقد قدم المعداوى فى هذا الفصل عن « الأداء النفسى » نماذج متعددة للمتفرقة بين الفهم والتذوق ، ونستطيع أن نقف أمام نموذج واحد من هذه النماذج لتوضح أماناً فكرة المعداوى بصورة كاملة . يقول المعداوى فى الصفحة الثالثة عشرة بعد المائة من كتابه عن على محمود طه :

« دعى الموسيقىار العظيم فرانزلىست إلى حفل من تلك الحفلات الخاصة التى كانت تزخر بها الصالونات الباريسية . . ويدعى إليها جمهور خاص من الطبقة المترفة التى كانت تعشق فيما تعشق من متع الحياة أنغام الخالدين . . وحين نهض لست ليأخذ مكانه من البيانو طلب إليه المدعوون أن يعزف شيئاً من آثار بتهوفن وشيئاً من آثار ذلك الفنان العبقري الذى كان يجلس بين الصفوف فى انتظار العزف ، صديقه فردريك شوبان . . ومن المعروف عن لست أنه كان يجمع إلى موهبته الفذة فى التأليف الموسيقى موهبة أخرى لا يختلف فى تقديرها النقاد ، وهى أنه كان أقدر القادرين على عزف موسيقى بتهوفن خاصة ، وموسيقى غيره من أقطاب الفن على العموم .

وحين انتهى لست من عزف مقطوعة « الاداجيو » من سوناتة « دود ييزمينير » لبتهوفن ، أقبل عليه المدعوون وفي مقدمتهم شوبان ليشنوا بمشاعرهم التي أغرقها في فيض الذهول سحر النغم على تلك القدرة الفائقة التي أعادت إلى الأذهان صورة حية من صور بتهوفن الخالد . . ومرة أخرى طلب الحاضرون إلى لست أن يعزف لهم مقطوعة خاصة من مقطوعات « البريلود » لشوبان . . وكانت مقطوعة يعتز بها الموسيقار البولوني ويعتز بها الفن لأنها قطعة من نفسه الشاعرة في فترة من فترات ألمه العبقري ، ألمه الذي طالما تحدث عنه إلى الناس في أنغام ، وعندما فرغ لست من عزف المقطوعة علت الدهشة وجوه الحاضرين . لأن شوبان لم يشترك بشعوره في الإنصات . . ولا بلسانه في الثناء ، كما فعل في المرة السابقة حين عزف لست تلك المقطوعة الأولى من موسيقى بتهوفن . . إن لست لم يخرج على أصول النوتة كما وضعها شوبان . . ولم تحنه المقدرة على العزف في يوم من الأيام ، ولم يستطع صديقه صاحب « البريلود » أن ينكر هذا عليه ، ولكن . . ولكن كان هناك شيء ناقص أحسسه شوبان ، ولم يحسه سواه إلا حين نهض هو ليأخذ مكان لست وليبدأ عزف المقطوعة من جديد .

لقد لمس الحاضرون أن هناك فارقا بعيدا بين الأنغام حين انطلقت من بين أنامل لست في المرة الأولى وحين انطلقت في المرة الثانية من بين أنامل شوبان ، ولقد كانت « مشاعرهم » هي المرصد الدقيق لتسجيل الفارق الفني هنا وهناك ، لقد أقبل لست على صديقه يعانقه ويقبله ويقول له : حقا يا عزيزي شوبان ، إن اللحن قد خرج من بين يديك وهو شيء آخر . . لقد بعثت فيه من روحك لأنه قطعة من حياتك أنت . . هذا هو الأثر الفني بين الفهم والتذوق حين يتمثل في

مقطوعة موسيقية . . لقد كان الفارق الملموس بين لست وشوبان هو الفارق بين من « فهم » اللحن بعقله حين نقله عن أصول النوتة ، وبين من « تذوق » اللحن بشعوره حين نقله عن حديث الوجدان ، ومن هنا بدت مقطوعة « البريلود » عند لست جسدا جميلا بغير روح ، وبدت عند شوبان جسدا يفوق الأول جمالا لأن فيه الروح الذى يضيف على الفن كل معنى من معانى الحياة .

هنا فى هذا المثال ، مفترق الطريق بين أسلوبين فى تقديم الأثر الفنى إلى الجماهير . . أسلوب يعتمد على الذهن « الفاهم » وأسلوب يعتمد على الشعور « الذواق » . أو قل إنه اختلاف بين طبعيتين : طبيعة تتلقى الإثارة عن طريق الحس وطبيعة تتلقى الإثارة عن طريق النفس ، أو قل مرة أخرى إنه اختلاف بين مزاجين : مزاج يخلق بالتجربة المادية فى آفاق الفكر ومزاج يخلق بالتجربة النفسية فى آفاق الشعور . . وإنه لذلك الاختلاف الذى تبرزه الفوارق الدقيقة بين فنان تذوق الحياة منعكسة على الذات الشاعرة وبين فنان فهم الحياة منعكسة على الورقة الناقلة ونعنى النوتة الموسيقية التى نقل عنها لست فترة من حياة صديقه نقلا ذهنيا لا حرارة فيه .

هذه هى فكرة المعدادوى النظرية والتطبيقية عن « الأداء النفسى » ، فهل هذه الفكرة النقدية جديدة ؟ وهل ترقى إلى أن تكون مذهبا مستقلا أو نظرية جديدة كما يحلو للمعدادوى أن يسمى فكرته ؟

بالنسبة للقسم الأول من السؤال عن الجديد الذى قدمه المعدادوى فى فكرته النقدية ، فنحن نجد أن المعدادوى هو فى حقيقته ناقد جديد حقا ، ولكنه فى النهاية حلقة فى سلسلة قدمتها مدرسة سابقة عليه فى النقد العربى ، وقد بدأت هذه المدرسة بما يسمى باسم « مدرسة

الديوان » التي كان أعلامها هم : العقاد والمازني وشكري ، وقد ظهرت هذه المدرسة في أوائل القرن العشرين ، وكانت دعوتها تقوم على أن الشعر ينبغي أن يعبر أساسا عن العالم الداخلي للإنسان ، وأن يكون صادرا عن الشخصية المستقلة المتميزة للفنان دون تقليد أو ترديد ، وكما قال عبد الرحمن شكري أحد أعلام هذه المدرسة في إحدى قصائده :

يا طائر الفردوس
إن الشعر وجدان

كان موقف أصحاب هذه المدرسة من الفن ، والذي كان يتركز عندهم في الشعر ، هو رد على الموقف الكلاسيكي في فهم الشعر العربي ، وهو الموقف الذي كان ينظر إلى الشعر على أنه تعبير عن المناسبات الخارجية بعيدا عن الوجدان الذاق للشاعر نفسه .

وقد تطور هذا المفهوم الجديد وازداد وضوحا على يد الدكتور محمد مندور ، فقد دعا مندور إلى ما أسماه « الهمس في الأدب » بدلا من « الخطابة » وهو ما يساوي عند المعدادي « الأداء النفسي » بدلا من « الأداء اللفظي » . . يقول مندور عن « الهمس » في الصفحة الخمسين من كتابه « في الميزان الجديد » :

« الهمس في الشعر ليس معناه الضعف ، فالشاعر القوي هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من أعماق نفسه في نغمات حارة ، ولكنه غير الخطابة التي تغلب على شعرنا فتفسده ، إذ تبعده عن النفس ، عن الصدق ، عن الدنوم القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتنفى الطبع في غير جهد ولا إحكام صناعة ، وإنما هو إحساس بتأثير

عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها بما
تجد ، وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعى بما يفعل . .
ولأنها هي غريزته المستنيرة ما تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس
ليس معناه قصر الأدب أو الشعر على المشاعر الشخصية ، فالأديب
الإنساني يتحدث عن أى شيء يهمس به فيشير فؤادك . . ولو كان
موضوع حديثه ملابسات لا تمت إليك بسبب .

لو تأملنا هذه الكلمات التي كتبها مندور وجعل منها أساسا لدعوته
التي انتشرت في الوطن العربي كله وهي دعوة « الأدب الهموس »
لوجدنا أن المعنى الذي يدعو إليه مندور قريب من المعنى الذي ينادى به
المعداوى في دعوته « للأداء النفسى » في الفن ، وإن اختلفت المصطلحات
والألفاظ واختلفت البراهين والأدلة عند الناقد ، بل إن مندور عندما أراد
أن يطبق دعوته إلى الأدب الهموس على الشعر العربي اختار نموذجا من
الشعر المهجرى هو قصيدة « أحنى » لميخائيل نعيمة ، وكذلك فإن
المعداوى عندما اختار نموذجا من الشعر العربي المعاصر ليطبق عليه دعوته
إلى الأداء النفسى فقد وقع اختياره على قصيدة « وطن النجوم » للشاعر
المهجرى إيليا أبو ماضي ، والقصيدتان متشابهتان في جوهرهما وطريقة
تعبيرهما وروحهما الإنسانية والفنية .

على أن أوضح مؤثر في دعوة المعداوى إلى « الأداء النفسى » هو
سيد قطب . . فالمعداوى يقول عندما يكتب عن الاداء النفسى :

« . . . إن فهم الحياة هو أن نفتح لها أبواب العقل . . أما تذوق
الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب الشعور » .

وعلى أساس تفرقة المعداوى بين الفهم والتذوق أو بين العقل والشعور تتحدد ملامح « الأداء النفسى » الذى يعتمد على التذوق والشعور أكثر مما يعتمد على الفهم والعقل .

عندما نقرأ هذه الكلمات للمعداوى نجد أنها تدور فى حدود الفكرة التى سبقه إليها « سيد قطب » وعبر عنها فى كتابات نقدية متعددة ، ففى مقال بعنوان : « إلى الأستاذ توفيق الحكيم » نشره سيد قطب فى العدد ٨٢٧ من مجلة الرسالة الصادر فى ٩ مايو سنة ١٩٤٩ يقول مخاطباً توفيق الحكيم :

« أحب أن أطمئنك منذ اليوم على أن التاريخ لن ينسى لك دورك الأساسى الذى قمت به فى وضع « القلب الفنى » للمرة الأولى فى تاريخ الأدب العربى للرواية التمثيلية وصنعه على أساس فنى صحيح ، وإلا فإن محاولات كثيرة قد سبقتك لوضع هذا القلب ، إلى أن جئت أنت فوفقت نهائياً لتكوين قالب فنى للحوار يحمل فكرة تدخله فى باب الأدب ، وينهج نهجاً لم يلحقك فيه إلى اليوم أحد ، ولست أدرى متى يظهر التالى لك ، أو المتفوق عليك فيه .

هذا دورك الذى لن ينسى . دور « فى تاريخ التطور الفنى » ، أما نصيبك الذى سيبقى فى باب « القيم الفنية المطلقة » فأخشى أن أقول : إنك لم تقم به بعد ، لأنك - فى باب التمثيليات - لم تهتد بعد إلى النبع الأصل الذى تستقى منه روحك العميقة لا فكرك الواعى فتشبع عملاً خالداً فيه حياة وروح » .

ثم يتحدث سيد قطب عن النبع الذى يشير إليه فيقول :
« .. لأننى لا أعيب الثقافة - فهى أمر لا بد منه اليوم لتكوين الأديب - ولكن الذى أعنيه أيها الصديق أنك - شأنك فى هذا شأن

ذلك الجيل كله من الشيوخ - تستلهم ثقافتك الفنية الغربية ، قبل أن تجد ذاتك الأصيلة .

من هنا يفقد فنك - كما تفقد أعمالهم جميعا - ذلك الطعم الخاص الذي يتذوقه القارئ في آداب كل أمة ، والذي يميزه من آداب الأمم الأخرى . إنكم لا تجدون أنفسكم في خضم ثقافتكم . إنكم تمتحون من رؤوسكم أكثر مما تستوحون قلوبكم ، وهذا هو العنصر الخطر عليكم جميعا .

ثم يواصل سيد قطب التفرقة بين « الفهم » و « الشعور » في مقاله وهو يحاول أن يفسر عدم ترجمة العرب للمسرح اليوناني المعتمد أساسا على أساطير الإغريق ، وسيد قطب يعترض على اتجاه توفيق الحكيم إلى الأسطورة اليونانية ، والمقال أساسا هو تعليق على مسرحية « أوديب » لتوفيق الحكيم . . يقول سيد قطب في المقال نفسه معلقا على ترجمة العرب لجمهورية أفلاطون وعدم ترجمتهم للمسرح الإغريقي :

« إن الفارق بين كتاب الجمهورية والتراجيديات الإغريقية لبعيد . . إن الجمهورية موضوع يحتاج إلى « فهم » والتراجيديات موضوع يحتاج إلى « شعور » . . . وهذه هي العقدة في قضية العرب والفن الإغريقي ، ثم في قضيتك أنت بالذات .

إن الصعوبة الأساسية في الأساطير واستلهاها ليست في الحاجة إلى « الفهم » ، فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح على نحو من الأنحاء ، لكن الصعوبة الحقيقية كامنة في « الشعور » بها في أعماق الضمير . إن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ، وتعيش كامنة في دمه وأحاسيسه .

« .. لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الإغريقية المستمدة في صميمها من هذه الأساطير ، ولا أن تنتقل إلى تراثهم كما انتقلت الفلسفة ، لأن الفلسفة تراث ذهني في الأغلب ، والأسطورة تراث شعوري في الصميم » .

ثم ينهى سيد قطب مقاله وهو يخاطب توفيق الحكيم :
« .. ولا تؤمن بما يقوله الدكتور طه حسين - مساه الله بالخير - ويردده من أن مصر إغريقية التفكير ؛ لأن مدرسة الإسكندرية القائمة على أساس الفلسفة الإغريقية تركت أثارا عميقة لا تمحى .. لا تؤمن بهذا فإنما هذه هي فتنة الدكتور الكبرى بالإغريق .

قد يكون ذلك صحيحا في الفلسفة ، في منطقة من مناطق الفكر المصرى لا في سائر مناطقه . أما المنطقة الشعورية فلم تمسها تلك الفلسفة فضمائر ، الشعوب لا علاقة لها بالفلسفة . والأساطير تنبع من هذه الضمائر الحية لا من الأذهان الجرداء .

والفنون لا تكتب لها الحياة إلا حين تمتح من هذه الضمائر المكنونة حين تتصل بالنبع العميق السارى ، وراء الأذهان والأفكار .
ما من عمل واحد يخلد إلا إذا فاض من الشعور » .

هذه كلمات سيد قطب التى يفرق فيها بين « العقل »
« والشعور » ، والتى يرى فيها أن الفن الأصيل إنما ينبع من الشعور قبل أن ينبع من العقل ، وهذه هى نفسها الفكرة التى أقام المعداوى على أساسها دعوته إلى « الأداء النفسى » فى الفن ، فالفن الذى يتوفر له الاعتماد على الوجدان والقلب والشعور والتذوق هو الفن الذى يتلاءم مع فكرة الأداء النفسى ، أما الفن الذى يعتمد على العقل والفكر والفهم فهو الفن الذى يبتعد عن الأداء النفسى ويسقط فى مجاله .

ففكرة المعداوى إذن عن « الأداء النفسى » فكرة سبقه إليها النقد العربى المعاصر ، وهو لا شك قد تأثر بالنقاد السابقين عليه فى تحديد هذه الفكرة ، وقد كان بينه وبين سيد قطب بالذات علاقة أدبية وشخصية وثيقة فى بداية حياته الأدبية ، فسيد قطب هو الذى قدم المعداوى إلى الحياة الأدبية ، كما أشرنا فى الصفحات السابقة ، وقد كان المعداوى يقول لى إنه كان يعتبر كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » للنقاد وكتاب « كتب وشخصيات » لسيد قطب أهم كتابين فى النقد العربى المعاصر ، وأنه بعد أن نضج تجاوز هذين الكتابين وأصبح ينظر إليهما نظرة أقل مما كان عليه الأمر فى البداية .

والحقيقة أننا إذا أضفنا إلى هذين الكتابين كتابا ثالثا هو « فى الميزان الجديد » لمحمد مندور فلأننا نكون قد عرفنا المصادر النقدية العربية الأساسية التى تخرج تشكّل المعداوى كناقّد أدبى ، وليس معنى ذلك أن المعداوى لم يكن له جهد خاص به ، فالحقيقة أنه اكتسب أفكاره الرئيسية من هذه الكتب الثلاثة ، ولكنه استطاع أن يصوغ أفكاره النقدية صياغة خاصة به ، وأن يتوسع فى هذه الأفكار ويقدم عليها براهين جديدة ، ويدعمها بنماذج من ثقافته التى لم تكن قاصرة على الأدب العربى ، فقد كان المعداوى يحرص على مطالعة آثار النقد الأجنبى ، وخاصة عن طريق النصوص المترجمة إلى اللغة العربية لأن معرفته بالإنجليزية والفرنسية كانت معرفة متوسطة . وقد كان المعداوى قادرا على أن يهضم ما يقرؤه هضمًا جيدا وقادرا على أن يتذوقه تذوقا ممتازا ، وكانت قدرته على الهضم والاستيعاب والتذوق كبيرة جدا ، فقد كان يقرأ ما يقرؤه بعمق وحساسية بالغة .

كان المعداوى إذن متأثرا بما سبقه من أفكار نقدية ، ولكنه استوعب هذه الآراء وأضاف إليها وعبر عنها تعبيرا خاصا مستقلا ،

ثم أحسن استخدام هذه الأفكار النقدية في مناقشاته للأعمال الأدبية المختلفة . إنه لم ينقل ولم يكرر آراء الآخرين ، ولكنه استوعب هذه الآراء وأضاف إليها ، ثم سار في نفس الطريق متقدما على غيره ؛ لأنه كان أكثر شبابا من النقاد الذين تأثر بهم وأخذ عنهم .

أما أن « الأداء النفسى » كان نظرية نقدية أو مذهباً خاصاً من مذاهب النقد ، كما يقول المعداوى ، فهذا ما لا يمكننا أن نوافق عليه ، فالنظرية النقدية هي التي تحدث « انقلاباً » كاملاً في الحياة الأدبية ، والمذهب النقدى هو الذى يخلق مدرسة كاملة من الأدباء الملتزمين بهذا المذهب ، و« الأداء النفسى » لم يحدث انقلاباً فى الأدب العربى المعاصر ، كما أننا لا نجد أدباء يمكننا أن نطلق عليهم اسم مدرسة « الأداء النفسى » فى الأدب العربى المعاصر .

« الأداء النفسى » هو فكرة ذكية صاغها المعداوى صياغة ممتازة ، وكان لها مساهمتها الفعالة فى هدم المفهوم الكلاسيكى للأدب ، ذلك المفهوم الذى كاد يودى إلى تجميد الأدب العربى كله عند حدود الألفاظ والقوالب التقليدية الجامدة ، فجاءت مدرسة النقد العربى الجديد وأرست مفهوماً إنسانياً شاملاً للأدب العربى ، وكان المعداوى من أبرز نقاد هذه المدرسة .

هذا هو الإنجاز الادبى البارز الذى قدمه أنور المعداوى فى فترة إنتاجه الخصب العزير من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢ ، وهذه الفترة هي أفضل فترات حياته الأدبية وأكثرها ذكاء وحرارة ، وهى الفترة التى لمع فيها نجم المعداوى وارتفع صوته الأدبى حتى أصبح خلال هذه السنوات - كما أشرت من قبل - ألمع ناقد فى الوطن العربى كله .

لقد ارتبط المعداوى بالاتجاهات الجديدة في النقد الأدبي ، وساهم مساهمة بارزة في هذه الاتجاهات التي كانت تهدف إلى تحرير الأدب العربي من الصنعة والانتعال ، وتحريره من الآفاق الضيقة التي كان يتحرك فيها . ودفعه إلى الآفاق الإنسانية الواسعة حيث يستطيع هذا الأدب أن يشمس التعبير عن النفس الإنسانية وعن حياة الإنسان وصراعه مع المجتمع والطبيعة ، بدلا مما كان الأدب العربي قد وصل إليه من جمود ووقف عنده من صراعات حول الألفاظ وحول التشبيهات والاستعارات وسائر ألوان البلاغة التقليدية . . . وما كان قد وصل إليه أيضا في المجال الموضوعي من وقوف عند أغراض المدح والتهنئة والرثاء وصياغة الأحداث الواقعية صياغة منظومة بدون رؤية خاصة أو تفسير مستقل ، أو تصوير للتجارب الإنسانية والاجتماعية العميقة .

بعد سنة ١٩٥٢ بدأت حياة المعداوى الأدبية تتعرض لأزمات عديدة ، وكان يتخلص من أزمة ليقع من أزمة جديدة ، وقد ظلت هذه الأزمات تتصاعد حتى قضت عليه سنة ١٩٦٥ .

في أول سنة ١٩٥٣ توقفت مجلة « الرسالة » عن الصدور ، وبذلك فقد المعداوى تلك البيئة الأدبية التي كانت تتلقاه بالترحيب والتدليل ، على أن المعداوى كان قد انقطع عن مجلة « الرسالة » قبل أن تغلق أبوابها بشهور ، وذلك - كما يقول في رسائله إلى فدوى طوقان - لأن « الرسالة » قد فقدت قيمتها وبدأت تنشر إنتاجا أدبيا ضعيفا ، مما جعل المعداوى غير قادر على أن يتلاءم مع جو « الرسالة » بعد أن أصابها كل هذا الضعف ، بسبب شيخوخة صاحبها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات وعجزه عن متابعة الحياة الأدبية بحيوية ونشاط وقوة كما كان يفعل في الماضي .

على أن إغلاق مجلة الرسالة سنة ١٩٥٣ كان يعنى فى حقيقة انتهائ
مرحلة أدبية وبداية مرحلة أخرى ، فقد كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
قد قامت ، وانهار مع قيامها النظام الملكى ، كما انهارت الأرستقراطية
القديمة فى الريف والمدن مع انهيار النظام الملكى ، وبدأت تسرى فى
حياة مصر روح شعبية ، مصدرها أن الطبقات الشعبية قد أحست
بأن التغيير يتم لمصلحتها بصورة عامة ، وفى هذا الجو ظهرت موجة
جديدة من الأدب والنقد ، وكان الاتجاه الواقعى هو الاتجاه الأدبى
الوليد الذى أخذ يفرض نفسه على الحياة ، ومع هذه الموجة
الجديدة ، ظهر أدباء جدد ونقاد لهم منطق آخر فى فهم الأدب وتقويمه
غير منطق المعداوى ، وكان هذا المنطق الجديد فى جوهره يدعو دعوة
عنيفة ومباشرة وصريحة إلى أن يكون « الأدب للحياة » ، أى أن يكون
الأدب تعبيراً عن مشاكل الإنسان الاجتماعية قبل أى شىء آخر ،
وكأى شىء جديد سيطرت الموجة الأدبية الوليدة على الميدان ، حيث
وجد المعداوى أنه ابتعد عن الصورة ، ولم يعد فى قلب الحركة الأدبية
كما كان من قبل .

ولا شك أن هذه الموجة الأدبية الجديدة قد عدلت من نظرة
المعداوى النقدية ، فبنى - عن اقتناع وصدق - فى هذه الفترة دعوة
« سارتر » إلى « الالتزام الأدبى » ، هذا الالتزام الذى يفرض على
الأديب أن يرتبط بقضية عامة كبيرة وألا يقتصر فى تعبيره الأدبى على
قضاياها الذاتية . وقد ظل المعداوى ينادى بالالتزام حتى آخر لحظة فى
حياته الأدبية .

كان ظهور هذه الموجة الجديدة فى الأدب هو أول صدمة
للمعداوى ؛ لأنها زحزحته عن مكانته النقدية البارزة وأفسحت

المجال لنقاد آخرين ، وقد اصطدم المعداوى مع أبرز نقاد هذه المرحلة « من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٨ » وهو محمود أمين العالم ، فقد كتب المعداوى ينقد رواية « الأرض » لعبد الرحمن الشراقوى ، وكانت نموذجاً يعترضه النقاد الواقعيون ويعتبرونه أحد الأمثلة العليا للأدب الجديد ، ورد عليه العالم يطالبه بالدليل ، فكتب المعداوى بحثاً نقدياً طويلاً يثبت فيه أن رواية الأرض ما هي إلا « ريبورتاج صحفى وسياسى كبير » ، وأنها رواية ضعيفة من الناحية الفنية ضعفاً واضحاً ، وكان ميدان هذه المعركة هو مجلة الآداب اللبنانية ، وقد نشر المعداوى بحثه عن رواية الأرض بعد ذلك فى كتابه « كلمات فى الآداب » وهو الكتاب الذى ظهر بعد وفاته بقليل .

وليس المهم هنا هو أن نستعرض تفاصيل هذه المعركة الأدبية حول رواية « الأرض » ، ولكن المهم هو أن نشير إلى أن المعداوى لم يكن على وفاق مع نقاد اليسار ؛ لأنه لم يكن يجب أبداً أن يضحى « بالقيمة الجمالية » فى الآداب لحساب القيمة الموضوعية ، ولم تكن الدوافع السياسية تكفى لديه لكى يكون للآداب عنده قيمة وأهمية ، بل كان يحرص أشد الحرص على القيمة الفنية أولاً وقبل كل شئ ، وقد كان هذا الموقف من جانب المعداوى فى دفاعه عن « الجمال الفنى » وعدم التضحية بهذا الجمال لحساب الفكر أو الموضوع ؛ كان هذا الموقف من المواقف الهامة التى خدمت الآداب العربى الجديد وأنقذته من التحول إلى منشورات سياسية باردة .

ورغم أن المعداوى واجه معركته مع النقد اليسارى بقوة وشجاعة فإنه أحس أن موجة النقد اليسارى التى كانت طاغية فى أوائل الخمسينات قد وقفت منه موقف « اللا مبالة » مع شئ من التوجس والحذر .

وهنا نتوقف لحظة لنشير إلى المحنة التي وقع فيها « أنور المعداوى » باعتبارها ناقدا يمكننا أن نسميه باسم الناقد « اللا متتمى » ، لقد وقع في أزمة مع نقاد اليسار ؛ لأنه كان يرفض التضحية بالجمال الفني من أجل الفكرة السياسية ، ووقع في نفس الوقت في أزمة أشد وأقسى مع اليمين الأدبي ؛ لأن أدب اليمين في مصر كان أدبا سطحيا تافها يهدف إلى الاثارة والرواج التجارى قبل كل شيء ، وهو أدب لا قيمة له لا من ناحية الفكر ولا من ناحية الجمال الفني .

وهكذا وجد المعداوى نفسه وحيدا بين معسكرين كبيرين : معسكر اليسار ومعسكر اليمين ، لقد كان يرفع رايته الخاصة وهي راية الجمال الفني قبل أى شيء آخر ، وهذه « الوحدة » التي سقط فيها المعداوى سدت أمامه السبل ، فلم يهتم اليساريون بدعوته للكتابة في صحفهم لأنهم سلبيون لإزاءه ، أما اليمين الأدبي فقد حاربه بضراوة وعنف حتى آخر لحظة له في حياته .

وهذه الوحدة أو العزلة التي تعرض لها المعداوى كانت من أقوى الأسباب التي سدت في طريقه أبواب الحياة الأدبية بعد أن كانت مفتوحة له على مصراعيها في المرحلة الأولى من حياته .

ولا شك أن اليسار قد أخطأ في موقفه من المعداوى ؛ لأنه كان كاتباً وطنيا جادا وكان ناقدا شجاعا ، ولم يقبل أن يكون أبدا على وفاق مع اليمين الأدبي ، ولقد كان من أجل هذا كله جديرا بالاهتمام والرعاية من معسكر اليسار الأدبي ، الذي أهمله واتخذ منه موقف السلبية وعدم الاهتمام أو المبالاة .

أنور المعداوى ومأساته الخاصة

بينما كان أنور المعداوى يعاني من صراعه مع الحياة الأدبية كما شرحنا ذلك فى الفصل السابق ، ويحاول أن يخرج من هذا الصراع منتصرا أو على الأقل واقفا على قدميه وسط الأعاصير التى كانت تعمل على اقتلاعه من جذوره والقضاء عليه ، بينما كان المعداوى يعاني من هذا الصراع وقعت له أزمة أخرى فى حياته الشخصية، لقد كان موظفا فى « إدارة الثقافة » بوزارة المعارف ، وذات يوم اصطدم بمدير هذه الإدارة وكان فى ذلك الحين هو الدكتور سليمان حزين ، وكان الصدام حول تقرير كتبه المعداوى لمديره ، وقد أراد المدير أن يغير فى هذا التقرير بحجة ضعف بعض عباراته ولم يقبل المعداوى ذلك واحتج بشدة وعننف .

كان المعداوى - كما يقول فى إحدى رسائله الى فدوى طوقان - يريد من الناس أن يعاملوه على قدر منصبه « الثقافى » - ولكن مديره أراد أن يعامله على قدر منصبه « الحكومى » ، وكان منصب المعداوى الثقافى

كبيراً في ذلك الحين بينما كان منصبه الحكومي بسيطاً ، فقد كان في أول سلم الوظيفة لأنه مازال شاباً تخرج من الجامعة منذ أقل من عشر سنوات .

وعندما انتقل الدكتور سليمان حزين ليعمل وكيلاً لوزارة المعارف بعد ذلك لم ينس موقف المداوى منه ، وأصدر الوكيل قراراً بنقل المداوى من وظيفته في إدارة الثقافة بوزارة المعارف إلى وظيفة أخرى هي وظيفة مدرس اللغة العربية بمدرسة خليل أغا الثانوية بالقاهرة .

وكان موقف الدكتور حزين انتقامياً وقاسياً وغير عادل على الإطلاق ، رغم أن الدكتور حزين عالم كبير وكاتب كبير وأستاذ بارز من أساتذة الجيل ، وكان هذا الصدام بين المداوى و« البيروقراطية » صداماً مرّاً ، حيث وجد المداوى نفسه فجأة وهو مطالب بتدريس النحو والإنشاء والنصوص الشعرية الرديئة لتلاميذ المدارس الثانوية ، بعد أن كان في عمله القديم يقوم بمهمة ثقافية هي اختيار الكتب المناسبة لمكتبات المدارس .

وقد تأثر المداوى أشد التأثير بسبب قرار نقله إلى التدريس ، وحاول أن يلغى القرار فلم يستطع ولم تمتد إليه يد بالعون . . وهو الذي كان بالأمس يمد يده بالعون للكثيرين ، ولم يستطع المداوى أن يجد لنفسه مكاناً مناسباً في الصحافة ، وتخلّى عنه - مع الأسف - جميع أصدقائه من كبار الصحفيين ومن بينهم كامل الشناوى وأحمد الصاوى محمد وغيرهما من أصحاب الكلمة المسموعة في الصحافة المصرية آنذاك .

وحاصرتة من ناحية أخرى « لا مبالاة » اليسار وحذره منه ، وكراهية اليمين الأدبي له وحربه عليه .

واضطر المعداوى إلى أن يعمل مدرسا لمدة ثلاث سنوات فيما أذكر ما بين ١٩٥٤ و ١٩٥٧ ، ثم ترك التدريس وفصلته وزارة المعارف بسبب تغيبه عن عمله بدون إذن ، وبقي فترة من الوقت بلا عمل ، وأخيرا سعى له بعض أصدقائه حتى تم تعيينه موظفا بالمكافأة - أى على غير درجة ثابتة - بوزارة الثقافة ، وظل في هذا العمل المتواضع حتى وفاته سنة ١٩٦٥ وكان على رأس الذين وقفوا بجانبه وساعدوه في تلك الفترة الأديب الكبير يحيى حقى .

تأثر المعداوى أشد التأثير بصراعه مع « البيروقراطية » في وزارة المعارف ، وأحس بأن قيمته الأدبية وكفاحه الثقافى يهدران إهدارا غير كريم ، وكان المعداوى محقا في إحساسه كل الحق ، فلقد كان موقف وزارة المعارف منه هو حرب من « البيروقراطية » ضد الموهبة ، وكانت حربا غير عادلة وغير رحيمة .

على أن المحنة التى أصابت المعداوى في عمله ، والجرح الذى أصيبت به نفسه في صراعه مع البيروقراطية قد أضيفت إليهما محنة أخرى هى محنة المرض الذى أصاب المعداوى منذ سنة ١٩٥٣ وظل مصاحبا له حتى وفاته في ١٩٦٥ .

ولم يكن مرض المعداوى واحدا بل كان أكثر من مرض . كان أول مرض عانى منه المعداوى هو مرض « الكلى » ، وكان هذا المرض يسبب له آلاما شديدة ، وقد أجريت له عملية جراحية خطيرة لإخراج « حصوة » من إحدى كليتيه ، ولكن هذه العملية لم تنجح نجاحا كاملا . بل كان من الضروري إجراء عملية جديدة ، ولكنه رفض هذه العملية الأخرى وظل يعالج نفسه بالمسكنات حتى النهاية .

أما المرض الثانى فهو المرض القاتل الذى أصابه فى أواخر الخمسينات وهو « ضغط الدم الخبيث » ، ويحدثنا المداوى نفسه عن هذا المرض فى رسالة بعث بها سنة ١٩٦٣ إلى الأستاذ غالى شكرى ونشر الدكتور لويس عوض نصها عندما كتب عن المداوى وعن محنته فى مقال له فى الأهرام بعنوان « رفض الحياة » ، وقد نشرت الأهرام هذا المقال فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ .

يقول المداوى فى رسالته :

« . . الذى حدث لى يا عزيزى غالى أننى مصاب بضغط دم يسميه الأطباء « ضغط الدم الخبيث » . . . ولقد سبب هذا النوع من الضغط التهابا فى أعصاب المخ ترتب عليه أننى مكثت أربعة أشهر لا أنام فى اليوم بأكمله غير ثلاث ساعات ، ولقد سببت لى قلة النوم انهيارا فى الأعصاب حتى أصبحت لا أستطيع النوم الآن بغير الأقراص المنومة ، رغم خطورة الاستعمال الدائم لها ، وأنا الآن ومنذ شهرين فى الإسكندرية أعالج الأعصاب المرهقة من قلة النوم ، ولقد زارنى هنا الأستاذ يحيى حقى واطلع بنفسه على أكداس الأدوية التى قررها الأطباء ، ولا أدري يا عزيزى غالى متى ينتهى العلاج » .

هذا هو وصف المداوى لمرض ضغط الدم الذى أصابه فى سنواته الأخيرة والذى كان سببا رئيسيا فى وفاته .

وقد أصيب المداوى نتيجة لهذين المرضين ، ونتيجة للمرض الأخير بالذات بحالة من الكآبة النفسية البالغة التى يصفها لنا الدكتور لويس عوض فى مقاله فيقول :

« لست أدري كيف أبدأ هذا المقال عن رفض الحياة ، لأن موضوعى هذه المرة ليس مشكلة أدبية أو ثقافية ولكنه مشكلة

إنسانية . وهذه المشكلة تتصل بزميل لنا في القلم كلنا نقدر فضله على النقد الأدبي مهما اختلفنا معه في الرأي أو تعددت انتساءاتنا الأدبية ومدارسنا الفنية ومناهجنا في البحث عن الحقيقة . وهذا الزميل في القلم هو الناقد المعروف أنور المعداوى ، صاحب كتاب « نماذج فنية من الأدب والنقد » الذى صدر فى عام ١٩٥١ ، وصاحب البحوث الأدبية العديدة فى مجلة « الرسالة » أيام ازدهارها وفى مجلة « المجلة » وسواهما من مجلات الأدب والثقافة فى مصر وغيرها من بلاد العالم العربى .

أقول إنها مشكلة إنسانية لأن الأنباء تواترت بأن هذا الزميل الكريم قد قرر أو قرر له أن يعتزل المجتمع وكل ما فيه من ناس وشئون . وأن يعتزل الأدب والفن والفكر ، باختصار قرر أو قرر له أن يعتزل الحياة . تواترت الأنباء أن أنور المعداوى قد قرر أو قرر له منذ شهور أن يترك القاهرة وصراعاتها وأن يعتكف فى قريته وهى معدية مهدى بمحافضة كفر الشيخ ، وأن يخلع البدلة وأن يعود إلى الجلباب يلبسه طول اليوم وألا يرى أحدا ولا يراه أحد ، وأن يجلس عامة النهار صامتا أو شبه صامت يفكر فى لا شيء على وجه التحديد ، أو يفكر فى أشياء الله وحده يعلم ما هى ومن أين نبعت وأين تصب ، لأنها أفكار انطوائية من أفكار النفس المغلقة على ذاتها التى لا تتصل إلى الحياة بسبب معروف ، أفكار لا يستطيع قراءاتها إلا الأطباء النفسانيون لأنها مقطوعة الوشائج بالحياة الخارجية . فان سألتنى ما علة أنور المعداوى لم أعرف لك جوابا : قيل إنها انهيار عصبي ، وقيل إنها داء الكتابة أو الميلانكوريا ، ولعلها تكون غير ذلك من أمراض النفس الكثيرة التى لا يحسن تشخيصها إلا الأطباء النفسانيون ، وهى فى صميمها تابعة من رفض الحياة .

هذا هو ما يقوله الدكتور لويس عوض .

على أن أنور المعداوى فى رسالته التى كتبها إلى غالى شكرى يفض
هذا « التشخيص » الذى يقدمه لويس عوض لمرضه فيقول فى هذه
الرسالة :

« يا عزيزى غالى
أرجو أن تقوم بالنيابة عني بتكذيب الإشاعة الرائجة بأننى أعانى من
أزمة نفسية ، أقسم لك بأخوتنا أن هذا كذب واختلاق ولا أساس له
من الصحة ، ولست أنا الذى ترغمه الأزمات النفسية على العزلة
والانطواء ، إنك أول من يعرف عني هذه الحقيقة ، ولعلك تنفيها من
الأساس » .

ويعلق الدكتور لويس عوض على هذه الفقرة من خطاب أنور
المعداوى فيقول وهو على حق تماما فيما يقول :

« واضح من هذا الخطاب أن أنور المعداوى رجل صاحب عزة
وأنفه وإيمان بقوته وقدرته على احتمال الشدائد بحيث يأتى أن يقال عنه إنه
أصيب بأزمة نفسية أو أن انطواءه كان نتيجة لتخاذله أمام
أزمات النفس ، ونحن الأدباء لا نستغرب منه هذا القول لأننا نعرف
أنور المعداوى أديبا معتدا برأيه وكرامته وشخصيته وناقدا مقداما
صائلا جاثلا خواصا للمعارك فى سبيل الحق أو فى سبيل ما يعتقد أنه
الحق » .

ثم يواصل الدكتور لويس عوض تعليقه على خطاب المعداوى
فيقول :

« . . ومع ذلك فإن بقية الخطاب تدل على أن المداوى مريض فعلا بمرض من أمراض النفس ، فما التهاب أعصاب المخ الذي يتحدث عنه - لا شك عن تشخيص الأطباء - إلا النورستانيا فيما نعلم ، وهى التى تمنع صاحبها من النوم إلا بمساعدة الحبوب المنومة ، وسواء أسمىنا ما يعانى منه أنور المداوى مرضا من أمراض النفس أو مرضا من أمراض الأعصاب فالنتيجة فى الحالتين واحدة وهى أنه مريض مرضا شديدا ، وهى أن مرضه قد أفضى به إلى الانزواء هذا الانزواء التام فى قريته ورفض الحياة جملة وتفصيلا . بل إننا نفهم من كلام بعض الأطباء أن هذا النوع من الأمراض إذا استطال واستعصى ولم يجد صاحبه الرعاية الكافية والعلاج الكافى قد يكون خطرا على الحياة نفسها . ونحن نبغض أن نتصور ناقدنا نابها وخادما مخلصا لحياتنا الأدبية كأنور المداوى لا يزال فى صدر رجولته فهو لم يتجاوز الثانية والأربعين من عمره ، معرض لهذا المعرض الأليم . فهو إذن بحاجة إلى عين تسهر على صحته ، وهو إذن بحاجة إلى يد تعينه على دفع غائلة هذا المرض الويل ، وهو ليس وحده المحتاج إلى هذه العين الساهرة وهذه اليد المعينة ، لأن الأدب العربى والنقد العربى بحاجة إلى أنور المداوى الذى لا يزال فى مستقبل حياته والذى نرجو أن يعود إلى دولة القلم ليشرى أدبنا بعلمه ورأيه » .

هذه الصرخة التى صرخها الدكتور لويس عوض فى أواخر سنة ١٩٦٣ لم تجد شيئا فى إنقاذ أنور المداوى ، فقد ظل المداوى أسيرا لمرضه حتى مات بعد صرخة لويس عوض بعامين وثلاثة أسابيع ، فقد توفى المداوى - كما أشرنا من قبل - فى ٧ ديسمبر ١٩٦٥ .

ويقول لويس عوض في مقاله أيضا :

« لقد جاء إلى علمي أن أحد الأدباء ميسور الحال من المشتغلين بشئون الثقافة^(١) ، استحي من ذكر اسمه حتى لا أخجله يرسل له كل شهر من ماله الخاص مرتبه الذي كان يتقاضاه من وزارة الثقافة بعد أن قطعت وزارة الثقافة هذا المرتب بسبب انقطاعه عن العمل . . إن هذا الأديب الكريم يرسل للمعداوى مرتبه من ماله الخاص ليس فقط لأن المعداوى - وهو من أسرة كريمة - كآثرنا بحاجة إلى مرتبه ليعيش ، ولكن لجعله يحس أنه لا يزال موظفا في الدولة ، وأن الأسباب لم تنقطع بينه وبين الحياة ، وأن مكانه في المجتمع لا يزال محفوظا له ، وما عليه إلا أن يعود إلى القاهرة ليحتله من جديد ، وكأنه الآن في إجازة لا أكثر ولا أقل ، وما ذكرت هذا الأمر إلا لدلالته على أن بلادنا مازالت بخير وأن الأوفياء من أبنائها وأهل الشهامة والفروسية مازالوا كثيرين تجدهم في كل ركن وفي كل قطاع من قطاعات المجتمع ، وأن هؤلاء الفرسان الأوفياء يصلحون بوفائهم وفروسياتهم ما يفسده الروتين الحكومي والجمود البيروقراطي . »

وينقل الدكتور لويس عوض حديثا لأحد الأدباء الذين زاروا المعداوى في قريته أثناء مرضه فيقول : « حدثني أحد هؤلاء الأدباء

(١) هذا الأديب الذي لم يذكر الدكتور لويس اسمه هو الأستاذ الفاضل محمود شعبان الذي كان موظفا بوزارة الثقافة ، ثم انتقل أخيرا إلى العمل كخبير بالمجالس القومية المتخصصة ، وكان شعبان صديقا مخلصا للمعداوى ولم يتخل عنه أبدا في أيام محنته ، وقد حدثني الأستاذ شعبان أن ما كان يدفعه للمعداوى كان نوعا من القرض ، وأن المعداوى قد سدد له كل ملهم أخذه منه قبل وفاته ، وقد توفي الأستاذ شعبان في أوائل ١٩٨٩ ، رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان من أنبل الشخصيات التي عرفتها في حياتنا الثقافية .

الأوفياء الذين عادوا المعداوى أثناء مرضه ، وهو محمود السعدنى ،
قال :

كأنى به يريد أن يعود إلى رحم الأم من جديد ، هكذا بلغت رغبته
فى الانسحاب من الحياة ، فهو لا يقرأ حتى الصحيفة اليومية ، وحين
فاجأه صوت الترانزستور الذى كنت أحمله ثار فى وجهى ثورة تبلغ
مبلغ الهياج وأمرنى أن أقفل الراديو ، وهو يأبى أن يسمع أى شىء
يتصل بمجرى الحياة ولا سيما فى محيط الأدب والأدباء .

هذا هو المعداوى فى أزمتة المرضية التى انتهت إليها ، حرصت على
أن أنقلها بقدر كبير من التفصيل من خلال تلك الصورة الدقيقة التى
رسمها الدكتور لويس عوض ، وهى صورة صحيحة تماما ، وقد ظل
المعداوى على هذه الحالة النفسية المكتئبة الحزينة حتى بعد عودته إلى
القاهرة فى أوائل سنة ١٩٦٤ ، رغم أنه كان ينكر فى أحاديثه أى قول
بأنه يعانى أزمة نفسية ، وكان ينكر أيضا أنه فى حاجة إلى علاج آخر
غير علاج الجسد ، فقد كان على الدوام شديد الكبرياء حريصا على
ألا يجرحه أحد أو موقف من مواقف الحياة .

على أننى أود اليوم - للحقيقة والتاريخ - أن أضيف شيئا عن
مرضه ، فلم يكن المعداوى يعانى فقط من مرض الكلى أو ضغط
الدم ، فقد كان هناك مرض ثالث لست أشك فى أنه كان يعانى منه ،
وأنه كان يسبب له كثيرا من ألوان الضيق والأزمات النفسية الخفية ،
ولست أشك فى أن هذا المرض الأخير كان من أكبر أسباب المحنة التى
تعرضت لها شخصية المعداوى ونفسيته .

لقد كان المعداوى - فى رأى - يعانى مرضا من الأمراض التى منعتها
من الزواج ، وقد حاول أن يخفى هذا المرض عن الجميع ، وظل
يعانى منه وحده حتى مات .

كان المعداوى عندما لقيته لأول مرة سنة ١٩٥١ فى الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان شديد الأناقة والوسامة مشرقا قويا طويل القامة مليئا بالصحة والعافية مقبلا على الحياة . . ولم أكن أتصور على الإطلاق أن مثل هذه القوة والحيوية المتفجرة والقامة المديدة يمكن أن يكون وراءها مرض من هذه الأمراض الخفية التى تحول بين صاحبها وممارسة الحياة الطبيعية ، ولم يخطر على بالى مثل هذا الخاطر أبدا ، ولكن فكرتني عن هذا المرض الذى كان المعداوى يعانيه بدأت تولد فى ذهني بعد لقائنا الأول بسنوات عديدة ومن خلال ملاحظات تجمعت فى ذهني واحدة بعد الأخرى حتى تكاملت صورة تقريبية لهذا المرض فى آخر الأمر .

كنت أسأل المعداوى عن سر عدم زواجه فكان يجيب بأنه لا يامن الظروف الاجتماعية ، ولا يحب أن يحنى رأسه ، ولا يريد أن يعرض أولاده لأى مشكلة من مشاكل الحياة فى مجتمع مثل مجتمعنا لا يرحم .

وقد كانت هذه الفكرة غريبة بالنسبة للمعداوى ، وخاصة فى أوائل الخمسينات عندما كان المعداوى فى مقتبل حياته وكامل قوته ، وكان نجمه الأدبى متألعا ، وكانت الحياة تفتح له آنذاك ذراعها بقوة وحرارة ؛ ولذلك فلم يكن هناك مبرر لهذا التشاؤم المبكر ولم يكن هناك تفسير سليم له .

ثم لاحظت بعد ذلك أن كل علاقات المعداوى العاطفية التى كتب عنها أو حدثني بها دون أن يكتب حولها شيئا . . هذه العلاقات العاطفية كلها كانت تنتهى بالفشل على الدوام . وقد كتب عن علاقة عاطفية له فى مقال وجداني نشره سنة ١٩٤٨ فى مجلة « الرسالة » بعنوان « من الأعماق » وأنهى المقال بأن حبيبته قد ماتت فجأة فى ليلة

عيد ، وقد حدثني المعداوى عن أن هذه العلاقة لم تنته بالموت كما كتب في مقاله الوجداني وإنما انتهت بالافتراق لسبب من الأسباب ، وهذا هو ما كتبه لفدوى طوقان في إحدى رسائله المنشورة في هذا الكتاب ، وقد قال لفدوى أيضا إن صاحبة « من الأعماق » لم تمت ، وإنما حدث بينهما فراق اعتبره المعداوى نوعا من الموت الذى أنهى هذه العلاقة .

و ذات يوم في أواخر الخمسينات قال لى المعداوى : « إننى سوف أكشف لك سرا لم أكشفه لأحد عن حياتى ، ولكننى لن أقوله لك الآن ، وسوف أضع هذا السر أمانة في عنقك وحدك بعد أن عرفتك وعرفت مدى وفائك لى » .

ولكن الأيام مرت وتوفى « المعداوى » دون أن يقول لى شيئا عن هذا السر الذى أشار إليه .

ومرة أخرى قال لى إنه سأل فتاة كانت تحبه أشد الحب : هل بالإمكان أن نتزوج دون أن تكون بيننا علاقة جسدية ؟ فأجابته الفتاة بأن كل ما يهمها منه هو الحب ، هو قلبه وعاطفته ، ولكن الفتاة ذهبت في اليوم التالى ولم تعد إليه أبدا .

وقد روى لى هذه القصة وهو يقول لى : إن المرأة لا يمكن أن تحب بقلبها فقط ولكنها تحب بجسدها أيضا ولا تستطيع أن تستغنى عن ذلك .

و كنت ألاحظ أن برنامج حياته في القاهرة كان واحدا لا يتغير ، فهو في عمله صباحا ، أما في المساء فهو في ندوته بمقهى « عبد الله » في الجزيرة أو « مقهى انديانا » أو مقهى « بارادى » بالدقى ، و كنت

أسأل نفسي أحيانا في فضول : أليس هذا الأديب الموهوب والرجل
الرشيق الوسيم علاقة حب تشغل بعض وقته وتغلب جانبا من
حياته ؟ . . . وكنت لا أجد جوابا عن هذا السؤال .

وفي رسائله إلى فدوى طوقان سوف نلاحظ أنه في القسم الأول من
هذه الرسائل يحاول أن يؤكد لفدوى أن شعوره نحوها هو شعور
الأخوة الصادقة ، وكان يحاول أن يهرب من أى تلميح من جانبه إلى
أى معنى عاطفى ، وعندما بدأت فدوى تبوح بعواطفها نحوه ، وبدأ
هو يعجز عن كتمان عواطفه هو الآخر إذا به فجأة يكتب لها : يجب
الآن أن نفترق ، أى أنه بعد أن بدأت علاقته بفدوى تأخذ طابعا
عاطفيا قرر الحرب وقطع علاقته بها . وقد اضطربت فدوى لهذا
الموقف المفاجيء من كان يهتم بها أشد الاهتمام ، ويحنو عليها حنوا
بالغا في رسائله السابقة ، على أننا نجد المعداوى يعود مرة أخرى
وبصورة مفاجئة إلى فدوى ، ولكن بعد أن أصابه المرض وأحس
بحاجته المعنوية إليها ، وهو عندما يعود يبرر عودته بأنه اطمأن إلى أن
فدوى « لا تهدف من وراء الحب إلا إلى الحب ذاته » حيث يقول لها
في رسالته السادسة عشرة :

« . . . إن الموت هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يفرق بينى
وبينك ، ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أننى لن أقول لك
بعد اليوم : وداعا ؟ . . . إنها كلمة قتلها بالأمس ، وشرحت لك
دوافعها النفسية . . . قتلها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر
فى حياتك ، ولشد ما أتوق اليوم إلى لقاءك لأعتذر إليك . . . ولأقول
لك كما قلت بالأمس : لقد كنت أشفق عليك يافدوى . . . أشفق
عليك من حب لا أمل فيه ، حتى هذه الأمنية الصغيرة ، أمنية اللقاء

بين إنسان وإنسانة يعيش أحدهما في القاهرة ويعيش الآخر في نابلس . . وأقول لك أيضا لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة ، بأن أتركك للزمن ليقدم إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان . . ولم أكن أعلم أن لك أنت الأخرى فلسفة حين قلت إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته . . هو أن يجد الإنسان في هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ، لأننى سأكون إلى جانبك : بكل خلجة نفس وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دقات الشعور . . وتسألينى الرأى فى هذه الفلسفة فأقول : إننى مؤمن بها لأننى أومن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح ! » .

ثم يقول بعد ذلك فى الرسالة نفسها :

« لن أشفق عليك إذن يا فدوى العزيزة ، يا شريكة حياتى ، ولو فصلت بيننا الأماد والأبعاد . . نعم أنت شريكة الحياة طالت أم قصرت ، ابتسمت أم تجهمت ، حكمت بالبعد بين نابلس والقاهرة أم جادت بالقرب وأذنت باللقاء ! » .

وهنا نتساءل : لماذا اندفع المعداوى فى البداية إلى تقديم عواطف الود الحارة إلى فدوى بشكل يكاد يمثل نوعا من الإغراء العاطفى ، وعندما تجاوزت فدوى معه أثر الهروب ؟ ثم لماذا عاد إليها عندما اطمأن إلى أنها « لا تهدف من وراء الحب إلا إلى الحب ذاته » ، أى عندما اطمأن إلى أنها لا تفكر فى أن تتجاوز علاقتها به تلك الحدود المثالية الرومانسية التى تتمثل فى تبادل الرسائل وكتابة الأشعار ، ولا تزيد على ذلك خطوة واحدة ، وعندما تكتب فدوى إليه بأن أملها من « وراء الحب هو الحب ذاته » ثم تسأله رأيه فى هذه الفلسفة فإنه يصرخ صرخة فرح ويقول : إننى مؤمن بهذه الفلسفة لأننى أومن

بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح ، ثم يقول المعداوى لفدوى بعد ذلك « يا شريكة حياتى » ، وهى عبارة لا تقال عادة إلا للزوجة ، ترى هل اعتبر المعداوى أن ما بينهما من علاقة روحية هو كل المطلوب لكى تصبح فدوى شريكة حياته ؟ . كل هذه المواقف والعبارات تميل إلى ترجيح رأى الذى انتهيت إليه ، وهو أن أنور المعداوى كان يعانى من مرض يمنعه من الزواج ، ويجعل من كل حب عنده « حبا لا أمل فيه » .

وليس من الضروري أبدا أن يكون هذا المرض أمرا يتصل بالجنس ، فقد يكون الإنسان صاحب عافية ويعيدا عن المرض المباشر فى هذا المجال ، ولكنه يكون فى نفس الوقت خاضعا لمشكلة نفسية حادة تمنعه من الزواج ؛ أو يكون مريضا بمرض عضوى آخر ينصحه الأطباء معها بعدم الإقدام على الزواج ، لما قد يمثله ذلك من خطورة على حياته .

وقصة علاقة المعداوى بفدوى كانت تتكرر فى معظم علاقاته العاطفية الأخرى التى حدثت عنها : تبدأ القصة بعاطفة حارة ثم تنتهى بمحاولة للهروب من جانبه أو من الجانب الآخر ، وتكون النتيجة هى فشل كل العلاقات العاطفية التى نشأت فى حياته .

وأذكر أن المعداوى كان يتوهم بعض الوقائع التى لم تحدث فى حياته العاطفية ، وكنت أكتشف أن هذه الوقائع إنما تقوم على الأوهام ؛ لأنه يذكرها أمامى أكثر من مرة بأكثر من صورة ، وعلى سبيل المثال فقد ذكرلى أنه التقى الشاعرة المصرية « ن . ط . ع » وأنها كانت تحبه ، وأنه كان يلتقى معها فى أطراف مصر الجديدة ، ولكنه عاد فذكرلى أنه

لم ير هذه الشاعرة في حياته ، وكرر أمامى هذه القصص المتناقضة عدة مرات خلال السنوات التى عرفته فيها معرفة وثيقة والتى امتدت من ١٩٥١ حتى وفاته سنة ١٩٦٥ ، وفى اعتقاده أن الصحيح هو أنه لم يلتق الشاعرة المصرية ، فهذه الشاعرة كانت شابة صغيرة وكانت مهمومة أشد الهم بأزماتها النفسية ومرضها الذى قضى على حياتها وهى فى مقتبل العمر ، وقصائد الشاعرة المصرية أمامنا وليس فيها أى حديث عن الحب ، بل إن هذا الشعر المنشور يدور كله حول السعادة والشقاء وغيرهما من المعانى الفلسفية للحياة ، أما العاطفة وتجارب العاطفة فهى بعيدة كل البعد عن شعر هذه الفنانة التى قضى عليها الحزن والمرض والعزلة عن الحياة . . وقد تناولت حياة هذه الشاعرة وفنها ومأساتها بشيء من التفصيل فى التعليق على رسالة المعداوى الخامسة إلى فدوى طوقان .

هذه الظواهر كلها إنما تدل على شيء واحد هو أن علاقة المعداوى بالمرأة كان فيها سرما ، وهذا السر فى رأى هو مرضه الذى أخفاه عن الناس وتحمل آلامه بشجاعة وكتمان ، وقد كان هذا المرض من الأمراض التى تمنع صاحبها من الزواج .

هل نحتاج إلى أدلة جديدة غير الأدلة السابقة على وجود هذا المرض فى حياة المعداوى ؟ . . هناك دليل آخر له أهمية كبرى فى هذا المجال ، وهذا الدليل يقدمه لنا أدب المعداوى نفسه ، ففى بعض دراساته ومقالاته ، وفى بعض القصص التى كان يكتبها أحيانا أو يترجمها عن الفرنسية ، كان هناك فكرة « متسلطة على ذهنه » ، هذه الفكرة هى : فشل العلاقات الزوجية أو العاطفية بسبب وجود عجز معين عند الرجل أو المرأة .

ففى مقاله عن « مشكلة العلاقة بين مى وجبران » يفسر لنا المعداوى فشل هذه العلاقة بما أسماه « الأنوثة المقتولة » عند مى . . يقول المعداوى فى بداية هذا البحث المنشور فى كتابه « كلمات فى الأدب » فى الصفحة الخامسة والعشرين :

« . . إن صورة تلك العلاقة بين مى وجبران قد بدأت فى نفسى داخل إطار من الشك المثير ، أما مصدر هذا الشك فهو طبيعة مى ، ولقد بدت لى هذه الطبيعة يوما وهى مغلفة بالانحراف ملفعة بالشذوذ ، حتى استحالت فى بوتقة الفكر إلى سؤال حائر ينتظر الجواب . . هل كانت مى امرأة ؟ امرأة ورثت كغيرها من النساء تلك التركة الخالدة عن الأم الأولى وهى حواء ؟

إن المرأة الطبيعية فى رأى هى تلك التى يستيقظ فى أعماقها الشعور بالرجل ، سواء أكانت هذه اليقظة فى صورة حب مضطرم ، أم كانت فى صورة عاطفة جياشة أم كانت فى صورة حس مشبوب . . هذه هى المرأة الطبيعية ، أما المرأة الشاذة فهى تلك التى « تنام » فى أعماقها مثل هذه « اليقظة » ، هى تلك التى تلهب دون ان تحس بين جنبىها وهج النار ، هى تلك التى تثير ولا تثار . . هى مى فى حقيقتها العميقة التى لم تتذوق طعم الحب لأنها فقدت شهية الأنوثة ، وهذا هو الباب المغلق الذى يحتاج ليفتح على مصراعية إلى طرق عنيف .

لقد تتبعت حياتها النفسية وهى بين الرجال ، وهى فى صالونها الأدبى ، وكان من بين أولئك الذين يحيطون بها رجال ممتازون . . بعضهم لا تنقصه الرجولة ، وبعضهم لا تنقصه الشهرة . . وبعضهم لا تنقصه المكانة الادبية والاجتماعية . وكل هذه الصفات جديرة بلفت نظر المرأة واجتذاب أعرق ما فيها من غرائز الأنوثة ، تلك التى تنشد فى الرجل وجها معيناً من وجوه الإشارة . كانت تجتمع بهم

وتتحدث إليهم ، ثم لا شيء وراء الحديث المألوف واللقاء المتكرر مما يتصل بالشعور الأنثوى والعاطفة الوجدانية . . »

ثم يقول مرة أخرى تعليقا على رسالتين متبادلتين بين مي وجبران :

« . . هذه هي المرأة التي كان يخاطبها جبران . . المرأة التي كان يخاطبها بلغة الشعر فتخاطبه بلغة الشعر ، ويحدثها عن قلبه وهويين يدي الأشواق فتحدثه عن رأسها وهويين يدي الحلاق ، وإنه لحديث الأنوثة المكفنة بأثواب العدم ومن حولها صرخة من أصدق صرخات الوجود . أنوثة مقتولة ولو التمسست لها « مي » شتى الأسباب والمعاذير . »

وكتب المعداوى تعليقا آخر على رسالة من « مي » إلى جبران تقول فيها :

« . . لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت . . وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا ، أن هناك « رجلا » أخاطبه ! فأكلمك كما أكلم نفسي ، وأحيانا كأنك رفيقة لي في المدرسة . »

ويكتب المعداوى في تعليقه على رسالة مي :

« هكذا تكلمت مي ، وإذا تكلمت مي فليس هناك زيادة لمستزيد . . إن ذلك « الشيء » الذي سألت عنه جبران قد أجابت عنه هنا في لحظة غضب ناثرة ، ولم يكن في كلمة واحدة غير « الأنوثة المقتولة » . وإذا ما قتلت الأنوثة في أعماق المرأة فقد قتل إحساسها بالرجل وانمحت الفوارق الجنسية في عالم الشعور . . يبدو الرجل في

منظارها وهو لا يختلف عنها في شيء ، . لأنها حرمت حاسة الجنس
وسلبت توجيه الغريزة ، وقل بعد ذلك إنه فقد الشهية نحو الأشياء
وما يترتب عليه من أثر في سلوك الأحياء : تفقد شهية الطموح فتزهد
في المجد ، وتفقد شهية الأكل فتعزف عن الطعام . . وكذلك المرأة
حين تفقد شهية الأنوثة فتنسى الرجل وتنفر من الحب . لقد كانت
« مى » في تلك السطور الأخيرة التي كتبتها لجبران هي المرأة التي
« نسيت » ان هناك « رجلا » تحاطبه ، وكل امرأة تتعرض لهذا
الشذوذ فهي واحدة من اثنتين : امرأة يتجرد إزاءها الرجل من أعظم
صفات الرجولة فإذا هو في بوتقة إحساسها « رفيقة » من عالم النساء ،
وامرأة تتجرد إزاء الرجل من أبرز الخصائص الأنوثة فإذا هي في
البوتقة نفسها « رفيق » من عالم الرجال ، ومن هنا ينقطع التيار
العاطفي بينها وبينه وكأنه تيار كهربائي بين قطبين سالبين . . وهذا هو
المفتاح .

هذا هو ما كتبه المداوى عن مى ، واذا أخذنا بمقاييسه ، فنحن
نردد الأسئلة نفسها حول شخصيته . . لماذا يهرب من الحب عندما
يولد في حياته ؟ ولماذا ينهي علاقته العاطفية بأى امرأة عندما تقترب
من النجاح ؟ ولماذا يحرص على أن يكون الحب كالفن روحا فوق
المادة ؟ ولماذا يرى في آخر الامر هذا التفسير الغريب لشخصية مى ،
إن لم تكن هناك فكرة ثابتة مسيطرة على ذهنه وهي فكرة الأنوثة المقتولة
أو ما يجادلها من الرجولة المقتولة ؟ . . الغريب أن الأبحاث العلمية
الجديدة قد اكتشفت بأدلة شبه قاطعة أن « جبران » هو الذى كان
يشكو من مرض يمنعه من الزواج . . مرض عضوى كان يفرض عليه
- بعد أن تجاوز شبابه الأول الذى عرف فيه بعض العلاقات
والمغامرات - ألا تزيد علاقته بأى امرأة عن حدود العلاقة الروحية .

ويمكننا في هذا المجال ان نراجع كتاب « أضواء جديدة على جبران » للاستاذ توفيق صايغ ففيه فصل الخطاب في هذا المجال بالأدلة والوثائق ، على ان تسلط فكرة العلاقة الناقصة بين الرجل والمرأة على ذهن المعداوى لا يتمثل في مقال المعداوى عن « مى وجبران » فقط ، بل اننا نجد هذه الفكرة تشغل ذهنه فيعبر عنها في عدد آخر من من الكتابات المختلفة ، ففي قصة كتبها بعنوان « الشقاء المقدس » واعتمد فيها على كتاب « مدام ريكاميه » للكاتب والسياسى الفرنسى إدوار هريو ، يصور المعداوى أيضا نفس المشكلة : فتاة رائعة الجمال هى « جواييت برنار » تتزوج وهى فى الخامسة عشرة من عمرها رجلاً فى الأربعين هو ميسو « ريكاميه » الثرى وصاحب المصرف الشهير . . وعاشت الحسنة الرائعة « جوليت » التى أصبحت الآن « مدام ريكاميه » حياة حزينة . . وكما يقول المعداوى :

« مضت بها الأيام قلقة متشابهة ، لا يشع فيها أمل يبدد من ظلام القلب والروح . أى شباب هذا الذى تقذف به المقادير فى خضم من أعاصير الحيرة ، فلا يدرى على أى شاطئ ترسو سفينة أحلامه وأوهامه ؟ . . لقد مرت شهور ومام ريكاميه لاتزال عذراء كما كانت . حياة كلها غموض وأسرار ، ولقد كان الحياء وحده هو الذى يمنعها أن تسأله عن سره . . سره الذى طال . أى إنسان هذا الذى يحوطها بعطفه وحب وحنانه ، ثم لا يقربها كما يقرب الأزواج . . ؟ . كانت تتعذب فى صمت ، وتبكى للجمال يدوى بين يدي الحرمان ولا تجد الجرأة على أن تفاتحه يوماً بما يعتلج فى نفسها : أليس رجلاً ؟ أليس زوجاً ؟ ألا يهزه هذا الجمال ؟ ألا يصير راهباً إلا حين تربط بينهما المقادير ؟ . وتتلظى الكلمات على شفيتها كصفوف جيش أعدت للهجوم ، وتلتهب الأفكار فيما بينها التهاب القنابل . . ولكنها حين

تلتقى بزوجها وجها لوجه تموت الكلمات ، وتخور العزيمة ، وتحمد المرأة ، ولا يبقى إلا الحياء يشل منها اللسان ، ويجعل منها إنسانة ضعيفة مسلوكة الإرادة ، كانت تتلهف إلى شيء واحد . . هو أن تعلم سره ولكن سره الرهيب كان أمنية بعيدة المنال ، وعاشت مدام ريكاميه وماتت دون أن تعلم شيئا . لقد عاشت عذراء ، وماتت عذراء ، حيث ينكشف لنا في آخر الأمر أنها كانت متزوجة من والدها دون أن تدري .

هذه هي المشكلة التي يعرضها المعداوى في قصة « الشقاء المقدس » ، وهي المشكلة التي كانت تلح على ذهنه فيما أرى لسبب واحد هو جنها كانت تتصل بحياته الشخصية . كان يحوم حولها بكتابته ويحاول أن يجد لها تفسيراً أو علاجاً من خلال الكتابة ، وقد كان تفسيرها وعلاجها في يد الأطباء وحدهم ، ولكنه وهو الرومانسى المثالى الحالم ، وهو الذى يحافظ على كبريائه وكرامته ويخشى عليهما من النسيم . . لم يستطع ابداً - وهذه شخصيته - أن يواجه مشكلة بصراحة ووضوح ، وأن يضعها بين يدي العلم ليجد لها العلاج الصحيح ، ولست أرى أن المعداوى وحده هو المسئول عن هذا الموقف الأليم ، فمجتمعنا كله أيضاً مسئول ، لانه مجتمع يرفض الصراحة ويرفض تحكيم المنطق العلمى فى هذه الامور ، بل وينظر إليها على أنها مسألة مخجلة وجارحة مما يضيف تعقيدا فوق تعقيد الى كل من أصيب برغمه فى هذا الميدان . ولو تعود مجتمعنا الصراحة والوضوح وأعطى للعلم سلطانه ودوره ، ومزق أقنعة الخجل والحياء وهى كلها أقنعة زائفة ملفقة . . لو تعود مجتمعنا على ذلك لأصبح بالإمكان مواجهة كثير من المشاكل والمآسى التى يتعرض لها بعض الناس فى مجتمعنا فتتأثر حياتهم وتتعرض لأقسى الصدمات . . وفى

رأى أن آلام المعدادوى كلها على كثرتها وقسوتها كانت أقل خطورة من هذا الألم الخفى الكبير الذى كان يعانى منه ولا يستطيع مواجهته إلا بالكبرياء والكتان والألم الحبيس الذى هو فى الوقت نفسه ألم مدمر قاتل . ولست أشك فى أن هذا المرض الخفى بالذات كان من أسباب النهاية المبكرة والمفاجئة لحياة أنور المعدادوى ، وهذه ليست جريمة انتحار ، وإنما هى جريمة قتل متعمد قام بها المجتمع الذى يرفض الصدق والصراحة ، ويخجل من الحقائق ، ويحس بالعار من مواجهة الجراح التى تنزف بالدم ، سادامت الدماء خافية عن العيون والابصار .

وهنا أحب أن أشير إلى أن مرض المعدادوى الذى كان يمنعه من الزواج ليس واضحا محمدا فى ذهني تماما كما سبق وأشرت : هل كان مرضا عضويا أو كان مرضا نفسيا يصل فى خطورته الى قوة المرض العضوى وتأثيره الحاد العنيف ؟ . . ذلك هو مالا أستطيع تحديده . وإذا كان المرض عضويا فالأمر مفهوم وواضح . أما إذا كان المرض نفسيا فما هى حدود مثل هذا المرض النفسى الخطير ؟ .

يبدو لى أن المعدادوى كان يعانى من مشكلة نفسية خاصة بأمه ، فقد كان يحبها حبا غير عادى ، وكان متعلقا بها إلى أبعد حدود التعلق ، وكان يروى عنها فى أحاديثه المختلفة لى أنها كانت تحبه هى الأخرى بشكل يفوق حب الأم لأولادها . وقد أشار المعدادوى أكثر من مرة فى رسائله إلى هذه العاطفة العميقة التى كانت تحملها له ، فهو يقول لفدوى فى إحدى رسائله عن العملية الجراحية التى كان ينبغى أن يجريها :

« تقولين لى تشجع . . يكفى أن أقول لك يا فدوى إن العملية الجراحية التى تنتظرين يفر منها أشجع الشجعان ، ومع ذلك سأقدم

عليها .. شيء واحد هو الذى يخيفنى .. هو أن تعيش أُمى وحيدة .. أنا لم أحدثك كثيرا عن أُمى .. أنها تعيش يا فدوى فى رغد من العيش ، فهمى من هذه الناحية لا تحتاج إلى .. بل لعل أنا الذى احتاج إلى معونتها أحيانا بسبب إسرائى .. إن وحدتها الشعورية اذن هى التى تخيفنى .. »

ويقول فى رسالة أخرى : « لقد عرضت على وزارة المعارف أكثر من مرة أن توفدى الى السوربون لنيل الدكتوراه ، ومع ذلك فقد رفضت العرض الجميل لسبب واحد . هو أن والدتى وشقيقاتى لا يطيق شعورهن أن أكون بعيدا عنهن عامين أو ثلاثة .. » وفى رسالة ثالثة يقول : « يصبر الأطباء على إجراء عملية أخرى والا قضيت بقية عمرى فى كهولة جسدية وتقول أُمى : محال ! وتحضر إلى القاهرة لتلازمنى حتى لا أقدم على المخاطرة الثانية وكفى ما حدث فى المخاطرة الأولى ولم تعلم به إلا بعد حين » ..

وفى مجال كتاباته عن العلاقة الناقصة بين الرجل والمرأة ، وهى المشكلة التى كانت تشغل ذهنه وتسيطر على تفكيره ، يكتب فى دراسته عن « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » وهى نفس الدراسة التى نشرها مرة أخرى تحت عنوان « الاداء النفسى » فى كتابه عن على محمود طه .. يكتب المداوى فى هذه الدراسة عن قصة « والدة » للكاتب الفرنسى فرنسوا موريياك فيقول :

« هناك لحظة من تلك اللحظات النادرة التى نعيشها فى قصة موريياك . وقبل أن نقف بك عند تلك اللحظة نلخص لك مضمون القصة بصراحة النفسى ، وهو مضمون العلاقة « الخالدة » بين كل أم وزوجة تحتدم فى أعماقها المعركة حول الرجل الذى تربطه بالأولى

روابط البنوة وبالثانية صلات الزوجية ، هذا الرجل الذى يقف بين « العدوتين » موقف الحائر المتردد الذى تتعرض حياته فى كل وقت لهبوب العواصف والأعاصير . . الإبن هنا وهو فرنان كازيناف ، رجل ضعيف الشخصية مسلوب الارادة يعطف على زوجته ولكنه لا يستطيع أن يجهر بهذا العطف خوفا من تلك الأم التى بقيت له بعد وفاة أبيه ، وطبعته منذ صباه الباكر بطابع الخضوع والرهبة . . فهو لا يستطيع أن يجادل ولا أن يعترض ولا أن يقف فى وجهها عندما تتعقد الأمور . والأم كازيناف تحب ابنها برغم قسوتها عليه ، وما كانت قسوتها تلك إلا نتيجة لهذا الحب الذى يريد به الأمومة أن تملك وأن تتحكم وأن تستأثر ، ولا يشاركها فى هذا اللون من حب التملك إنسان ، والزوجة وهى ماتيلد كازيناف فتاة لقيت من ظلم الحماية ، وإهمال الزوج وقسوة الحياة ، ما ينوء به الطوق ويفرغ معه الصبر . . ومع ذلك فقد صبرت واحتملت ، ولقيت متاعب العيش بالرضا القانع والصبر الجميل .

ونمضى القصة فى طريقها لتصور لك أدوار الصراع ، الصراع الذى انتهى بموت الزوجة بعد حالة وضع قوضت من الجسد المنهك آخر حصن من حصون المقاومة أو آخر معقل من معاقل الكفاح ، ولقد ماتت وحيدة : لا همسة عطف من الابن ، ولا نظرة رثاء من الأم ولا موعد لقاء مع رحمة القدر . . وحين انتهى كل شيء ، وسكنت كل حركة ، ودفنت فى تراب الموت كل خصومة ، استطاع فرنان كازيناف أن يصعد الى حجرة الشهيدة ، وأن يحس لذع الندم وأن يوجه إلى أمه كلمة عتاب .

ونلتقى باللحظة التى يصور فيها موريالك موقف النادم أمام الجثة الهامدة . . تلك اللحظة النادرة من لحظات « التدوق » لشهد من

مشاهد الحياة منعكسا على صفحة الشعور . لقد وقف فرنان أمام جثة الشهيدة وكأنه يقف أمام قديس ليعترف له بما جنت يده ، بما اقترف من إثم ، بما حمل من ذنوب . . ترى من أغمض عينيه كل تلك الأعوام فلم ير هذا الجمال ؟ ومن أغلق قلبه كل تلك السنين فلم ينعم بهذا الصفاء ؟ وهذا الطهر ، وهذا الصبر ، وهذا الإيمان ، وهذه القيم الإنسانية من حال بينه وبينها حتى وكأنه يبصرها لأول مرة ، ويستشعرها لأول مرة وينكشف له منها في لحظة عابرة ما غاب فيما مر من أيام دنياه ؟ ترى هل يستطيع أن يفعل شيئا لهذا الجسد ، الجسد الذى احترق في موقد العذاب ، وتالم ، وحمل من الشقاء فوق ما يحمل طوق الأعباء ؟ . . شيئا ولو كان صغيرا ضئيلا لا قيمة له ، يشعره بأنه قدم إليه في رحاب الموت ما عجز عن أن يقدمه في رحاب الحياة ؟ إنه يريد الآن أن يعبر للجسد الهامد عن عطفه ، عطفه الذى لم يستطيع أن يعبر عنه في يوم من الأيام . . وقد قدر له أن يعبر عن هذا العطف حين خطر للذباة هائمة أن تستقر على الوجه الحزين . . لقد انتفض كالمصعوق ليرد العدوان الأثم عن تلك البقعة الآمنة ، البقعة التى لن يسمح بعد الآن بأن « تقلق » أمنها هجمات المعتدين . . » .

هذا التلخيص الذى يقدمه لنا المعداوى لقصة « موريك » بما فيه من تحليل ذكى حساس هل يلقي ببعض ظلاله وإيماءاته على حياة المعداوى نفسه ؟ . . هل تعرض في حياته النفسية ، كلما أراد أن يقترب من امرأة يحبها ويتمنى أن يرتبط بها لهذا الصراع النفسى الذى يقول عنه أنه « مضمون العلاقة الخالدة بين كل أم وزوجة تحتدم في أعماقهما معركة حول الرجل الذى تربطه بالاولى روابط البنوة والثانية صلات الزوجية ، هذا الرجل الذى يقف بين « العدوتين » موقف الحائر المتردد الذى تتعرض حياته في كل وقت لهبوب العواصف

والأعاصير» . . . هل انتصرت الأم في نفس المعدادوى على « المرأة » الأخرى حتى قبل أن تدخل هذه المرأة في حياته ، فخضع خضوعاً نفسياً كاملاً لسطوة الأم ولم يستطع أن يرتبط بامرأة أخرى ، خاصة وأنه يشبه بطل القصة تماماً في أنه الابن الوحيد لأمه بين ثلاث بنات وأن هذه الأم « هى التى بقيت له بعد وفاة أبيه ، وطبعته منذ صباه الباكر بطابع الخضوع والرهبة . . فهو لا يستطيع أن يجادل ولا أن يعترض ولا أن يقف في وجهها عندما تتعقد الأمور » . . ومن المؤكد أن المعدادوى لم يكن خاضعاً بهذه الصورة الواقعية لأمة ولكن هذا الخضوع وهذه الرهبة من الممكن أن يكونا قد تحولاً الى خضوع نفسى ورهبة نفسية ، ويكون الاثر هنا اثراً عميقاً في داخل النفس يعيش صاحبه تحت وطأته المرة دون أن يدري به . وهل تكون أم المعدادوى مثل تلك الأم التى يقول عنها وهويلخص رواية موريك : « إنها تحب ابنها برغم قسوتها عليه ، وما كانت قسوتها تلك إلا نتيجة لهذا الحب الذى تريد به الأمومة أن تملك وأن تتحكم وأن تستأثر ، ولا يشاركها في هذا اللون من حب التملك إنسان ؟ » . . أليس في هذا الذى كتبه المعدادوى ما يمكن أن يلقي - كما أشرت - ظلالاً وإيماءات حول علاقته بأمه ؟ ألا يمكن أن تكون هذه العلاقة ، وقد أخذت في حياته شكل الحب الغامر العنيف من جانبه ومن جانب أمه معا ، قد تحولت إلى مرض نفسى تمكن منه ، وقتل في حياته كل رغبة في امرأة أخرى ؟ ورغم أن مثل هذه المشكلة هى في أساسها مشكلة نفسية إلا أن مظاهرها تكون في العادة مظاهر عضوية وهذا هو ما يسميه علماء النفس باسم « عقدة أوديب » .

والحقيقة أننى لا أعتقد بوجود نماذج واقعية كثيرة تجسد هذه العقدة النفسية ، أو غيرها من العقد تجسداً كاملاً ، ولكن الذى لا شك فيه

أن هذه النماذج الواقعية من الخاضعين لأمثال هذه العقد النفسية موجودة وحقيقية مهما كانت قليلة ومحدودة . وفي ظني أن المعداوى إذا كان مرضه نفسياً فقد كان هذا المرض هو « عقدة أوديب » ، أى تعلقه غير الصحى بأمه التى ربهته بعد وفاة أبيه ، حيث كان ابنها الوحيد بين ثلاث بنات ، فأحبته فى وله وإسراف وأحبها هو أيضاً فى وله وإسراف وانتهى به الأمر إلى هذا المرض النفسى الذى لا بد أن تكون له مظاهر عضوية هى عدم قدرة المريض على الزواج .

هذا ما أظنه وأعتقد وأراه فى حياة أنور المعداوى ، وفى محتته الصحية والنفسية ، وفى محتته مع الحياة ، على أن هذه العلاقة الخاصة بين المعداوى وأمه لم يكن لها ذلك التأثير الأساسى على حياته فقط من حيث علاقته بالمرأة بل كان لها تأثيرات جانبية أخرى ساهمت فى تدمير حياته العملية ، وساهمت آخر الأمر فى تدمير صحته ، ومن هذه الآثار الجانبية لشدة تدليله فى نشأته ، أنه كان لا يطيق أن يطلب شيئاً من أحد ، وكان يجب أن يذهب الناس إليه ويعرضوا عليه كل ما يريد دون أن يقوم هو من جانبه بأى جهد فى هذا السبيل ، وقد انتهى الأمر بتقطيع كثير من الخيوط بينه وبين الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع لم يكن يعامله مثلما كانت أمه تعامله على الإطلاق ، ومن هذه الآثار الجانبية ما نلاحظه فى كتاباته كلها ، ومن بينها رسائله إلى فدى طوقان ، من تلك النعمة « الذاتية » التى تظهر بوضوح فى كل كتاباته . . . لقد كان يتحدث عن نفسه كثيراً ، وكان يعجب بنفسه على صورة جعلت الكثيرين ممن لا يعرفونه على حقيقته يعتبرونه مريضاً بالغرور ، إن « الأنا » ظاهرة جداً فى كتاباته ، والرجسية أو الإعجاب بالنفس شىء ظاهر جداً فى هذه الكتابات . . . وهذه كلها ظواهر نفسية لا بد أن تكون قد تخلفت فى شخصيته من أثر التربية

الاولى . . . هذه التربية التي أشعرته فيها أمه بأنه كل شىء فى هذه الدنيا ، وبأنه مركز العالم بالنسبة لها . ويلوح لى أن هذه الظواهر كانت كلها نوعا من المرض النفسى المترتب على علاقته بأمه ، ذلك لأن المعدادوى كان فى أعماقه انسانا طيبا كريم النفس بعيدا عن « الأنانية الشريرة » التى تحملها بعض النفوس المشوهة وتتحرك على أساسها فى علاقتها بالناس والمجتمع والحياة . . . كان المعدادوى ذاتيا ، معجبا بنفسه ، يرى دائما أن الناس يجب أن يضعوه فى مكان الصدارة فى كل عمل يشترك فيه مع الآخرين ، لا لأنه أنانى وحاقدا وشرير ، بل لأنه تعود فى نشأته الأولى أن يكون فى الصدارة دائما ، وغرست فيه أمه هذه الصفات التى أصبحت جزءا من شخصيته ، والتى انتهت بإفساد الكثير من علاقاته مع الحياة والمجتمع .

وكانت فى رأى من أكبر أسباب دماره وعدم قدرته على التلاؤم مع الواقع وفشله السدى لا يستحقه ولا تستحقه مواهبه . . لقد تصرف مع الدنيا كأنه فى بيته ومع أمه ، وانتظر من الحياة أن تعامله معاملة هذه الام التى كانت تحبه بعنف وشغف ، ولم تعطه الحياة شيئا من هذا الشعور وما كان بإمكانها أن تعطيه أو تعطى غيره مثل هذا الشعور ، فالحياة والمجتمع يحتاجان من كل إنسان كثيرا من المرونة والقدرة على الكفاح وإحتمال التحديات ، ولا يمكن للإنسان أن يبقى فى مكانه منتظرا أن تقبل عليه الدنيا لأنه فى رأى نفسه موهوب وقادر ومستحق لهذه المعاملة التى تعود عليها من أم تعشقه وتهواه .

تلك كلها كانت حدود المأساة التى عاش فيها المعدادوى ، وانتهت بعجزه عن إقامة علاقة طبيعية مع المرأة ، وبعجزه عن التلاؤم مع الحياة الأدبية أو الحياة الإجتماعية ، ثم أدت به آخر الأمر الى العزلة والمرض والموت فى الخامسة والاربعين من عمره .

الرسالة الأولى

عزيزى فدى . .

منذ شهر ونصف وأنا بعيد عن القاهرة ، وحين عدت إليها منذ يومين وجدت رسالتك العزيزة فى انتظارى . . هناك فى دار « الرسالة » ، أما عن كتابى « نماذج فنية » فأحمد الله على أنه قد وقع بين يديك ولم يتعرض لمخاطر الطريق . . وأما عن هذا الشكر الخالص الذى وجهته إلى فلا أحسبني أستحق منه شيئا . كل ما فعلته هو أننى قد كتبت كلمة تعبر سطورها عن تقديرها لشعرك ، وإنه لواجب مفروض على الناقد . وإنك لتستحقين مثل هذا التقدير .

ترى هل كان تقديرى لشعرك من وحي الأمس القريب ؟ كلا . . بل أشهد أنه كان الحليف الصادق للأمس البعيد ، منذ أن قرأت لك شعرا ووزنته بعد أن تذوقته . . إن رأى فى شعرك لم يكتب بعد ، وأرجو أن يكتب عندما يجمع هذا الشعر فى ديوان ، إنه تقدير قديم يا فدى ، يرجع به العهد إلى أيام مضت . . وتلك حقيقة أخرى قد

تغمّر نفسك بشيء من السعادة ، كما غمرتها على حد قولك كلمة « الرسالة » وعبرة الإهداء . ويا لها من كلمات تلك التي قلتها عن السعادة ولفحت منى الشعور : « إن الدنيا المجنونة لا تجود على بها إلا في القليل النادر من الأحيان » ، هذه الكلمات يا طالما سمعت مثلها من أقلام كتبت إلى ، ويا طالما عطف عليها بالقلب والروح !

وأعود بك إلى الوراء سنوات لأقص عليك قصة هذا التقدير القديم ، كان هناك أديب لبناني مهاجر وكان له كتاب ، وأرسل إلى هذا الكتاب يوما من لبنان ، مع عدد من رسائل التوصية التي ترغب في إنصاف الكتاب وصاحبه ، وقد بعث إلى بها بعض الأدياء من أصدقاء الكاتب ومقدريه . . ولا أطيل عليك فقد تحدثت عن الكتاب بما يرضى الحق والذوق والضمير حتى لقد ترك ذلك في نفس صاحبه ونفوس أصدقائه كثيرا من الرضى وعرفان الجميل .

وقدر للأديب المهاجر أن يعود يوما إلى وطنه ، وأن يمكث قبل العودة شهرا في القاهرة . . وفي خلال تلك الفترة توطدت بيننا أواصر الصداقة وروابط المودة ، بعد أن لمست فيه كثيرا من صفات الإنسان . ولكن يوما واحدا من أيام الصلة التي جمعت بيني وبينه هو الذى جعلنى أنظر إليه نظرة جديدة ، نظرة من تتكشف له من خلف وهج الإنسانية معدنها النفيس . . في ذلك اليوم الذى لن أنساه تحدث إلى في التليفون وهو ينادى بصوته المهدج النبرات : تعال حالا . . أريدك لأمر هام . .

أتحبين يا فدوى أن تعرفى حقيقة هذا الأمر الهام ؟ لقد كان مقالا حزينا فرغ من كتابته وأراد أن يقرأه على كعادته كلما كتب شيئا وهو مقيم بالقاهرة . . كان مقالا وكان قصة ، قصة وفاء لصديق مات . .

وسألتني سعيد تقى الدين وهو يجفف دموعه : ترى هل أعجبتك القصة ؟ وأجبتته وأنا أعنى ما أقول : رائعة يا سعيد . . وأرّوع منها الدموع التي في عينيك ، وأخذت المقال وأرسلته إلى مجلة « الأديب » وكان عنوانه « موعدي مع إبراهيم » .

بعد ذلك راح يحدثني عن أخيك الشاعر ، وعن أخيك الإنسان ، وعن أخيك الصديق . . وحين فرغ من حديثه شعرت أن أخاك رحمه الله كان صديقا لي وأن سعيد تقى الدين هو الذي قدم كلا منا إلى الآخر ، هو الذي قدم روحا وراء الأبد إلى روح ! . . وقال متهددا وهو يختم حديثه المضمخ بأرج الوفاء : ترى من يملأ في دنيا الشعر مكان إبراهيم ؟ وأجبت مرة أخرى صادقا وأنا أعنى ما أقول : فدوى يا سعيد . . وحولك يا فدوى دار حديث طويل .

ولك يا أختاه منى تقدير اليوم بعد تقدير الأمس مع خالص التحية
من الشاكر الذاكر .

أنور المداوى

القاهرة في ٢٦ / ١١ / ١٩٥١

تعليق على الرسالة الأولى

يشير أنور المعداوى فى هذه الرسالة إلى مجلة « الرسالة » التى أنشأها الأديب المصرى العربى المعروف أحمد حسن الزيات سنة ١٩٣٣ واستمرت فى الصدور أسبوعيا حتى سنة ١٩٥٣ وصدر منها ١٠٢٥ عددا ، وكان أنور المعداوى عندما كتب هذه الرسالة وهى أولى رسائله إلى فدوى طوقان يعمل فى مجلة الرسالة ، حيث كان يكتب فيها أسبوعيا تحت عنوان « تعقيبات » ، بل كان أنجح باب فيها على الإطلاق فى تلك الفترة بما كان يشره من قضايا ومعارك أدبية عنيفة .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة أيضا إلى كتابه الأول وهو « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وهو مجموعة من المقالات النقدية التى كان المعداوى قد نشر معظمها فى مجلة الرسالة ، ونشر القليل منها قبل ذلك فى مجلة « العالم العربى » التى كان يكتب فيها قبل أن ينتقل إلى الرسالة .

وفي هذه الرسالة أيضا إشارة إلى بداية التعارف الأدبي بين فدوى طوقان وأنور المعداوى ، ففي عدد مجلة « الرسالة » رقم ٩٤٤ الصادر في ٦ أغسطس سنة ١٩٥١ نشرت فدوى طوقان قصيدة بعنوان « مع لاجئة في العيد » وأهدت هذه القصيدة « إلى الأستاذ أنور المعداوى » وكان مطلع قصيدة فدوى يقول :

أختاه هذا العيد رفَّ سنه في روح الوجود ..
وأشاع في قلب الحياة بشاشة الفجر السعيد
وأراك ما بين الخيام تمثالا شقيا
متهالكا يطوى وراء همومه ألما عتيا
يرنو إلى اللا شيء منسرحا مع الأفق البعيد

وبعد أسبوعين من ظهور هذه القصيدة وفي العدد ٩٤٦ الصادر في ٣٠ أغسطس ١٩٥١ نشر أنور المعداوى في بابهِ الأسبوعي بالرسالة كلمة بعنوان « الى الشاعرة فدوى طوقان » . . . وفي هذه الكلمة يقول :

« إذا قلت لك إنك من هذه الفئة القليلة التي تملأ نفسي اطمئنانا على حاضر الشعر العربي وتذهب بأكثر ما فيها من قلق على مستقبله ، فانظري إلى هذا القول على أنه تقرير لحق وتصوير لواقع ، ولا تنظري إليه على أنه مجاملة لأنسة شاعرة وقصيدة مهداة ، لقد تفضلت فأهديت إلى قصيدتك المحلقة في العدد ٩٤٤ من الرسالة وأنا إذ أتقبلها شاكرا فإنما أغتفر الشكر من منابح تقديرى لشعرك ، وما أكثر دواوين الشعر التي يهديها إلى شعراء كبار فلا يسمعون منى كلمة شكر ، لأن الشكر عندي أساسه التقدير ، ولأن التقدير عندي مبعثه الإثارة النفسية التي يلهب بها الشعور كل فن جميل .

إن قصيدتك تشعرني أنني مقصر في حقك وحق شعرك لأن للفن الجميل حقوقا على النقد يجب أن يؤديها بإخلاص ، ويرعاها بأمانة . . ولست أدري كيف شغلت عن حقوق فنك وأنا حريص على حقوق الناس ؟! . . مهما يكن من شيء فإن بوسع الغد المرتقب أن يستدرك ما غفل عنه أمس الغابر واليوم المشهود ، وأشهد أن شعرك جدير بأن يحتل من تاريخ الأدب مكانا ملحوظا وسطورا مشرقة ، وأشهد مرة أخرى أن هذه الكلمات خالصة لوجه الحق وحده دون سواه ، وليس مرجعها إلى مجاملة الأنسة الشاعرة وقصيدتها المهداة . . » .

ثم يعلق المعداوى بعد ذلك على موضوع قصيدة فدوى ويعلق على موقف الطبقات الغنية العربية من اللاجئين حيث يرى أن الضمير الإنساني في هذه الطبقات قد مات « ولو كان حيا لما سمح لنفسه بأن يطبق منظر الموت البشع وهو يحصد بمنجله الرهيب جموعا من الأحياء شردهم الظلم والطغيان فهاموا على وجوههم في كل واد وكل فلاة : بطونهم خاوية وأجسادهم عارية بينما شبعت الكلاب واكتست الأضرحة واطمأنت إلى المأوى الأمين أخس أنواع الحشرات . . » .

بعد هذه الكلمة التي كتبها أنور المعداوى تعليقا على قصيدة فدوى « لاجئة في العيد » ، والتي أهدتها إليه ، كتبت إليه فدوى وكتب إليها وكانت هذه الرسائل التي يضمها هذا الكتاب .

وفي هذه الرسالة أيضا إشارة إلى الأديب اللبناني الكبير سعيد تقى الدين ، وقد بدأ سعيد حياته كاتبا قصصيا ومسرحيا وله مسرحية مشهورة هي « نخب العدو » تأثر فيها تأثرا كبيرا بمسرحية شكسبير المعروفة « روميو وجوليت » ، وقد كتب أنور المعداوى عنه وعن أدبه

بتقدير وحماس ، وكان هذا الموقف جزءا من اهتمام المعداوى الواسع بالأدب العربى خارج مصر ، حيث كان من أكثر النقاد متابعة لما يصدر من إنتاج ثقافى فى العواصم العربية المختلفة ، ولم يكف أنور المعداوى بذلك ، بل ارتبط بصلات شخصية وثيقة مع عدد كبير من الأدباء العرب ، وكان من أول من تعرف عليهم وارتبط بهم : سعيد تقى الدين وسهيل إدريس ، وكان للمعداوى أيضا صلة شخصية وثيقة مع نزار قبانى ، وقد بدأت هذه الصلة منذ أن كان نزار يعمل فى السفارة السورية فى القاهرة فى أواخر الأربعينات ، وكان أنور المعداوى - فيما أعلم - هو أول من كتب عن نزار قبانى فى مصر وذلك بمناسبة صدور ديوانه « طفولة نهد » .

نعود إلى سعيد تقى الدين فنقول إن صلة المعداوى به قد انقطعت بعد أن استقر سعيد فى لبنان وترك الأدب وانصرف إلى السياسة حيث أصبح أحد زعماء « الحزب القومى السورى » ، وكانت سمعة هذا الحزب سيئة جدا فى الأوساط السياسية والثقافية التقدمية والوطنية فى مصر بسبب عداوته للوحدة العربية والاشتراكية ، وكان سعيد تقى الدين مرتبطا بحملات وتشجيع الحزب القومى السورى ؛ مما أدى إلى قطع علاقته تدريجيا بالأدب والأدباء ، وكان من بين هذه العلاقات التى انقطعت نتيجة لموقف سعيد تقى الدين السياسى علاقته بأنور المعداوى ، على أننى كنت أسمع من أنور المعداوى طيلة حياته ثناء على سعيد تقى الدين وأدبه ، وأسفا على ما أصابه من انحراف سياسى أبعدته عن مواهبه الأدبية وأبعده عن الموقف الوطنى العربى الصحيح . وقد عثر الدكتور على شلش عند بحثه فى أوراق المعداوى بعد وفاته على رسالة واحدة قصيرة من سعيد تقى الدين إلى المعداوى ونشر الدكتور شلش هذه الرسالة ضمن رسائل أخرى عثر عليها فى

أوراق المعداوى ، وذلك فى مجلة « الكاتب » القاهرية فى عددها رقم ١٧٣ الصادر فى أغسطس ١٩٧٥ ، وهذا هو نص الرسالة الطريفة التى كتبها سعيد تقى الدين للمعداوى :

« ياسى أنور . .

جربى إيه ؟ من عض اللجام ؟ لماذا لم تجبى على رسائل كثيرة ؟ صحيح لم أرسل لك ولا واحدة ، ولكن هذا لا يمنع أنك أخطأت بعدم الجواب عليها . أما وقد احمر وجهك واعتذرت ، وثبت ، وأخذت نفسك فلم يبق لى الآن إلا أن أقبل اعتذارك بشرط أن لا تعود إلى الأخطاء .

بالطبع أنا مشتاق إليك « شىء بسيط » وانتظر مجيئك إلى لبنان كما قلت لى حين أنست مصر بحضورى .

سهيل إدريس لا يزال فى قيد الحياة . . كلنا بخير « مشغول بالك ؟ »

أخوك : سعيد تقى الدين
حاشية - صحتك ازاي ؟
هـ حزينان :

بعد كتابة ما تقدم أراى المدعو سهيل إدريس رسالة منك عطرتها بالمجىء على ذكرى . . فحالا استشرت هـ محاميا واتفقوا أن فيها « قدح وذم »^(١) . . فاكربى أنا توفيق الحكيم حتى تهجونى ؟ إن

(١) هكذا جاء فى نص رسالة سعيد تقى الدين ، ومن الواضح أنه كتب بالعامية ، فالصحيح أن تكون العبارة « إن فيها قدحاً وذمّاً . . » .

شرفت لبنان سيلايك وفدي من البوليس العدل . . مع مذكرة
توقيف^(١) . . إنما مجال التكفير أمامك دائما مفتوح » .

(١) التوقيف عند إخواننا عرب الشام هو : السجن والاعتقال .

الرسالة الثانية

فدوى العزيزة :

ينخيل إلى أن رسالتى الأخيرة قد فقدت وهى تعبر إليك الطريق ،
وينخيل إلى أنك الآن عاتبة على هذا القلم إهماله ، لأنه تأخر عن
الجواب فاستحق العتاب . . معذرة إذا كان هذا الظن قد طاف
بخاطرك واستقر فى نفسك ، ومعذرة إذا لم يكن لخيالى من عالم الواقع
نصيب !

ترى هل تلقيت رسالتى الأخيرة أم قدر لها أن تقع فى يد غيريك ؟
مهما يكن من شىء فإننى أكرر هنا ما قلته هناك ، ولا بأس أن أضيف
إليه أشياء . . لقد قصصت على من أنباء سعيد تقى الدين ما بعث
الماضى من مرقله مصحوبا بابتسامة عابرة ، إذا قلت لك يا فدوى إن هذا
الرجل هو ابن اللحظة التى يعيش فيها فصدقنى ما أقول . . إننى أعرفه
أحسن المعرفة ، ولهذا لم أعجب حين قلت لى إنه قد طلب إليك أن توافيه
بمجموعتك الشعرية ليدفع بها إلى دار من دور النشر ثم لم

يف بوعده المنتظر ! إنه ابن اللحظة التي يعيش فيها كما قلت لك . .
يقول اليوم ما ينسأه غدا ، ويقدر للغد ما ينسأه بعد أيام ، وعذره في
ذلك أنه هو نفسه ينسى « نفسه » في كثير من الأحيان ! هذا هو سعيد
تقى الدين على حقيقته . . فيه تلك « الفوضى » الشعورية التي
يسمونها الفن « بوهيمية » ويحدد معانيها تبعا لاختلاف التكوين
النفسي بين الناس .

هو إنسان وفي جدا لأصدقائه ، ولكنه يشعر مثلا أن تسطير رسالة
لأحدهم يعبر فيها عن شوقه . . عبء ثقيل ! وهو إنسان تذوق يوما
طعم الفاقة ، حتى لقد هجر وطنه سعيا وراء المال . . وحين أقبلت
عليه الدنيا نسي أن يتعظ بماضيه وعاش لحاضره ، وراح ينفق بغير
حساب . لماذا ؟ لأن وجود المال في حوزته . . عبء ثقيل ! وهو
أديب أعجب يوما بشعر فدوى طوقان ، ثم دفعه الوفاء للفن أن
يعرض عليها جهوده لدى الناشرين ، وحين بعثت إليه بمجموعتها
الشعرية نسي وعده ، ولعله أحس أن بذل الجهود في مثل هذا
الأمر . . عبء ثقيل ! . . هذه هي الفوضى الشعورية التي يسمونها
الفن بوهيمية ، ويحدد معانيها عند هذا الصديق بأنها ضعف الطاقة
عن تحمل القيود والوفاء بالعهود ، وحسبك أنه كتب إلى أكثر من مرة
يلح على أن أزوره في لبنان وأن أحل عليه ضيفا عزيزا في قريته
« بعقلين » . . وكان ردى عليه هورفض تلك الدعوة الكريمة ، لأنني
أشفق من أن أذهب إلى « بعقلين » فأجده قد نسي دعوته وشد الرحال
إلى « جزائر الفلين » . . هناك حيث قدر له أن يقضى من عمره
خمس وعشرين عاما بعيدا عن أرض الوطن !

لهذا كله لم أستطع يافدوى أن أحول بين الابتسامة العابرة وبين
شفقي ، حين رحلت تقصين على بعض ما خفي عنك من أحوال

صديقى سعيد تقى الدين ، هذا الصديق الذى أحبه على الرغم مما فيه من عيوب ، ولقد رأيت أن أكفر عن سيئاته بأن أقوم أنا بنشر ديوانك العزيز ، هذا الديوان الذى يهمنى أمره أكثر مما يهمنى أى أثر من آثارى الأدبية .

وقد اتفقت فى هذا الشأن مع « لجنة النشر للجامعيين » وهى اللجنة التى قامت بطبع كتابى الأول « نماذج فنية » وستقوم بطبع كتابى الثانى عن « على محمود طه » ، وأود أن أقول لك بهذه المناسبة ، إننى قد بذلت الكثير من الجهد فى إقناع اللجنة بطبع ديوانك ، لأن دور النشر هنا معرضة لإعراضا تاما عن نشر الدواوين الشعرية على نفقتها الخاصة ، مهما بلغ أصحابها من شهرة بين طبقات القراء . . والسبب راجع كما لا يخفى عليك الى ما تعرضت له تلك الدور من خسارة مادية مصدرها انصراف الجمهور القارئ فى البلاد العربية عن تذوق الشعر . . هذا الفن الجميل .

هذه حقيقة تملأ نفسى بالأسى والأسف ، وبما يشعرنى بالخروج أن تطلب إلى لجنة النشر للجامعيين أن أكتب مقدمة الديوان ، لأن هذه المقدمة فى رأى اللجنة لا فى رأى كفيلة بأن تساعد على انتشاره بين القراء ، بعد إقبالهم العجيب على كتابى المتواضع حتى لقد نفدت طبعته الأولى بعد بضعة أسابيع . . ولقد حاولت خلاصا أن أقنعهم بأن فدوى طوقان ليست بحاجة إلى من يقدم شعرها إلى الناس ، وأن ديوانها ليس كدواوين غيرها من الناس ، ولكننى لم أفلح ، قلت هذا لأننى أومن به ، ولأننى من جهة أخرى لا أحب أن أفرض نفسى على أحد ، ولكننى فى سبيل ديوانك العزيز قد وعدتهم على طريقة سعيد تقى الدين !

معذرة يا فدوى ، فأنا والله يسعدني أن أكتب عن شعرك وأن
أكشف عن معدنه النفيس للناس . . ولكنني لم أكن أستطيع أن أقف
غير هذا الموقف ، خشية أن يكون لك رأى آخر يخالف رأى لجنة النشر
للجامعيين ، أعني أنك قد لا ترغبين في أن يقدم شعرك أحد الأعلام
إلى جبهة القراء . . ومن هنا وعدتهم كما قلت لك على طريقة أخي
سعيد تقى الدين !

مهما يكن من شيء فسيطبع الديوان إن شاء الله وسأشرف بنفسى
على إخراجه الفنى من جميع نواحيه . . غير أن الطبع سيبدأ في أول
يناير سنة ١٩٥٢ أى بعد شهر وبعض شهر ، ومرجع ذلك إلى
انصراف مطابع الدار منذ شهور إلى مساعدة المطابع الأميرية في طبع
مقررات وزارة المعارف ، مما أدى إلى إرجاء طبع كتابي الأخير الى مثل
هذا الموعد المرتقب ولا بأس من أن ترسلنى إلى مجموعتك الشعرية في
أى وقت تشائين .

وقبل أن أختتم هذه الرسالة ، أود أن أهنتك من قلبى على تلك
القصيدة الفريدة التى قرأتها لك فى عدد أكتوبر من مجلة « الأديب »
تحت هذا العنوان « وأنا وحدى مع الليل » . . كل ما أقوله لك هنا
هو أن تكثرى من هذا اللون الجديد من الشعر ، لأنه سيتيح لى أن
أتحدث عن لون جديد من ألوان « الأداء النفسى » يوم أن يكون
ديوانك العزيز بين أيدي القراء فى الغد القريب !

نعم ، أكثرى من هذا اللون يا فدوى . . أنت وحدك مع
الليل . . . وأنا وحدى الذى أفهم هذا الشعر ، شعر الذين يعتزون
بصدقة الليل حين يعز فى الدنيا وجود الصديق !

ولك يا فدوى العزيزة أخلص تحيات المخلص .

أنور المعداوى

١٩٥١ / ١١ / ١٦

تعليق على الرسالة الثانية

يعود أنور المعداوى فى هذه الرسالة إلى الحديث عن شخصية سعيد تقى الدين ، حيث ظل المعداوى كما أشرت سابقا يحمل له الكثير الود والإعجاب ، حتى بعد أن انقطعت بينهما الصلة وتوقفت الرسائل ، واندفع سعيد إلى عالم السياسة وغرق فى دوامات الحزب القومى السورى وانقطع عن دنيا الثقافة والأدب . وتكشف لنا هذه الرسالة عن قصة الديوان الأول لقلوى طوقان . . وهو ديوان « . . وحلى مع الأيام » ، فقد ظهر هذا الديوان فى طبعته الأولى بالقاهرة ، وأشرف المعداوى بالفعل على إخراجه ، وقامت لجنة النشر للجامعيين بطبعه ، وقد ظهر الديوان فى أوائل ١٩٥٢ ، وكنت أيامها طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، كما كنت قد تعرفت على المعداوى واتصلت به وتوثقت علاقتنا . وأذكر أنه فى تلك الأيام كان سعيدا جدا بإشرافه على إخراج الديوان ، حريصا على متابعة « البروفات » ومراجعتها وتصحيحها بمنتهى العناية والدقة ، وكان يعامل الديوان كأنه عمل خاص به ، ولا أنسى فرحة المعداوى عندما

حصل على أول نسخة من الديوان ، وحملها بين يديه وكأنه أم تحمل على صدرها طفلها الوليد الحبيب ، والحقيقة أن المعداوى كان يحمل في قلبه حماسا حقيقيا مشتتلا لأدب أصدقائه ، ورغم أننا نجد في كتابته لمسة من لمسات الغرور والاعتداد البالغ بالنفس ، فإن هذه الظاهرة في شخصيته كانت في حقيقة الأمر نوعا من « غرور البراءة والطفولة » ولم تكن تصدر عن أنانية أو طبع شرير . لقد كان المعداوى دائما حريصا على أصدقائه متحمسا لأدبهم ، ما دام مقتنعا بهذا الأدب ومجبا له ، وقد حاول طيلة حياته الأدبية أن يساعد الآخرين بكل ما يملك من طاقة وجهد ، وخاصة في المرحلة الأولى من حياته الأدبية ، حيث كان له صوت مسموع في الأوساط الثقافية المختلفة .

على أن من المهم هنا أن نشير إلى أن ديوان فدوى طوقان الأول الذى أشرف أنور المعداوى على إصداره ، قد ظهر بدون المقدمة التى أشار إليها المعداوى فى رسالته ، وفى ذلك ما يؤكد لنا حرص المعداوى على ألا يفرض نفسه على هذا الديوان رغم ما يبدو فى الرسالة من اعتزاز المعداوى بكتابته وقلبه اعترازا يبلغ حد الغرور ، ولكنه - كما أشرت - غرور طفولى برىء ليس فيه من الشر والأنانية شىء .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى نفاذ كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » خلال أسابيع قليلة ، وهذه الواقعة صحيحة ، فقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٥١ وأنور المعداوى فى أوج نجاحه ومجده الأدبى ، حيث كان فى تلك الفترة ألمع ناقد عربى عن طريق باب « الأسبوعى فى » الرسالة « وهو باب « تعقيبات » وعن طريق المعارك الأدبية المشتعلة التى كان يخوضها فى ذلك الحين ، وعن طريق الحماس والحرارة فى الصداقات الأدبية والخصومات الأدبية على

السواء ، مما خلق للمعداوى جهورا كبيرا متحمسا له في تلك السنوات التي كانت تعتبر أزهى سنوات حياته الأدبية ، وهي تقريبا السنوات التي تبدأ من سنة ١٩٤٨ وتصل إلى قمته سنة ١٩٥٢ ، ويعيش المعداوى بعد ذلك في الضوء الساطع لتلك السنوات الأربع حتى تبدأ محنته سنة ١٩٥٤ ، وتستمر المحنة في صعود وتزايد حتى تنتهى بوفاته سنة ١٩٦٥ .

يشير المعداوى أيضا إلى كتابه الثانى عن « على محمود طه » والواقع أن هذا الكتاب لم يظهر سنة ١٩٥٢ كما أشار المعداوى وكما كان يتمنى ، بل ظهر سنة ١٩٦٥ قبل وفاته بشهور قليلة ، ولم يظهر في مصر وإنما نشرته وزارة الثقافة العراقية ، وأذكر هنا - كما أشرت في فصل سابق - أن هذا الكتاب قد نشر بفضل الأديب والناقد العراقى محمى الدين إسماعيل الذى عاش في مصر عدة سنوات واتصل بالمعداوى وكان متحمسا له معجبا به .

وتكشف لنا هذه الرسالة عن أن هناك رسالة أخرى مفقودة كتبها المعداوى إلى فدوى طوقان بين رسالته الأولى ورسالته الثانية ، ولم أعثر على هذه الرسالة ، ولم تخبرنى فدوى عنها شيئا ، وأعتقد أن هذه الرسالة قد ضاعت كما تصور المعداوى نفسه .

الرسالة الثالثة

يا عزيزتى الغالية . .

تلقيت أمس مجموعتك الشعرية الرائعة كما تلقيت رسالتك الحبيبة منذ أيام . . وأبدأ الحديث عن شعرك لأقول لك إن هذا الشعر مظلوم . . أقول هذا بعد أن فرغت من قراءته للمرة الرابعة ، وكأننى أقرأه لأول مرة ، والفن الصادق فى رأى هو ما يبدو للنوق والشعور جديدا دائما ، أقسم ما أحببت شعرا كما أحببت هذا الشعر ، وأقسم مرة أخرى أن حبى لشعرك لا يختلط بذرة واحدة من ذرات المجاملة . . إننى مثلا أعجب كل الإعجاب بشعر على محمود طه ، ولكننى مع ذلك أحب شعرك أكثر مما أحب شعره ، لأن هناك فارقا بين الحب والإعجاب ، هذا الفارق يا فدوى مصدره أن شعرك قريب إلى قلبى . . هل رأيت منظر الشلال تنحدر مياهه فى قوة عارمة وصخب عنيف ؟ وهل رأيت منظر النبع وهو ينساب فى رقة هائلة وحنان رهيف ؟ إن المنظر الأول يذكرنى بشعر على محمود طه ويذكرنى

بشعرك المنظر الأخير . . هناك القوة التي تملأ فجاج النفس ، وهنا
الرقعة التي تملأ شغاف القلب ، وأنا أحب هذه وأعجب بتلك ،
ولعلك قد أدركت الفارق بين الحب والإعجاب .

هل تصدقين أنني قضيت الليل كله حتى الصباح وحيدا مع
شعرك ؟ معذرة يا فدوى فقد كان معي رفاق آخرون . . كان معي
الليل والنيل والأرق والسكون . . إنهم رفاق قدامى ، ليس فيهم من
جديد غير شعرك وأرقى . . ومع هذين الرفيقين الجديدين قضيت
الليل كله حتى الصباح . . إن شعرك أرق مني الشعور قبل
الجفون . . شعرك هذا الذي طالعت من ورائه قصة العمر التي كتبها
بمداد الشجن ظلم الحياة .

أنت يا مظلومة العمر ، ويا مظلومة الشعر ، ماذا أقول لك ؟
أتذكرين تلك الكلمة التي كتبتها يوما على صفحات « الرسالة »
ووجهت فيها الحديث إلى الله حيث قلت : رياه . هل تأذن لي في أن
أعتب عليك ؟ . انبعث هذا الهتاف الملتاع مرة واحدة في حياتي
ويا طالما قلت لنفسى إنه لن يتكرر . . ومع ذلك فقد تكرر بالأمس ،
وأنا أقرأ قصة حياتك ومعى الليل والنيل والأرق والسكون .

ترى لو لم يحترق شعرك يا فدوى في وقدة العذاب ، ترى هل كنت
تستطيعين أن تقدمي إلينا مثل هذا الشعر ؟ صدقيني أن الحياة قد
ظلمتك لتنصف الفن . . فنك هذا الذي يذكرني بالذهب ، حين
لا يصفو معدنه إلا وهو معروض لوهج النار : ولكن أين هم الذين
وهبوا نعمة الشعور ليفرقوا بين الذهب والقصدير ؟ لقد أنصفت
الحياة فنك ولكنه مظلوم من الأحياء .

هنا يا فدوى يأتى دور النقد ، النقد النزيه المنصف الذى يرفع
الستر عن الكنوز الدفينة . . ولقد رأيت أن أقوم ببعض الواجب نحو
فدوى الإنسانية وفدوى الفنانة ، سأطبع ديوانها مهما تكن الظروف ،
وأقدمه للناس فى أزهى حلة من حلل النقد ، وأقول للسائرين فى
الظلام : حسبكم . . لقد أشرق نور فجر جديد .

إننى عندما أقول إن شعرك مظلوم من الأحياء يافدوى فإنما أعنى
الناشرين والنقاد . . أما القراء فهم بخير والحمد لله ، وإنك
لتظفرين من كثرتهم الغالبة بأعمق التقدير وأصدق الإعجاب ، ولهذا
أود أن أطمئنك منذ الآن إلى مصير شعرك ، حين نخرج به على
الجمهور القارىء مجموعا فى ديوان . . ولا تفكرى أبدا فى ذلك
الموقف الذى تتخيلينه فى رسالتك ، ذلك الموقف الذى لا يمكن أن
يكون ! . . إن فيك يا فدوى من عزة النفس وكرامة الإباء ما لم
أصافه كثيرا فى حياتى . . ولقد تجلى لى إباؤك وتمثل ، عندما طلبت
إلى أن أوافيك بأنباء الديوان بعد طبعه « إذا لم يلق - لا سمح الله -
ما نتطلع إليه معا من رواج مرتقب . . لتتدبرى بنفسك أمر تسديد
التفقات للجنة على أى وجه كان » يا لهذا الإباء الذى أخفض له
قلمى تقديرا وتحية . . ما هذا يا فدوى ؟ أنظنين - حتى لو فرضنا
المستحيل - أننى أسمح لموقف كهذا أن يحدث ؟ إن لى عند اللجنة
مبلغا من المال يكفى لطبع ديوانين من الشعر ، وأقسم لك أنى لست
بحاجا إليه . . وما أيسر أن ينفق كله على طبع ديوانك ، إذا خضعنا
لهذا المنطق الجميل ، منطق خيالك يا شاعرة .

أطمئنى يا فدوى ، لأننى واثق من رواج ديوانك كل الثقة ، تبعا
لخبرتي الطويلة بأذواق القراء . . وإن أملى اليوم ليتجدد فى دار نشر
أخرى يمكننى أن أخاطب أصحابها فى هذا الأمر ، وهى دار

المعارف ، لقد اتصلت بى هذه الدار منذ أيام ، عارضة على أن أشارك بقلمى فى تحرير مجلتها الشهرية « الكتاب » وأن أقدم إليها كتابا لسلسلة « إقرأ » وأن أدفع إليها بكتاب الحديد المعد للطبع : « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » . . ولقد لبيت رغبتهم الأولى - أعنى أصحاب الدار - وسألنى رغبتهم الثانية وسأفكر فى رغبتهم الثالثة لأن هناك شبه اتفاق على طبع الكتاب الثانى بينى وبين لجنة النشر للجامعيين . مهما يكن من شىء فسأفاجئهم فى أمر ديوانك فى الأيام المقبلة حتى يكون بين يدى أملان أو فرصتان بدلا من فرصة واحدة . . ولقد كنت بدار المعارف فى الأسبوع الماضى حيث قدمت إليهم مقالى الأول عن « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » ، وهو دراسة يهمنى أن تطلعنى عليها فى العدد القادم من مجلة « الكتاب » ، لأنها المفتاح الأصيل للأداء النفسى فى شتى الفنون . . وفى ذلك المجلس الذى جمع بينى وبينهم ، حدث خلاف فنى بين مدير الدار وبين الأستاذ عادل الغضبان رئيس تحرير المجلة حول كتاب للأستاذ البير أديب عنوانه « لمن » ، هذا الكتاب يعترض الأستاذ الغضبان على طبعه لأنه سيعرض الدار لخسارة مادية ، بينما يدافع مدير الدار عن طبعه بحجة العطف على مؤلفه الذى شكاه إليه حاله يوم أن كان فى لبنان . . وانتهى الخلاف بالاحتكام إلى فقلت إننى أؤيد طبع الكتاب على الرغم من رأى فى شخصية صاحبه الأدبية وفى شعره وفى ثقافته ، وهو رأى يختلف عن رأى الأستاذ الغضبان .

هذه القصة يا فدوى أرجو أن تكون بينى وبينك وألا يعلم بها أحد ، ولقد قصصتها عليك لتحكمى بنفسك على موقفى من البير أديب ، هذا الرجل الذى يشكونى دائما لأصدقائى ومنهم سعيد تقى الدين زاعما أننى أردت يوما أن أقضى على سمعة مجلته وهى مورد

رزقه ، حين سمحت لأديب عراقي أن يبدى وجهة نظره في مجلة « الأديب » على صفحات « الرسالة » مع أنني سمحت في نفس الوقت لأحد أصدقائه ، أقصد أصدقاء ألبير ، بأن يدافع عنه وعن مجلته وأن يهاجم الأديب العراقي بما شاء من ألفاظ . . لقد كان الكتاب متوقفا على كلمة منى لترفضه دار المعارف ، ومع ذلك فقد أبى على الذوق والضمير أن أنطق بتلك الكلمة لأنني لا أحب أن أحارب أحدا في رزقه .

ومرة أخرى أعود إلى شعرك لأقول إنني أفضل كثيرا ألا يضم القسم الثاني وهو شعر المناسبات إلى الديوان . . إن القسم الأول بما فيه من ترتيب فني لوضع القصائد يكون في مجموعته وحدة نفسية وموضوعية لا نظير لها بين دواوين الشعر ، ويقدم إلى الناس قصة حياة كاملة تقوم فيها القصائد الشعرية مقام الفصول الروائية ، ولهذا أود أن أرجىء القسم الثاني من شعرك إلى فرصة أخرى مقبلة ، وليس من شك في أنه سيسرك أن يكون لك ديوانان من الشعر لا ديوان واحد .

ثم هذه القصائد المهداة إلى بعض الناس . . لا يجوز فنيا أن تذكر عبارات الإهداء في ديوان مطبوع ، وإنما يجوز ذلك عندما يكون الشعر منشورا في مجلة من المجلات . هل تسمحين لي بأن أحول بينها وبين الظهور عند طبع الديوان ؟ ثم هل تسمحين مرة أخرى بأن اختلف معك حول هذه التسمية : « أشواق الحياة » ؟ إنها تسمية عادية يا فدوى وأنا أحب دائما الأشياء غير العادية ، ثم إن هناك ديوانا تافها اسمه « من نبع الحياة » وأنا لا أريد أن يشترك مع ديوانك ولوفي هذه الكلمة الواحدة : « الحياة » ! . . إني ألح ابتسامة عابرة ترف على شفتيك كصدي لهذه « الحنبلية » في النقد الأدبي . . ما علينا ،

ولنعد إلى ما كنا فيه . . إن شعرك شعر غير عادى ، ومن الحتم أن نبحت عن عنوان له غير عادى ، ولقد فكرت مثلاً فى أن أستغير منك أنت عنواناً موسيقياً فاتناً مكوناً من هذه الكلمات : « وأنا وحدى مع الليل » . . وهنا أيضاً الملح يدك ترتفع معترضة كما يفعل مندوب روسيا فى مجلس الأمن صائحاً من أعماقه : « فيتو » !

ستعترضين مثلاً لأن لنازك الملائكة ديواناً اسمه « عاشقة الليل » أعلم ذلك مقدماً يا عزيزى الغالية ، فضلاً عن أننى أؤثر ألا تشترك معك نازك الملائكة فى شيء ، لأن هذه الفتاة قد بدأت بداية طيبة ثم انحرفت آخر الأمر عن الطريق ، الطريق الفنى الذى كنت أحب لها أن تسير فيه لقد انتهت فى رأى ولست أدري ما هورأى الناس .

ما علينا مرة أخرى ولنعد إلى ما كنا فيه . . ما رأيك أن نتخير للديوان هذه التسمية : « وأنا وحدى مع الأيام » ؟ إنها خير تسمية فيما أعتقد ، لأنها غير عادية من جهة ، ولأنها أكثر انطباقاً على شعرك من أية تسمية أخرى مهما تفتق عن فنون التسميات خيالك الجميل !

أنا فى انتظار رأيك على كل حال . . وأود أن أهنئك من كل قلبى على موقفك من سعيد تقى الدين ، لقد كان هذا الموقف لفظة بارعة منك يا فدوى بغير جدال ! ولكن كيف تقولين إن الفوضى الشعرية عند سعيد هى بعض صفاتك ؟ يخيل إلى أنك تخلطين هنا بين « الفوضى الشعرية » و« الحيرة الشعرية » . . إن المشكلة عندك مشكلة حيرة وليست مشكلة فوضى ، وما أكثر ما بين المشكلتين من فروق !

بقى أن أسألك يا فدوى عن حياتك فى هذه الأيام . . كيف تعيشين وكيف تقضين يومك ؟ إننى أحب دائماً أن أتطفل على حياة

الذين أعزهم وما أقلهم . . ليطمئن عليهم قلبى ! ثم ألا تفكرين
مرة أخرى فى زيارة مصر ؟ ولماذا لم تعرجى على دار الرسالة لنسعد
برؤيتك ، فى المرة السابقة ؟ أنا فى انتظار رسائلك ، وأرجو أن أقرأ
لك شعرا جديدا فى الأيام المقبلة وعلى صفحات « الرسالة » . .
ودمت أيتها العزيزة الغالية للذى يذكرك ولا ينساك .

أنور المعداوى

١٩٥١ / ١٢ / ١٥

تعليق على الرسالة الثالثة

في هذه الرسالة يتضح لنا أن أنور المعداوى هو الذى اختار اسم الديوان الأول لفدوى طوقان ، كما عرفنا من قبل أنه هو الذى قام بنشر الديوان وأشرف على ظهوره فى القاهرة ، على أن الديوان لم يظهر بالاسم الذى اقترحه المعداوى فى هذه الرسالة وهو « . . . وأنا وحدى مع الأيام » بل ظهر بعد تعديل طفيف فى الاسم فأصبح « . . . وحدى مع الأيام » .

وفى هذه الرسالة يتضح لنا أيضا مدى حماس المعداوى لفدوى طوقان وشعرها ، حتى أنه اندفع إلى الهجوم على نازك الملائكة دون أن يبرر لنا رأيه تبريرا أدبيا مقنعا ، ولعل المعداوى أراد بهذه المقارنة بين نازك وفدوى أن يؤكد لفدوى مكانتها فى نفسه من خلال هذه المقارنة التى تخطر على البال دائما بين فدوى ونازك باعتبارهما أكبر شاعرتين فى الوطن العربى فى هذا الجيل ، والحقيقة أننا إذا أردنا أن ننظر إلى فدوى ونازك بالمقاييس الأدبية الخالصة فسنجد كلا منهما تمثل مدرسة فنية

مختلفة عن الأخرى وأنها لا تتسبان أبداً إلى مدرسة واحدة ، مما يجعل المقارنة بينها صعبة .

ويشير المعداوى في هذه الرسالة إلى دراسة نقدية له عنوانها « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » وهى دراسة من أجمل دراساته النقدية وأذكائها ، وقد نشرها فى كتابه الثانى « على محمود طه » تحت عنوان « الأداء النفسى » ، كما ظهرت هذه الدراسة نفسها بعنوانها الأصلى وهو « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » فى كتاب المعداوى الثالث وهو « كلمات فى الأدب » وهو الكتاب الذى ظهر بعد وفاته بشهور عن المكتبة العصرية فى لبنان .

يشير المعداوى بعد ذلك إلى الأستاذ « البير أديب » ومجلته « الأديب » وكانت هذه المجلة فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات هى أشهر مجلة أدبية فى الوطن العربى خارج مصر ، ولكنها كانت فى أوائل الخمسينات قد بدأت تضعف حتى انتهى بها الأمر إلى صورتها الراهنة حيث تحولت إلى نشرة هزيلة تخلفت تماماً عن الحياة والثقافة .

ويمكننا هنا أن نلخص المعركة التى يشير إليها المعداوى والتى ثارت فى بابه الأسبوعى « تعقيبات » حول مجلة الأديب ، وهذه المعركة تعطى فكرة عن جانب من جوانب الحياة الأدبية فى الوطن العربى فى أوائل الخمسينات ، وما كانت تعانيه هذه الحياة من مشاكل واضطرابات وصراعات متعددة .

ففى العدد ٨٨٩ من مجلة الرسالة الصادر فى ١٧ يوليو سنة ١٩٥٠ نشر المعداوى فى بابه « تعقيبات » رسالة من أديب عراقى من البصرة

هو الأستاذ « كارنيك جورج » يتحدث فيها عن مجلة « الأديب » ، وقد نشرها المعداوى تحت عنوان « معايير القيم في الصحافة الأدبية » ، وهذا هو نص رسالة الأديب العراقى :

« ألم تقع فى يدك هذه المجلة الأدبية التى تصدر كل شهر فى أحد الأقطار العربية الشقيقة ؟ ألم تعجب إذ لا تجد فيها غير الغث والتافه من ذلك الأدب الذى لا يفهم ، والذى يصير أصحابه على تسميته بالأدب الرمضى ؟ لاشك فى ذلك ، بيد أن هناك فى الصفحات الأخيرة زاوية خاصة لوبحثت عنها لوجدتها تعلن أسماء أنصار المجلة خلال تاريخ معين ، كما أنها تذكر أرقام المبالغ التى تلقتها من هؤلاء الأنصار تاركة قناع الحياء وهى تستجدى الليرات من أصحاب الأقلام ، أو بالأحرى تبيعهم النشر بالمال ، فما من اسم يذكر فى هذه القائمة إلا وكانت له فى المجلة قطع أدبية من هذه القطع الأدبية التى لا تفهم ولا تهضم .

أعرف قارئاً فى العراق أرسل إلى هذه المجلة قيمة الاشتراك السنوى فقط ، فإذا برسالة تأتبه بخط صاحبها يبدى فيها شكره الجزيل ويرحب به ويأدبه ويقلمه . . فى حين لم يكن له - يشهد الله - أدب ولا قلم ! ليس من شك فى أن هذا الرجل قد جعله « الإدمان » على هذا المسلك الخاص لا يفكر فى حقيقة المشترك ، بل يفتح له صدر مجلته بمجرد استلامه بدل الاشتراك أو تلك « المعونة » التى يطلبها من الأنصار ! ولا أدري لماذا ؟ فإن هذه المجلة لوبيعت فى كل مدينة تصل إليها عشرون نسخة منها لعادت على صاحبها بالربح ، والربح الوفير .

وأعترف الكثيرين من أصحاب الأقلام المعروفة في العراق يأبى صاحب هذه المجلة أن ينشر أى شىء لهم لأنهم لا يرفقون مع كتابتهم قيمة الاشتراك السنوى ، أو قيمة الهبة التى ينتظرها من الأنصار ، وقد سمعت أخيراً أن الرجل قد عزم على أن يهجر بلاده ومجلته ولا يأخذ معه إلا ما جمع من مال .

هذا ما لا ينبغى أن تسكت عنه أنت أيها الرجل الذى وهب قلمه للدفاع عن قيم الأدب وكرامة الأدباء » .

هذه هى الرسالة التى نشرها المعداوى للأديب العراقى « كارنيك جورج » من البصرة ، وقد علق عليها المعداوى بكلمات قال فيها :

« لا نريد أن نصدق هذا الذى يقصه علينا الأديب الفاضل ، لأنه لو صحت هذه الوقائع التى ينسبها إلى هذه المجلة لترتب على ذلك أن يفقد القراء ثقتهم فى رسالة الصحافة الأدبية . . إننا نريد للصحافة الأدبية أن تسمو برسالتها فوق مستوى الظنون والشبهات ، فلا يتهم المشرفون عليها بما ينقص من قدرهم وقدر الأدب وقدر الكرامة العقلية ، نقول هذا ولا نريد أن نصدق هذا الذى بلغنا عن زميلة نحرض كل الحرص على أن يظل مشعلها مضيئاً بنور الفن ونور الإيمان . . الفن الذى لا يقبل أن تكون المساومة معبره إلى القلوب والأسماع ، والإيمان بهذه الحقيقة مهما تنكر لها أصحاب المطامع والأغراض » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« أما عن هذا الأدب الرمضى الذى أشار اليه الأديب الفاضل فى رسالته فقد أبدينا رأينا فيه وفى أصحابه يوم أن تناولناه بما يستحق من

سخرية في التعقيبات . وحسب الرمزيين والسرياليين ما تلقاه بضاعتهم الزائفة من إعراض هنا وهناك » .

وبعد عدة أسابيع من نشر رسالة الأديب العراقي وتعليق المعداوى عليها ينشر المعداوى رسالة من كاتب لبناني يدافع عن مجلة « الأديب » ويرد على الكاتب العراقي ، ورغم أن رسالة الكاتب اللبناني كانت بدون توقيع فإن من المرجح أن يكون صاحب هذه الرسالة هو الدكتور سهيل إدريس الذي كان صديقاً للمعداوى والذي تعود أن يرأسه ويكتب إليه ، وقد كان المعداوى - فيما أعلم - هو أول صديق في مصر للدكتور سهيل إدريس ، وكان سهيل من ناحية أخرى متصلاً بمجلة « الأديب » وكاتباً من كتابها قبل أن يقوم بإنشاء مجلته المعروفة « الاداب » سنة ١٩٥٣ ، ويشاء القدر والتطور الأدبي أن تكون هذه المجلة التي أنشأها سهيل إدريس هي التي تقضى نهائياً على مجلة « الأديب » وتحل محلها كأبرز مجلة أدبية تطل بها لبنان على الوطن العربي .

يقول سهيل إدريس في كلمته غير الموقعة باسمه إن ما ذكره الكاتب العراقي عن مجلة « الأديب » هو مجموعة « افتراءات » مردها إلى مصلحة شخصية . . فقد أرسل هذا الكاتب إلى « الأديب » عدة مقالات وقصص كانت تهمل . . وكأنه أراد أن « يرشو » صاحب « الأديب » لينشر له مقالاته فأعلمه أنه مرسل إليه مائتي نسخة هدية توزع على الأصحاب من مجموعة قصصية أصدرها بعنوان « دموع عذراء » على ما أذكر . . وحين تلقى صاحب المجلة عشرين نسخة من هذا الكتاب « وهو كتاب قصصى سخيف على ما تبين لي لأنه أرسل إلى » كتب له يشكره ويرجو أن يوقف إرسال الباقي حتى يتم توزيع هذه النسخ العشرين التي لم يكن يجزؤ على أن يهديها للأدباء من أصحابه ،

لأنها ضعيفة جدا من الناحية القصصية . . وكان من الطبيعي أن يغضب هذا الكاتب العراقي ويرسل إليك هذه الكلمة الحافلة بالانتقادات والافتراءات .

وقد عاد الأديب العراقي البصراوي إلى الرد المطول على رسالة سهيل إدريس ، وخلاصة رده أنه ينفي الاتهامات الخاصة به ويؤكد الاتهامات الخاصة بمجلة « الأديب » ويكاد هذا الرد يكرر ما ورد في الرسالة الأولى للأديب العراقي .

وأهمية هذه المعركة أنها تكشف لنا بعض ما أصاب المجلات الأدبية في أوائل الخمسينات ، فمعظم هذه المجلات كان قد استنفد دوره ولم تعد أمامه رسالة يؤديها ، وذلك بسبب ظهور أجيال أدبية جديدة تحمل أفكارا وآراء لم تعد تحتلها المجلات القديمة أو تستوعبها أو تدرك معناها وتستطيع التعبير عنها .

وبالنسبة لمجلة « الأديب » ، التي ما زالت تصدر إلى اليوم^(١) ، فقد انهارت حقا ، وأصبحت تعتمد في تحريرها على البريد الذي يأتيها من القراء ، كما انخفض مستواها إلى أبعد الحدود وأصبحت نشرة لا تعبر عن شيء له قيمة ، وقد امتدت هذه الأزمة إلى المجلات الأدبية في مصر فتوقفت مجلة « الرسالة » عن الصدور سنة ١٩٥٣ وتوقفت أيضا مجلة « الثقافة » ، وهما أعرق مجلتي أدبيتين في مصر والوطن العربي كله في ذلك الحين ، وهذه المعركة حول مجلة « الأديب » والتي نشرها المداوي في بابهِ الأسبوعي « تعقيبات » هي

(١) كانت المجلة مازالت تصدر عند ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب « سنة ١٩٧٦ ، أما الآن ، سنة ١٩٨٩ ، فقد توقفت المجلة عن الصدور منذ عدة سنوات بعد وفاة صاحبها « أثير أديب » .

التي يشير إليها المعداوى في رسالته إلى فدوى طوقان بقوله « . . ألبير
أديب . . هذا الرجل الذى يشكونى دائما لأصدقائى ، ومنهم سعيد
تقى الدين ، زاعما أننى أردت يوما أن أقضى على سمعة مجلته وهى
مورد رزقه . . » .

وفى هذه الرسالة إشارة إلى ديوان شعر مصرى هو ديوان « من نبع
الحياة » ، ولم يشر المعداوى إلى اسم صاحب الديوان وهو الشاعر
محمد عبد الغنى حسن ، وقد كان المعداوى يرفض شعره ويهاجمه
بعنف ويعتبره نموذجا للشعر السطحي التافه .

الرسالة الرابعة

يا عزيزى يا فدوى . .

أين أنت ؟ ولماذا انقطعت رسائلك منذ أمد بعيد ؟ لقد تلقيت مجموعتك الشعرية وكتبت إليك عقب وصولها رسالة مطولة ، قلت لك فيها أشياء كثيرة حول أمور كثيرة . . ولم أتلق منك جوابا عن تلك الرسالة ، مما أثار الظن بأنها قد ضلت إليك الطريق ! وحاولت أن أكتب إليك مرة أخرى لأسألك عن مصيرها ولكن الحوادث المفجعة قد تتابعت ، فشغلتنى عنك وعن الدنيا وعن الناس . . ومعذرة يا فدوى من هذا الذى حدث ، لأننى أعيش فى هذه الأيام فى جو نفسى قائم لا يتيح لى أن أخلو كثيرا إلى القلم ، ولهذا انقطعت منذ بعيد عن الكتابة إليك !

إن ما تتعرض له مصر الحبيبة من عدوان آثم هو الذى يلقى بشعورى فى موقد العذاب ليحترق ، وهو الذى يكاد يلهينى عن التفكير فى كل شيء حتى الأهل والأحباب ، أريد أن أكتب فلا

أستطيع ، وهكذا تنقضى كل أوقات في هذه الفترة العصيبة التي ترهق الأعصاب وتزلزل المشاعر ، إنها فترة كفاح مرير يا فلوى ، كم تبذل فيه مصر كل ما تملك من قطرات العرق والدم والدموع . . تبذلها في سخاء لأن السخاء وحده هو الطريق إلى الحرية ، وقد أوشكنا أن نبليغ من هذا الطريق منتهاه ! ماذا أقول لك أيتها العزيزة ؟ إن لدى أشياء كثيرة أود أن أقولها ولكنها تحتاج إلى لحظة صفاء . . سأرجئها إذن إلى لقاء قريب بين السطور والكلمات ! كل ما أود أن أقوله اليوم هو أنني أريد أن أسألك عن رسالتي الماضية ، لأنها كانت تضم كثيرا من الآراء هي التي تنقصني الآن قبل أن أدفع بشعرك إلى المطبعة . . ترى هل تلقيت تلك الرسالة أم أعود إلى شرح مقترحاتي الفنية من جديد وفي رسالة مقبلة ؟ أود أن أسمع منك الجواب ، كما أود أن تكثري من الكتابة إلى في هذه الأيام لأطمئن عليك يا فدوى ، ولا أنسى في ظل روحك المضيئة ما يكتنفي من ظلام !!

ولعلك قد أطلعت على تلك الكلمة التي كتبته السيدة وداد سكاكيني ، لقد كانت تلك الكلمة محل نزاع بيني وبين الأستاذ الزيات ، لأنه مع تقديره الخالص لشعرك لم يكن يجب أن ينشرها عملا بمبدأ « الرسالة » في عدم الكتابة عن الأحياء إلا إذا كانت هناك مناسبة تدفع إلى الكتابة ! ومع موافقتي على هذا المبدأ فقد أصررت على نشر الكلمة ولم أبرح دار الرسالة حتى أذعن الزيات مرغما لما أريد . . ولا أود بعد ذلك أن أسمع منك كلمة شكر ، ولا أن يعلم بهذا الذي صنعت أحد من الناس .

مع هذه الرسالة صورة تذكارية رأيت أن أهديها إليك لتعرفي منها الأساتذة : عباس خضر ، أحمد حسن الزيات بك ، أنور

المعداوى ، حبيب الزحلاوى ، وأمامهم الأستاذ كامل محمود حبيب
الذى اضطرب طربوشه بين يديه فأثار ضحكى وضحك الزيات .

ولك يا فدوى العزيزة أخلص تحياتى المخلص :

أنور المعداوى

١٥٢ / ٢ / ٣

تعليق على الرسالة الرابعة

كتب المداوى هذه الرسالة في شهر فبراير سنة ١٩٥٢ ، وفي تلك الفترة كانت الحركة الوطنية في مصر قد اشتعلت اشتعالا عنيفا ، فألغت حكومة الوفد بقيادة مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ قبل كتابة هذه الرسالة بشهور ، وبالتحديد في نوفمبر ١٩٥١ ، وهي المعاهدة التي كانت تنظم العلاقة بين مصر وانجلترا وتسمح ببقاء جيش الاحتلال الإنجليزي في منطقة قناة السويس ، وبعد إلغاء المعاهدة سقطت شرعية الوجود الإنجليزي في مصر من الناحية القانونية ، وبالطبع فإن هذا الوجود فاقد للشرعية من الناحية الوطنية منذ دخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، وبعد إلغاء المعاهدة في أواخر ١٩٥١ دخل الفدائيون المصريون معركة عنيفة ضد الاحتلال الإنجليزي في منطقة القناة ، وأخذ الشهداء من أبناء مصر يتساقطون واحدا وراء الآخر ، وبدأ الملك فاروق - بالتعاون مع الإنجليز - في التآمر على الحركة الوطنية ، وكان حريق القاهرة المشهور في يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ هو قمة التآمر على شعب مصر وحكومته الوطنية ،

وقد استغل الملك فاروق الحريق المدبر فأقال حكومة الوفد بقيادة النحاس
وسلم الحكم لبعض أعوانه وأنصاره ، هؤلاء الذين أرادوا أن يطفئوا
شعلة الحركة الوطنية في مصر تحت شعار حاجة الدولة المصرية إلى
تطهير البلاد من العناصر الفاسدة التي ملأتها بالرشوة والانحراف ،
وكان الهدف من ذلك هو إبعاد الأنظار عن المشكلة الأساسية وهي
الإنجليز تشدد والشهداء يتساقطون كل يوم ، واعتداءات القوات
الإنجليزية على المدن والقرى في منطقة القناة تزداد عنفا وقسوة . وهذا هو
ما يشير إليه المعداوى في رسالته بقوله « إن ما تتعرض له
وهذا هو ما يشير إليه المعداوى في رسالته بقوله « ان ما تتعرض له
مصر الحبيبة من عدوان آثم هو الذى يلقي بشعورى في موقد العذاب
ليحترق ، وهو الذى يكاد يلهينى عن التفكير في كل شيء حتى الأهل
والأحباب . . إنها فترة كفاح مرييا فدوى ، كفاح تبذل فيه مصر كل
ما تملك من قطرات العرق والدم والدموع . . تبذلها في سخاء لأن
السخاء وحده هو الطريق إلى الحرية ، وقد أوشكنا أن نبلغ من هذا
الطريق منتهاه » .

وتصوير المعداوى لآلام مصر في تلك الفترة صحيح وصادق . . فقد كانت
مصر في تلك الأيام تعيش مرحلة مليئة بالمجد والحزن واللوعة والأمل
والألم في وقت واحد ، وكانت لحظات الكآبة والانقباض ولحظات
السعادة والفرح تمر على نفس الإنسان في مصر عشرات المرات في
اليوم الواحد من شدة تلاحق الأحداث وتناقضها العنيف .

بعد هذه الإشارة العامة إلى ما كانت تعانيه مصر من آلام الكفاح
ضد احتلال الإنجليز وطغيان فاروق يعود المعداوى ليتحدث في
بعض القضايا الأدبية والشخصية ، فيشير إلى مقال كتبه الأدبية

السورية السيدة وداد سكاكيني عن فدوى طوقان ، وقد نشرت مجلة « الرسالة » هذا المقال في العدد ٩٦٨ الصادر في ٢١ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان المقال بعنوان « فدوى طوقان شاعرة الوجد والحنين » وقد تناولت الكاتبة السورية في هذا المقال موقف فدوى من ثلاثة موضوعات ، الموضوع الأول هو حزنها على فقد أخيها الشاعر الفلسطيني العربي الكبير إبراهيم طوقان ، والموضوع الثاني هو تجربتها الأنثوية كفتاة حساسة تعيش في مجتمع تحكمه التقاليد القاسية ، وتقول وداد سكاكيني حول هذا الموضوع « إن السائد من تقاليدنا ما يزال يجعلنا متحفظين متحريزين في التعبير عن حقيقة إحساسنا ومنازعنا ، فلا الشاعرة ولا الأديبة تستطيع مع هذا التحرج أن تصور هواجسها وخلجات قلبها ، ولا الناقد يستطيع النفاذ إلى ما وراء الكلام ، ولهذا فإن حين نظرت إلى طائفة من شعر فدوى قالته في التعبير العاطفي والشوق المقيّد والقلق المستبد عزوته إلى هذا التحفظ النسوي . غير أن فدوى إذا قيست بشاعراتنا المعاصرات كانت أصدقهن تمثيلاً للعاطفة الصحيحة والشعور الذي يخامر الأنثى ، وليس معنى هذا أن شعرها مقصور على الوجد والحنين فإن لها تأملات روحية وصورا حسية متنوعة دلت على تتبعها وتعمقها في فهم الكون والحياة مع تيارات الفكر الحديث » .

أما الموضوع الثالث الذي أشارت إليه الكاتبة السورية في شعر فدوى طوقان فهو قضية فلسطين . . وحول هذا الموضوع تقول الكاتبة « إن لفدوى طوقان في فلسطين المنكوبة المغصوبة شعرا لم يقل مثله الرجال » . . وهذا الحكم الأدبي الذي أصدرته وداد سكاكيني على شعر فدوى الوطني حكم طريف وغريب معا ، ففضيلة شعر فدوى الوطني عند الكاتبة هي أنه شعر « لم يقل مثله الرجال » ، وهي فضيلة

إن صحة لا قيمة لها ؛ لأن الوطنية شعور أصيل صادق ينبغي أن يتوفر لكل إنسان مثقف حساس ، سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة . ومن ناحية أخرى فإننا نجد أن الشعر الوطني الفلسطيني الذي قاله « الرجال » - ومن بينهم إبراهيم طوقان شقيق فدوى - لم يكن شعراً محدود القيمة أو قليل التأثير ، فقد كان شعراء فلسطين يعبرون بصدق وأصالة فنية عن محنة وطنهم بصورة لا توحى بأنهم قصرُوا في هذا المجال ، ويكفى أن نذكر هنا شعر عبد الرحيم محمود وأبى سلمى إلى جانب شعر إبراهيم طوقان لنعرف أن المقارنة بين شعر فدوى وشعر الرجال في هذا المجال لم يكن لها مبرر ، وفدوى وشعرها لم يكونا بحاجة إلى مثل هذه المقارنة .

وقد أنهت الكاتبة وداد سكاكيني مقالها عن فدوى طوقان بهذه الفقرة « . . إن طائفاً من الإلهام الإلهي والفن المطبوع قد تخير فدوى طوقان لتحمل رسالة الشعر النسوي في جيلنا المعاصر ، يمكنها من ذلك تضلعها في الفصحى وتمرسها بالبيان ، وإنها لتجود بالشعر من نفسها وحسها غير منسحجة على التكلف والتقليد ولا مرددة لشعر مصنوع تفوح منه رائحة الترجمة والاقتباس ، وإن لها لأمدًا بعيداً هي منطلقة نحوه وقد انشق أمامها الطريق » .

الرسالة الخامسة

فدوى العزيزة :

تلقيت اليوم رسالتك الغالية . . وما كان أشد أسفى حين علمت أنك قد كتبت إلى ، وأن رسالتك الماضية قد قدر لها ألا يكون بيني وبينها حديث وحديث . . لقد ضاعت يا فدوى وضاعت معها تلك الكلمات التى كنت تحرصين على ألا تقع فى يد غير هذه التى تمسك بالقلم لتكتب إليك ، وأشهد لقد أحسست مرارة الأسف كاملة حين انتهيت من قراءة رسالتك وحين أسرعرت إلى « دار الرسالة » لأبحث دون جدوى عن ذلك الأثر الضائع العزيز . . ترى ماذا قلت ، وماذا كتبت ، وما هى تلك الكلمات الخفية التى تشفقين وأشفق معك من أن يطلع عليها إنسان ؟ أسئلة حائرة نائرة ستظل تلفح مشاعرى حتى أتلقى منك الجواب !

اكتبها مرة أخرى ولا فائدة من الأسف على ما حدث وكان . . .
اكتبها واكتبى غيرها إذا شئت فلن ترى منى غير إنسان يفتح لك

القلب على مصراعيه لتستقر في أعماقه كل كلمة من كلماتك سواء همست بها الروح أم نطق اللسان . . إننى أقدرك في جهرك أكثر مما أقدرك في صمتك ، وأكبرك في إفضائك أكثر مما أكبرك في كتمانك ، وأجلك في صراحتك أكثر مما أجلك في مواقف التحفظ والتحرج والإشفاق . . أقول هذا وأنا أعنيه ، لأنك عندى إنسانة كاملة يؤلمنى أن تقول لى في رسالتها إنها تشفق من البوح والإفضاء خشية أن تظهر أمامى بمظهر الفتاة الحمقاء . لا . . يافدوى ! . . إنك لا تعلمين مكانتك من نفسى ، هذه المكانة التى ستقدمك دائما في معرض الفكر صورة جميلة ، جميلة مهما اختلطت فيها الأضواء بالظلال . ولن أنقل هذه الصورة يوما من الإطار الذى وضعتها فيه ، الإطار الذى صنعتته بنفسى وضمنت به على كثير من صور الناس !

أتخشى أن أقرأ بعض السطور من كتاب حياتك ؟ ألا ليتك تقدمين إلى هذا الكتاب كاملا لأقف عند كل صفحة من صفحاته ، ولأقول لك في نهاية المطاف لا تشفقى من هذا الناقد ، إنه يعطف كل العطف على كل كلمة لك في كتاب الفن أو كتاب الحياة . . يعطف عليها بقلبه ، ويخصها بحنانه ، ويطوى عليها الضلوع !

إنك لتذكرينى بإنسانة عزيزة عليها رحمة الله . . لقد كانت مثلك في بدء الاتصال الروحى بينها وبينى ، متحفظة ، مترددة ، تقول كلمة ثم تخفى كلمات . . وحين اطمأنت إلى ، ووثقت بى ، راحت تحدثنى عن كل شىء وتفضى إلى بكل شىء ، حتى لقد كانت هناك أشياء أعلمها « كاملة » ويعلم « بعضها » المحيطون بها من أم وأخوة وأخوات . . وبهذه المناسبة أود أن أذكر لك هذه الحقيقة لأول مرة ، وهى أنها كانت تحبك كل الحب وتعجب بك الإعجاب كله ،

ولا تذكر لى اسمك إلا مصحوبا بتلك التحية : أختى فدوى .. كانت كلما قرأت لك قصيدة فى « الرسالة » تسرع إلى التليفون إذا عز اللقاء ، لتسألنى عنها ، ولتأخذ رأى فيها ، ولتنشر على شخصك وشعرك عبارات إطراء نثرا بغير حساب .. إنها الشاعرة المصرية التى خصصتها فى كتابى بذلك الفصل اللائع الحزين .. سألتنى مرة : ألم تكتب إليك فدوى فى يوم من الأيام ؟ ولما أجبته بالنفى هتفت قائلة : وأأسفاه .. لقد كنت أتمنى أن تكون أنت واسطة التعارف بينها وبينى ! وحين سألتها عن سر هذا الحب همست لأنى أجد نفسى فى شعر فدوى ، فى كل بيت من أبيات هذا الشعر ! .. وأشهد لقد ثارت على يوما ثورة عاصفة حين خطر لى أن أمتحن حبها لك بشيء من الدعابة أخذتها مأخذ الجلد الصراح .. كان ذلك يوم أن نشرت لك « الرسالة » قصيدة بأمضاء « المطوقة » ، واتصلت هى بى لتسألنى فى لهفة : من هذه المطوقة ؟ وحين سألتها لماذا تسألين قالت : لأن قصيدتها مدهشة .. وهنا قلت متخابثا ومتصنعا لهجة الاستنكار : إنها قصيدة سخيفة يا ناهد ، ولولم تكن سخيفة لما تخرجت صاحبتها وهى فدوى من أن تنسبها إلى اسمها الصريح ! .. وهبت الثورة العاصفة بعد أن سمعت هذا النقد ، ولولم يرد ذكر اسمك لما هبت ثورة ولما حدث اعتراض .. وهذأت الثائرة العزيزة حين علمت أن الأمر الذى أكثر من دعابة قصد بها الامتحان !

وإذا عدت إلى المقال الذى رثيتها به طالعك منه قولى بأننى لم أرها ولم ألقها فى يوم من الأيام .. كل ما فى المقال صادق كل الصديق إلا هذه العبارة ! ولقد اضطررتى الوفاء لذكرها أن أقول ما قلت ، لأنها بحكم طبيعتها النفسية كانت تحرص الحرص كله على ألا يعلم هذا الأمر أحد من الناس ! ولقد كنت عند حسن ظنها فى الحياة وبعد

الموت ، ولولا أننى أستشف من وراء الغيب أن روحها لا تضيق بأن
أتحدث عن هذا السر إلى « أختها » العزیزة ، لولا هذا لما أبحت
لنفسى أن أذكر لك يا فدوى بعض هذا الذى كان !

وأترك هذه الذكرى المؤلة لأقول لك إن هذه الكلمات ما هى
إلا من وحى عبارتين وردتا فى رسالتك : إحداهما تلك التى تقولین
فيها بصدد الحديث عن زيارتك لمصر : « لقد سألتنى لماذا لم أزر دار
الرسالة . . ولما كان جوابى سيسجل أمامك حماقتى . . فقد فضلت
ألا أجيبك عن هذا السؤال » والأخرى التى تقولین فيها وأنت فى
معرض الإشارة إلى قصيدتك « الصخرة » : « إننى أعانى شيئا ، أعانى
ألما خفيا لا يدرى به أحد ولا أحب أن يدرى به أحد » !

لقد كانت كلمتى من وحى هاتين العبارتين . . وأعود فأكرر
ما سبق أن قلت ، وهو أن نظرتى إليك لن تتغير فى يوم من الأيام ،
وسواء علمت ما وراء هاتين العبارتين أم جهلته ، فستظلین فى
شعورى إنسانة كاملة وفاصلة . . ومع هذا فأنا لا أحب أبدا أن أرغم
قلمك على البوح والإفشاء ما دمت تؤثرين أن يظل كل شىء رهين
مكانه من شعاب القلب ، لأننى أقدر كل التقدير أن الطباع النفسية
ليست واحدة عند كل الناس ! وإذا كنت قد قلت لك إننى أتمنى أن
أقرأ أكثر السطور من كتاب حياتك فلأننى أومن بأن المشاركة
الوجدانية هى أساس الترويح عن النفوس الحزينة فى لحظات الضجر
والقنوط . . إن النفس أحيانا لتمتلئ بالهم والأسى حتى لتود خشية
الانفجار أن تفيض ، وقد يكون فيضها حديثا صامتا نسميه
الدموع ، وقد يكون حديثا ناطقا نسميه الكلام ، وكلا الحديشين
خلاص للنفس من كل أنقائها فى لحظة ضيق ، وما أعمق العزاء حين

نتخير لنهر الأحزان أن يصب رواسبه بين يدي صديق ! هذا هو كل ما رميت إليه . . . ولست أزعم أنني « أفهم » الجو النفسي لقصيدة « الصخرة » كل الفهم ، ولكنني متأكد من أنني قد « تدوقت » كل التلوق تبعاً لنظريتي التي كتبها عن الأثر الفني حين نعرضه في ساحة التجربة النفسية لنزنه بميزان الشعور ! .

وبهذا الميزان وحده سأحدث عن ديوانك الحبيب في الغد القريب على صفحات « الرسالة » بعد أن تلقيت موافقتك على المقترحات الفنية ، لقد استقر رأيي على أن الحديث عنه في الرسالة سيكون أكثر جدوى مما لو ظهر كمقدمة نقدية ، لأن القراء لا يكثر إقبالهم على الآثار المطبوعة إلا بعد أن يسمعو كلمة النقد في صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات !

لن أكتب إذن مقدمة الديوان ، ولن أعود إلى الرسالة إلا بعد ظهوره لأقدمه إلى القراء ، لأنني منصرف في هذه الأيام إلى إضافة بعض الفصول إلى كتابي الجديد . . . ولا تشغلي نفسك يافدوى بتلك التوصيات اللطيفة التي زخرت بها رسالتك حول الديوان !

وأود أن أهنتك من قلبي على تلك اللمسة المدهشة التي عقت بها على مقال حول « الأثر الفني بين الفهم والتلوق » . . . الواقع أنني كنت أقصد العقاد بالذات حين كتبت ذلك المقال ، حتى لقد هممت بأن أهديه إليه لولا أنني رأيت أن الغمزة ستكون « مكشوفة » ! إن عيب العقاد يافدوى أنه يناقش كل ظواهر النفس والحياة بعقله ، حتى لقد أوشك أن يجعلني أخبط رأسي في الجدار وأنا أقرأ قصته « سارة » . . . تصوري أنه وهو يتحدث عن تجربته الذاتية في علاقته

العاطفية بمن يجب ، كان يفكر ؟! أعوذ بالله . . أعوذ بالله من هؤلاء
الذين يفكرون ولا يشعرون !

وماذا أقول لك أيضا ؟ أقول لابد من تهنئة أخرى على تلك اللمسة
الأخرى في رسالتك ، حول تهافت الشعراء على بعث أناشيد الجهاد
في « الرسالة » بعد تلك الوخزة المؤلمة . . لقد ضاق مكتبي في وزارة
المعارف بحضراتهم وهم يقدون إلى جماعات ، ويبد كل منهم قصيدة
هي وثيقة التكفير عن الذنب وطلب المغفرة ، وكان من نتيجة هذا
المشهد المضحك ذلك السيل المنهمر من شعر الجهاد الذي أشرت إليه
والذي أصبح هنا حديث الناس . . أما مجلة « الكتاب » فلا أستطيع
أن أكتب فيها وأنا منقطع عن الكتابة في « الرسالة » حتى لا يتألم
الأستاذ الزيات . . وقد اعتذرت لعادل الغضبان مرجحا عودتي
للتحرير معه إلى أجل قريب .

وأشكرك الشكر كله على عنايتك بتلك الصورة التذكارية التي
أهديتها إليك ، وإذا كنت قد استطعت أن تميزى شخصي من بين
المحيطين بى قبل أن تقع عينك على الأسماء ، فإن ذلك ليس بغريب
على فنانة وهبت سلامة الحس وصفاء النفس ورهافة الوجدان . . أما
صورتك أنت فهي عندي ، صورتك الإنسانية التي قلت لك إننى لن
أنقلها من الإطار الذى وضعتها فيه ، الإطار الذى صنعتته بنفسى
وضننت به على كثير من صور الناس !

ودمت للذى يذكرك ولن ينساك .

أنور المعداوى

التعليق الأول على الرسالة الخامسة

حول الشاعرة المصرية ن . ط . ع

لم يكتب المعداوى تاريخاً لهذه الرسالة ، ولكن بعض ما جاء فى هذه الرسالة من إشارات يكشف عن تاريخها بالتقريب ، فقد كتب المعداوى إلى فدوى فى رسالته الرابعة يتساءل عن انقطاعها عن الكتابة إليه ، والرسالة الخامسة تكشف أن فدوى قد كتبت إليه وضاعت رسالتها فى البريد ، كما أن المعداوى كان يسأل فى الرسالة الرابعة عن رأى فدوى فى مقترحاته الفنية بالنسبة لديوانها الأول ، وأهم هذه المقترحات هو تغيير اسم ديوانها إلى « . . وحلى مع الأيام » . . وفى الرسالة الخامسة نجد ما يفيد موافقة فدوى على هذه المقترحات ، وبالإضافة إلى هاتين الملاحظتين اللتين تحددان مكان هذه الرسالة بين رسائل المعداوى فإن فدوى نفسها قد وضعت هذه الرسالة غير المؤرخة بعد الرسالة السابقة مباشرة مما يؤيد ما أراه من أنها هى الرسالة الخامسة ، وبذلك يكون تاريخ كتابتها هو الفترة

الممتدة بين الرسالة الرابعة وتاريخها ١٩٥٢/٢/٣ والرسالة السادسة وتاريخها ١٩٥٢/٣/٢٩ .

يحاول المعداوى فى هذه الرسالة أن يزداد اقترابا من فدوى ، ويحاول أن يكسر الحواجز الروحية بينهما ، وذلك بتأكيد على ما يمكنه لها من إعزاز وتقدير ، كما أنه يحاول من ناحية أخرى أن يغريها بأن تفتح قلبها له وتفضى بأسرارها وتبوح بهومها الروحية بغير حرج . . كل ذلك دون أن يعترف المعداوى بأنه يحمل لفدوى عاطفة غير عاطفة الود والصداقة الوثيقة .

ويتحدث المعداوى فى هذه الرسالة عن « إنسانة عزيزة » أخرى ، ويتضح لنا فى الرسالة نفسها أن هذه الإنسانة هى الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » وقد ظهرت هذه الشاعرة فى الحياة الأدبية فى مصر حوالى سنة ١٩٤٨ ، وكانت تنشر شعرها فى بعض الصحف اليومية المصرية ، ثم بدأت تنشر فى مجلة الرسالة ، وكانت أول قصيدة نشرتها لها مجلة « الرسالة » فى ١٤ مارس سنة ١٩٤٩ .

والواقع أن هذه الشاعرة تعتبر شاعرة مجهولة حتى الآن ، ولا تكاد حياتنا الأدبية تعرف عنها شيئا أو تعترف بها ، وذلك لعدة أسباب ، فقد نشرت هذه الشاعرة كل قصائدها بتوقيع يتكون من الحروف الأولى من اسمها وهى « ن . ط . ع » ولم تكن توقع أبدا باسمها الكامل ، مما أدى إلى عدم معرفة القراء بها وباسمها الصريح ، ومن ناحية أخرى فإن عمرها الأدبى كان قصيرا جدا ، فحياتها الأدبية العلة لم ترد على ستين ، حيث بدأت نشر قصائدها سنة ١٩٤٨ وتوفيت سنة ١٩٥٠ ، ومن الواضح أنها ماتت صغيرة ، ولا أستطيع أن أحدد

عمرها^(١) ؛ لأن المعلومات الخاصة بها قليلة جدا ، ولكن كلمات الرثاء القليلة التي ظهرت بعد وفاتها تشير إلى أنها كانت فتاة صغيرة في مستقبل عمرها . وقد عاشت هذه الفتاة حياة قاسية مليئة بالقيود الاجتماعية مما كان له تأثير بالغ على صحتها ، ولاشك أن هذه القيود قد ساهمت مساهمة كبيرة في التعجيل بموتها في هذه السن الصغيرة .

ونستطيع أن نكتشف الظروف الصعبة القاسية التي كانت تعيش فيها هذه الشاعرة من خلال قصائدها القليلة المنشورة ، فكل هذه القصائد كانت تعبيرا عن الصراع العنيف مع الظروف القاسية التي كانت تحيط بالشاعرة ، ولم يكن هذا التعبير رمزيا خافيا ، بل كان تعبيرا صريحا مباشرا عن المأساة ، على أننا لا نستطيع أن نعرف بالضبط نوع القيود التي كانت تعانيها هذه الشاعرة الشابة المجهولة ، ولا نوع المرض الذي تعرضت له وأودى بحياتها في هذه السن المبكرة ، ومع ذلك فشرعها يكشف لنا عن أنها كانت « أسيرة » للحياة في عائلة شديدة المحافظة ، حرمتها من الاختلاط بالناس ، ومنعتها من الانطلاق في الحياة الأدبية كما كانت تحب استجابة لطبيعتها وموهبتها الفنية الواضحة .

كانت أول قصيدة نشرتها « ن . ط . ع » أو « ناهد طه عبد البر » في مجلة « الرسالة » في ١٤ مارس ١٩٤٩ بعنوان « وفاء وحنان » وقد وقعت القصيدة على طريققتها بالحروف الأولى من اسمها وهي « ن . ط . ع » ، وقدمت للقصيدة بمقدمة نثرية تقول فيها « . . من وحى قصة سينمائية غريبة شاهدها على الشاشة تمثل أروع صورة

(١) راجع الهامش المنشور في صفحة ١٧٠ .

للحنان الإنسان يضيفه رجل على أسرته وزوجته المريضة .. مما يهز
أرق المشاعر ، ويثير أنبل الخواطر .

وفي هذه القصيدة تكشف الشاعرة بأسلوب مباشر عما تشكو منه
وتعانيه ، وترسم لنا صورة من المأساة التي تعيش فيها دون أن نعرف
الأحداث والوقائع التي خلقت هذه المأساة ، تقول الشاعرة في
قصيدتها :

إلهي .. أفى الغرب هذا الوفاء ؟
أتحظى النساء بهذا الحنان ... ؟
وفي الشرق يظلمهن الرجال
ويقسو عليهن صرف الزمان

وتواصل الشاعرة شكواها من طغيان الرجل الشرقي ومن فساد
وضع المرأة في المجتمع العربي فتقول :

أرى حكمة الله في شرعه
ترد الفساد وتهدى الضلال
فقيم التلاعب بالدين ربي
يريدونهم متاعا لهم
تعددن مثني به أو رباع
أهذا هو الشرع يا ويحهم
لقد صيروهم سبيل الخداع
أخذتم من الغرب تلك القشور
وحب المظاهر دون اللباب
وأنتم لعمري لا تبتغون

سوى الجسم مثل جياح الذئاب
وأنكرتم الروح ، يا ويحكم
وأين هو الرفق ! أين الحنان
ونبل النفوس ؟ وصدق السوفاء ؟
وأين النبيل بهذا الزمان

ثم تشير الشاعرة بعد ذلك إلى نفسها وإلى النموذج الأنثوى الذى
تمثله فتقول :

ويا لهف من ضللتها المعانى
وحثت خطاها ابتغاء الكمال
فطاح الخيال بعذب الأمانى
ولم تدر أين تحط الرحال

وهكذا تشن الشاعرة هجوما عنيفا على « الرجل » وموقفه من المرأة ،
وتصفه بأقسى الصفات ومن بينها الخداع والمادية ومجافاة روح الدين
والابتعاد عن قيم الصدق والحنان والنبل ، وكان هذا الصراع الذى
تعبر عنه هذه القصيدة هو محور الصراع فى القصائد الأخرى التى
قرأتها لهذه الشاعرة ، وإن كانت تحاول فى كل قصيدة جديدة أن
تكشف عن جانب من جوانب هذا الصراع أو عن مظهر من
مظاهره ، فهى فى القصيدة السابقة تشكو وضع المرأة فى المجتمع ؛
عما يشير إلى أنها كانت تعاني من هذا الوضع معاناة حادة عنيفة ،
ولكننا لا نعرف بالضبط من هو « الرجل الظالم » بالنسبة لهذه
الشاعرة ؟ ، هل يتجسد هذا الرجل فى شخصية الأب أو شخصية
الأخ ، أو فى شخصية حبيب لها غدر بها وتركها فريسة لأحزانها ؟ ،
إذ من الواضح أنها لم تتزوج ، فقد كانت تحرص على كتابة كلمة
« آنسة » قبل توقيعها على كل قصيدة .

هذه كلها أسئلة لا نجد لها إجابة ، ولن نتاح لنا الإجابة الصحيحة إلا بعد التوصل إلى خيط يقودنا بوضوح إلى حياتها الشخصية ، وقد يكون هذا الخيط في شخص صديقة لها أو أحد أفراد عائلتها إذا رضى هذا الفرد أن يتكلم ويكشف لنا حقيقة - مأساة هذه الفتاة الشاعرة .

ومن الجوانب الأخرى التى كانت « ناهد » تركز عليها في قصائدها تعبيراً عن المأساة التى تعانىها : شكواها الدائمة من أن السعادة مفقودة في هذه الحياة ، وفي قصيدة لها بعنوان « أين السعادة » تؤكد هذا المعنى وتلح عليه وتعبّر عن أنها قد انتهت إلى خلو الحياة بكل أشكالها من السعادة ، وتقول في هذه القصيدة :

رب ترى أين السعــا دة لم نجدها في القصور
وبحثت في الأكواخ لم أجـد السعيد ولا القرير
ولكم تصفحت الوجـو وما تظن به الصدور
وعرفت أسرار الخـلا ثق من عظيم أو شريد
وارتدت أحضان الطيعة على أجـد السعيد
فلإذا بكل الناس دأ بهم التمرد والجحود

وفي قصيدة أخرى تؤكد الشاعرة رؤيتها المتشائمة للحياة والناس ، وتعبّر عن نفس المعنى الذى عبرت عنه في القصيدة السابقة وهو أن الحياة مليئة بالشقاء وأن السعادة حلم عسير بل حلم مستحيل :

يقولون في الغد يأتى الهناء
ترى أين ذاك الغد المنتظر ؟
أقبل بعد النعيم الشقاء

كما يقبل الصحو بعد المطر ؟
إذا كان هذا نظام القضاء
أصبحت أسعد من في البشر
ولكننى قد رأيت الزمان
أصم السريرة أعمى البصر

ومن خلال هذا الإحساس العميق بشقاء الحياة وشقاء البشر
اتجهت الشاعرة إلى الموت وجعلت منه موضوعا أساسيا في قصائدها
المختلفة ، وما دامت الحياة خالية من السعادة فإن الموت يكون هو
الحقيقة الكبرى في هذا الوجود ، وهذا المعنى هو ما تعبر عنه الشاعرة
في قصيدتها « عودة الملاح التائه » التى كتبته فى رثاء الشاعر على محمود
طه حيث تقول :

سألت فقيـل ملاح الليالى
تعجل عمره وطوى الشراعا
وعاد لداره تحنو عليه
وتمحو الحزن والعلل الوجعا
إذا عز الوفاء فلا دواء
يخبئنا المكائد والنزاعا
سوى الأرض الحنون فكل عان
سينعم حين تأويه اضطجاعا

على أن الشاعرة كانت تجد شعاعا واحدا من الأمل وسط هذا
الظلام كله ، هذا الشعاع هو الشعر ، فهو تعبير روحي عميق يسمو
بالنفس ويخلصها من آلامها ، ويخرج بها من طريق العذاب ، وهذا
الشعر بقوته الروحية قادر على أن يعوضها عن « الحب » وقادر على أن

يعطيها « المجد » الذى يمكن أن يكون تعويضا من ناحية أخرى عن الحياة الاجتماعية ومباهجها المختلفة . . تقول ناهد فى قصيدة لها بعنوان « عقل وقلب » :

يا ضيعة الممر
فى ذلك السجن
محبوسة الفكر
فى ميعة السن
أطيع ذا القلب
وأجيب إحساسى
وأجرب الحبا
وأعيش كالناس
ورجمت أدرجى
أنجانب الناسا
فى برجى العاجى
أذوق الكاسا
كأس من الطهر
وهناء البال
والفن والشعر
فى برجى العاجى
هل يأخذ القبر
منى سوى جسمى
والصيت والشعر
لن يتركأسمى
سأصير شاعرة

من قادة الفكر
أنا لست ساهرة
يا قلب ، من يدري

فالشعر هو الأمل الوحيد الباقي ، وهو القوة القادرة على أن
تخلصها من العذاب والألم ، بل هو قوة قادرة على أن تنتصر لها على
الموت .

ولكن هذا الشعاع البسيط من الأمل سرعان ما ينطفئ ؛ لأن قوة
اليأس في نفس هذه الشاعرة أكبر من الحياة والأمل ، وهذا ما تكشفه لنا
قصيدتها « الشاعرة » ، وهي آخر ما نشرته له مجلة « الرسالة » قبل وفاتها
بأسابيع قليلة ، وقد كتبت الشاعرة مقدمة ثرية لقصيدتها تكشف
فيها بوضوح أنها تعاني من مرض عضوي إلى جانب آلامها النفسية ،
وربما كان المرض العضوي نتيجة من نتائج آلامها النفسية الحادة .
تقول « ناهد » في المقدمة الثرية لقصيدتها « الشاعرة » :

« . . نفس هذه الشاعرة رفيعة الهوى تنزع إلى سماء الأدب وتطمح
إلى مجد القريض ، ولكن التقاليد خذلتها وجعلتها تسير في فلكها إلى
غير مستقر ، وتطير في جوها المحصور إلى غير مدى ، وفي هذه
القصيدة التي كتبتها وهي تكابد سأم النفس القاتل ، وألم الجسم
المبرح ما يعبر عن هذا المقال » . . وتقول الشاعرة بعد ذلك في
قصيدتها تعبيرا عن عمق المأساة التي عاشت فيها وعن إحساسها
باقتراب الموت منها ، وقد ماتت فعلا بعد أسابيع من كتابة هذه
القصيدة :

لقد مالت الشمس نحو الغيب
إلى أين مسراك يا فانيه ؟

فما زال شعرك رهن القيود
وكلت مجاديفك الواهيه
فلانلت بالشعر ما تنشدين
ولا عشت هائثة راضيه
نشدت الخلود مع الخالدين
ولكن أسأت اختيار السبيل
فهيهاش بالشعر أن تدركى
من الدهر غير العناء الطويل
فلو كنت فى زمرة الراقصات
لأثنوا عليك الشناء الجميل
وأطنب فى مدحك المادحون
ونجملك أسمى حليف الصمود
وقالوا : إلهة شقى الفنون
وأعجوبة فى سجل الخلود
وذلل فنك كل الصعاب
وهون شقوة هذا الوجود

وهكذا انتهى الأمر بهذه الشاعرة إلى اليأس المطلق ، ثم انتهى بها
يأسها إلى المرض واعتلال الجسد ثم الموت .

هذه صورة عامة لشخصية « ناهد طه عبد البر » وشعرها
ومأساتها . فكيف كانت العلاقة بينها وبين أنور المعداوى ؟ لقد بدأت
العلاقة بينها برسالة كتبها ناهد إلى المعداوى بتوقيع « شاعرة حائرة »
وقد نشر المعداوى هذه الرسالة وعلق عليها فى تعقيباته فى العدد ٨٢٩
من مجلة « الرسالة » الصادر فى ٢٣ مايو سنة ١٩٤٩ ، تقول الشاعرة
فى رسالتها :

« أحبيك وأهنتك فقد سموت بفن النقد الذى لم نكن نعرف عنه إلا أنه إما مدح أو تملق يحط من كرامة الكاتب ، وإما ذم وتحقير مغرض لا هودة فيه ولا رحمة . . لقد أعجبني وأفادني مقالك عن الأستاذ توفيق الحكيم تحت عنوان « الفن بين واقع الفكر وواقع الحياة » ولكنه لسوء الحظ ساءنى وأفزعنى .

لقد قرأته مرارا ثم قلت لنفسى : إذا كان إنتاج الأستاذ الحكيم قد تأثر بسبب انطوائه على نفسه وابتعاده عن الحياة وإغلاقه « تلك النافذة المفتوحة التى كان يطل منها على ميدان الحياة الفسيح المتراعى أمام عينيه » ، إذا كان هذا قد حدث مع الأستاذ الحكيم فكيف أمل أن أكون شاعرة ناجحة ؟ أنا ربيبة الانطواء المرير والعزلة الطويلة ، أنا التى لم أر العالم ولم أعرف المجتمع إلا عن طريق الصحف والكتب والخيال . . . لقد كان أملى فى الحياة أن أتعلم إلى آخر مرحلة من مراحل التعليم ، ولكنى حين أتممت تعليمى الثانوى فوجئت بوحش ضار اعترض طريقى إلى الجامعة وقال بصوته الرهيب : إلى أين أيتها الحاملة ؟ قلت : إلى الجامعة . قال : حذار وإلا أشقيت أسرتك ، ألا تعلمين أن سلطان عليهم عظيم ؟ وأننى سأقلق مضاجعكم جميعا إذا لم تتبعونى ؟ وسألته واجفة خاشعة : ومن أنت أيها السلطان الجبار ؟ قال : أنا سلطان التقاليد . تفقدت الوجوه الواجمة من حولى وعز على وجومها وقلت لن ألتحق بالجامعة ولأكن كبش الفداء . . وما أنا بأول ضحية من ضحايا التقاليد ، ولم تكن تلك المحنة القاسية من عزيزتى وداومت على القراءة ليلا ونهارا . . .

وأخيرا أخذت الغيوم الكثيفة تنقشع عن سمائى ، وأذن لى بنشر شعرى بالجرائد اليومية ، ولكنى ما كدت أشعر بالسعادة وبأن حلم حياتى قد تحقق حتى هب الكثيرون والكثيرات يهيبون بى أن أترك

انطوائى وعزلى ، وأن أخرج إلى المجتمع وأن أتردد على زيد وعبيد من كبار الكتاب والشعراء . وقيل لى إن لم تفعل ذلك فسينحط إنتاجك وينضب معينك . ومما زاد فى شقوق وارتباكى وكاد يطيح بى إلى هوة سحيقة من اليأس القاتل ما أقرؤه لك حول هذا المعنى فى هذه الأيام . فهل من المحال أن يكون الأديب أو الشاعر قديرا ناجحا ما دام منطويا على نفسه بعيدا عن دنيا الناس ؟ وهل الكتب لا تكفى ولا يمكن أن تكفى ليكون الإنسان مثقفا كما يقول الدكتور مندور ؟ . . . إذا كانت هذه هى الحقيقة فسلام على وفى ذمة الله آمالى وأحلامى ومستقبلى الأدبى الذى حلمت به السنين الطوال .

إن رجائى الحار هو أن نجيب عن هذين السؤالين على صفحات مجلتى الحبيبة « الرسالة » ولست أدرى لماذا أشعر شعورا قويا أنك لن تنجيب رجائى ولن تهمل الرد على .

هذه هى رسالة « ناهد » إلى المعداوى وقد كتبها إليه فى مايو ١٩٤٩ ، ورغم أن ناهد لم توقع على هذه الرسالة فإن المعداوى نفسه قد كشف لنا عن صاحبة هذه الرسالة عندما رثاها بعد أن كتبت رسالتها إليه بأكثر من عام ، حيث توفيت ناهد فى ٢٩ يوليو ١٩٥٠ ، وهذه الرسالة من ناهد كانت هى بداية العلاقة بينها وبين المعداوى ، وهى فى تقديرى علاقة لم تتجاوز حدود الرسائل والمكالمات التليفونية ، ولست أعتقد أن أنور المعداوى قد التقى بناهد كما يقول فى رسالته إلى فدوى ، وأذكر أننى سألته يوما ، وكان ذلك بعد وفاة ناهد بسنوات ، عن حقيقة علاقته بناهد فأجابنى بأنه لم يرها على الإطلاق ؛ لشدة انطوائها على نفسها وخوفها من المجتمع وحزنها من الناس . وقد أكد أنور أنه لم يرها فى المقال الذى كتبه عنها بعد

وفاتها ، وفي هذا المقال - كما قلت - أشار إلى أن الشاعرة التي أرسلت إليه بالرسالة السابقة كانت هي ناهد طه عبد البر . ونعود إلى الرسالة الحائرة لنرى أن هذه الرسالة كانت تصويرا مباشرا وصادقا للظروف القاسية التي كانت تعيش فيها صاحبة الرسالة ، وقد رد المداوى على الشاعرة ردا طويلا قال فيه :

« إنسانة فنانة ، وشاعرة حائرة ، وكلمات أحس فيها لوعة القلب وألمس حيرة القلم ، وأكاد أشم رائحة الدموع ، وأعود بذاكرتي إلى الورا أستعرض ما قرأت على صفحات الجرائد اليومية ، عسى أن أضع يدي على مفتاح هذه الشخصية المجهولة التي تعرض على قضيتها في انتظار الجواب .. »

وأقف بالذاكرة طويلا عند صحيفة من صحف المساء^(١) ، لأسترجع عن طريق التمثل الفكري بعض ما كنت أقرأ فيها من شعر لأنسة مجهولة .. أنسة كانت ترمز إلى شخصيتها بالحروف الأولى من اسمها ولا تزيد ! لماذا لا تفصح عن اسمها صاحبة هذا الشعر ؟ لماذا أحس في روحها هذه التهويمات التي يشن فيها النبض وتختنق العاطفة ؟ لماذا تهب على من شعرها رائحة الفن السجين ؟ لماذا تخلق بخيالها في أفق يغلب فيه الضباب على الإشراق ؟ أسئلة لم أكن أجد لها غير جواب واحد أطمئن إليه ، هو أن صاحبة هذا الشعر إنسانة منطوية على نفسها قد فرضت عليها التقاليد أن تبتعد عن الحياة .

وكم قلت لنفسي : هنا أقباس من وهج الشاعرية ولكن لماذا تطل من تحت الرماد ؟ وهنا جناح يملك القدرة على التحليق ، ولكن لماذا تمجد الرياح من رفاقته ؟ وهنا روح تود أن تنطلق ولكن لماذا ألمح في

(١) هذه الصحيفة التي يشير إليها المداوى هي صحيفة « البلاغ » .

انطلاقها أثر القيود والأصفاد ؟ هذه الخواطر التي كانت في النفس منذ حين قد ردتني إليها اليوم رسالة الشاعرة الحائرة ، وجعلتني أتساءل بيني وبين نفسي : ترى أأكون صاحبة هذه الرسالة التي تلقيتها منذ أيام هي صاحبة الشعر الذي طالعت في إحدى صحف المساء منذ أسابيع ؟ إن الروح هي الروح مثلة في التحدث إلى الحياة والناس من وراء حجاب ، وإن اللوعة هي اللوعة مصورة في شكوى التقاليد وظلم التقاليد . . رباه ، هل يقدر لهذه الانسانة الفنانة أن تحطم قيودها يوما ما ، وأن تستشعر حرارة الحياة كما يستشعرها كثير من الأحياء ؟ »

ثم يقول المعداوى بعد ذلك جوابا عن سؤال الشاعرة عن علاقة « الفن بالحياة » :

« . . إن الفن بعيدا عن الحياة جسد تنقصه الحركة ، وفكرة يعوزها الروح ، ولوحة تخلو من الأضواء والظلال . . والفن كما قلت غير مرة ما هو إلا انعكاس صادق من الحياة على الشعور ، ولن يتحقق الصديق في الفن ما لم يستخدم الفنان كل حواسه في تذوق الحياة » .

« . . الحياة يا آنستي هي المنبع الأصيل لكل أثر من آثار الفن يترك ظله في النفس وبقاءه على الزمن . في أدب الكاتب ، في شعر الشاعر ، في لحن الموسيقى ، في لوحة الرسام ! لتكن الحياة نقمة أو نعمة ، لتكن مأساة أو ملهاة ، لتكن ألما أو لذة ، لتكن دمة أو ابتسامة . حسب الفن أن يعبر عن الحياة فيصدق في التعبير ، وحسبه أن يترجم عن رؤية العين وإحساس القلب فيسمو في الأداء » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك في رده على الشاعرة الحائرة : « وتساأليني هل الكتب لا تكفي ولا يمكن أن تكفي ليكون الإنسان

مثقفا ؟ إن جوابى عن هذا السؤال هو أنها لا يمكن أن تكفى لسبب واحد هو أن ثقافة من هذا الطراز يشوبها النقص ويعتريها القصور ، لأنها تفقد عنصر التطبيق على الحياة . كيف تستطيعين أن تتذوقى آثار الفن وأنت بعيدة عن منابعه ؟ وكيف تستطيعين أن تحكمى على نتائج القرائح وليس بين يديك قاعدة ولا ميزان ؟ إن الثقافة يا آنسى ليست قراءة فحسب ، ولكنها فهم وتذوق وتطبيق واستيعاب ، وحياة من وراء هذا كله تعين الذهن على الإحاطة ، وتسعف الحواس على التوهج ، وترفع من قيم المواهب والملكات . معذرة يا آنسى فهذه هى الحقيقة . . . ومع ذلك فلا موجب لهذا اليأس الذى ألهب منى الشعور فى كلماتك ، إننى أشعر شعورا عميقا بأن القيد سيتحطم يوما ، عندئذ يمكنك أن تستشعري حرارة الحياة كما يستشعرها كثير من الأحياء »

تلك هى بعض الفقرات الرئيسية من رد المعداوى على رسالة الشاعرة الحائرة . وإذا كانت هذه الرسالة هى بداية العلاقة بين المعداوى وناهد ، فقد كانت أيضا بداية لعلاقة الشاعرة بمجلة « الرسالة » ، حيث أخذت المجلة بعد ذلك تنشر لها شعرها تحت توقيعها المفضل « ن . ط . ع » .

وبعد وفاة الشاعرة كتب المعداوى عنها مقالا بعنوان « شاعرة مصرية تودع الحياة » ، وقد نشر هذا المقال فى مجلة « الرسالة » ، ثم نشره فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وفى بداية هذا المقال تحدث المعداوى عن مكالمة تليفونية بينه وبين الشاعرة قبل وفاتها بشهور قالت له فيها : « . . أقسم لك أننى أشعر شعورا قويا بأننى لن أعيش ، لأن الحياة لا يمكن أن تحتل فتاة من هذا الطراز . . »

ثم يتحدث المداوى بعد ذلك عن ناهد ويروى أطرافاً من قصة حياتها وقصة محتتها ومأساتها فيقول :

« .. نشأت ناهد في أسرة كريمة ، ومحافضة ، ترعى حقوق الخلق وتمسك بمعنى الفضيلة .. ومن هذا الجو الذى عاشت فيه ، جو التقاليد الصارمة والمثل المفروضة والقيم الموروثة ، لم تستطع أن تواجه الحياة والناس بشيء من الشجاعة يتيح لفتها أن يتنفس كما يريد .. كانت تخشى لقاء الحياة وتشفق على نفسها من ألسنة الناس ، لأن المجتمع المصرى فى رأيا لم يبلغ من النضج الخلقى ما يجعلها تثق به وتطمئن إليه . من هنا عاشت فى عزلة ، عزلة مريرة قاسية فرضتها عليها ظروف التربية وطبيعة النشأة ، عزلة طبعت آثارها النفسية القائمة فى أول كلمة بعثت بها إلى ونشرت فى الرسالة تحت هذا العنوان « شاعرة حائرة تسأل عن الفن والحياة » . ومن كلماتها تلك تستطيع أن تلمس صدق اللوعة وهى تتحدث إلى عن ظلم التقاليد ، هذا الظلم الذى حال بينها وبين التعليم الجامعى الذى كانت تتطلع إليه ، وحرمتها فرصة الاتصال بالمجتمع الذى لم تعرفه إلا عن طريق الصحف والكتب والخيال . ولا تعجب إذا قلت لك إن هذه الشاعرة الراحلة قد بلغت من الانطواء على النفس ذلك الحد الذى لم تطق معه أن يعرف اسمها أحد أو يرى وجهها إنسان ، اللهم إلا هؤلاء الذين كانت تثق بهم وتلجأ إليهم فى سبيل شيء من العون أو أشياء من العزاء ، ولقد كان كاتب هذه السطور يعلم من أسرار حياتها ما لم يتح للآخرين أن يطلعوا عليه لأنه كان موضع ثقتهما فى كثير من الأمور ، ومع ذلك فهو لم يرها رأى العين فى يوم من الأيام لأن لذلك قصة ستعلمها بعد سطور .. قصة تطلعك على مدى خشيتها من الناس وكلام الناس ، ومدى حرصها على أن تظل بمنأى عن كل ما يثير حولها

الظنون والشبهات . . قالت لي يوما في حديثها التليفوني الذي كان يطرق سمعي كل صباح : « لقد أذنت لي منذ شهور في أن أضع مستقبل الأدبي بين يديك ، وأشهد لقد أخذت بيدي وفعلت من أجلى الكثير : فتحت لي أبواب « الرسالة » و « الأهرام » فقرأ الناس شعري هنا وهناك ، ويا لها من أبواب أمل كانت موصدة فتجدد بفتحها كل رجاء . . والآن لم يبق لي عندك غير أمنية واحدة وهى أن تكتب مقدمة ديوانى الذى أريد أن أدفع به الى أيدي القراء » وسكتت قليلا ثم قالت : « لقد كنت أزور الدكتور طه حسين منذ يومين ، ومع أنه كما قلت لك غير مرة يعطف على عطف الوالد على ابنته ، فقد خشيت أن أشق عليه اذا ما عرضت عليه هذه الرغبة التى عرضتها عليك . . ومن هنا خطر لي أن ألقاك أنت لأقدم اليك مجموعة شعري كاملة قبل أن تقدم لها بما شئت من كلمات » . . وتوقفت لحظات قبل أن أقول لها وعلى شفقي ظل ابتسامة : « إننى أعلم يا ناهد أن لقاءك للدكتور طه لم تسمح به طبيعتك النفسية إلا لسبب واحد ، وهو اطمئنانك إلى أن أحدا لن يظن بك الظنون إذا ما جلست إلى أديب قد بلغ مرحلة الكهولة وتخطى الستين . . أما أنا فأخشى إذا ما علمت حقيقة سنى أن تخلفى من قائمة أمانيك هذه الأمنية الأخيرة ، لأننى يا أختاه لم أبلغ الثلاثين بعد ! » وهتفت في صوت امتزجت في نبراته الدهشة الخالصة بالأسف البالغ : ماذا ؟ لم تبلغ الثلاثين بعد ، بالله ماذا كان يمكن أن يقول الناس لو أنك كتبت هذه المقدمة ؟ أنت بالذات ؟ إن كلمة واحدة تنطلق من لسان جاهل بحقيقتي الخلقية لكفيلة بأن توردى موارد الهلاك . . أقسم لك أننى ما فكرت في لقائك إلا لاعتقادي بأنك فى سن الدكتور طه حسين ! هل تغفر لي إعفاءك من كتابة هذه الكلمة التى لن تعفينى من كلام الناس ؟ »

وراحت الشاعرة القديسة تعتذر إلى معلنة عن رغبتها في أن تلقى الأستاذ الزيات^(١) ليحل قلمه محل قلمي في تقديم شعرها إلى القراء . . ومهدت لها سبيل اللقاء حتى تم ، وكان الأستاذ صاحب الرسالة ثانياً اثنين رأتهما هي رأى العين قبل أن تودع دنيا الأحياء لتعيش في جوار الله !

لقد عاشت حزينة وماتت حزينة . . هي التي كانت تسكن البيت الأنيق في حي من أجمل أحياء القاهرة ، وتعيش في ظل أسرة هيأت لها من رغد العيش وطيب المقام ما لم يتح لكثير من الفتيات ! ولقد كانت العزلة سبباً من أسباب حزنها بلا مرء ، ولكنها لم تكن السبب الأصيل لهذا الألم الدفين الذي أحال حياتها إلى أقباس من العذاب ، وانعكس على شعرها لوعة وشكاة ، وأمسك القلم عن أن يحدثك عن سر حزنها الحقيقي ، لأنها الآن تشفق على حرمة ذكراها من كلام الناس ! »

وينهى المعداوى مقاله عن « ناهد » بقوله :

« وأشهد لكم وقفت منها موقف الطبيب من مريض تبخرت قطرات الأمل في شفائه : مبضعى الذى يفتش عن مكان الداء قلم ، ودوائى الذى يأسو جراح الزمن كلمات . وكان هذا هو كل ما أملكه . . أعالج بالقلم ودماء القلب تنزف ، وأسباب الرجاء تخيب ، وزورق العمر يخر العباب والضباب إلى شواطئ الفناء »

هذه صورة عامة للشاعرة « ناهد طه عبد البر » من خلال شعرها ومن خلال ما كتبه عنها أنور المعداوى . وبالنسبة لما كتبه المعداوى

(١) هو الكاتب العربى الكبير أحمد حسن الزيات صاحب مجلة « الرسالة » .

فلا بد من تسجيل بعض الملاحظات التي نأخذها على هذا المقال رغم ما فيه من شاعرية وعاطفة وتعبير جميل :

أولا : لم يكشف لنا المقال عن الأسباب الدقيقة لمحنة هذه الفتاة . واكتفى بأن يقول إنها كانت فتاة من أسرة محافظة ، ولا شك أن التقاليد الصارمة القاسية كفيلة بأن تخلق محنة كبيرة في حياة فتاة حساسة وفنانة مثل ناهد طه عبد البر ، ولكن لا بد أن تكون هناك أسباب إضافية غير تقاليد الأسرة ، خاصة إذا عرفنا أنها كانت أسرة ميسورة ، وأنها كانت تعيش في حي من أجمل أحياء القاهرة المتحضرة ، وقد علمت من ناحية أخرى أن أباهما كان أستاذا معروفا في كلية دار العلوم وأن أخاها الأكبر كان طبيبا معروفا هو الدكتور سيد طه عبد البر وقد توفي منذ سنوات قليلة . مثل هذه الأسرة لا يمكن أن نتصور أن الأمور قد وصلت فيها إلى هذا الحد من التوحش والتخلف ، ولا بد أن يكون هناك سبب خاص لهذا الاختناق الذي عاشت فيه ناهد داخل هذه الأسرة وأدى بها إلى الموت في سن مبكرة . . فما هو هذا السبب الغامض ؟ إن المعدادوى في مقاله لم يلق أى ضوء على هذا الجانب من مأساة الشاعرة .

ثانيا : من بين سطور مبعثرة هنا وهناك نستطيع أن نفهم أن الفتاة كانت مريضة مرضا عضويا ، بالإضافة إلى ما تعانيه من آلام نفسية ، ولا بد أن يكون هذا المرض العضوى من النوع القاتل ، فما هو هذا المرض ، ولماذا لم يشر إليه المعدادوى .

ثالثا : يشير المعدادوى إلى أنه كان هناك سر آخر في حياة هذه الفتاة ولكنه لا يستطيع أن ييوح به احتراما لذكراها ، وأذكر أنني سألت المعدادوى - رحمه الله - عن هذا السر فلم أجد عنده شيئا ؛ مما يوحي

بأن المعداوى إنما كتب ما كتب من باب « الاستعراض » وإقناع القارى بأهميته وبأنه كان موضعاً لثقة الفتاة ، وأنه كان أميناً على أسرارها ، وقد كانت هذه صفات معروفة فى المعداوى ، وكان يغفرها له ما يبدو فى أدبه من جمال فى التعبير وصدق فى العاطفة ، وما تنطوى عليه شخصيته من براءة وطفولة يبدو معها الغرور والإعجاب بالنفس والاستعراض والحديث الدائم عن قيمته وأهميته صفات مغتفرة وخاصة عند من يقدرّون المواهب الأساسية لهذا الكاتب . نعود إلى موضوع السر الذى يشير إليه المعداوى فى حياة ناهد ، إذا كان هذا السر من ذلك اللون الذى يمكن كشفه فقد كان على الكاتب أن يكشفه من باب الأمانة العلمية والأدبية ، أما إذا لم يكن بالإمكان كشفه - كما يقول المعداوى - فقد كان على الكاتب ألا يشير إليه من الأساس .

وفى اعتقادى أن هذا السر الخاص لم يكن موجوداً ، وإن كان موجوداً فإن المعداوى لا يعلمه ، وكلماته فى هذا المجال هى مصدر من مصادر إعجابه الطفولى البريء بنفسه ، وقد كان هذا الإعجاب بالنفس صفة من صفات المعداوى الأساسية ، ولم يكن هذا الإعجاب بالنفس من النوع المكروه ؛ لأنه - كما قلت مراراً - صادر عن براءة القلب الموهوب وطفولته ، وكثيراً ما كان الذين لا يعرفون المعداوى معرفة حقيقية يستنكرون هذه النغمة النفسية المغرورة فى كتابات المعداوى وشخصيته .

رابعا : يقول المعداوى فى رسالته إلى فدى طوقان إنه رأى « ناهد » ولكنه فى المقال يؤكد أنه لم يرها ولم يلتق بها . فأين هى الحقيقة ؟ الحقيقة فى رأى هى ما جاء فى المقال ، وما جاء فى رسالة

المعداوى إلى فدوى هو - مرة أخرى - نوع من الغرور والإعجاب بالنفس في إطارهما الطفولي البريء ، ولو كان أنور المعداوى قد التقى بالشاعرة فإنه لم يكن هناك أبدا ما يمنع من التصريح بذلك في مقاله الذى كتبه بعد وفاتها ، كما أذكر أيضا أننى سألته يوما : هل التقى بالشاعرة فأكد أنه لم يرها أبدا ، كما أن الصورة الشخصية التى رسمها لها فى مقاله مبنية فى أساسها على خوفها من لقاء الناس . ولكن المعداوى فى رسالته إلى فدوى يحاول أن يكسب ثقته ويوحى إليها بأنه أهل للثقة حتى من تلك التى لم تكن تثق بأحد ، وليس مما يساعد على تأكيد هذا المعنى أن يقول لفدوى إنه لم يلتق بناهد ولم يرها . إنه فى الرسالة إلى فدوى « يتحدث » حديثا شخصيا قد يحق له فيه أن يروى ما يشاء ، ولكنه فى المقال يكتب للرأى العام ويصعب عليه أن يروى واقعة لم تحدث .

والحقيقة أن هذه الشاعرة المصرية المجهولة لا تزال بحاجة إلى دراسة ، ليس لقيمة شعرها فقط ، فشعرها على ما كان فيه من عاطفة صادقة وإحساس متدفق حار وألم عميق كان ما يزال شعرا غضا غير ناضج فى بعض جوانبه ، ولكن هذه الشاعرة - وشعرها جزء من شخصيتها - تستحق الدراسة كظاهرة من ظواهر الحياة فى هذه المرحلة من عمر مجتمعنا العربى ، وفى رأى أن محنة الشاعرة المصرية لا تختلف - موضوعيا - فى جوهرها عن محنة فدوى طوقان ، إلا أن فدوى طوقان - وشاعريتها أنضج وأكثر أصالة - قد قاومت المحنة وصمدت فى وجه العاصفة واستطاعت أن تنجو بحياتها وقد كانت مهددة بنفس المصير . . وهذه الدراسة التفصيلية للشاعرة المصرية ومأساتها هى ما أرجو أن أتمكن من القيام به فى وقت قريب بعد أن

أتمكن من جمع شعرها كله ومعرفة أكثر ما يمكننى أن أعرفه من تفاصيل حياتها ومآساتها الخاصة» (١).

(١) بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب تمكنت بفضل بعض الأصدقاء من الاتصال بأسرة الشاعرة ناهد طه عبد البر وحصلت منها على بعض المعلومات ، ومن بينها أن الشاعرة ولدت في ٢٠ يناير ١٩٢٠ وأنها توفيت في ٢٩ يوليو ١٩٥٠ ، أى أنها ماتت في الثلاثين من عمرها . كذلك أتيج لى أن ألتقى السيدة الفاضلة المربية الكبيرة زينب البشرى وعرفت منها أنها كانت صديقة للشاعرة ، وقد تفضلت الأستاذة زينب فكشفت لى عن مجموعة من الحقائق والمعلومات الأساسية عن الشاعرة وحياتها ، وسوف أقدم هذه المعلومات فى دراسة أرجو أن أتمكن من إعدادها قريباً عن الشاعرة المصرية المجهولة .

التعليق الثانى على الرسالة الخامسة

شغلنا موضوع الشاعرة ناهد طه عبد البر عن التعليق على الإشارات الأخرى المختلفة التى وردت فى الرسالة الخامسة ، وقد فضلت أن يكون التعليق على هذه الإشارات منفصلا عن موضوع الشاعرة الذى استغرق التعليق الأول بأكمله .

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة نشرتها فدوى طوقان بتوقيع « المطوقة » ، والواقع أن فدوى قد وقعت بعض قصائدها بهذا التوقيع أكثر من مرة ، وقد وجدت لها قصيدتين وقعتهما بهذا التوقيع . الأولى هى قصيدة « غب النوى » وقد نشرتها فى العدد ٨٤٥ من مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٤٩ ومطلعها :

مضيتُ ؟ إلى أين ؟ هلا تمور
إلى ، إلى روحى اللائب^(١)

(١) الظمان-

حنانك ، ضقت ، وضافت حياتي
بهذا الصدى المحرق اللاهب
بأشواقى العاتيات تزلزل صدرى
فى عنفها .. الصاحب
حنانك قلبى يذوب وراءك
أواه من قلبى الذائب
تلفت ، وراع بقاياها تذوى
وتفنى مع الأمل الغائب

أما القصيدة الأخرى التى نشرتها فدوى بتوقيع « المطوقة » فهى
قصيدة « من الأعماق » وقد نشرتها فى العدد ٨٤٦ من « الرسالة »
الصادر بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٩٤٩ ومطلعها :

سرت وحلى فى غربة العمر ، فى التيه المعمرى ، تيه الحياة السحق
لا أرى غاية لسيرى ، ولا أبصر قصدا يوفى إليه طريقى
وأنا فى توحشى ، تنفض الحيرة حولى أشباح رعب محيق

وتوقيع « المطوقة » الذى اختارته فدوى مشتق من الحروف
الأصلية لاسمها « طوقان » من ناحية ، وهو من ناحية أخرى يدل على
الحالة النفسية التى عبرت عنها فى هاتين القصيدتين ، بل فى قصائد
عديدة مشابهة كتبها فى تلك المرحلة ، وهاتان القصيدتان بالذات
تعبران عن تجربة عاطفية روحية عميقة التأثير فى نفس فدوى ،
وكانت فدوى طرفا فى هذه التجربة ، أما الطرف الثانى فهو شاعر
مصرى اشترك - متطوعا - فى بعض معارك حرب فلسطين « ١٩٤٨ -
١٩٤٩ » والتقى بفدوى فى هذه الفترة وكان بينهما حب روحى
عميق ، ثم افترقا بعودة الشاعر إلى مصر ، وعلى أثر هذه العودة كتبت

فدوى هاتين القصيدتين . . . ففي القصيدة الأولى « غب النوى »
تقول فدوى :

مضيت ؟ وكيف ؟ ألا رجعة
ترد إلى القلب دنيا رؤاه ؟ . . .
لقد أقفر الكون في ناظري
وغشى الظلام مجالى رؤاه
وكيف أحس جمال الوجود
ووجهك عنى تواري سناء ؟

وتستمر القصيدة الجميلة في هذا التعبير عن ألم الفرقه ووحشة
البعاد وبقياء الذكريات ، والقصيدة رائعة صادقة في تصويرها لمحنة
الفراغ النفسى والوحدة العاطفية بعد فراق الحبيب .

والقصيدة الثانية « من الأعماق » تدور حول نفس التجربة
العاطفية الروحية التى انتهت بالفراق بين فدوى والشاعر
المصرى . . . تقول فدوى في هذه القصيدة :

وافترقنا وملء نفسى - لو تدرى - أحاسيس هائحات حيارى
وهواى المكبوت يجهش فى صمت ، وتهيم دموعه أشعارا
كم شجائى وداعك المر ، كم ساءلت قلبى الممزق المستطارا
كيف كان الفراق ؟ كيف انزوى وجهك عنى فى لحظة وتواري ؟
وافترقنا ، وبين كفى رسم ، لم يزل كل زاد روحى المتيم
كم تلمست عمق عينيك فيه ، وبعمى أدمع تتضرم
يا لقلبى ، كم راح بين يديه ، يهتك الحجب عن هواه المكتم
أصغ تسمع عبر الصحارى صداه ، يترامى إليك شعرا مرئم

ولعل فدوى طوقان قد آثرت أن توقع القصيدتين بهذا الاسم المستعار « المطوقة » ، بسبب ما فى القصيدتين من وضوح وصراحة عاطفية لم تكن مألوفة فى شعر المرأة فى تلك الفترة « ١٩٤٩ وما قبلها » فى حياة المجتمع العربى ، خاصة أن فدوى إغماهى فى آخر الأمر فتتسبب إلى أسرة معروفة فى « نابلس » حيث يتغلب جو المحافظة على جو التحرر والانطلاق^(١) . كما أن فدوى نشرت هاتين القصيدتين فى مصر حيث يعيش الشاعر الذى كان موضوعا للقصيدتين ، ولا شك أن فدوى كانت بتوقيعها المستعار تحاول أن تخفف ما بدا لها أنه « عرى » فى عواطفها ، وتحاول أن تصنع لهذه العواطف غلالة رقيقة تخفيها بعض الشيء ، فالتوقيع المستعار هنا هو تعبير عن حذر « الإنسانية الاجتماعية » من « الشاعرة » التى لم تعبأ بشيء غير صدق التجربة العاطفية فعبرت عنها بصراحة وانطلاق .

أما الشاعر المصرى الذى كان موضوعا لهاتين القصيدتين فسوف تأتى الإشارة إليه مرة أخرى فى إحدى الرسائل التى كتبها المعداوى لفدوى ، وسوف نتحدث عنه من جديد فى تعليقنا على هذه الرسالة .

ويبدو لى أن فدوى طوقان قد وقعت بعض كتاباتها بأسماء مستعارة أخرى غير « المطوقة » ومن هذه الأسماء المستعارة الأخرى « دنائير » ، وليس لدى من دليل على ذلك إلا كتابات فدوى نفسها ، وبعض هذه الكتابات نثر لا شعر ، ونستطيع أن نجد فيما كتبه « دنائير » روح

(١) صورت فدوى هذا الجو المحافظ تصويرا صادقا فى سيرتها الذاتية الرائعة التى صدرت بعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب تحت عنوان « حياة جبلية .. حياة صعبة » .

فدوى التى لا تخفى على من يتابع قراءتها ويعرف أديها . . . وإذا كان هناك خطأ فى هذا الاستنتاج فهو خطأ أحمله وحدى ؛ لأننى لم أرجع فيه إلى أحد وإنما اعتمدت على استنتاجى الأدبى الخاص^(١) .

فى هذه الرسالة الخامسة من المعدادى إلى فدوى طوقان إشارة إلى قصيدة لفدوى بعنوان « الصخرة » ، وهذه القصيدة هى التى قالت عنها فدوى للمعدادى كما جاء فى رسالته : « .. إننى أعانى شيئا ، أعانى ألما خفيا لا يدرى به أحد ولا أحب أن يدرى به أحد » ، وقد نشرت فدوى هذه القصيدة فى مجلة الرسالة ، ثم نشرتها فى ديوانها الثانى « وجدتها » بينما نشرت القصيدتين السابقتين : « من الأعماق » و « غب النوى » فى ديوانها الأول « .. وحدى مع الأيام » ، وتقول فدوى فى المقطع الأول من قصيدتها « الصخرة » :

انظر هنا : الصخرة السوداء شدت فوق صدرى

بسلاسل القدر العتى

بسلاسل الدنيا البغى

انظر إليها كيف تطحن تحتها ثمرى وزهرى

نحتت مع الأيام ذاتى

سحقت مع الدنيا حيان

دعنى فلن تقوى عليها . لن تفك قيود أسرى

(١) اعترفت فدوى طوقان فى سيرتها الذاتية التى سبقت الإشارة إليها بأنها استخدمت اسم « دنانير » كتوقيع مستعار لها ، وقد وقع اختيارها على هذا الاسم من خلال قراءتها لكتاب الأغاني للأصفهاني وهو اسم مغنية وشاعرة كانت معروفة فى العصر العباسى .

سأظل وحدى فى انطواء

ما دام سجانى القضاء

دعنى ، سأبقى هكذا ، لانور ، لاغد ، لارجاء

الصخرة السوداء ما من مهرب ، ما من مفر

والقصيدة كلها تمضى على هذا النمط من الحزن والضيق ، وهى واضحة ولا غموض فيها ، والذي دفع فلوى إلى كتابتها أمر غير معروف إلا للشاعرة نفسها ، وما أكثر ما تكون الدوافع وراء العمل الفنى خافية دون أن يؤثر ذلك فى قيمة العمل الفنى أو فى درجة وضوحه وجماله . ومع ذلك فلا شك فى أن معرفة بعض الأحداث الكامنة وراء العمل الفنى تساعد على تعميق أثره فى نفس قارئه .

ولقد وجد المعداوى فى التعليق على هذه القصيدة فرصة للإشارة إلى منهجه فى النقد ، وهو المنهج الذى يعتز به أشد الاعتزاز والذي أسماه بالأداء النفسى .

يقول المعداوى فى رسالته : « ولست أزعم أننى « أفهم » الجو النفسى لقصيدة الصخرة كل الفهم ، ولكننى متأكد من أننى قد « تذوقته » كل التذوق ، تبعا لنظريتى التى كتبته عن الأثر الفنى حين نعرضه فى ساحة التجربة النفسية لنزنه بميزان الشعور » . وقد شرح المعداوى ما يسميه بنظريته النقدية شرحا وافيا فى كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » وشرحه أيضا فى عدد من مقالاته المختلفة أهمها المقال الذى يشير إليه فى هذه الرسالة والذي أشار إليه فى رسالة سابقة وهو « الأثر الفنى بين الفهم والتذوق » ، وقد تناولنا هذه النظرية النقدية - التى نفضل أن نسميها باسم المنهج النقدى -

بالدراسة والمناقشة التفصيلية في فصل سابق من هذا الكتاب ، ولو أردنا أن نعبّر عن منهج المعداوى النقدي في كلمات بسيطة لقلنا إنه يعنى من شأن القلب والشعور والتذوق في العمل الفنى على حساب العقل والفكر والفهم دون أن ينكر قيمة العناصر العقلية والفكرية في العمل الفنى ، ولكنه لا يعطيها الأولوية . وهذا المنهج النقدي - كما أشرنا في المقدمة - ليس جديدا ولكن المعداوى تحمس له وتبناه ودعا إليه بحرارة وإخلاص وأضاف إليه وطور فيه .

الإشارة الأخيرة في هذه الرسالة هى قول المعداوى :
 « . . لا بد من تهنته أخرى على تلك اللمسة الأخرى في رسالتك حول تهافت الشعراء على بعث أناشيد الجهاد في الرسالة بعد تلك الوخزة المؤلمة . . » . ويشير المعداوى هنا بعبارة « الوخزة المؤلمة » إلى السطور الأخيرة من مقال له كتبه في العدد ٩٥٨ من مجلة « الرسالة » الصادرة في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥١ حيث كانت المعركة محتدمة بين شعب مصر وقوات الاحتلال الإنجليزي ، وكان مقال المعداوى بعنوان « إلى أخى في الجنوب » يتحدث فيها عن العلاقة بين مصر والسودان ، ويقدم فيها قصيدة لعلى محمود طه عن وحدة الكفاح بين مصر والسودان ، ثم يقول في آخر مقاله - وهذه هى الوخزة المؤلمة التى تشير إليها في رسالته - :

« . . . يارحمة الله للشاعر الخالد - على محمود طه - إنه في معركة الحرية لا يزال يسمعنا صوته وهو في عالم الفناء واليوم حين تبلغ المعركة أوجها يتخلف عن الإنشاد شعراؤنا الأحياء » .
 وبعد هذه الكلمة - أو هذه الوخزة - بدأت مجلة « الرسالة » تنشر كل أسبوع عددا من قصائد الجهاد وأناشيد الكفاح .

الرسالة السادسة

فدوى العزيزة :

في كل رسالة من رسائلك تزدادين في عيني رفعة .. أشبهك بصاعد السلم كلما ارتقي درجة من درجاته كان فوق مستوى الأنظار ! هكذا كنت في رؤية البصر والشعور في رسالتك الأخيرة ، هذه الرسالة التي ما فرغت منها حتى رفعت على شفتي ابتسامة ، فيها من الحب لك ، وفيها من الإعجاب بك ، وفيها من كل ألوان التقدير طعم ومذاق .. صدقيني إذا قلت إنني لن أنسى هذه الثقة الغالية التي استروحت من خلال سطورك أنسامها الرخية ، وتفيأت ظلها الرطبية ، وعشت في جوها العطر بأرج الفن والصدق والوفاء !

لقد قلت لي في رسالتك الكثير ، والله يشهد أنني كنت أعلم هذا الكثير .. كنت أعلمه كما قصصته على منذ البداية حتى النهاية ، بكل ما حوته القصة من شتى المشاهد والقصص ! وقد تسأليني لماذا لم أشر إليه في رسالتي الماضية فأقول لك : لقد أحجمت لسبين ،

أولها : أن هذه القصة قد تركها الشاعر الصديق بين يدي وديعة وأنا لا أحب أن أفرط في ودائع الأصدقاء . . أما السبب الثاني فهو أنني خشيت إذا أنا صرحت أن أجرح شعورك المرفه ، وما تعودت أن أجرح شعور أمثالك من الأحباء !

نعم يا فدوى لقد كنت أعرف كل شيء ، ومع ذلك فأنا أعود هنا لأكرر القول بأنك عندي إنسانة كاملة وفاضلة ، ولن يتغير على مر الأيام ما أكنه لها من تقدير خالص غير مشوب . . إنك في منظاري كما كنت بالأمس وكما أنت اليوم وكما ستظلين في الغد القريب والبعيد ، تلك الصورة التي يضمها لدى إطار ضمنت به وسأضن به على كثير من صور الناس !! قلت لك ذلك بالأمس فظننت أنه لم يكن من وحي كلماتك بقدر ما كان من وحي ظنون تشار هنا حول اسمك الحبيب . . لكم وددت أن أكون بجانبك في تلك اللحظة لأحول بين هذه الكلمة وبين أن تجهر بها شفتاك ! لا يا عزيزي الغالية . . إنني الشخص الوحيد في مصر الذي يعرف القصة دون سواه ، وإن اسمك عندنا وفي كل مكان ليسمو بصفاء جوهره فوق مستوى الظنون والشبهات ! أقول هذا وأنا أعنيه لأنه لا يوجد شخص هنا تصل إليه كل الهمسات في الحياة الأدبية كما تصل إلى في كل حين . . اطمئني إذن إلى أن الذي تخيلته ليس له من الواقع نصيب !

إنك لو تعلمين يا فدوى أنني هنا الملجأ والملاذ لكثير من الأدباء ، أفتح لهم بيتي وقلبي لتستقر عندي آلامهم وتستريح ، وكأنني محطة الوصول لكل متعب أرهقه السير في طريق الحياة . . ولقد كان هذا الشاعر الصديق واحدا من الذين حلوا ضيوفا على البيت والقلب ثم تفرد من بينهم بأرحب مكان ، ولا يزال يحتل مكانه حتى كتابة هذه

السطور . من هنا أطلعني يوما على قصتك وقصته ، وقدم إلى رسائلك ورسائله ، وكان هذا للأسف بعد انتهاء آخر مشهد من القصة حيث لجأ إلى لينفض بين يدي أحزانه ، وليبرر بمنطقه الخاص ما أقدم عليه من أخطاء ، وليقف منى في النهاية موقف المحتكم إلى القاضى « العادل » يريد أن يسمع حكمه الأخير . . ماذا أقول لك ، لقد كنت في حكمى قاسيا عليه ، ومن عادته كلما لقيته أن يلقي بطلب الصفح والمغفرة فاستجيب ، لأنه انسان أشبه بالطفل البريء الذى تتعثر خطواته ، ويحتاج الى من يقف دائما بجانبه ليحول بينه وبين العثرات !

صدقيني يا فدوى ، إنه قد ظلم نفسه ، وظلمك معه ، وظلمت بينكما الحقيقة وخرج الواقع من المعركة وهو شهيد . . إننى أعلم الناس بما حوى كتاب حياته من صفحات ، وأستطيع أن أقول لك وأنا مطمئن أن أكثر سطور هذا الكتاب قد أملاها الخيال الواهم ولم يملها الواقع الملموس . . لقد قالت لك رسائله إنه عرف الكثيرات وصدقته يا أختاه ، الله يعلم أنه في هذا المجال صفر اليدين قليل الحيلة مقصوص الجناح ! إننى أكتب إليك هذه الكلمات وأنا أبتسم لأننى لا أستطيع أن أحول بين نفسى وبين الابتسام ، حين أذكر لك أن هذا الصديق العزيز لم يعرف المرأة إلا في مكان واحد هو بيت الزوجية ، وأن ما أقدم عليه في رسائله وفى شعره لم يكن الهدف من ورائه إلا إثارة غيرتك وما كان لها أن تثار ، لأنه يا فدوى دون جوان حقا ولكن على الورق !

وبهذه المناسبة أود أن أقص عليك هذه القصة اللطيفة وهى أنه كان عندى منذ أيام حيث حضر إلى لأكتب له مقدمة ديوانه الذى يريد أن

يدفع به إلى المطبعة . . ولقد قلت له فيما قلت وأنا أطلق في الفضاء ضحكة عريضة : سأكتبها إذا أردت ولكنني إذا تحدثت عن « الصديق الشعوري » في شعرك فسأحمل عليك حملة شعواء ، لأنك لم تعرف من النساء غير زوجتك الوفية ! وتردد صاحبنا طويلا قبل أن يقول : ولكن هذه المقدمة ستسبب إلى شعري أكثر مما تسبب إلى شخصي فهل هذا يرضيك ؟ فأجبت وأنا أقطع عليه خط الرجعة بلهجة الجد الصريح : وماذا أفعل وأنت تعلم أنني لا أعرف في النقد صداقة ولا مجاملة ؟! وتحير صاحبنا لحظات ثم همس في إشفاق : افعل ما تريد !!

ويا عجباً للمصادفة التي ساقته إلى الحديث عنك حيث راح يستشيرني في هذه المشكلة النفسية . . قال لي إنك قد كتبت إليه طالبة استرداد مالك عنده من أشياء بعد أن أعدت إليه أشياءه ، ولكنه لا يستطيع لأنه يود أن يحتفظ بها كأثر عزيز لماض كان جزءاً من حياته ، عندئذ لم أطق صبرا فقلت له بصيغة العاتب الأمر : ولكنني أريد منك أن ترد إليها تلك الأشياء ، لأن المسألة عندي تتعلق بالخلق والضمير قبل أن تتعلق بشيء آخر ! ولما كان إبراهيم لا يعصى لي أمراً فقد أذعن لما أردت ، ووعدني مؤكداً أنه سيرسل إليك أشياءك في يوم قريب . . ولقد دار بيننا هذا الحوار قبل أن أتلقي رسالتك بأيام ثلاثة ، ومن هنا عجبت لتوارد الخواطر بيني وبينك حول هذه الرغبة العزيزة التي سبقتك إلى تحقيقها منذ حين ! وبهذه المناسبة أود أن أقول إنه سيحضر إليّ غداً أو بعد غد على أكثر تقدير ، وسيقضي معي فترة بقائه في القاهرة كعادته كلما حضر حيث يحل ضيفاً على البيت والقلب ، وبالطبع سأسأله عما إذا كان قد وفي بوعده وأرسل إليك تلك الأشياء ، ولابد من أن ترسل إليك على كل حال !

إن هذا الشخص يا فدوى إنسان طيب القلب إلى حد بعيد ، وأقسم لك أن تلك الأخطاء التي وقع فيها ليس لها إلا مرجع واحد هو السذاجة ، السذاجة التي لا تفرق في جوهرها عن سذاجة الطفل البريء ولهذا لم يستطع يوما أن يفهمك لأنك فوق مستوى فهمه لامراء . . وليس من شك في أن إبراهيم قليل الخبرة بأمور الحياة ! أقول هذا حتى لا يكون في نفسك شيء من جهته ، وعسى أن تغفري له زلاته الماضية وحسبك أن القصة قد طويت منها الصفحات !

وأترك هذا لأقول لك إن السيدة وداد سكاكيني كانت تزورني منذ أيام ، وقد تحدثنا عنك كثيرا بعد أن بدأت هي الحديث بمناسبة الكلمة التي كتبتها عنك في « الرسالة » ، حيث راحت تسألني عن رأيي في تلك الكلمة فأنيت عليها وشكرتها بالنيابة عنك ، وإن كنت قد أخفيت عنها أن بيني وبينك مراسلات . . ولقد تحدثنا أيضا عن الأستاذ « هجران شوقي » أو الأنسة « أنور العطار » بعد أن سألتني السيدة وداد عن أثر الرسالة التي كتبتها في الرسالة ورفعت فيها القناع عن الوجه المستعار ! الواقع يا فدوى أنني أحب أن أسرى عنك ببعض النواذر اللطيفة التي تقع في الحياة الأدبية ، وكم أنا ساخط على هذه الآماد التي تفصل بيننا كما أنت ساخطة ، هذه الآماد التي لولاها لقصصت عليك من الفكاهات ما يجعل البسمة خلقة في شفئك تبعا لأسلوب المتنبي في التعبير عندما يقول مشيرا إلى صاحبه :

أتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلقة في المآقي

وهذا المتنبي ولو أنه شاعر مصنوع يشبه الفتاة « البلدي » التي أكثرت من استعمال المساحيق حتى ليبدو جمالها وهو جمال

التواييت » ، هذا المتنبي ولو أنه كذلك إلا أن له « فلتات » شعرية تستحق الإعجاب ، ومنها هذا البيت الذى يطالعنى بلون من الجمال « الطبيعى » الذى يرتاح له الذوق والشعور !

معذرة لهذا الاستطراد الذى تدفعنى إليه شهوة النقد ولنعد إلى ما كنا فيه . . أقول لولا هذه الأماذ لاستطعت أن أجعل البسمة حلقة فى شفتيك ، حتى تختفى من شعرك كل « أوف » فى سفوح عيال^(١) !

أتدريين ماذا فعل السيد أنور العطار ؟ لقد بعث إلى الأستاذ الزيات برسالة مطولة تحفل بمرارة الشكوى وحرارة العتاب ، لأن صديقه الزيات قد سمح لصاحب « التعقيبات » « ببهدلة » سمعة شاعر مثله يعرف قدره الناطقون بالضاد . . ثم يقول فى تلك الرسالة الشاكية العاتبة : ماذا حدث لعقل هذا الناقد الذى كنا نعتز به حتى يتخيل أن هجران شوقى هى أنور العطار ؟ ! ثم يمضى فى طريقه نافيا عن نفسه التهمة الظالمة ولكنه نسى شيئا مهما جدا يا فدوى جعل الزيات يفرق فى الضحك وأغرق معه نسى للأسف الشديد أن : يكتب رسالته بخط الرجال لا خط الأنامل الرقيقة ، أنامل الأنسة هجران شوقى !!

أنا آسف جدا إذا كنت لم تضحكى . . وما ذنبى أنا إذا كنت لا تفهمين النكتة المصرية ؟ إن الذنب ذنبك أنت لأنك حين زرت مصر لم تمكثى بها غير بضعة أيام ! إنك لو مكثت بيننا مدة طويلة لهزتك هذه النكتة المصرية هزا عنيفا من الضحك كما هزت السيدة وداد التى تكره شعر العطار لوجه الله والفن !!

(١) جبل من جبال فلسطين .

بقى أن أشكر لك من قلبى هديتك الجميلة ، هذه الصورة « الفردية » التى تقتضىنى أن أبعث إليك فى مقابلها بصورة هى الأخرى « فردية » راجيا ألا يخذعك مظهرها الذى يقدمنى إلى العيون وكأننى من أصحاب الملايين . . إن هذه العربة الفخمة التى أستند إليها ليست ملكى يا عزيزى ، ولكنها ملك أحد أصدقائى من عباد الله الأثرياء وأرجو أن تصدقنى !!

أما هذه القصيدة المحلقة فسأضمها كما رغبت إلى ديوانك المنتظر ، هذا الديوان الذى أرجأت طبعه حتى أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يدى ، ليقدم ديوانك وكتابى إلى المطبعة فى يوم واحد وليدفع بهما إلى القراء فى يوم واحد ، هذا إذا كنت توافقين ولا يخطر فى ذهنك حكاية سعيد تقى الدين !!

وتسألينى عن الشاعرة المصرية الراحلة كيف ماتت ولماذا ماتت ؟ إننى أرجىء الحديث عن هذه المأساة إلى رسالة مقبلة لأننى لا أحب لهذه الرسالة الباسمة أن تتحول البسمات فيها إلى دموع . . ولك أصدق الشكر وأخلص المودة من المخلص :

أنور المعداوى

١٩٥٢ / ٣ / ٢٩

التعليق الأول على الرسالة السادسة

من الملاحظ أن أنور المعداوى فى هذه الرسالة وفى عدد آخر من الرسائل يترك لنفسه العنان ليدو وكأنه - عند النظرة الأولى - شديد الغرور شديد الثقة بنفسه ، فهو يقول لفدوى : « إنك لا تعلمين يا فدوى أننى هنا الملجأ والملاذ لكثير من الأدباء » ، أويقول لها « . . ولما كان إبراهيم لا يعصى لى أمرا فقد أذعن لما أردت » . مثل هذه العبارات فى رسالة المعداوى سوف تترك فى نفوسنا انطبعا واحدا هو أنه شديد الغرور ، وكما قلت فى المقدمة وفى صفحات سابقة من هذا الكتاب : إن غرور المعداوى - حسب معرفتى به - إنما كان يصدر عن نوع من البراءة والطفولة فى أغلب الأحيان ، ولا يصدر عن شر أو حقد أو ترفع على الناس ، وقد قويت نزعات الغرور والاستعراض والرجسية أو حب النفس والإعجاب بها ثم التركيز على الذات مع تصور صاحب هذه الذات أنه مركز العالم . . هذه النزعات كلها قويت عند المعداوى منذ صباه الأول ، بسبب تربيته العائلية ، فقد

كان - كما أشرنا من قبل - الابن الوحيد بين ثلاث أخوات ، وركزت أمه كل جهدها في الحياة على تربيته والاهتمام به وتدليله ، وكانت تشعر نحوه بحب غير عادى ، وقد انعكس هذا كله على شخصية المعداوى الذى تعود في بيئته العائلية الأولى أن يكون محبوبا وأن يكون موضع الإعجاب به وإشعاره بالأهمية البالغة .

على أن هناك شيئا ينبغي أن نلتفت إليه ونحن نقرأ رسائل المعداوى ، فهذه الرسائل هي في الأصل رسائل خاصة وشخصية ، يتحدث فيها المعداوى كما يتحدث الإنسان إلى نفسه أو إلى أهله ، ولم يكن المعداوى - رحمه الله - يتصور أن هذه الرسائل سوف تشر على رأى العام ، فكان يكتبها على سجيته ، وهو يعرف أن الإنسانية التي يكتب إليها هي إنسانة تثق به وتشعر نحوه بالإعجاب والمودة ، فلا بأس عليه أن يظهر في هذه الرسائل بعض مظاهر قيمته واهتمام الناس به ، كما أن المعداوى يحاول في هذه الرسائل وفي رسائل أخرى سابقة أن يكسب مزيدا من ثقة فدوى طوقان ، ويحاول أن يشجعها على مزيد من الثقة به والاعتماد عليه ؛ ومن هنا كانت لهجته في هذه الرسائل مقبولة بهذا المنطق الخاص ، وليس فيها ما يجوز لنا أن ننكره ونرى فيه نوعا من الانحراف أو العيب النفسى . إن المعداوى هنا أشبه بمن يتحدث إلى « خطيبته » بانتصاراته في الحياة ، مما يشجعها على الثقة به ويؤكد لها حسن اختيارها للإنسان الذى ارتبطت به ويزيد من فرحتها بالحياة ، ولعلنا نلاحظ أن المعداوى هنا يحاول أن يشجع فدوى على أن تزداد اقترابا عاطفيا منه ، وهو ما اعتقد أنه تم بالفعل بينهما ، حيث نشأت علاقة عاطفية قوية بين المعداوى وفدوى ، ولكن عن طريق الرسائل ودون أى لقاء بينهما ، وتلك هي الطريقة المفضلة

للمحب عندهما معا نتيجة للظروف المختلفة التي حاولت أن أشرحها في مقدمة هذا الكتاب .

وهكذا فإنني أعتقد أنه ليس من حق أحد أن يحاسب أنور المعداوى على هذه اللهجة التي كتب بها رسالته . . ليس من حق أحد أن ينظر إلى هذه اللهجة على أنها تعبير عن الغرور ؛ فهي لهجة تصدر عن إحساس بأن الرسالة خاصة ، وهي لهجة تصدر عن جو وجداني شخصي من حق الإنسان أن يبدو فيه قويا واثقا من نفسه سعيدا بانتصاراته وامتيازاته المعنوية ؛ لأنه يعرف أن الطرف الآخر يسعه ذلك ورضيه ويعطيه إحساسا عميقا بالأطمئنان والإقدام العاطفي .

على أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن هذه الرسالة تفيض بالمرح والتساؤل والرضا عن النفس والحياة ؛ ذلك لأن المعداوى عندما كتبها في أوائل سنة ١٩٥٢ كان في قمة نجاحه الأدبي ، وكان نجما ساطعا في الحياة الثقافية ، وكان صغيرا - في الثانية والثلاثين من عمره - وكان أمله كبيرا في المستقبل ولم تكن الهموم والأحزان قد طرقت بابه بعد .

التعليق الثانى على الرسالة السادسة

بين فدوى طوقان .. وشاعر مصرى

يتحدث المعداوى فى هذه الرسالة عن علاقة عاطفية كانت قائمة بين فدوى طوقان وشاعر مصرى ، وهذا الشاعر هو « إبراهيم محمد نجا » وقصة العلاقة بين فدوى وإبراهيم كانت معروفة لدى عدد من الأدباء المصريين ، وكان من السهل معرفة هذه القصة ، لأن القصة كلها كانت لا تزيد على مجموعة من قصائد الحب التى نشرها الشاعر « إبراهيم نجا » ونشرتها « فدوى » ، وكان من غير العسير على الأوساط الأدبية التى تعرف الشاعر عن قرب وتقرأ هذه القصائد المنشورة أن تعرف مناسبتها وما وراءها من تجربة عاطفية . وقد تأكدت لى هذه العلاقة العاطفية بين « فدوى » و « إبراهيم » عن طريق المعداوى الذى روى لى طرفا منها ، وأخيرا عرفت كل القصة من الشاعر

« إبراهيم نجا » نفسه الذى تعرفت عليه فى الخمسينات عن طريق المعداوى أيضا فى الندوة الدائمة التى كانت تجمع المعداوى مع عدد كبير من الأدباء فى « مقهى عبد الله » بالجيزة ، ثم فى مقهى « انديانا » بالدقى .

وقد روى لى « إبراهيم نجا » قصة حبه لفدوى ، فإذا بهذه القصة لا تخرج عن أنه أحبها على البعد من خلال شعرها وأنها أحبتة على البعد من خلال شعره ، وأنها لم يلتقيا أبدا وجها لوجه ، وإنما التقيا - إذا صح التعبير - « شعرا لشعر » .

عرفت « إبراهيم نجا » فى أواسط الخمسينات ، وكنت أقرأ له شعره قبل ذلك ، حيث كان ينشر قصائده بانتظام وكثرة فى مجلة « الرسالة » ، وقد توثقت علاقتى بالشاعر حتى توفى فجأة سنة ١٩٧٠ ، وكان « إبراهيم نجا » نموذجا للإنسان الطيب الوفى الودود البرىء ، وكان بعيدا فى سلوكه ومشاعره وأخلاقه عن أى تعقيد أو تفكير فى الشر ، بل لقد كنت أحس أحيانا أنه لم يكن يتصور ما فى الحياة والناس من تعقيدات لشدة بساطته وطيبته وسلامة نفسه ورفضه الفطرى للشر ، ولعل هذه النفسية التى كان يحيا بها إبراهيم نجا هى التى أثرت على شعره ، فكان شعرا بسيطا لا يمس أعماق الحياة الإنسانية ، بل يقف بعيدا عن هذه الأعماق ، كل ذلك رغم أن إبراهيم نجا كان صاحب موهبة شعرية حقيقية . وكانت شاعريته غزيرة خصبة ، وكانت صياغته الشعرية غاية فى الرقة والعذوبة والسلاسة ، ولقد كانت هذه الشاعرية الكبيرة قادرة على أن تضع إبراهيم نجا فى مكان بارز من الدرجة الأولى بين شعراء عصره ، لولا قلة تجربته ، ولولا ما فيه من براءة وطيبة بل وسذاجة فى النظر إلى أمور الحيلة والإنسان ، والشاعرية الكبيرة بحاجة - ولا شك - إلى تجربة

كبيرة ، وبحاجة إلى معرفة عميقة بهموم الحياة ومشاكل النفس الإنسانية ، أما أن يتوقف الشاعر عند حدود الرؤية الخارجية لمشاكل الحياة والإنسان ، فذلك ما لا بد أن يحد من انطلاقه الفني ويحول بين شعره وبين التحليق في السماء .

لقد عاش « إبراهيم نجا » في نهاية المرحلة الأخيرة من الموجة الرومانسية التي تمثلت بأفضل إنتاجها الفني في شاعرين كبيرين هما : إبراهيم ناجي وعلى محمود طه ، وكان شعر « إبراهيم محمد نجا » يدور في نفس الجو ويعيش في نفس العالم الوجداني الرومانسي ، ولكن إبراهيم نجا - رغم موهبته - لم يستطع أن يلحق بهذين الشاعرين الكبيرين : ناجي وعلى طه . لماذا ؟ لأن ناجي وعلى طه كانت لهما في الحياة تجارب واسعة عميقة ، وكانت معرفتهما بالإنسان أدق وأكثر شمولاً مما كان عليه شاعرنا البسيط الطيب إبراهيم نجا . على أن هناك سببا آخر أضعف مكانة إبراهيم نجا الشعرية ، هذا السبب هو اقتصر ثقافته الأدبية على الثقافة العربية فقط ، فقد كانت دراسته أزهرية ، حيث تخرج من كلية اللغة العربية ، ولم تساعده دراسته على معرفة لغة أجنبية ، كما لم تفتح أمامه أبواباً لتعميق شاعريته عن طريق الثقافة العصرية التي كان بإمكانه أن يحصل على جانب كبير منها عن طريق قراءته للمترجمات الكثيرة التي امتلأت بها المكتبة العربية ، ولكنه مع الأسف اقتصر على موهبته الفطرية وثقافته الأزهرية ، فضعفت تجربته الشعرية وضاق أمامه مجال الرؤية الفنية والإنسانية ، رغم أنه كان صاحب موهبة حقيقية كبيرة .

والصورة الضاحكة التي يرسمها المعداوى لإبراهيم نجا هي صورة صحيحة في مدلولها العام ، وخاصة عندما يقول المعداوى لفدوى

عن إبراهيم » . . لقد قالت لك رسائله إنه عرف الكثيرات وصدقته
يا أختاه ، وقال لك شعره إنه تنقل بين هوى الغانيات وصدقته
يا أختاه ، والله يشهد أنه في هذا المجال صفر اليدين قليل الحيلة
مقصود الجناح ، إنني أكتب إليك هذه الكلمات وأنا أبتسم لأنني
لا أستطيع أن أحول بين نفسي وبين الابتسام ، حين أذكر لك أن هذا
الصديق العزيز لم يعرف المرأة إلا في مكان واحد هو بيت الزوجية ،
وأن ما أقدم عليه في رسائله وشعره لم يكن الهدف من ورائه إلا إثارة
غيرتك وما كان لها أن تثار . . إنه يا فدوى دون جوان حقا ولكن على
الورق .

هذا ما قاله المعدادى لفدوى ، واعتقد أن ما قاله هو الحقيقة ، فقد
كانت تجارب إبراهيم نجا في الحياة محدودة وكان إنسانا شديد اللطف
والحياء ، وكان المصدر الرئيسي لشعره هو الخيال وليس التجربة
الإنسانية الواسعة .

نستطيع أن نفهم من رسالة المعدادى أن أزمة قد نشأت بين
إبراهيم نجا وفدوى ، بسبب ما كتبه الشاعر في رسائله وقصائده عن
معرفته بعدد كبير من النساء ، وقد حدثني إبراهيم نجا - رحمه الله -
عن هذه الأزمة دون أن يذكر لي الأسباب ، وقال لي إنه على أثر هذه
الأزمة أعاد إليها رسائلها ، ولكن بعد أن نقلها في كراسة وأبقاها
عنده ، وقد استأذنت إبراهيم في الاطلاع على هذه الرسائل فأذن
لي . . . وسأحدث بعد قليل عن رسائل فدوى إلى إبراهيم نجا ،
ولكن بعد أن نقرأ نماذج من شعر نجا عن حبه لفدوى وأزمته في هذا
الحب .

في قصيدة بعنوان « صارحيني » نشرها إبراهيم نجا في مجلة « الرسالة » في العدد ٩٢٩ الصادر في ٢٣ إبريل سنة ١٩٥١ نحس ببداية أزمته مع فدوى ، بل نحس بأن هذه الأزمة ربما تكون قد وصلت إلى قمته بسبب بعض الشكوك التي تملأ قلب الشاعر ، وفي هذه القصيدة يكتب الشاعر مقدمة نثرية يقول فيها :

« كتبتِ تقولين في رسالتك الأخيرة المريرة : لم أعد أعرف بأى الأسماء أناديك فاعذر حيرتي ، فأليك .. يا أنت ، أهدي هذه القصيدة » ثم يقول في مطلع القصيدة :

صارحيني بما لديك من الأسرار
أنفض على يديك شجوني

ثم يشير في مقطع آخر من القصيدة إلى ما كان بين فدوى وشاعر مصري آخر من علاقة عاطفية ، وهذا الشاعر الآخر هو الذي أشرت إليه في التعليق الثاني على الرسالة الخامسة ، وسأشير إليه مرة أخرى في الصفحات التالية ، وكان هذا الشاعر قد التقى بفدوى في حرب فلسطين ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ونشأت بين الشاعر وفدوى علاقة عاطفية على طريقة فدوى في الحب العفيف المثالي الرومانسي الذي لا يجد تعبيرا عن نفسه إلا في الشعر ، ولا يعبر عن نفسه أبدا في واقع الحياة ، وكان الكثيرون في الحياة الأدبية يعرفون قصة العلاقة العاطفية بين الشاعر المجاهد المتطوع وفدوى طوقان عن طريق القصائد المنشورة للشاعر والشاعرة أيضا ، وكان إبراهيم نجا يعرف طرفا من هذه القصة ؛ ولذلك فهو يقول في قصيدته :

حدثيني عن الغريب الذي جاءك
يسمى في لهفة وحنين ...

من وراء الصحراء يفتحم الهول
ويؤتاد مستراد المنون
حدثيني أكان يبغى دفاعا
عن حماك المعبذب المسكين
أم وصالا في ظل عشق عنيف
أم لقاء في ظل حب حنون ؟
لست أدري وذاك سر عذاب
وشقائي وغيرو وجنون

ويشير إبراهيم نجا في الأبيات السابقة إلى الشاعر الآخر وقصته مع
فدوى وشقائه بهذه القصة ، ثم ينهى إبراهيم نجا قصيدته بهذه
الأبيات التي يشير فيها إلى أزمتها الخاصة ويكشف لنا في الوقت نفسه
بعض ملامح شخصيته :

واذكري حين قلت .. يا أنت .. يوما
إنني في هواك غير أمين ..
قلت هذا حتى يقوم لك العذر
إذا شئت في الهوى أن تخون
تستطيعين أن تخون ، ولكن
أنت مهما فعلت لن تخدعيني
واسأليني عن النساء فعندي
بقلوب النساء علم اليقين
واسألني عن النساء اللواتي
كن يوما ملكي وطوع يميني
اسألينهم تعرفي من صفاتي
أنني ملهم بكل دفين

واذهبى ، لا أريد منك وداعا
ودعيني ، فقد يثست ، دعيني
إن يأسا يريحنى هو خير
من خداع الأوهام لى كل حين
ما غناء السراب عندى إن لم
يك يوما بمائه يروينى ؟

هذه أبيات من قصيدة إبراهيم نجا تكشف لنا بعض ما كان يعانيه الشاعر من عذاب عاطفى ، وبعض ما كان يعيش فيه من خيالات وأوهام كانت تعزیه بعض العزاء ، خاصة ذلك الوهم الأكبر الذى كان يتصور من خلاله أنه يعرف العديد من النساء - كن يوما ملكى وطوع يمينى - وكأنه أمير شرقى يعيش فى عصر الحريم ، وهو فى الحق لم يكن يعرف المرأة - كما يقول المبدأوى عنه - إلا فى بيت الزوجية ، وكان هذا الوهم الكبير بأنه خاض الكثير من التجارب العاطفية بمنح الشاعر نوعا من العلاج النفسى فى أزمتة العاطفية ، وهو من ناحية أخرى - كما قال المبدأوى بحق - محاولة لإثارة الغيرة فى نفس الشاعرة ، ولعل الغيرة تدفعها من جديد إليه وتزيد تعلقها به وتمنعها من قطع ما بينهما من علاقات الحب . . على الورق .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « رسائل ضائعة » يعبر إبراهيم نجا فى شجن حقيقى صادق عن محنته ، ويمكننا أن ندرك بوضوح أن هذه المحنة هى انقطاع رسائل فدوى عنه ، وقد كانت هذه الرسائل هى كل ما بينهما من حب عفيف حار ، فعندما تنقطع هذه الرسائل فإن ذلك يعنى محنة عاطفية كبرى للشاعر العاشق ، وقد عبر الشاعر عن هذه المحنة فى قصيدته تعبيراً جميلاً يكشف لوعة قلبه ومأساة حبه

الأفلاطوني العجيب الذى كان بالنسبة له حقيقيا كأنه واقع ملموس . يقول إبراهيم فى قصيدته التى نشرتها له مجلة « الرسالة » فى عددها رقم ٨٨١ الصادر فى ٢٢ مايو سنة ١٩٥٠ ، وسأنقل هنا نص هذه القصيدة الجميلة حتى نتبين ما فيها من تجربة عاطفية حزينة :

وكننت وإياها على البعد تلتقى
رسائل حب ليس يخبو أوراها
فكننت كأنى وهى منى بعميدة
أرى وصلها يدنو ، ويدنو مزارها
فلما انتهت تلك الرسائل أصبحت
إذا رمت لقيها تناءت ديارها
وصارت رسالاتى إليها مدامعا
أرى ليلها يبكى ، ويبكى نهارها
فيا قلب دعها ، ليس لى من وسيلة
إليها فألقاها ، ولا أنا جارها
ويا حبها هب لى سُلُوْا أريقه
على كبدى الحرى ، فتبرد نارها

* *

وقيدنى حبنى لها واسترقنى
فصرت لها عبدا وقد كنت سيذا
وكانت على قلبى نشيدا مرغما
فصارت على قلبى نشيجا مرددا
وكانت لقلبى فرحة أبدية
فصارت لهذا القلب حزنا مخلدا

وكنت سعيدا حين كانت مقيمة
 على عهدهما .. ترعى الفؤاد المقيدا
 فلما أضاعت عهدهما وتغيرت
 تغير قلبي في الهوى وتمردا
 وقلت لها إن كنت أشركت في الهوى
 فشيمة حبي أن يكون موحدا
 وإن كان شيء قد بدا لك فانطوت
 أمانيك في حبي ، فأنت وما بدا
 ظلمت الهوى ما أنت أهل لناره
 ونار الهوى أسمى من النور محمدا
 وأسرفت في لومي بريثا وإنما
 أحق بهذا اللوم من جبار واعتدى
 وأنت التي غنى فؤادي بحبها
 وناح .. فلم تحفل بما ناح أو شدا
 وأنت التي أغريت بي السهد والأسى
 فهأنذا أحيا حزينا مسهدا
 وأشقيت أحلامي وكانت سعيدة
 وحيرت أيامي وكانت على هدى
 وجئت إلى زهر الهوى وهو ناظر
 فأذويته بالهجر حتى تبددا
 وكانت حياي في يديك وديعة
 تمنيتها تبقى ، فضيعتها سدى
 فيا محنتي . يا سر يأسى وغربتي
 عن الناس ، يا حزنا بقلبي توقدا

ويا ألما كم رعته بتجلدى
فما زال بى حق عدمت التجلدا
لقد آن أن أحيا كطير مرفرف
يرى بهجة الدنيا فيمضى مفردا
سأوليك مهما عشت هجرا وسلوة
وقد كنت لا أوليك إلا تعبدا
غدا ينتهى الحب الذى كان بيننا
فليس له ظل بقلبى ولا صدى
فلا تعجل أن تصبحى اليوم فتنة
لغيرى ، وصبرا .. إن موعدنا غدا
وأقسم إن أوثر الموت طائعا
إذا كان لا يُنسى هواك سوى الردى

* *

غدا سوف أنساك فيمن نسيت
وأطوى غرامك فيما انطوى
وأنسى الهوى كله صارخا
كفانى عذابا بهذا الهوى
غدا ، غير أن غدا طائر ...
هنالك فى وكره قد ثوى
سيبمته الغيب من وكره
ويرجمه بعد طول النوى
وشجو النسهاد ونار الجوى
فياليتنى حين يأتى غد
أكون انتهيت .. كفصن ذوى

لقد حرصت أن أنقل هنا هذه القصيدة بأكملها ، لأن الشاعر كتبها في قلب أزمته العاطفية ، والقصيدة تحكى قصة هذه الأزمة ، بل تحكى القصة الكاملة لهذا الحب الذى كان بين إبراهيم نجا وفدوى طوقان ، ولست أشك فى أن إبراهيم نجا كان صادقا كل الصدق فى هذه القصيدة التى تصور حالته النفسية بدون الافتعال وخيالات الغرور العاطفى التى ملأت قصيدته السابقة « صارحبنى . . » ، وهذه القصيدة التى يصور لنا فيها عواطفه وأحزانه أقرب إلى نفسية الشاعر الحقيقية من أى شعر آخر قائم على الادعاء النفسى والغرور العاطفى ، فقد كان الشاعر إنسانا بسيطا طيبا صادق الطبع ، وكان مخلصا فى كل شىء ، حتى فى هذه العواطف التى كان يقيمها على الوهم والخيال ، أما الـ « الدون جوانية » و « الغرور العاطفى » وغير ذلك مما نجده فى شعره أحيانا فهى كلها نوع من التعويض وأحلام اليقظة .

وقد حرصت من ناحية أخرى على نقل هذه القصيدة بأكملها لسبب فنى آخر ؛ فلعل هذه القصيدة أن تلفت النظر من جديد إلى هذا الشاعر الذى كان رومانسيا فى عصر احتضار الرومانسية ، والذى جرفته موجة التجديد الشعرى فى أدبنا الحديث فلم يلحق بها ، ولكن موهبته الفنية مع هذا التيار المتدفق من الصدق العاطفى فى شعره يستحقان منا أن نلتفت إليه ونقف أمامه لحظة ، ونعطيه بعض ما فاته من حقوق النجاح الأدبى .

نعود بعد ذلك إلى قصة الرسائل المتبادلة بين إبراهيم نجا وفدوى طوقان ، وكان إبراهيم قد أطلعنى على هذه الرسائل كما نقلها قبل أن يعيد أصولها إلى فدوى عندما طلبت منه ذلك .

قالى لى إبراهيم إن علاقته بفدوى قد بدأت حوالى سنة ١٩٤٨ وانتهت سنة ١٩٥١ تقريبا ، وخلال فترة علاقته بفدوى لم يرهما على الإطلاق ولم يلتق بها أبدا ، وإنما اقتصرت علاقتهما على الرسائل المتبادلة ، وكان إبراهيم وفدوى يعبران عن عواطفهما فى هذه الرسائل ، وفى القصائد المختلفة التى كتبها إبراهيم وفدوى ، وقد سألت إبراهيم عن سر عدم تفكيرهما فى الزواج رغم أن العلاقة بينهما قد بدأت قبل أن يتزوج إبراهيم ، فقال لى : إن أسرة الشاعرة - كما فهم من فدوى نفسها - جعلت من تقاليدها ألا تتزوج الفتاة إلا من الأسرة نفسها ، وإذا لم تتزوج من الأسرة فمن الضرورى أن تتزوج من بلدها نفسه : فلسطين ، ومن أسرة ذات مستوى اجتماعى مشابه لأسرة الفتاة ، وإذا لم يكن الزوج من الأسرة أو من البلد أو من نفس المستوى الاجتماعى فعلى الفتاة أن تظل حبيسة بيتها بلا زواج إلى الأبد .

ولست أدرى إذا كان التفسير الذى قدمه إبراهيم لعدم زواجه من فدوى صحيحا على هذه الصورة أم لا^(١) ، ولكن الذى لا شك فيه أن هناك قيودا اجتماعية عنيفة داخل أسرة الشاعرة ، وهى أسرة كبيرة وقديمة وذات تقاليد خاصة ، ولم تستطع فدوى رغم ذكائها وثقافتها وموهبتها النادرة أن تقهر الظروف الاجتماعية والتقاليد الموروثة ، خاصة أنها كانت منذ البداية فتاة حساسة مطبوعة على الحياء والخوف من المجتمع والحياة .

(١) بعد قراءة السيرة الذاتية الرائعة التى كتبها فدوى طوقان عن نفسها تحت عنوان « حية جليلة .. حية صعبة » أصبح من المؤكد أن هذا التفسير لعجز فدوى عن الزواج من خارج أسرتها وطبقتها الاجتماعية صحيح بصورة كاملة .

ولو كانت فدوى ذات طبع جرىء مقتحم متمرد لاستطاعت أن تغير هذه التقاليد وأن تفلت منها ، ولكن فدوى اكتفت بأن تعبر عن شخصيتها الحقيقية ومشاعرها الطبيعية في شعرها ، وفي نفس الوقت حبست شخصيتها الاجتماعية في إطار التقاليد القديمة الموروثة ، لقد انقسمت شخصية فدوى إلى شخصيتين : شخصية حقيقية عبرت عنها وعن الامها وأحلامها في شعرها ، هذه الشخصية باصطلاحات علم النفس هي « الأنا » ، وشخصية أخرى كانت رقيقا على الشخصية الأخرى ومصدرا للضغط عليها ، وهذه الشخصية هي « الأنا الأعلى » ، وقد استسلمت فدوى في شعرها للشخصية الأولى واستسلمت في حياتها الاجتماعية وسلوكها للشخصية الثانية ، وقد ظل هذا الانقسام قائما في حياة فدوى حتى اليوم كما أتصور ، وقد استطاعت فدوى أن تحول الانقسام في شخصيتها إلى ازدواج رضية به وعاشت في إطاره ولم تخرج منه ، فهي تتحرر عاطفيا عندما تكتب شعرها الجميل الصادق وتتقيد اجتماعيا عندما تتصرف مع الناس أو تواجه الحياة الواقعية .

على أن فدوى طوقان قد حاولت في زيارتها الأولى لمصر أن تزور إبراهيم نجا - كما روى لي رحمه الله - ولكنها ذهبت إليه في المدرسة التي كان يعمل بها ، وكان قد انتقل منها فلم تعرف فدوى عنوانه الجديد . وفشلت المحاولة وخاب الأمل في اللقاء ، ولعل هذا الفشل العمل كان تعبيرا عن رغبة نفسية عميقة خافية في أعماق فدوى ، فإنها لم تكن تريد أبدا أن تخرج بعواطفها من عالم الخيال والمثال الى عالم التجسيد والواقع ؛ لأنها لا تريد أن تخوض معركة تعرف أنها لا تملك أدواتها وأنها سوف تنهزم فيها . ويشير « إبراهيم نجا » إلى هذه الواقعة في قصيدة له بعنوان « بلا أمل » نشرها في ديوانه الأول « أيام من

عمري « وهو الديوان الذى سجل فيه كل القصائد التى كتبها فى تجربته العاطفية « الأفلاطونية » مع فدوى طوقان . . فى قصيدة « بلا أمل » يشير إلى المحاولة التى فشلت فى اللقاء بينه وبين فدوى ، ثم عودة العلاقة بين الحبيين لتصبح مجرد مجموعة من الرسائل المتبادلة التى تحولت إلى وسيلة وحيدة للقاء فى عالم الوهم والخيال .

يقول إبراهيم فى قصيدته « بلا أمل » :

ولست بناس إذ بعثت رسالة
إلى بأمر من وصالك عاجل
فجن خيالى باللقاء وسحره
وصور لى أنى سأحظى بنائل
وأنتك قد وافيتنى فى خيلة
عليها نسيج من ضياء الأصائل
فأمسكت كفى بين كفيك ساعة
فأسكر روحنا عناق الأنامل
وغنيتنى شعر الهوى ، فكأننى
ذهلت عن الدنيا ولست بذاهل
وأنا أقمنا وحدنا طول عمرنا
فأصبحت لى وحدى برغم الحوائل
ولكن حظى كان حظى فأخطأت
خطاك مقامى بين تلك المنازل
وعشنا على الأوهام تجمع شملنا
رسائل حب يالها من رسائل
وما فى يدينا غير أوهام موعده

وأحلام لقا كالورود الذوابل
فلا تحسبى أنى سأنساك لحظة
فلأنك شغلى دون كل الشواغل
سأحيا على حبك ما دمت باقيا
وإن كنت أدري أن حبك قاتلى

وهكذا يرسم الشاعر صورة اللقاء الفاشل ، وصورة لعواطفه الرومانسية المثالية الحاملة ، فقد حاولت حبيبته أن تلقاه ولكنها فشلت لأنها أخطأت العنوان ، وكان الشاعر يحلم بهذا اللقاء ، ويحلم بأن هذا اللقاء - وبالأوهام البعيدة عن أى حس واقعى - سيتم فى « خيلة عليها نسيج من ضياء الأصائل » ، وأخذ الشاعر يتصور ماذا سيحدث عندما يلتقى بحبيبته ، وهنا تتضح لنا سطوة الخيال الرومانسى المسيطر على الشاعر ، فهو عندما يلتقى بحبيبته ، هذا اللقاء الذى يتمناه ويحلم به ، فإنه سوف يقرأ لهذه الحبيبة شعره وتقرأ له شعرها ، وسوف تمسك كفه بكفها « فيسكره » « عناق الأنامل » . . . هذا هو أقصى ما يفكر فيه الشاعر عندما يحقق حلمه الكبير ويلتقى بحبيبته ، وهذه الصورة هى تجسيد فى صادق للحب الرومانسى الذى يهيم فى عالم الخيال النقى ويتعد كل البعد عن دنيا الواقع الملموس ، وما أشبه هذه الصورة التى يرسمها إبراهيم نجا لنفسه مع حبيبته بصورة « روميو وجوليت » فى مسرحية شكسبير المعروفة عندما كانا يلتقيان فى المساء ويتناجيان على البعد بكلمات الحب والغزل الشفاف الرقيق ، بل لقد كان « روميو وجوليت » أكثر واقعية ؛ لأنها كان يرى كلاهما الآخر فى ضوء القمر : روميو فى الطريق وجوليت فى النافذة ، وكانا يسمعان صوت بعضهما البعض ، أما هنا عند إبراهيم نجا وفدوى طوقان فكل شىء خيال فى خيال .

نعود بعد ذلك إلى رسائل فدوى التى كتبتها لإبراهيم نجا ، والتى أتيسح لى الحسن الحظ أن أقرأها وأطلع عليها ، فماذا تقول هذه الرسائل ؟

فى إحدى هذه الرسائل تقول فدوى لإبراهيم وقد كان ذلك فى بداية العلاقة بينهما :

« لله ما أسعدنى هذا المساء ! لله ما أسعدنى لقد استمعت إليك وأنت تلقى قصيدتيك الرائعتين « العابد المثالى » و « البعث » . كان لصوتك المقعم بالحنان تأثير بعيد المدى فى قلبى ، ولا أدرى كيف أصف هذه النبرات الملائكية الحزينة التى كانت تتغلغل فى أعماق حسى ، لا أدرى كيف ألهمت هذا المساء الخروج من مكان عزلتى ، من غرفتى المنزوية ، فأجلس مع الأهل وما أقل ما أفعل ذاك ، وما هى إلا هنيهة حتى كان المذيع المصرى يقرأ برامج المساء ، وإذا باسمك العزيز ينفض قلبى فجأة ويهزه هزا عنيفا ، يالها من مصادفة رائعة حبيبة . . . ثم لم أزل أنتظر على شوق وهفة إلى أن حانت اللحظة السعيدة ، والتصقت بالمذياع وأسندت رأسى إليه وجبست أنفاسى ، وانطلق صوتك مسلسلا رقراقا حنونا ، فعانقته روحى ، وانطلقت معه إلى بعيد بعيد . . . إلى عوالم كلها أحلام وأشواق ورؤى وظلال ، أه ما كان أسعدنى هذا المساء »

وبعد فترة قصيرة من الزمن بدأت هذه العلاقة العاطفية بين فدوى وإبراهيم تتعرض لأزمة كان من الطبيعى أن تحدث ، فظروف فدوى لم تكن تسمح لها بالاستمرار فى مثل هذه العلاقة ولا فى أى علاقة أخرى . وفى رسالة ثانية تكتب فدوى طوقان إلى إبراهيم ردا على عتاب منه بعد أن قطعت رسائلها عنه لفترة من الوقت :

« أنا ما أسأت بك الظن ، لا ولا أنكرت شيئا مما قلته في رسالتك ، وماذا عساي أن أنكر ؟ أنكر عطف روحك على روحي ؟ أوحديثك الصادر من أعماق قلبك ؟ ... لا وربك ، ولكنها القيود تكبل روحي ، والتقاليد تكسر جناحي ، والسدود تعترض دروي ، وهذه كلها تضيق على ، وتحول بيني وبين أن أتخذ لنفسي نجيا أفزع إليه من قسوة الحياة ، وأستضيء بضياؤه في هذا الظلام الذي يكتنف نفسي ، ولا يد لي ولا حيلة ، وأنت حين نادتنى روحك وناجاني قلبك ، لم تكن تدري أنك تدعو كسيحة أسيرة مهيضة الجناح ، وكنت أظن في سكوتي الخير لي ولك » .

ثم تشير فدوى في هذه الرسالة نفسها إلى واقعة تتصل بعلاقتها السابقة مع الشاعر المصري الآخر الذي كان على اتصال بفدوى قبل إبراهيم ، تقول فدوى في هذا الجزء من رسالتها :

« .. إنني ما زلت أتلو من الألم كلما ذكرت ذاك اليوم الذي تنكرت فيه النفوس ، وعبست الوجوه من أجل رسالة تلقيتها من شاعر مصري . اتصلت بينه وبينى أسباب الأخوة ، فتراسلنا حيناً من الزمن إلى أن كانت تلك الرسالة البريئة ، وإذا أنا يحظر على أن أتخذ لأمالى وأحلامي نجيا كائنا من كان ... لقد كتبت على الوحدة والعزلة ، وإنني لأفنى شيئا فشيئا ، وإن أعصابي لتتحطم تحت ضربات هذه الحياة القاسية ، فمتى يدنو يوم الراحة الكبرى ، متى ... » .

وهذه الفقرة الأخيرة من رسالة فدوى على غاية من الأهمية والقيمة ؛ لأنها تكشف بوضوح وقوة ومن خلال واقعة محددة عن المدى الذي وصلت إليه قسوة التقاليد والقيود في حياة فدوى ، وهي

تفسر لنا ما نحسه في شعرها من ألم وحزن واغتراب ، ولا شك أن هذه الواقعة التي تذكرها فدوى طوقان هي مجرد نموذج لوقائع أخرى من نوعها تعرضت لها فدوى في حياتها الواقعية ، ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم بوضوح كامل تلك الآلام والهموم التي عانتها هذه الفنانة الكبيرة الحساسة ، والتي هي في آخر الأمر نموذج حي لبنات جيلها في كثير من البيئات العربية الأخرى ، ولست أشك في أن فدوى قد ضحت بالكثير من سعادتها في سبيل الصدق والأمانة مع نفسها وفنها ، وأنها صمدت في وجه المصاعب التي واجهتها فرفضت أن تستجيب لما يفرضه عليها مجتمعها ، وقبّلت في آخر الأمر أن تضحي بحياتها وتسلك طريق العزلة ورفض الزواج ما دام الطريق الوحيد للزواج والارتباط العاطفي هو طريق التقاليد الاجتماعية المرفوضة ، ضحت فدوى ورفضت كل ما تلقىه التقاليد في طريقها احتراماً للإنسانيتها ، ولعل ذلك اليوم الذي تصبح الفتاة العربية حرة من كل القيود المفتعلة يكون قريباً ، وتكون فدوى بذلك قد ضحت تضحية مثمرة وكافحت من أجل هدف أمكن تحقيقه ، وهو مع الأسف هدف لم يتحقق حتى الآن بصورة مثالية كاملة إلا في بيئات عربية محدودة .

وفي رسالة ثالثة من فدوى طوقان إلى إبراهيم نجا تقول فدوى :

« ماذا أقول ؟ أنا خائفة ، إن قلبي يكاد ينفجر في صدري مما يملؤه ، أنا لا أستطيع أن أقوم بكل هذا العبء ، فخذ أنت بيدي ناشدتك الله ، وأعني على مقاومة هذه العواطف الجائعة ، أتوسل إليك أن تقطع رسائلك عني . . . لا ، لا أريد أن تكتب إلي بعد اليوم ، كن عوني على هذا البلاء العظيم ، لأنني أضيق به ولا أطيق له احتمالاً ، فوداعاً ، برغم قلبي أقولها ، إنها كلمة أجد فيها مذاق

الموت ، سأذكرك ما عشت . سيحن إليك قلبي ما دام في قلبي نسمة
حياة » .

هذه هي الفقرات التي احتفظت بها من رسائل فدوى طوقان إلى
إبراهيم نجا عندما أطلعني إبراهيم عليها . وها هي رسالة أنور
المعداوي إلى فدوى تكشف لنا أن فدوى قد استردت رسائلها وبذلك
انتهت تلك العلاقة ، وقد عبر إبراهيم نجا في شعره عن همومه
وأحزانه بسبب انتهاء هذه العلاقة كما يبدو في قصيدته « رسائل
ضائعة » التي نقلناها في الصفحات السابقة بأكملها ، على أننا نجد
في قصائد أخرى للشاعر إشارات مباشرة إلى تجربته العاطفية
الرومانسية الحزينة مع فدوى طوقان ، حيث يقول في إحدى قصائده
شاكيا أنه يعيش بعيدا عن هواه :

يا من أحن إليها وهي نائية
ومن تسرف روحى حول مغناها
قضى الزمان على روحى بغربتها
عن مهد حبي فأبكاني وأبكاها

وهو يشكو من أن حبه لا يقوم إلا على مجموعة من الأوراق
والرسائل المتبادلة بينه وبين حبيبته :

وما التقينا سوى روحين رفرقتا
على رسائل حب كم بعثناها
تذكرى كلمات في رسائلنا
يمضي الزمان ، ولا يمضي بمعناها
تذكرى كم سهرنا الليل نكتبها
ونسكب القلب دمعا في ثناياها

تلك الرسائل ما زالت تعذبني لأنها وحى أيام أضعتها

وهكذا عاشت هذه العلاقة العاطفية بين فدوى طوقان وإبراهيم
نجافى مشاكل متعددة ، وكانت تنتقل من فشل إلى فشل ، ومن حزن
إلى حزن ، ولم تثمر إلا بعض الشجر الجميل وبعض الرسائل
الجميلة ، ولكن التجربة ستظل على الدوام رمزا لعذاب الإنسان
العربي الحساس وهو يحاول أن يتخلص من قيوده وأغلاله في عصر
الرومانسية الذي بدأ يذوى ويتلاشى في المجتمع العربي منذ
الخمسينات . إن هذه القصة بين فدوى وإبراهيم هي نموذج لمحنة
العاطفة المثالية العفيفة التي تريد أن تحقق آمالها على جناح من
الخيالات والأوهام فتسقط مهشمة على أرض الواقع المليء بالقيود
والتقاليد .

التعليق الثالث على الرسالة السادسة

قصة الأديبة السورية هجران شوقي

يشير المعداوى في رسالته إلى قصة « هجران شوقي » ، أو الأديبة السورية التي لا وجود لها في واقع الحياة ، والتي كانت اسما مستعارا لشاعر سوري اختفى وراءه هذا الشاعر لفترة من الوقت ، وقصة « هجران شوقي » هي - في الحقيقة - قصة مثيرة وطريفة من قصص حياتنا الأدبية جرت فصولها على صفحات مجلة « الرسالة » سنة ١٩٥٠ . وقد بدأت القصة عندما نشرت مجلة « الرسالة » في عددها رقم ٨٨٥ الصادر في ١٩ يونيو سنة ١٩٥٠ قصيدة بعنوان « الشاعر » للأستاذ يوسف حداد وكتبت « الرسالة » في مقدمة القصيدة كلمة قالت فيها :

« . . . اقترحت زميلتنا « العصابة الأندلسية »^(١) على الشعراء أن

(١) مجلة عربية أدبية كانت تصدر في أمريكا وبحررها أدباء المهجر .

ينظموا في موضوع « الشاعر » وأرصدت للاقتراح جائزتين مائيتين للفائزين الأول والثاني ، فجاءها تسع عشرة قصيدة تخيرت منها لجنة التحكيم ثلاثا جعلت الجائزة الأولى لاثنتين مناصفة وهما للشاعرين يوسف حداد وشبل ملاط ، والجائزة الثانية للقصيدة الثالثة كاملة وهي للشاعر أنور العطار ، وهذه هي القصيدة الأولى . . . »

وبعد أن نشرت « الرسالة » قصيدة يوسف حداد ، علق عليها أنور المعداوي في العدد التالي من « الرسالة » وهو العدد رقم ٨٨٦ الصادر بتاريخ ٢٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، وقال المعداوي في هذا التعليق :

« قلت لنفسي بعد أن فرغت من قراءة القصيدة المنشورة في العدد الماضي من الرسالة : هذا شعر . . . وعندما نقول إن قصيدة الأستاذ يوسف حداد شعر ، فلأنما نعني تلك الومضات النادرة من « الأداء النفسي » الذي شرحنا لك بالأمس القريب أصوله وقواعده . ولا نريد بهذه الكلمة أن نطبق مذهب الأداء النفسي على قصيدة الأستاذ حداد ، ولكننا نريد أن نقدم إليه خالص التهنية وأصدق الإعجاب ، على الرغم من بعض المأخذ التي لم تخل منها قصيدته المحلقة . إن جناح هذا الشاعر ليعد في رأينا من الأجنحة النفيسة في أفق الشعر العربي الحديث . . . ومن عجب أن هذه القصيدة التي نشرتها الرسالة هي أول أثر فني نطالع له للأستاذ حداد ، وأعجب من هذا أننا لا نعرف في أي قطر من أقطار العروبة يصدق بشعره : أهو من لبنان أم من سورية أم من العراق . . . أم تراه من شعراء المهجر ؟ سؤال لم نعتزله على جواب ، لأن قصيدته المنشورة لم تشر إلى موطنه حيث يقيم .

إننا نشعر بكثير من الأسف لأننا لم نقرأ شعرا آخر للأستاذ حداد من قبل ، ونشعر أيضا بكثير من الحرج حين يدور في خلدنا أن بعض القراء قد يعرفونه حق المعرفة ، في الوقت الذي لم تتح لنا الظروف أن نعرفه بعض المعرفة . . مهما يكن من أمر فإنه ليسعدنا كل الإسعاد أن يطلع الأستاذ الشاعر على هذه الكلمة ، وأن يبعث إلينا بقطوف من شعره لنقضى معه لحظات أخرى معطرة بأرج المتعة الروحية الخالصة !

وللذين يوافوننا ببعض ما يعرفون عن الأستاذ حداد - إذا لم يقدر له أن يطلع على هذه الكلمة - تحية ملؤها الشكر العميق .

وبعد أن كتب المعداوى هذه الكلمة بشهر تقريبا نشر رسالة وصلته من سوريا بتوقيع « هجران شوقي » تعلق على رأيه في قصيدة يوسف حداد ، وقد نشر المعداوى رسالة « هجران » وعلق عليها في العدد ٨٩٠ من الرسالة وهو العدد الصادر في ٢٤ يولييه سنة ١٩٥٠ ، وتقول « هجران شوقي » في رسالتها إلى المعداوى :

« يا كاتب الأداء النفسى

تحية من صبا بردى أرق

قرأت في تعقيباتك المنشورة في العدد « ٨٨٦ » من الرسالة بتاريخ ٢٦ يونيو ، أنه يسعدك الإسعاد كله أن يوافيك قراء الرسالة بكلمة عن الأستاذ يوسف حداد صاحب قصيدة « الشاعر » المنشورة في العدد « ٨٨٥ » من الرسالة . وسأفنى أن تشعر بكثير من الحرج حين يلدور في خلدك أن بعض القراء قد يعرفونه حق المعرفة في الوقت الذي لم تتح لك الظروف أن تعرفه بعض المعرفة .

هون عليك يا أنور فإن الخطب يسير ، وهامى ذى قارئة من قارئات الرسالة توافيك ببعض ما تريد . . بين يدي مجلة « العصبية الأندلسية » التي نقلت عنها الرسالة القصيدة ، تشير في ختامها إلى أن الأستاذ « حداد » من لبنان - البقاع - تل زنوب . وقد لمع في ذهني أن أعيرك العدد رجاء أن تعيده إلى حرصا على مجموعتي ، لأنني أريد أن أستمع إلى رأيك في هذه المباراة الشعرية الفريدة التي اقترحتها العصبية الاندلسية في موضوع « الشاعر » على شعراء العالم العربي ، ولا أكتفك أني قرأت القصائد الثلاث فانتهيت إلى حكم مناقض لحكم العصبية ، وددت لو أن اللجنة المحكمة عكست الأمر لكان ذلك أقرب إلى الحق وأدنى إلى الصواب .

واستمرت الكاتبة « هجران شوقي » في رسالتها بعد ذلك ، وأخذت تقارن بين القصائد الثلاث الفائزة في المسابقة ، وانتهت إلى رأي محدد هو أن قصيدة الشاعر أنور العطار « التي فازت بالجائزة الثانية » هي الجديرة بأن تفوز بالجائزة الأولى ، وأن القصيدتين الفائزتين بالجائزة الأولى - مناصفة - وهما قصيدة يوسف حداد وقصيدة شبلى ملاط لا تستحقان أكثر من اقتسام الجائزة الثانية . . . وقد ناقشت « هجران شوقي » في رسالتها المطولة القصائد الثلاث بالتفصيل مفضلة قصيدة أنور العطار تفضيلا كاملا على قصيدتي حداد وملاط ، وقالت « هجران » في الجزء الأخير من رسالتها :

« . . لا أدري ما الذي أخذ بقلمي للدفاع عن أنور العطار ، وإلى إنزاله هذه المنزلة وإلى الإعجاب بقصيدته الذي أعلنه دون تورع ، لأنه ينظم الشعر بروح شوقي الخالد ، أم لأنه يكتب بهذه اللغة الساحرة الشاعرة التي عنت لأستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات ، هذا

الأديب العظيم الذى يتحدث كما يتحدث النبع الشادى فى خلوة
الوادى ؟

وبعد ، فى كاتب الأداء النفسى . . يامن أتحدث إليه دون كلفة
ولا مشقة كما يتحدث القلم إلى الورق ، ما أريد منك إلا أن تعقب
على هذه المباراة الشعرية ، وأن تنشر القصيدتين الفائزتين فى
الرسالة ، وأن نرهف إليك أفكارنا لنسمع فصل الخطاب فى هذه
المباراة .

احتفظ يا أنور بنسختي من مجلة العصبة الأندلسية واذكر أنها عارية
يجب أن ترد ، لأن ذلك يشجعنى على أن أعيرك طائفة من كتبى
الغالية على ، فانت من الآن قسىمى فى الفكر ورفيقى فى الأدب ،
نتلاقى فى الرسالة على تنائى الدار وشط المزار واختلاف الجنس
واختلاف الحس . ولك تحياتى وإعجابى »

ورد أنور المعداوى فى نفس العدد من « الرسالة » على « هجران
شوقى » فقال فى مقدمة رده :

« كنت قد طلبت إلى قراء الرسالة أن يوافون ببعض ما يعرفون
عن الشاعر يوسف حداد . . عن موطنه ، عن شعره ، عن حياته
الشخصية والأدبية . وهامى ذى الأدبية السورية هجران شوقى
تتطوع فتبعث إلى بهذه الرسالة المطولة لا لتطلعنى على علمها
بشخصية الأستاذ حداد بل لتطالعنى برأيها « الخاص » فى شعره ! ومن
العجيب أن الأدبية الفاضلة قد بدأت رسالتها بنقد الشعراء الثلاثة
ومن بينهم الشاعر الذى أسأل عنه ، ثم ختمت هذه الرسالة برغبتها
الخالصة فى أن تسمع منى فصل الخطاب فى هذه المباراة . . وكأنها
تريد أن توحى إلى ببعض أشياء بغية أن تؤثر فى حكومتى الأدبية .

معذرة يا آنسى اذا قلت لك لاننى لم أكن محتاجا الى رأيك فى الشاعر
يوسف حداد وإنما كنت محتاجا الى علمك به . . ومعذرة مرة أخرى
إذا قلت لك إن رأى اليوم فى قصيدته هو رأى الذى أعلنته بالأمس
على صفحات الرسالة ، ولن يغير من هذا رأى ما بدا فى رسالتك من
تحامل مقصود لا يستند إلى دعامة أصيلة من دعائم النقد الأدبى الذى
أؤمن به .

لقد كنت أنتظر وقد رجعت إلى تسأليننى المقارنة والموازنة ، أن
ترجعى إلى موازينى الخاصة فى نقد الشعر عندما تحدثت عن شعر
الأستاذ على محمود طه منذ شهور ، لا أن ترجعى إلى موازين القرن
الرابع الهجرى يوم أن كان النقاد يزنون الشعراء بأخطائهم اللغوية
والنحوية ، فإذا أرادوا أن يشيتوا « فنيتهم » فى النقد لم يجدوا أمامهم
غير العبارة الخالدة : « شاعر متين السبك قوى الحبك مشرق
الديباجة » كما تعبرين أنت فى رسالتك . . أو كما كانوا يقولون « شاعر
أتى بما أحجل زهر النجوم فى السماء وأزرى بزهر الربيع فى الأرض »
وشبيه بهذا نقدك عندما تقولين عن شعر الأستاذ العطار إنه من الجنة ،
أو عندما تقولين « والشعر العربى حريص على التجديد فى الأفكار
ولكنه لا يغتفر لأحد أن يجدد فى الأساليب » . . ترى كم علامة من
علامات التعجب تكفينى لأضعها فى ذيل هذه العبارة ؟ معنى هذا
يا آنسى أن الشعر العربى لن يغتفر لشعرائنا المحدثين أن يخرجوا على
طريقة التعبير عند الشعراء الجاهليين أو من يماثلهم من الشعراء
الأمويين . . ولا بأس من أن يعبر أبو ماضى مثلا على طريقة جرير :

وابن اللبون إذا ما لز فى قعس
لم يستطع صولة البزل القناعيس !

بقى أن تطبقى هذا الرأى الجديد فى نقد الشعر على النثر العربى الحديث . . وإياك أن تغفرى لصاحب هذا القلم أنه لا يكتب بأسلوب القاضى الفاضل .

ثم يقول المعداوى فى ختام رده على « هجران شوقى » :
« أتريدين فصل الخطاب فى هذه المباراة ؟ إننى أقول لك فى كلمات :
إن قصيدة شبلى الملاط فى ميزان « الأداء النفسى » هابطة ، وإن قصيدة أنور العطار متوسطة ، وإن قصيدة يوسف حداد متفوقة . .
ولست فى حكمى على الشعراء الثلاثة إلا منصفاً لشعرهم الذى بين يدى ، دون أى اعتبار لجائزة أولى أو ثانية تقدم لهذا أو لذلك .

وأخيراً يسجل المعداوى فى تعليقه على رسالة الأدبية السورية هذه الملاحظة :

« ومعدرة إن كنت قد قسوت ، لأننى أشك كثيراً فى شخصيتك الأنثوية ، ويخيل إلى أن اسمك يا « آنسة » ماهو إلا قناع يختفى وراءه وجه أديب من الأدباء السوريين وأغلب الظن أنه صديق للأستاذ أنور العطار !

مهما يكن من أمر شخصيتك فإنه لا يسعنى إلا أن أقدم إليك أخلص الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك . . أما « العصبية الأندلسية » فلا بأس من ردها إليك إذا كان لك فى دمشق عنوان ، ولا داعى لأن تشغلى نفسك بلإعراق بعض كتيك الغالية لأن لى كتباً كثيرة فى انتظار القراءة . . وهكذا يكشف أنور المعداوى منذ اللحظة الأولى أنه يشك فى شخصية « هجران شوقى » ويرى أن هذا الاسم إنما هو توقيع مستعار لأديب سورى .

وتعود « هجران شوقى » فتكتب رسالة ثانية إلى المعداوى ،
وينشرها المعداوى مع تعليق له فى العدد ٨٩٥ من « الرسالة » وهو العدد
الصادر فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٥٠ ، وفى هذه الرسالة نكتشف أن
« هجران شوقى » شاعرة ، وهذا هو نص رسالة « هجران » الثانية :

« يا كاتب الأداء النفسى

تحية خالصة ومودة دائمة

ما أحب أن أعلق على تعقيباتك الأخيرة فى العدد ٨٩٠ من مجلة
الرسالة حول « ثلاثة شعراء فى الميزان » فلكل رأيه ومذهبه ، والأدب
جمال ، والجمال مقياسه الذوق ، والناس يتفاوتون فيه ، ولكن الذى
لفتنى فى كلمتك الممتعة أن تشك فى شخصيتى الأنثوية ، وأن يخيل
إليك أن اسمى إن هو إلا قناع يخفى وراءه وجه أديب من الأدباء
السوريين ! ما هذا الاستنتاج الغريب ؟ والأغرب منه أن تكتب إليك
فتاة تعلن رأيها فى كثير من الصدق والشجاعة ، وتمهر كلمتها باسمها
الصريح فتظنها فتى وتحسبها أديبا من الأدباء ، فما أعجب ما يظالعنا
به الدهر ، وما أشد ما يلقي الإنسان من أخيه الإنسان ، ولكن
الزمن وحده يحل العقدة ويكشف الطوية ، ولله ما أصدق القائل :
« الله أكبر حل العقدة الزمن » ولقد عزمت أن أزور القاهرة خلال
انعقاد المؤتمر الثقافى الثانى فى الإسكندرية فى أعقاب أغسطس ،
وسنلتقى فى إدارة مجلة الرسالة فى ظل أمير النثر الأديب العظيم أحمد
حسن الزيات ، وسأثير مناقشة القصائد الثلاث فى حمى سيد
الأدب ، وسيحكم بيننا وستعذر أن كنت قاسيا فى نقدك ، وأن كان
حكمك على عجيبا غريبا ، حين أبادلك رأيا برأى وحين ترى إلى فتاة
تحسن النقاش وتملك مقاد الكلام ، وتعيش فى جو خالص من الحقيقة
والخير والجمال ، وتطمع أن تحببه إلى الآخرين ، وما تدرى ، لعل

هذه الرسائل المتبادلة بيننا تدخر لنا لقاء قريباً في كتاب مشترك نطلع به على الناس . أما أنا فلقد حرصت على أن أراك حرصك على أن ترائى ، وأعجبني منك أنك وفى في زمن مات فيه الوفاء أو كاد ، ولقد تجلّى لى وفاؤك في هذه الفصول الرائعة التى عقدتها متحدثاً عن شاعر الصدق والجمال والحب : على محمود طه .

مع هذه الرسالة قصيدتى « القمر » وهى لون جديد من ألوان مزج الغزل بالطبيعة ، أحب أن تنشر فى الرسالة دليلاً على أدب الفتاة السورية الحديثة وطمعاً فى محو ما ساورك من شك ، وما خالجتك من ريب ، ولك تحيتى مشفوعة بإعجابى ، وإلى الغد القريب .

ويرد أنور المعداوى على هذه الرسالة رداً موجزاً بعد مقدمة يشكر فيها الأدبية السورية فيقول :

« بعد هذا أقول للآنسة إننى إذا كنت قد لقيتها بشيء من القسوة أو أشياء من العنف ، فمرجع ذلك إلى ما وقع فى الظن من أنها أديب من الأدباء السوريين يخاطبني من وراء قناع ، وعذرى فى هذا الظن أننى لم أقرأ للآنسة شيئاً أستطيع على هديه أن أطمئن لشخصيتها الأنثوية ، أعنى أن اسمها لم تقع عليه عيناي فى صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات ، على كثرة ما أعرف عن طريق هذه وتلك من أسماء الأدباء والأديبات . . من هنا خطر لى أن الذى يتحدث إلى فتى لافتة ، لأننى لم أصدق أن هناك أديبة تكتب بمثل هذا الأسلوب الذى يتميز بالنضج والأصالة ، ثم لا تعرفها الصحف الأدبية ولا يصل صرير قلمها إلى منافذ الأسماع ! لتعذرنى الآنسة إذن حين أشرح لها حقيقة هذا الظن الذى أثارته رسالتها الأولى ومحت ظلاله رسالتها

الثانية وعدت من بعده كما يعود الخيال من رحلة طويلة ينفض بعدها يديه من خداع الأوهام ويلقى عصاه !!»

وهكذا يعلن أنور المعداوى أنه كان يشك في البداية في شخصية « هجران شوقي » ، وأنه الآن وبعد رسالتها الثانية لم يعد يشك . والحقيقة أن المعداوى كان لا يزال على شكه كما سيتضح لنا بعد قليل ، ولكنه أثر أن يتيح للقصة فرصة أطول حتى يعرف ماذا وراء هذه القصة وماذا يمكن أن تنتهى إليه هذه « الأدبية المزيفة » التى لا وجود لها في واقع الحياة .

وبعد الرسالة الثانية لـ « هجران شوقي » بعدة أسابيع ينشر المعداوى رسالة جديدة من « هجران » تعتذر فيها عن عدم زيارتها لمصر أثناء انعقاد المؤتمر الثقافى الثانى - كما وعدت من قبل - بسبب المرض ، ثم تقول :

« أسفت أشد الأسف أن حالت الحوائل دون زيارة الإسكندرية والقاهرة خلال انعقاد المؤتمر الثقافى الثانى ، ويسرنى أن تعلم أن رؤيتك ، ورؤية الأستاذ الزيات تعدلان عندى هذا المؤتمر الثقافى الذى لا يعدو أن يكون مؤتمر كلام وطعام دون أن يكون مؤتمر تنفيذ وأفعال . . . »

« . . على أنى آمل من الله أن يكتب لنا لقاء قريباً في أعقاب الحريف فأزور القاهرة وألقاك وألقى الأستاذ الزيات في دار الرسالة ، ونبحث طويلاً في شئون الأدب والأدباء ومشكلة الكتب وأزمة القراء . . ولعلها أحب الأحاديث إلى نفسى وأشهاها إلى خاطرى » .

ثم تقول « هجران » في آخر رسالتها :

« مع هذه الرسالة قصيدتي « قصة قلب » وهي لون جديد من ألوان الشعر العاطفي يلخص قصة القلب الإنساني ويتحدث عن الحب حديثاً جديداً ، أحب أن تعلق عليها وعلى أختها « القمر » في فصل من فصولك الرائعة . . »

ويرد المعداوى على هذه الرسالة بكلمة مجاملة يقول فيها :

« أعمق الشكر يا آنسة ، وأخلص الأسف أن حالت الظروف بينك وبين الحضور وبيننا وبين رؤيتك . ولئن عاقت اليوم المشهود عن هذه الأمنية فأرجو ألا يعوقك الغد المرتقب ، وسواء صافحت روحك أنسام هذه الأرض الطيبة في أعقاب الخريف أم في أوائل الشتاء ، فإنني أقول لك كما قلت بالأمس مرحباً بك ضيفة كريمة تلقى في ديارنا أهلاً غير الأهل ووطناً غير الوطن » .

ثم تكتب « هجران شوقي » إلى المعداوى رسالة رابعة تناقش فيها بعض قضايا الأدب ، وترسل إليه قصيدة جديدة من شعرها عنوانها « غناء » ، ثم ترسل إليه رسالة خامسة مطولة تناقش فيها عديداً من القضايا الأخرى ، وتقول « هجران شوقي » في فقرة من فقرات رسالتها الخامسة :

« . . أرايت يا أخي أنور إلى هذه الأزمة المستعصية ، أزمة الفتاة ، وإلى غمتها التي ما تنجلي ، وإلى إسارها الذي لا يطاق ، وإلى حياتها التي تضج بالحرمان والعذاب ، من مهد الصبا والشباب إلى مهد البلى والتراب ؟ ألا تفوق هذه الأزمة أزمة القراء ومشكلة الكتب ؟ وهل

مثل هذه الغمة غمة يجدر بالأقلام أن تتساند على كشفها وتتساعد في جلائها ؟ فهل يا كاتب الأداء النفسى وثر على هذا العصر واصرخ في وجه هذا المجتمع وزحزح ناسه المحافظين الناقمين على المرأة أن تستنشق هواء الحرية ، وأن تتذوق معنى الحياة ، وأن تخلص من أشواك العرف والعادة والوهم وإسار القلب والدار .

وتقول « هجران شوقى » في آخر رسالتها الخامسة :

« .. ما أنا إلا إحدى الحبيسات الشهيدات ، والله يتولاك برعايته كفاء دفاعك عنا وإحسانك إلينا » .

ويعقب أنور المعداوى على هذه الرسالة فيقول :

« أعتقد أن الشاعرة السورية المطبوعة الآنسة هجران شوقى توافقت على إرجاء التعقيب إلى الأسبوع المقبل ، لأن رسالتها المطولة قد طغت على الصفحات الأربع المخصصة للتعقيبات » . على أن المعداوى لا يرد على هذه الرسالة في العدد التالى ولا فى العدد الذى يليه من مجلة الرسالة ، وإنما يكتب بعد ثلاثة أسابيع وفى العدد ٩١١ من « الرسالة » ، وهو العدد الصادر فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٠ ، مقالا بعنوان « قصة أدبية سورية » يقول فيه :

« لا أخفى أن شخصية « الآنسة » هجران شوقى كانت موضع شك لدى فريق من الأدباء ، ولولا أن أدبيا واحدا بقى على شكه ويريد أن يسبقنى إلى الكتابة حول هذا الموضوع لما تناولت القلم لأحدث قراء الرسالة عن هذه الشخصية الأنثوية التى لم أشأ أن أغلق فى وجهها الباب حتى اليوم .. لغرض مقصود !

هذا الأديب الصديق يريد أن يقول للقراء : إن الأنسة هجران شوقى ماهى إلا أديب سورى يخاطبني بلسان فتاة ، يريد أن يقول هذا ويكتفى به ، لأنه لا يملك دلائل الإثبات . . حسبه أنه مطمئن إلى هذا الظن ، مقتنع به ، عازم على أن يذكره على صفحات الرسالة ، معربا عن عجبه من أن أسمح لذكائى المتواضع بأن يتقبل الخديعة . وقلت للأديب الصديق : إنك لا تستطيع أن تثبت صحة هذه الظنون ، ومع ذلك فأننى أقدر ذكاءك . . ذكاءك الذى صمد حيث لم يصمد ذكاء الآخرين وأعنى بهم هؤلاء الذين قرأوا رسالة هجران الأخيرة ، فنبخرت شكوكهم حين لفحتهم لوعة الشمو من خلال السطور ، لوعة الشعور الأنشوى الصادق من وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجان . . لقد آمنوا بأن الصرخة صادقة كل الصدق ، بريئة كل البراءة ، وأن من ورائها حقا شهيدة المجتمع وجيسة الدار !

إننى أهنتك يا صديقى على هذا الذكاء ، وأؤكد كذلك أن ذكائى المتواضع لم يتقبل الخديعة فى يوم من الأيام . . هذه حقيقة أفضيت بها إلى بعض الناس منذ أشهر ، كما أفضيت بها إلى هؤلاء الذين تبخرت شكوكهم بعد أن قرأوا رسالة هجران الأخيرة . . كل ما دفعنى إلى أن أظهر بمظهر المخدوع أمام الكثيرين ، وأمامها « هى » بوجه أخص ، هو أننى كنت أريد ألا أغلق فى وجهها الباب لغرض مقصود ، هذا الغرض هو أن يخونها الذكاء يوما فتظل من فرجة الباب بوجهها الحقيقى الذى لم تغيره الألوان والمساحيق ، ولم يخب ظنى ، فقد أقبل اليوم المنتظر ، اليوم الذى خاها فيه الذكاء أو خانتها الذاكرة ، فنسيت أن تضع على وجهها قليلا من الطلاء قبل أن تطل برأسها من فرجة الباب المفتوح !

ثم يتحدث المداوى بعد ذلك عن الدليل الأول الذى يكشف هذه الشخصية ويؤكد أنها شخصية مزيفة فيقول :

« .. هذا البرهان الذى كان يمكن أن تضع عليه يدك فى رسالة هجران الأخيرة وهى تشكو وطأة القيد وظلمة السجن وقسوة السجن ! عد إلى رسائلها الأولى ثم قف طويلاً عند هذه الرسالة الأخيرة ، وقارن بين بعض الظواهر هنا وبعض الظواهر هناك ، وأنا واثق من أنك ستجد المفتاح الضخم الذى يمكنك أن تضعه فى ثقب الباب لينفتح ، ويكشف لك عما وراءه من حجرات يسطع فيها الضياء .. بعد هذا دعنى أقدم عدداً من المفاتيح بدلا من مفتاح واحد ، ولك أنت أن تضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون .

لقد قلت فى ردى على أول رسالة من « الأنسة » هجران إننى أعتقد أنها أديب سورى يخاطبنى من وراء قناع .. وحين تلقيت رسالتها الثانية التى ظهرت فيها بمظهر الغاضبة والعاتبة على هذا الاعتقاد الذى لا أساس له من الصحة كما تعبر البلاغات الرسمية رحت أعتذر لها عن هذا الاعتقاد « الخاطىء » الذى كان مصدره إننى لم أقرأ لها شيئا من قبل فى الصحف والمجلات .. قلت هذا وأنا باق على يقينى الأول ، لم يشغلنى عنه أنها عازمة على الحضور إلى مصر فى المؤتمر الثقافى لتثبت لى شخصيتها الأنثوية ، ولا أنها بعثت إلى بعنوانها فى دمشق كوسيلة من وسائل هذا الإثبات .. قلته وأنا واثق من أنها لن تحضر ، ولم أحاول أن أكتب إليها على ذلك العنوان لثقتى مرة أخرى من أنه عنوان لا وجود له ، وقد أثبتت الأيام فى الحالين صدق اليقين !

وقالت الأدبية السورية المعروفة السيدة وداد سكاكيني وهي تزورني في وزارة المعارف عقب انتهاء المؤتمر الثقافي : أود أن أقول لك إن شخصية « الأنسة » هجران شوقي شخصية خيالية . . وقلت لها ردا على اللفتة البارعة : وأود أن أؤكد لك أنها كذلك ! وارتسمت على وجهها صور من الدهشة وهي تقول مرة ثانية : ولماذا إذن تنشر لها قصائدها ورسائلها مادمت تعتقد أنها شخصية مستعارة ؟ ! وأجبت وقد علت شفقي ابتسامة ذات معان : لسبيين . . الأول لأنني لا أريد أن أغلق في وجهها الباب لتبرهن « هي » على أن شخصيتها الأنثوية تحتاج إلى إثبات ، وقد برهنت على ذلك حتى الآن بتخلفها عن الحضور في المؤتمر الثقافي ! أما السبب الأخير فهو أنني راض عن إنتاجها الأدبي فهو من هذه الناحية جدير بالنشر حري بالتشجيع ، وأنا لأهتم بمن قال قدر اهتمامي بما يقال . . وانقضت بعد ذلك أيام وأشرت إلى هذا الحديث إشارة ذات مغزى على صفحات الرسالة ، حين قلت للأنسة هجران إن السيدة وداد سكاكيني قد سألتني عنك ، وأرجو أن تحملي إليها خالص التحية !

وحدث بعد ذلك أن عاد الصديق الأديب الأستاذ حبيب الزحلاوي من رحلته الموفقة إلى سوريا ولبنان لينقل إلى بعض ما سمعه هناك ، وليطالعني بمثل ما طالعني به السيدة الفاضلة وداد سكاكيني . وقلت للأستاذ حبيب في معرض الحديث الذي وافقته فيه على صدق ظنونه ، هون عليك يا صديقي ، فسأكتب يوما عن هذا الموضوع !

ولعل قارئنا يسألني : على أية دعامة من الدعائم أقمت يقينك الأول بأن « الأنسة هجران شوقي » ما هي إلا أديب يخاطبك من

وراء قناع ؟ والجواب عن هذا السؤال هو أن أسأله : أتظن أن هناك أدبية تملك كل هذا النضج في تعبيرها النثرى ، وكل هذه الأصالة في صياغتها الشعرية ، ثم لا تحاول مرة واحدة أن تظهر في ميدان الأدب ، لولا هذه المناسبة العابرة التي دفعتها إلى الظهور ، يوم أن تحدثت عن قصيدة الشاعر يوسف حداد ، ثم هل تظن مرة أخرى أن هناك من يزهد في المجد الأدبي كل هذا الزهد ، وهو يعلم أن كلا من شعره ونثره يمكن أن يطرُق الأبواب في كثير من الثقة والاطمئنان ؟ . . . ضع النقط فوق الحروف كما يقول الصحفيون !»

ثم يخاطب المعداوى بعد ذلك في مقاله الأنسة هجران شوقي فيقول :

« . . لو أنك تذكرت ما جاء برسائلك الماضية من أنك حرة طليقة تملكين من هذه الحرية التي لا تحد ما يهيء لك الحضور إلى القاهرة لتجلسي إلى هذا وتتحدثي إلى ذاك ، وتغشى المجتمعات الأدبية في بلد غريب لتشاركي في أمور الأدب والفن ، لو تذكرت هذا كله لما شكوت في رسالتك الأخيرة من ظلم المجتمع وقسوة التقاليد ، ذلك المجتمع الذي فرض عليك أن تكوني شهيدة القيد ، وهذه التقاليد التي ضربت من حولك نطاقا من الأسر جعلك حبيسة الدار رهينة الجدران ، أى منطق هذا الذى يؤكد لنا اليوم أنك سجين مقيدة ، بعد أن أكد لنا بالأمس أنك حرة طليقة ؟ إنها هفوة من هفوات الذكاء . . الذكاء الخائن في أخرج الأوقات ! » .

ثم يقول المعداوى بعد ذلك :

« ورب سائل يسألني وقد تجمعت بين يدي شتى الخيوط التي تنسج أثواب اليقين : لقد كنت تعتقد أن عنوانها الذى بعثت به إليك منذ

أشهر ليس له وجود في دمشق ، فلماذا بعثت إليها آخر الأمر بتلك الرسالة الخاصة التي أشرت إليها منذ قريب في « التعقيبات » ؟ لقد أقدمت على ذلك لألقى بآخر سهم في أعبة الاعتقاد ، الاعتقاد الراسخ بأن الذي يكتب إلى فتى لا فتاة . . وكنت واثقا كل الثقة من أن رسالتي الخاصة سترد إلى مرة أخرى وعليها إشارة مصلحة البريد في دمشق بأن هذا العنوان لا وجود له ، وقد كان ! . . وبقي هناك غرض مقصود من وراء هذه الرسالة التي كنت أتوقع أن ترد إلى وهو أن أقدم الدليل المادي القاطع لمن يبههم أن يطلعوا عليه ومن بينهم الأنسة « هجران شوقي إذا حاولت أن تكتب إلى غاضبة عاتبة » .

ثم يقول المعداوى في آخر مقاله :

« ومع ذلك فأنا أود أن أقول « للأنسة » الفاضلة وللكتيرين إننى لا أهتم بمن قال قدر اهتمامى بما قال . . وكل ما أرجوه هو أن تعتقد الأنسة « هجران بأننى حتى هذه اللحظة صديق ، وليس عليها من بأس إذا هى كشفت للقراء عن اسمها الآخر ، اسمها الصريح . . اسمها الذى أعتقد أننى أعرفه ، والذى تحدثت عنه إلى عدد من الأصدقاء » .

كانت هذه الكلمة التى كتبها المعداوى فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٥٠ ، وبعدها تسكت هجران شوقي ، فلا تبعث إلى مجلة « الرسالة » بقصائدها بعد أن نشرت لها المجلة عددا من ألقصائد هى « قمرية تموت » و « القمر » و « غناء » و « قصة قلب » ، كما سككت هجران شوقي أيضا فلم تعد تكتب رسائلها إلى المعداوى . وأصبح من الواضح أن الموضوع قد انتهى ، واكتشف الجميع أن هجران

شوقي ما هي إلا اسم مستعار لأديب سوري ، وكان من الواضح أن هذا الأديب السوري هو الشاعر أنور العطار ، وقد أشار المعداوي إشارات مختلفة تدل على أنه يرى أن هجران هي أنور العطار ولكنه لم يصرح بذلك أبدا .

وعمر عام كامل ينطوي فيه اسم هجران وينسى الناس قصتها ، وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ يخرج المعداوي على القراء بمقال جدي في تعقيباته بمجلة الرسالة تحت عنوان : « ذكرى شاعرة سورية » ، وسوف أنقل هنا نص المقال ؛ لأنه يحسم قضية « هجران شوقي » حسما نهائيا ويقطع بأن أنور العطار هو صاحب هذا الاسم المستعار . . يقول المعداوي في مقاله : « هل تذكرون تلك الفتاة الأنيقة الرشيقة . . الأنسة هجران شوقي ؟ وهل تذكرون ذلك اليوم الذي رفعت فيه القناع عن الوجه المزيف والحديث الكاذب والشعور المصنوع ؟ لقد استطاع ذلك الشاعر السوري المعروف أن يلقى بوجه امرأة ، وأن يتحدث إلى بصوت امرأة ولكنه نسي شيئا واحدا لم يظن إليه . . وهو أن يتزود بدهاء النساء ، نسي مع الأسف الشديد هذا السلاح الخالد من أسلحة حواء . . ومن هنا انكشف أمره وانتهت المعركة !

أقسم أنني كنت أعرفه ، أهني الأستاذ « هجران » . . وأني ذكرت اسمه لكثير من أهل الأدب حين سئلت عنه ، بعد تلك الكلمة التي وجهتها إليه على صفحات الرسالة ورجوته فيها أن يفصح عن اسمه وإلا أفصحت عنه ! . . رجوته فخبب الرجاء ، ولج في الهجر ، وأمعن في الدلال ، شأن ربات الجمال ، ومن هنا خافني الصبر فبحث باسم الأستاذ الشاعر في مجالس الأدب فصدق أناس

وتردد آخرون . . ترددوا على الرغم من الأدلة المادية المقنعة التي تقوم على المقارنة بين شعره وشعر « الأنسة » ، وبين النماذج الخطية لكتابتها وكتابته وهي موجودة بدار الرسالة ، فضلا عن السبب الأصلي الذي من أجله بدل من قسّمات الوجه وغير من نبرات الصوت . . وهو دفاعه الصادق المخلص عن شاعر بعينه في مسابقة شعرية أقامتها مجلة « العصبية » المهجرية !!

تلك الفئة المترددة في التصديق كانت قليلة على كل حال ، وعذرهما في ذلك مقبول حين نضع نصب أعيننا هذه الحقيقة وهي أن الشاعر الذي وضع على وجهه نقاب امرأة شاعر معروف تعرفه صفحات « الرسالة » منذ خمسة عشر عاما على وجه التقريب ، وتبعاً لهذا « الشرف » يعرفه القراء في مصر والبلاد العربية . . ومن هنا عز على بعض العقول أن تصدق تلك « الفعلة » التي لا يقدم عليها غير الأدباء الناشئين أو غير الصبية المراهقين !!

وأترك تلك الفئة المترددة وأخاطب القراء ، مقدماً إلى أذواقهم هذه الأبيات التي أقتطفها من قصيدة ألقاها الشاعر الذي أعنيه في حفلة تكريم أقيمت للشاعر المهجري جورج صيدى بدمشق ، ونشرتها مجلة « الأديب » اللبنانية في عدد ديسمبر عام ١٩٥١ . . قال الأستاذ الشاعر وهو يتحدث عن نكبة فلسطين بصوت « الرجال » يحيا الشاعر المهجري الذي نذر لها ديوانه « النوافل » هبة شعر وشعور ، قال حفظ الله له وجهه الحقيقي بغير نقاب :

عليك سلام العرب يندى مواجعا
ويشرب دمع العين غربا إلى غرب

ولم رحت لا تلوين إلا على النوى
 أمن أمل رحب إلى أمل نهب
 ديار الهوى لازلت مخضرة المنى
 ترف على مغناك فينانة العشب
 خيالك في عيني وذكراك في فمي
 وبى منك ما يفرى المحب وما يصبى
 وما غبت عن طرفي وإن بعد المدى
 ولكننا في الحب جنباً إلى جنب
 وما ذكرتك النفس إلا تولدت
 وهيمها برح نبات بلال لب !
 يهيج جواها الشوق والشوق عاصف
 كأن على أنفاسه زفسرة النجب !
 دهمت من الدنيا كوارث جمه
 وألقت بك الويلات في مسلك صعب
 فقد يتجلى الليل الطويل عن السنا
 وتزدهر الأعواد في المهمة الجذب
 إذا دهمته الداهيات تلجلجت
 به النفس وانهارت تقول له حسبي
 وطوف رباع الخلد تطواف عاشق
 حسير الأمانى وابك بالمدمع السكب
 إليك أؤدى بعض ما تستحقه
 رفيفاً من التحنان والنغم العذب
 وأنت جدير بالدرارى فليتنى
 أصوغ بيانى من سنا الأنجم الشهب

هذه هي الأبيات ، ومعدرة لضياح الوحدة النفسية فيها وكذلك الوحدة الفنية ، لأن هناك بيتا مقتطعا من هنا وبيتا مقتطعا من هناك ، تبعا لحرصى على جمع « الاكليسيهات اللفظية » التى سأترك لك المقارنة بينها وبين « اكليسيهات أخرى » ماثلة ، هناك قصيدة قديمة وجهتها الأنسة هجران شوقى إلى الشاعر عزيز أباظة ، فى العدد ٩٠١ من الرسالة وهو العدد الصادر فى ٩ أكتوبر عام ١٩٥٠ ! قالت الأنسة الشاعرة التى نسيت أننى أقرأ مجلة « الأديب » ومازلت أذكر شعرها الحبيب :

وأنت سماوى القصيد قبسته
من اللاعج المشبوب والمدمع السكب
ولما تزل سؤل النفوس وقصدها
وشغل الليالى الزهر والأنجم الشهب
فيالك من شعر رقيق منغم
يرف رفيف الطل فى ناضر العشب
ترقرق بالشكوى وضمخ بالأسى
فجاء بما يغرى وجاش بما يصبى
وأشربته نجوى تذوب رهافة
وتخضل بالتذكار والأمل النهب
تخلده الأحقاب فى الطير شاديا
فلما شدا بات المحب بلا لب
وفى الغائب النائي الذى لفه الردى
ففاض حنانا وهو فى زفرة النحب
غريب حريب لا يقر قراره
إلى أن نرى فى الخلد جنبا إلى جنب

فما الشعر إلا ابن المدامع والأسى
 تجود به الأجفان غربا إلى غرب
 إذا خاطب الأرواح رفت بشاشة
 ولو أنها في وحشة المهمة الجذب
 يظل حذاء الركب ترمى به النوى
 فينسيه ما يلقاه من مسلك صعب
 نشاوى وماملوا غناء ولا سرى
 ولا تعبوا أو قال قائلهم حسبي
 فيالك صداحا ويالك شاعرا
 تغرد بالتحنان والنغم العذب

أرأيت إلى هذه « الاكليشيهات اللفظية » المكررة في هذه القصيدة
 وفي القصيدة السابقة ؟! .. إنها « اكليشيهات » تطالعك كثيرا في
 شعر هذا الشاعر . وهي من لوازم التعبير التي تكشف لك عن
 شخصية الأديب أو الشاعر ولو حجبت تلك الشخصية وراء
 الأستار ! .. « المدمع السكب » . والدمع الذي تجود به الأجفان
 (غربا إلى غرب) . و « الأنجم الشهب » و « المسلك الصعب »
 و « المهمة الجذب » و « زفرة النحب » و « بات بلال » . و « الأمل
 النهب » . وفي الحب أو في الخلد « جنبا إلى جنب » وتلك أو الذي
 « يقول له حسبي » وذلك « التحنان والنغم العذب » .. إلى آخر
 تلك الاكليشيهات المحفوظة على طريقة تلاميذ المدارس . والتي
 يمكنك أن تجد الكثير منها في قصيدة أخرى نشرت للأنسة هجران على
 صفحات الرسالة . وهي القصيدة التي رثت بها « أختها » الشاعرة
 المصرية الراحلة الأنسة ناهد طه رحمها الله !

عيب الأستاذ الشاعر أنه ضعيف الذاكرة ، ولو لم يكن ضعيف الذاكرة لما نسى أن وظيفتي الفنية هي النقد . وأن النقد من عادته أن يرفع الستار عن الأشياء الدفينة . . لقد سطا الأستاذ في جرأة بالغة على شعر الأنسة هجران . ولم يتحرج بأن يحمى الشاعر جورج صيدح بهذا الشعر المسروق !

ليصدقني القراء أنني لم أكن أنتظر أن يسطو هذا الشاعر المعروف على شعر هذه الشاعرة الناشئة . . قد يدافع عن نفسه فيقول لنا بصوته الطبيعي الذي لا تشوبه رقة الغانيات : هذا اتهام جائر لأن الشعر شعري هنا وهناك . سواء نظمته من وراء الأستار أم نظمته في وضخ النهار . . عندئذ لا يسعنا إلا أن نعتذر للأستاذ أنور شوقي أو للأنسة هجران العطار .

وهكذا ينهى أنور المعداوى قصة « هجران شوقي » ويثبت بصورة قاطعة أن « هجران شوقي » ماهي إلا اسم مستعار للشاعر السوري أنور العطار وقد كان من الواضح أن أنور العطار يريد أن يحصل على اعتراف من المعداوى بقيمة شعر هجران شوقي ، ثم يكشف للناس بعد ذلك أن شعر هجران هو شعر العطار ، وأن المعداوى قد قبل شعر هجران وأثنى عليه بعد أن رفض شعر العطار وأنكره ، ولكن المعداوى للحق لم يقع أبدا في هذا الفخ الأدبي الذي نصبه له أنور العطار ، وكان يشير منذ اللحظة الأولى إلى أنه يشك في شخصية هجران الأثوية ، كما أشار بوضوح إلى أوجه الشبه الفني بين شعر هجران وشعر العطار ، ثم كشف القناع كله عن الوجه الأنثوي المستعار عندما كشف عن الشبه الواضح بين قصيدة « هجران » في الشاعر « عزيز أباطة » ، وقصيدة أنور العطار في الشاعر « جورج صيدح » .

ولكن هذه القصة قد انتهت دون أن تجيب عن سؤال آخر هو :
 من هو الشاعر يوسف حداد الذى كان أساسا للمشكلة كلها عندما
 فاز بقصيدته « الشاعر » فى مسابقة مجلة العصبة الأندلسية ونال
 الجائزة الأولى ، بينما نال أنور العطار الجائزة الثانية ، وجاء المعداوى
 فائضى على يوسف حداد وفضله على أنور العطار ، مما أغضب
 العطار ؟ . . إن أحدا لم يقرأ اسم يوسف حداد قبل هذه القصيدة ،
 وها هى الأيام تمضى حتى تربو على ربع قرن كامل من الزمان دون أن
 يظهر اسم يوسف حداد مرة أخرى ودون أن يشير إليه كاتب أو
 أديب ، مما يثير الشبهة فى أن اسم يوسف حداد هو الآخر اسم
 مستعار ، وهذا ما أشارت إليه « هجران شوقى » حيث تقول فى آخر
 رسالة كتبها إلى المعداوى :

« وأغلب الظن أن يوسف حداد إن هو إلا شاعر من شعراء
 « العصبة الأندلسية » فى المهجر ، شاعر يختفى وراء هذا القناع لتظل
 جائزة الشعر وقفا عليه تنطلق منه إليه » .

هذا ما قالته « هجران شوقى » ، ويبدو لى أنه قول صحيح ،
 وما دامت « هجران » نفسها ما هى إلا قناع لشاعر آخر ، فهى أقدر
 ولا شك على أن تحس بمن هم مثلها أقنعة لأسماء تختفى وراءها
 وتحتجب .

وأخيرا أود أن أثبت هنا قصيدة كاملة لهذا الاسم المستعار
 « هجران شوقى » بعد أن استعرضنا قصتها من خلال رسائلها إلى
 المعداوى . وهذا النص الشعرى سوف يساهم فى استكمال خطوط
 الصورة وملامحها ، والقصيدة التى اخترت لإثباتها هنا اسمها
 « القمر » ، وقد حاولت فيها « هجران شوقى » ، التى هى فى

حقيقتها الشاعر السوري أنور العطار ، أن تلبس ثياب الأنثى الحقيقية وأن تستعير مشاعرها وأحاسيسها المختلفة ؛ وذلك كله إمعانا في التخفى ووضع الأصباغ والألوان على الوجه ؛ حتى تبدو الصورة أقرب إلى الحقيقة وحتى يبدو القناع وكأنه وجه أصلى لا تزوير فيه ولا مساحيق ولا أصباغ .

وقصيدة « القمر » نشرتها مجلة « الرسالة » في عددها رقم ٩١٠ وهو العدد الصادر في ١١ ديسمبر ١٩٥٠ ، وقد قدمتها « هجران » بسطور نثرية تشرح فيها فكرة القصيدة فتقول :

« في قصيدة القمر أقباس من الهوى العفيف ، وتوله بالطبيعة عبادة لها واندماج بها وفناء فيها » .

وهذه القصيدة تقدم لنا نموذجا جيدا من القصائد التي نشرتها « هجران شوقي » ، ويستطيع من يشاء أن يقارن بين هذه القصيدة وبين شعر أنور العطار ، وسوف يتضح بكل البراهين الفنية أن شعر « هجران » هو شعر أنور العطار رغم محاولات التخفى والاحتجاب .

تقول « هجران » في قصيدتها « القمر » :

وفي ليلة قمراء ممشوقة القد

أطل على البدر وهنا على عمد

وكان فراشى لا يقر من الضنى

أقلب فيه الطرف سهدا على سهد

أدارى فؤادا شفه لاعج الأسى

وأورده ليل النوى أشأم الورد

ومن كان مثلى في اكتئاب ووحدة

تمنى لو أن النوم يسرى على مهدى

فقلت له - لما ترامى شعاعه :
سلام على من كنت منه على وعد
تعال ! أيا ملك الليالي وسحرها
ويا طيفها المغرى ويا حلمها الوردى
تعال إلى قلبى فأنت نجيه
وأنت أحاديثى إذا هاجنى وجدى
وقد قر عينا واستراح إلى الهوى
وأقبل فى ثوب المحبة والود
فغنيتيه حتى استلان إلى الكرى
وأفرشته صدرى ووسدته زندى
ونام بإحدى مقلتيه طماعة
وحام على ثغرى وطاف على خدى
وكانت نثارات من النور رخصة
تسركض ما بين الترائب والنهد
وسامرنى من بت أهوى وصاله
ومن وصله أحلى من العيشة الرغد

* * *

تساءل قلبى وهو فى نشوة الهوى
أأطمع أن ألقى الذى أشتهى عندى
فتانك عيناه وذلك جيده
وتلك يدى تنساب فى شعره الجعد
أضم أليف الروح فى غمرة الجوى
وأشربه دمعى وأطعمه كبدى
وأرجع للنفس اللجوج ألومها
أما كنت فى همى وفى ليلتى وحدى !؟

التعليق الرابع على الرسالة السادسة حول المتنبي وشعره

يعلق المداوى فى رسالته السادسة إلى فدوى على بيت المتنبي الذى
يقول فيه :

أتراها لكثرة العشاق
تحسب الدمع خلقة فى المآقى

يقول المداوى فى تعليقه :

« . . هذا المتنبي ولو أنه فى رأى شاعر مصنوع يشبه الفتاة
« البلدى » التى تكثر من استعمال المساحيق حتى ليبدو جمالها وهو
جمال « التواليت » ، هذا المتنبي ولو أنه كذلك إلا أن له أحيانا
« فلتات » شعرية تستحق الإعجاب ، ومنها هذا البيت الذى يطالعنى
بلون من الجمال الطبيعى الذى يرتاح له الذوق والشعور » .

وهذا الرأى الذى يراه المعداوى فى المتنبي له جذور فى آرائه النقدية المتعددة التى نشرها فى مقالاته قبل أن يكتب هذه الرسالة إلى فدوى ،
ففى مقال له بعنوان مشكلة « الأداء النفسى فى الشعر العربى »
يقول :

« . . إذا قلت لك أن الشعر العربى القديم كان فى جملة شعر
السطوح الخارجية » للنفس والحياة ، فلا تحمل هذا القول على
التعصب للحديث والوقوف إلى جانبه ، إن أمامك هذا الشعر فراجع
فيه نفسك ، واستشر فى حقيقته ذوقك وحسك ، إنه شعر يشعرك
بفراغ « الوجود الداخلى » عند قائله لأنهم كانوا يعيشون خارج
« الحدود النفسية » فى الكثير الغالب من الأحيان . »

ويرد المعداوى فى مقال على أحد الكتاب الذين اعترضوا على رأيه
فى الشعر العربى القديم فيقول :

« أنا يا صديقى لا أنكر أن فى الشعر العربى القديم لوامع رائعة
من الأداء النفسى ولكنها كما قلت لوامع تطغى عليها تيارات الأداء
اللفظى ، ذلك الأداء الذى يعنى بمادية التعبير أكثر مما يعنى بظلاله
النفسية . . إن الأداء النفسى موجود فى شعر ابن الرومى والبحتري
وأبى تمام وما شئت من كبار الشعراء ، ولكن أى وجود ؟ إنه وجود
لا يملأ سمع المتذوق لهذا النوع من الأداء ، ولا يحيط بمنطقة الشعور
تلك الإحاطة الكاملة التى نلتمسها فى الإشارة التى تنبثق من ثنايا
الذهن لا من شغاف القلب ، وتنطلق من وراء اللسان لا من حنايا
العاطفة . . »

« . . لقد كان الشاعر القديم لا يخلو إلى نفسه إلا فى القليل
النادر ، ولقد كان مشغولاً عنها بأغراض الحياة ومطالب العيش

ومظاهر الغلبة على الأقران والتشوف إلى الوقوف بباب السلطان ،
ولذلك ضرب بجناحيه في كل أفق وبقي أفق واحد عز أن يخلق فيه ،
وهو أفق الخلوة إلى النفس والتحدث إليها والتعبير عما يجيش بداخلها
من شتى الانفعالات والخلجات . . لو خلص الشعراء القدامى
لأنفسهم وخلصت لهم ، وتفرغوا للتأملات الذاتية في شيء من
الاستجابة الصادقة لدعاء الشعور الصادق لبدوا عمالقة في ميدان لم
يطرقوه مرة إلا ارتدوا عنه مرات ولاغترفوا من نبع لم يحوموا حوله لحظة
إلا وضلوا عن طريقه لحظات ، جريا وراء السراب ، سراب الصنعة
اللفظية والذاتية البيانية !

ومع ذلك يذهب الأديب الفاضل إلى أن المتنبي وابن الرومي
ينفذان من نطاق النقد الذي أقمته حول بناء الشعر العربي القديم ،
فهل يتفضل بتقديم قصيدة لهذا وأخرى لذلك يتخيرها من روائع
الشاعرين ، لنستطيع أن نضعهما فوق مشرحة الدراسة النقدية ،
مستخدمين مبضع التحليل على ضوء الأصول الفنية التي عرضت لها
في مشكلة الأداء النفسي في الشعر ؟ إنني على استعداد لأن أثبت
لمقدمها في غير تجن ولا مغالاة أن أية ومضة نفسية يمكن أن تشع في
بيت من الشعر هنا ستقابلها عشرات الومضات اللفظية في كثير من
الآبيات هناك . . وهذا هو الحد الفاصل بيني وبين من يختلفون معي
في الرأي حول الشعر القديم !

هذه الخطوط العامة لرأى المعداوى في الشعر العربي القديم
عموما ، وفي شعر المتنبي بوجه خاص .

وفي رأى أن المعداوى قد خلط بين مدرستين في الشعر العربي ،
وهو « خلط » قد وقع فيه الكثير من النقاد المعاصرين ، فنحن نجد في

الشعر العربي القديم مدرستين واضحتين ، مدرسة أقامت بناءها كله على التقليد ، وأخرى رفضت التقليد واهتمت بأن تخط لنفسها خطة فنية جديدة مستقلة تعبر بها عن تجاربها الخاصة وعن همومها الروحية المتميزة ، وهذه المدرسة الثانية بالذات قد توافرها ما يدعو إليه المعداوى من الحياة « فى أفق الخلوة إلى النفس والتحدث إليها والتعبير عما يجيش بداخلها من شتى الانفعالات والخلجات » . . . ولعل أقرب نموذج من نماذج المدرسة الثانية فى خلوده إلى نفسه ورفضه للحياة الخارجية هو أبو العلاء المعرى ، ذلك الشاعر الكبير الذى هاجر من العواصم والمدن واعتكف فى بيته البسيط وقريته المتواضعة بقية حياته وعمره .

إن مدرسة التقليد فى الشعر العربي كبيرة وممتدة على مساحة واسعة من تاريخنا الأدبى ، أما مدرسة الأصالة والاستقلال الفنى والوجدانى والفكرى فهى تحتل مساحة أدبية أقل ، ولكنها مدرسة موجودة بوضوح فى الأدب العربي القديم .

وشعر التقليد وحده هو الجدير بالرفض والاستنكار ، أما الشعراء الذين احتفظوا بأصالتهم وتحروا بقوة الموهبة والاستقلال الفنى والتجربة من سيطرة التقليد الجامد فليس هناك ما يبرر رفضهم واستنكار قيمتهم الفنية والإنسانية .

وقد ساد التقليد فى عصور بأكملها فى الشعر العربي . مثل عصر سيطرة العثمانيين والمماليك على أجزاء من الوطن العربى ، أو على الوطن العربى كله ، وهذه العصور كانت مجذبة فى الشعر خاصة والثقافة عموما وكانت عصور تدهور وظلام .

ولكننا نجد الشعر العربى يرتفع إلى مستوى فى وإنسانى كبير عندما نلتقى بشاعر قوى الشخصية قوى الموهبة واسع التجربة فى الحياة .

والمتنبى بالذات هو واحد من هؤلاء الشعراء الكبار الذين ارتفعت بهم موهبتهم وتجربتهم وشخصيتهم المستقلة التى رفضت التقاليد الفنية الجامدة وارتفعت عليها .

صحيح أن معظم شعر المتنبى قد قيل فى مناسبات محددة تتركز معظمها فى مدح الملوك والأمراء . وصحيح أنه عاش حياته فى بلاط هؤلاء الملوك والأمراء ، ولكننا إذا جردنا شعر المتنبى من المناسبات والظروف التى قيل فيها ، وتجاوزنا عن جانب المناسبات فى هذا الشعر ، فإننا سوف نجد بين أيدينا شيئاً قيماً يبقى لنا من هذا الشعر ، بل سيبقى لنا شىء عظيم فيه الكثير من التأمل والعمق والتجربة النفسية والإنسانية الرفيعة .

وإذا أخذنا بالمقياس الذى تحدث عنه المعدادى وهو مقياس « الأداء النفسى » ، والذى يمكننا أن نلخصه - فى نوع من التبسيط - بأنه تعبير الشاعر عن تجربة نفسية خاصة وصادقة وعميقة تنبع من قلبه ومن أعماق مشاعره وليس مجرد صور فنية تنبع من فكره وعقله وذكاؤه دون أن يكون لها رصيد حقيقى فى عالم الشعور . . . إذا نظرنا إلى شعر المتنبى بهذا المقياس فسوف نجد أمامنا الكثير من الشعر الذى يدخل فى هذا الإطار بقوة وجدارة .

ويكفى أن نذكر هنا نماذج من قصائده التى لا يستطيع ناقد أن يخرج بها أبداً من مجال التجربة الإنسانية الواسعة إلى مجال التكثير العقل الجاف المحدود . من هذه النماذج قصيدته فى « الحمى » التى

إصابته عند إقامته بمصر ، فالقصيدة كلها تقوم على التأمل والتداعى
النفسى والتعبير عن إحساس عميق بالغربة والألم ، وهذه القصيدة
هى التى يقول فيها :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى المطى ولا أمامى
وملئى الفراش وكان جنبى
يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى سقم فؤادى
كثير حاسدى صعب مرامى
عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام

والقصيدة كلها تضرب على هذا الوتر . . . وتر الإحساس بالحزن
والغربة والألم ، وهى كلها نموذج من الشعر الإنسانى الصادق الذى
لا شك فيه .

والنموذج الثانى من شعر المتنبى الذى نود أن نشير إليه هو قصيدته
المشهورة فى هجاء كافور التى يقول فى مطلعها :
عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وهى قصيدة معروفة لكل دارسى الأدب العربى ، ولا مجال لأن
نقدم منها مقاطع تثبت قيمتها وأهميتها . إنها قصيدة تنبع من إحساس
عميق مجروح وتصدر عن قلب ملتاع حزين ، وهى قصيدة
« ساخنة » تكاد تلسع من يقرأها لشدة ما فيها من حرارة ومرارة .

وهناك قصيدتان صغيرتان للمتنبي أود أن أشير إليهما في هذا المجال . أما القصيدة الأولى فهي أربعة أبيات قالها عندما مر بأرض تسمى باسم « الفرديس » فسمع زئير الأسد أثناء مروره بهذه الأرض ، ومن خلال وحدته وغربته مع زئير الأسود كتب هذه الأبيات الأربعة . وفي هذه الأبيات نبذة إنسانية عميقة ، وإحساس بالوحشة ، وأمل في « محالفة » الأسود على هموم الحياة ، بعد العجز عن « محالفة » البشر ، وفي هذه الأبيات لمحة من لمحات التصوف العميق الذي ينبع من الإحساس بوحدة الإنسان في هذا العالم وضآلة شأنه أمام القوى الموجودة في هذه الدنيا . . . يقول المتنبي في هذه الأبيات :

أجارك يا أسد « الفرديس » مكرم
فتهداً نفسى أم مهان فمسلم
ورائى وقدامى عداة كثيرة
أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفى على ما أريده
فلانى بأسباب المعيشة أعلم
إذاً لأتاك الخير من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنم

يمكننا - ولا شك - بأى مقياس فنى أن نضع هذه الأبيات القليلة في أرقى درجات الشعر الإنسانى ، بما فيها من صدق وحساسية وشعور عميق بالغربة والوحشة في هذا العالم .

أما القصيدة الأخيرة التى أذكرها في هذا المجال للمتنبي فهي قصيدة صغيرة أخرى من عشرة أبيات تكشف عن النبع الإنسانى العميق في قلب

هذا الشاعر الكبير ، وهى أبيات ذات طابع فلسفى ، ولكنها لا تعتمد على تفكير عقل بارد أو فلسفة جامدة ، بل هى تعبير عن قلب إنسانى حزين عرف التجارب الكبرى والهموم الثقيلة ، يقول المتنبى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعناهم من أمره ما عانا
وتولوا بغصة كلهم منه
وإن سر بعضهم أحيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه
ولكن تكدر الإحسانا
وكأننا لم يرض فينا بريب الدهر
حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قنائة
ركب المرء فى القنائة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن
نتعاضد فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا
كالحات ولا يلقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي
لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تكون جيانا
كل ما لم يكن من الصعب فى الأنفس
سهل فيها إذا هو كانا

فالمتنبى إذن يملك من الشاعرية الصادقة والموهبة العالية والتجربة الإنسانية الواسعة ما يجعل منه شاعرا كبيرا بكل المقاييس الفنية والإنسانية . صحيح أن ظروف العصر قد فرضت نفسها على هذا الشاعر الكبير فاضطر إلى أن يعيش حول القصور والأمراء ، يمدح ويرثى ويهجو ؛ مما أخضع هذا الشاعر في جانب من شعره إلى لون من الصنعة الفنية المفتعلة ، تلك الصنعة التي كانت تصدر عن قدرة عقلية لا مجال فيها لنبض القلب أو هزات الشعور ، ولكن المتنبى كان يكسر هذه القيود في جانب كبير من شعره وينطلق إلى التعبير عن القلب الإنسانى في أعظم همومه وأكبرها ، والغريب أن البيت الذى أشار إليه المداوى في رسالته إلى فدوى والذى يقول فيه المتنبى :

أتراها لكثرة العشاق
تحسب السدم خلقة في المآقى ؟

هذا البيت الذى أعجب المداوى يبدو لى بيتا تفوح منه رائحة الذكاء والفكر الجاف والمهارة الفنية والصنعة البلاغية ، أكثر مما تفوح منه رائحة العاطفة والإحساس الحقيقى الصادق ، ولست أدرى كيف رأى فيه المداوى نموذجا من نماذج الشعر الإنسانى الرفيع ، أو شعر الأداء النفسى كما كان يسميه ، وهو فى الحق - نموذج لشعر المهارة والصنعة والقدرة العقلية والصورة الذكية البعيدة كل البعد عن القلب والإحساس ؟ .

ذلك خلاف فى رأى حول المتنبى بين المداوى وبينى ، وقد كان من الضرورى تسجيل هذا الخلاف ؛ لأن رأى المداوى فى المتنبى لم يكن رأيا عابرا وإنما هو أحد آرائه الرئيسية التى عبر عنها فى كتاباته النقدية المختلفة ، وهذا الرأى - كما أشرت - هو جزء من رأيه فى الشعر

العربى القديم كله ، وهو رأى يصدق ولا شك على شعر التقليد الذى
يسيطر على جانب كبير من الشعر العربى ، ولا يصدق على شعر
الشخصية الإنسانية الذى نلتقى به فى كثير من قصائد المتنبى والمعرى
وابن الرومى والشريف الرضى وعدد آخر من شعراء الغزل
والتصوف .

الرسالة السابعة

فدوى العزيزة :

مرة أخرى أين أنت ؟ لقد كتبت إليك منذ شهر على وجه التقريب ، وحتى الآن لم أتلق منك ما يطمئني على أن رسالتى قد وقعت بين يديك . . لقد بعثت بها إليك ردا على رسالتك الأخيرة ، تلك الرسالة التى تلقيت معها قصيدتك « فى سفح عيبال » ترى هل تلقيت رسالتى وهل كتبت إلى ؟ أخشى أن تكون إحدى الرسالتين قد فقدت كما حدث ذلك من قبل وعندئذ أسأل الله أن يجزى مصلحة البريد « خير » الجزاء ، سواء أكانت فى نابلس أم كانت فى القاهرة !!

وأعود فأسال عنك وأقول : كيف حالك ؟ وقد تسألين عن حالى فأقول لك : إننى منذ أسبوعين وأنا مشغول بأمر ديوانك . . قرأت خبرا فى مجلة « الأديب » يحمل بشرى جميلة ، هى أن الديوان قد بات قريب الصدور عن لجنة النشر للجامعيين ، وذلك بفضل جهودى المتواضعة ! قرأت هذا الخبر فأسرعت إلى المطبعة ومعى ديوانك

الحبيب . . وبدأت الطبع ! لقد كنت أريد كما أخبرتك في رسالتي الماضية ، أن أرجىء طبعه بعض الوقت حتى أفرغ من هذا الكتاب الذى بين يدي ، بغية أن يطبع ديوانك وكتابي في يوم واحد ، ويدفع بهما إلى أيدي القراء في يوم واحد ، ولكن . . ولكنك أسرعت بالخبر إلى « الأديب » فلم أجد بدا من أن أسرع بديوانك إلى المطبعة !!

لا يهمنى أن يصدر كتابي في أى وقت ، بقدر ما يهمنى أن يصدر ديوانك في وقت قريب . . حسبي أن تكوني أنت راضية ، وأن أكون عند حسن ظنك وظن الذين طالعوا الخبر على صفحات « الأديب » !

ولقد أشرت يا فدوى إلى جهودى المتواضعة ، ولكم كنت أرجو أن ينشر الخبر وهو خال من تلك الإشارة لأننى - أقسم لك - لا أشعر أبدا بأن لى جهودا تستحق أن يشار إليها حين تذكر الجهود !!

أمامى الآن وأنا أكتب « الملزمة » الرابعة من الديوان وقد فرغت من مراجعتها وتصحيحها منذ دقائق . . إننى لا أكتفى بمراجعة المصححين في المطبعة حرصا على تجنب ما قد يغفلون عنه من أخطاء مطبعية ، ولقد تحيرت الورق الذى سيطبع عليه الديوان بنفسى ، وأشرفت وما أزال أشرف على إخراجه الفنى من جميع نواحيه ، حتى يظهر في ثوب جميل يرضى عشاق الطباعة الأنيقة . . وتستطيعين أن تتصلى بالأستاذ ألبير أديب ، لينشر لك إعلانا في العدد القادم من مجلته يشير فيه إلى صدور الديوان ! إن أماننا شهرا واحدا ليكون ديوانك بين أيدي القراء ، فإذا ظهر العدد الشهرى من « الأديب » في أول يونيه القادم وهو يحمل الإعلان المنشود ، وافق موعد ظهوره موعد ظهور الديوان حيث أكون أنا في نفس الوقت قد نشرت لك إعلانا مماثلا على صفحات « الرسالة » . . ما رأيك في هذا الاقتراح ؟

وسنرسل اليك مائة نسخة على عنوانك بنابلس لتهدى منها إلى من تشائين من الأدباء والأصدقاء . . ترى هل يكفي هذا العدد من الإهداءات أم نرسل إليك كمية أخرى من النسخ ؟ أنا في انتظار رأيك !

ومرة أخرى أعود فأسأل : هل أرسل إليك صديقي إبراهيم نجا أشياءك التي وعدني بإرسالها كما قلت لك في رسالتي الماضية ؟ أرجو أن يكون قد فعل ، وإلا اضطررت إلى السفر إليه لأخذها منه بنفسى وأوافيك بها في الغد القريب !

مهما يكن من شيء فستصلك هذه الأشياء يا فدوى لأن إبراهيم لا يعصى لي أمرا وأنا أعنى ما أقول !

ماذا تصنعين الآن ؟ هل تكتبين قصيدة جديدة ؟ إن قصيدتك الأخيرة التي بعثت بها إلى والتي نشرت في الأديب قد ضمت إلى شعر الديوان . . ولا تنسى أن اسم الديوان هو « وحدي مع الأيام » ، ولا تنسى أيضا أن تهدى نسخة منه إلى سعيد تقى الدين !! أما هذا الكتاب الذي بين يدي : « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » فقد أوشكت أن أنتهى منه . . لقد أرهقنى هذا الكتاب يا فدوى ، أرهقنى حتى لأشعر أنني بذلت فيه من الجهد ما يبذله غيرى في عشرة كتب . . إن الناس هنا لا يذكرون في أدب التراجم غير كتابين : « ابن الرومى » للعقاد ، و« جبران » لميخائيل نعيمة ، لقد قررت بيني وبين نفسى أن أقنع الناس بأن هناك كتابا واحدا يجب أن يذكروه لأن فيه فصلا واحدا يتخرج من التطلع إليه هذا الكتاب الذى ألفه نعيمة أو ذلك الكتاب الذى ألفه العقاد . . وسأنشر هذا الفصل في الرسالة قبل صدور الكتاب ، وستحكمين ويحكم القراء !!

ومعذرة إذا اختصرت الحديث لأن المطبعة في انتظاري ومعها
بعض الصفحات الجديدة التي تم طبعها من الديوان . . لكم كنت
أود أن تكونى معى وأنا ذاهب إلى هناك ، لأطمئن إلى أنك راضية عن
هذا الجهد الضئيل . . الجهد الذى يسعدنى أن أبذله فى سبيل الفن
الجميل .

ودمت للذى يذكرك ويقدرك

٢٦ / ٤ / ١٩٥٢

أنور المعداوى

تعليق على الرسالة السابعة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « فدوى » : فى « سفح عيال » ، وقد نشرت هذه القصيدة فى ديوان « .. وحلى مع الأيام » وهو ديوان فدوى الأول الذى أشرف المعداوى على إصداره ، وتقول فدوى فى مطلع هذه القصيدة :

ها أنا وحلى فى ثنايا الجبل
كأننى أسطورة تائهة
تهمسها الريح بأذن السفوح
وأنت فى قلبى وعينى روح
يومىء لى نحو غد أخضر
ينفخ الشذا فى دربه المزهر

وتقول فدوى فى مقطع آخر من القصيدة :

وتعترينى نفضة من شعور
بغبطة تملأ أحناييه

كأنها لحن مضىء النغم
فأثنى أحفر فوق الصخور
اسمك في نشوة إحساسيه
وأشبع الأحرف لثما وشم
والفرح الكبير يا حبيبى
تهدر موسيقاه في قلبى

ترى هل يكون في هذه القصيدة شيء من التلميح بميلاد عاطفة جديدة في قلب فدوى نحو المعداوى ؟ لقد كتبت فدوى تلك القصيدة على أثر الرسائل الأولى التي تلقتها من المعداوى ، وهى - كما رأينا - رسائل مليئة بالحماس لها ولفنها كما أنها مليئة بنوع من اللهفة والحنان على فدوى ، وهى مشاعر من النوع الذى يمكن أن يؤثر في فدوى ويفتح أبواب قلبها لعاطفة الحب المثالى الرومانسى الذى تعودت عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة لفدوى ، فقد أحبت المعداوى هذا النوع من الحب بعد ما قدمه إليها من عواطف الاهتمام والحنان والرعاية ، ولكن السؤال هنا هو : هل كانت قصيدة « فى سفح عيىال » هى بداية هذا الحب ؟ . . . ربما كانت القصيدة بما فيها من نبض التفاؤل والأمل ، وهو ما لم نتعبه فى شعر فدوى ، حيث الحزن والأسى والشجن ، هذه القصيدة يمكن أن تكون حقا تعبيراً عن فرحتها بعلاقتها الجديدة مع المعداوى ، تلك العلاقة التى حاول المعداوى فيها منذ البداية أن يكون فارساً مخلصاً متحمساً فياض الشعور نحو فدوى بالود والحنان والاهتمام العميق . ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأن هذه القصيدة كانت هى البداية من جانب فدوى ، والمعداوى نفسه لم يلتفت إلى شيء من هذا المعنى فى القصيدة ولو بالتلميح فى رسالته . وربما كانت القصيدة صدى لعاطفة

قديمة ما تزال بقاياها تعيش في نفس فدوى ، خاصة أن في القصيدة مقطعا يشير إلى إنسان معين مر يوما بسفح جبل « عيبال » في فلسطين . . . ولعل هذا « الإنسان » هو الشاعر المصري الذي عرفته فدوى خلال حرب فلسطين ونشأت بينهما علاقة عاطفية مثالية رومانسية على طريقة فدوى . والمقطع الذي يمكن أن يشير إلى هذا الشاعر هو المقطع الذي تقول فيه فدوى :

وأرسل « الأوف » غناء حنون
يسيل من روى وأوصالى
فتتشى بالأوف حتى السفوح
لحن هوى ، مرتعش بالحنين
سمعته يوما « بعيبال »
إذ أنت في السفح غريب الجروح

فالبيت الذي تقول فيه فدوى عن إنسانها المحبوب :

« . . إذ أنت في السفح غريب الجروح » ، هذا البيت يشير إلى إنسان معين مر « بسفح عيبال » في فلسطين ، ومن المعروف أن الشاعر المصري الذي أحب فدوى وأحبته قد مر ببعض مناطق فلسطين أثناء حرب ١٩٤٨ ، وأنه قد أصيب في هذه الحرب ببعض الجروح ، وهكذا فقد تكون هذه القصيدة من وحي الشاعر المصري الذي اشترك في حرب فلسطين ، وقد يكون هذا المقطع صادرا عن خيال الشاعرة ولا أساس له من الواقع ، وتكون القصيدة في هذه الحالة تعبيرا عن نبضة الفرح والأمل في قلب فدوى طوقان من وحي البداية في علاقتها بالمعداوى .

يشير المعداوى فى رسالته بعد ذلك الى الإعلان الذى كان ينوى نشره فى مجلة « الرسالة » عن ديوان فدوى الأول ، وقد ظهر هذا الإعلان بالفعل ، وهو إعلان طريف ، ومن هنا حرصت على الإشارة إليه ، فالمعداوى قد اعتبر فدوى - منذ أن بدأت بينهما العلاقة عن طريق الرسائل - شاعرة من شعراء « الأداء النفسى » ، والأداء النفسى - كما سبق أن أشرنا - هو المنهج الذى اختاره المعداوى لنفسه فى النقد وسماه بهذا الاسم فى مقابل « الأداء اللفظى » الذى يرفضه ويستنكره ، ولذلك اختار المعداوى صيغة معينة للإعلان عن ديوان فدوى ، ونشر هذا الإعلان فعلا فى العدد ٩٩٢ من مجلة « الرسالة » وهو العدد الصادر فى ٧ يوليو سنة ١٩٥٢ وهذا هو نص الإعلان الطريف :

« لجنة النشر للجامعيين تقدم ، فى ثوب أنيق وطباعة ممتازة ، ديوانا من شعر الأداء النفسى ، وحلى مع الأيام ، للشاعرة المبدعة فدوى طوقان » .

وهكذا حرص المعداوى على أن يربط بينه وبين فدوى برباط على وثيق ألمم الرأى العلم الأدبى حين أشار فى الإعلان إلى أن « . . وحلى مع الأيام » هو « ديوان من شعر الأداء النفسى » ، ذلك المنهج النقدى الذى يدعو إليه المعداوى ، ويعتبره نظرية ومذهباً فى النقد الأدبى .

ويتساءل أنور المعداوى بعد ذلك فى رسالته إلى فدوى عما إذا كان الشاعر « إبراهيم نجا » قد رد إلى فدوى رسائلها إليه . وما أعلمه حول هذا الموضوع أن إبراهيم نجا قد رد رسائل فدوى إليها ، وحين أطلعنى على هذه الرسائل سنة ١٩٦٢ كان قد نقلها فى كراسة صغيرة ، وهذه الكراسة هى التى قرأت فيها الرسائل التى كتبها

فدوى إلى ابراهيم وهى الرسائل التى أشرت إليها فى الصفحات السابقة .

أما حديث المعداوى عن كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » فقد شاء القدر أن يلعب دورا غريبا بالنسبة لهذا الكتاب ، ذلك أن مجلة « الرسالة » قد أغلقت أبوابها فى أول عام ١٩٥٣ ، فلم ينشر المعداوى الفصل الذى أشار إليه فى رسالته إلى فدوى حيث يقول :

« إن الناس هنا لا يذكرون فى أدب التراجم غير كتابين . . « ابن الرومى » للعقاد ، و « جبران » لميخائيل نعيمة ، ولقد قررت بينى وبين نفسى أن أقنع الناس بأن هناك كتابا واحدا يجب أن يذكروه ، لأن فيه فصلا واحدا يتخرج من التطلع إليه هذا الكتاب الذى ألفه نعيمة أو ذلك الكتاب الذى ألفه العقاد . . وسأنشر هذا الفصل فى « الرسالة » قبيل صدور الكتاب ، وستحكمين ويحكم القراء !! » .

إن هذا الفصل الذى أشار إليه المعداوى لم ينشر فى الرسالة ؛ لأن الرسالة أغلقت أبوابها قبل أن يكتب المعداوى هذا الفصل ، وقبل أن يظهر كتابه عن « على محمود طه » . ويبدو لى أن الفصل الذى يشير إليه المعداوى باعتزاز هو فصل « المرأة عند على طه » وكان المعداوى فخورا بهذا الفصل أشد الفخر ، وقد نشره - فيما أذكر - فى مجلة « الآداب » البيروتية التى صدرت سنة ١٩٥٣ بعد إغلاق مجلة « الرسالة » بقليل .

أما الكتاب نفسه ، كتاب « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » ، فيشاء القدر ألا يظهر إلا بعد كتابة هذه الرسالة بثلاث عشرة سنة ، أى حوالى سنة ١٩٦٥ ، ذلك أن أزمة المعداوى الأدبية

والنفسية والصحية قد بدأت في أوائل ١٩٥٣ ، أى بعد كتابة هذه الرسالة إلى فدوى بشهور ، ثم استمرت وتضاعفت حتى قضت عليه سنة ١٩٦٥ ، وقد صدر كتاب المداوى عن « على طه » - كما أشرت من قبل - في بغداد وقبل وفاة المداوى بشهور ، وكان عنوانه الذى صدر به هو « على محمود طه الشاعر والإنسان » ، ولم يقدر لهذا الكتاب أن يحتل المكانة الأدبية التى كان المداوى يحلم بها ويتنظرها ويتمناها ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الكتاب لم يحظ بأى اهتمام فى الحياة الأدبية العربية ، وإذا كان المداوى قد بالغ فى تقدير كتابه فى هذه الرسالة التى كتبها إلى فدوى ، فالحقيقة أيضا أن هذا الكتاب يستحق من الاهتمام أكثر مما لقى بكثير ، ولعل المصير الذى لقيه هذا الكتاب يعود - فى جانب من جوانبه - إلى أن الحياة الأدبية العربية قد انصرفت فى الخمسينات والستينات عن الاهتمام بعلى محمود طه نفسه وبسائر الشعراء الرومانسيين ، وإن كانت حياتنا الأدبية قد عادت فى السبعينات إلى الاهتمام بهؤلاء الشعراء . أما أن كتاب المداوى - كما يقول هو نفسه - كان أفضل كتاب فى أدب التراجم عرفته المكتبة العربية الحديثة ، وأن فصلا واحدا فيه سوف يجعل القراء والأدباء يتوقفون عنده ولا يشيرون إلى كتاب سواه ، فذلك كله كان من أوهم « الغرور الأبيض » الذى كان فى شخصية المداوى علامة واضحة ، وهو نوع من الغرور كان يزداد وضوحا فى شخصية المداوى عندما كان يتحدث إلى أحد محبيه ؛ لأنه كان يحس أن محبيه لا ينكرون عليه هذا الغرور ولا يضيقون به ، لأنهم معجبون بأدبه مصدقون لما يقول ، وقد كان أنور يتحدث إلى فدوى بهذه الوضوح ، فهو يدرك أن فدوى معجبة به ؛ ولذلك لم يتحرج من أن يستعرض أمامها « غروره الأبيض » على نطاق واسع ، فهو لم يكن يفكر لحظة فى أن هذه الرسائل سوف تنشر على الناس .

ولكن ما تمناه أنور لنفسه ، وما تمناه له محبوه لم يتحقق ، فقد كان كتاب « على محمود طه » دراسة أدبية ممتازة ، تتسم بالجهد والذكاء والذوق المرفه ، ولكنها لم تلفت الانتباه عندما نشرت سنة ١٩٦٥ ؛ وذلك لأن مناهج النقد الأدبي كان قد طرأ عليها تغيير ، كما أن الأخواق الأدبية كانت قد اختلفت عما كان عليه الأمر عند تأليف هذا الكتاب ، فلقد ألف المعداوى كتابه فى أوائل الخمسينات ، وكانت هذه الفترة هى الوهج الأخير « للرومانسية » ؛ ولذلك كان الكتاب فى هذا الجو مقبولا ومحبويا ومنظورا إليه كعمل فريد عندما كان المعداوى ينشره فى مقالات مسلسلة فى مجلة « الرسالة » ، ولكن موجة أدبية جديدة كانت قد ظهرت وجرفت الكثير مما كان أمامها فى الأدب والنقد ، هذه الموجة هى الموجة الواقعية ، كما أن حركة الشعر الجديد كانت قد ولدت وازدهرت واحتلت مكانا بارزا فى الحياة الأدبية ، وعندما ظهر كتاب المعداوى بعد ثلاث عشرة سنة من كتابته لم يعد له طريقه القديم ، وظل كتاب « ابن الرومى » للعقاد و« جبران » لميخائيل نعيمة أهم من كتاب المعداوى ، وإن بقى لنا فى كتاب المعداوى ما ينبغى أن نذكره ، ففى الكتاب أسلوب جميل وذوق مرفه وحساس أدبي كبير لشاعر المعداوى المفضل : على محمود طه .

الرسالة الثامنة

فدوى العزيزة :

عدت من المطبعة منذ لحظات فوجدت رسالتك الحبيبة في انتظاري . . أتدريين لماذا ذهبت إلى المطبعة ؟ لقد كانت هناك مشكلة بسبب الديوان ، مشكلة فنية لم أكن أتوقعها وإن كنت قد وجدت لها الحل المنشود . . خلاصة المشكلة يا عزيزتي هي أنني كما سبق أن قلت لك قد دفعت إلى لجنة النشر بالقسم الأول من الديوان وهو القسم الخاص بالشعر العاطفي أو الوجداني ، رغبة مني في المحافظة على الوحدة النفسية والفنية ، هذه الوحدة التي يشير إليها هذا العنوان « وحدي مع الأيام » ، فعلت هذا وكنت أقدر أن تلك المجموعة الشعرية ستشغل مائة وخمسين صفحة هي الحجم المناسب لديوان من الشعر . . وحين اتصلت بـ اللجنة لتقول لي إن آخر ملزمة من الديوان قد تم طبعها علمت أن عدد الصفحات لم يتجاوز العاشرة بعد المائة ! عندئذ لم أجد بدا من الذهاب إلى المطبعة لأطلع على الأمر بنفسى ولأدفع الشك باليقين . . خيل إلى أن بعض القصائد فقدت أثناء الطبع ولكن الواقع قد قضى على الخيال !

ماذا أفعل أمام هذه المشكلة ؟ لابد أن يخرج الديوان في مائة وخمسين صفحة كما قدرت له . . واذن فلا مناص من أن استنجد ببعض القصائد من القسم الأخير وهو شعر المناسبات ، ومن أن أعود إلى بيتي لأتخير تلك القصائد التي يكتمل بها عدد من الصفحات ، وقد فعلت . . ضمنت إلى شعر الديوان : « يتيم وأم » و « على القبر » و « رقية » و « الروض المستباح » و « اليقظة » و « بعد الكارثة » و « مع لاجئة في العيد » . . وهي القصيدة التي أعزها لأنها كانت واسطة التقارب بين روحين !

انتهت المشكلة بهذا الحل الذي لم يكن منه - كما قلت لك - مناص لأنني كنت أوتر أن تظهر هذه القصائد الأخيرة في ديوان آخر ، وأن يقتصر الديوان الأول على مثل هذا اللون من الشعر الوجداني الخالص !

بعد هذا أعود إلى رسالتك الأخيرة ، تلك الرسالة التي طمأننتني على أن رسالتي الماضية قد وقعت بين يديك . . أتظنين يا فدوى أنني لم أكن أعلم تلك القصة الأخرى التي بدأت بها رسالتك ؟ انني أعرف عنها الكثير ! وعلى الرغم من هذا الكثير الذي أعلمه فقد قلت لك يوماً إن صورتك عندي لن تنال من بهائها الأيام . . إنها لا تزال في الإطار الذي ضمها والذي أكرر القول بأنني سأضن به على كثير من صور الناس ! لا داعي إذن للخوف ولا مبرر للإشفاق ، لأنني أقدر كل التقدير طبيعتك النفسية وأدرك كل الإدراك أي جو هذا الذي تعيشين فيه . . قولي كل ما عندك سواء كنت أعلمه أم لا أعلمه ، ولا تشكى لحظة في أنه سيحل ضيفاً عزيزاً مكرماً على القلب والشعور ! ألسنت أنا الذي دعوتك إلى أن تنفضي بين يدي آلامك

وأحزانك عسى أن أخفف من بعض هذه الآلام والأحزان بكلمة قد تحمل إليك شيئاً من الشفاء أو شيئاً من العزاء ؟ !

ولقد استجبت لى ووئقت بى ورفعت عن نفسك قناع التهيب والتحرج ، وقلت لى كل ما يمكن أن يقال ، وحسبك هذا لتكون فى رؤية العين والقلب تلك الإنسانية التى أحفظ لها بأطيب الذكريات .

لقد تحدثت إلى عن ذلك الشاعر الآخر ثم سألتنى إن كنت أعرفه ، وكيف لا أعرفه يا فدوى وهو واحد من الذين يزدحم بهم بيتى ومكتبى فى كل حين ؟ ! إننى أعرفه أكثر مما يعرف نفسه ، وأكثر مما تعرفينه أنت على التحقيق . . ألا تذكرين أنك أشرت إليه مرة فى إحدى رسائلك ، وأننى قد آثرت أن تمر تلك الإشارة دون أن أعقب عليها بكلمة واحدة ؟ الحق إننى أشفقت عليك من التعقيب ، لأننى فى مثل هذه المواقف أؤثر الصمت حين يكون الكلام غير مرغوب فيه . . لقد ورد ذكر اسمه فى تلك الرسالة من رسائلك بعد أن ظهرت له قصيدة على صفحات « الرسالة » ، أليس كذلك يا فدوى ؟ ألا فاعلمى أن نشر تلك القصيدة كاد أن يفسد العلاقة بينى وبين الزيات من صلات الود والصدقة . . لا يريد الزيات أن ينشر له شيئاً وأريد أنا أن أنشر له ، ويصر الزيات على رأيه وأصر أنا على رأى ، وكلما دفعت بإحدى قصائده إلى المطبعة رفعها الزيات فى اللحظة الأخيرة ، حتى جاء يوم سافر فيه إلى المنصورة ، فانتهزت الفرصة ونشرت القصيدة التى قرأتها فى يوم من الأيام ، نشرتها دون علمه فثار على وثر عليه ، وكانت نقطة الخلاف بيننا تنحصر فى أنه ينظر إلى « من » قال وأننى أنظر إلى « ما » قال ، أى أنه ينظر إلى شخصية هذا الشاعر بينما أنظر أنا إلى شعره . . ولا تلومى الزيات يا فدوى ، لأن كل أصحاب الصحف

هنا يلقون صاحبنا مثل هذا اللقاء ، لأنهم يزنون شخصيته قبل أن
يزنوا شعره ، ومن هنا أوصدت في وجه هذا الشاعر شتى الأبواب !

ولقد نشرت « الرسالة » قصيدة أخرى لشاعر آخر بين اسمه واسم
صاحبنا شبه قريب ، فحضر هذا الشاعر إلى يوما ومعه كلمة « للبريد
الأدبي » يعلن فيها أنه ليس ذلك الشاعر الآخر حتى يفتن إلى ذلك
القراء ، وأخذت منه الكلمة وبعثت بها إلى الزيات رجاء النشر ،
ومع ذلك لم ينشرها الزيات . . إن الزيات يلومني على عطفى عليه
ويشاركه في هذا اللوم كثير من أصدقائي ، ولكنهم ينسون أنني
لا أستطيع أن أجرد نفسى من الشعور بالإنسانية ! يقولون إنه ضحل
الثقافة وهذا حق ، ويقولون إنه لا يحمل شيئا من المؤهلات العلمية
وهذا حق ، ويقولون إن قواه العقلية لا تخلو من الاهتزاز وهذا حق
أيضا ، ولعل هذا الجانب الأخير هو سر عطفى عليه وسر نفورهم
منه . . ولكنه رغم هذا كله شاعر يرضينى شعره في كثير من
الأحيان ، ولهذا أشعر شعورا عميقا أنه مظلوم وبخاصة حين يلجأ إلى
ليشكو الحياة والناس !

أشهد أنني لم أضق به إلا في موقف واحد ومع ذلك فلم أغلق في
وجهه بابى كما فعل غيرى من الذين يعرفونه . . جاء إلى يوما ليأخذ
رأى في مسألة تتعلق بحياته ، وهى أنه يريد أن يختار لنفسه شريكة
حياة ، فما كان منى إلا أن باركت منه هذا الاتجاه ليستقر في حياته
المضطربة ويستريح ، وبخاصة حين ذكر اسم العائلة . . صحيح أنها
ليست على شىء من الثراء ولكنها على شىء كثير من الخلق وحسن
السمعة ، ولهذا باركت منه هذا الاتجاه ورجوت له الخير في حياة
جديدة !

ومضى صاحبنا إلى غايته واتفق مع أهل الفتاة ، وأصبحت الفتاة خطيبته أمام الله والناس . . وفجأة ، وبلا سبب ، وبلا منطق ، وبلا مقدمات ، ترك صاحبنا العائلة الأولى والفتاة الأولى إلى عائلة أخرى وفتاة أخرى أصبحت اليوم زوجته الأثيرة ! هل كانت فتاة اليوم خيرا من فتاة أمس ؟ كلا ! لم تكن خيرا منها بحال من الأحوال ، لا من الناحية المادية ولا من الناحية المعنوية ، وإن كانت أقدر منها على إغوائه واللعب بعقله الذى لا يفترق فى بعض الأحيان عن عقول الأطفال !!

ترى هل تعرفين عنه كل هذه الحقائق يا فدوى أم أنك تسمعين بها لأول مرة ؟ لقد اشتراك يوما فى حرب فلسطين وجرح هناك ، وأغلب الظن أن ما شهدته من معارك قد أثر بعض التأثير فى قواه العقلية !!

هذه هى بعض الحقائق التى أخفيت عنها أنك أشرت إليه فى إحدى رسائلك . . ومع ذلك فأنا أحب أن أسمع منك القصة مصحوبة برأيك اليوم فى صاحبها بعد أن كان لك فيه رأى بالأمس ، وأقسم ما دفعنى إلى الكشف عن هذه الحقائق إلا قولك بأن القصة لا تزال لها فى حياتك بقية .

وأترك هذا كله لأقول لك إن إبراهيم كان عندى منذ يومين حيث حضر ليتسلم قيمة الجائزة التى ظفر بها فى مسابقة المجمع ، وليترك لى المائة والخمسين جنيها لأنفقها على طبع ديوانه « حياق ظلال » . . وقبل أن أقص عليك قصة فوزه بالجائزة الأولى لتضحكى ما شاء لك الضحك ، قبل هذا أود أن أقول لك إنه أخبرنى بأنه قد أرسل إليك أشياء منذ أمد قريب ، ثم شفع هذا الخبر بهذا القسم : وهو أنه ما خضع وأذعن إلا لأننى قد أمرته ، وأنه ما كان ليعرف أمام غيرى معنى الخضوع والإذعان !

لقد ضحكت لهذا القسم ، ثم أغرقت في الضحك وأنا أقدم إليه « ملزمة » من ديوانك ، وأمره مرة أخرى بأن يقوم بمراجعة « البروفات » ، ولقد فعل والله يا فدوى ، ولكنه في هذا الموقف لم يكن مرغما كما كان من قبل ، بل أقدم على المراجعة عن طيب خاطر واعدا بتدريس شعرك لتلميذاته في مدرسة الفنون الطرزية بعد أن يظهر الديوان ، وفي هذا ما يطلعك على أنه إنسان طيب القلب إلى حد بعيد . . .

وتسأليني هل سأكتب له المقدمة ؟ بالطبع سأكتبها يا فدوى . . .
 إننى أحب إبراهيم وأحب شعره ، وقد بذلت غاية جهدى ليفوز ديوانه بالجائزة الأولى ، وإنه ليستحقها كما تعلمين . . . كيف كان ذلك ؟ هذه هى القصة :

قلت لك مرة إن دور النشر هنا مضربة عن طبع الدواوين الشعرية إلا إذا كانت على نفقة أصحابها ولو كان أصحابها من طراز فيكتور هيجو وفولير . . . ومن هنا لا يعلم إنسان مثلاً أن ديوانك قد طبع على نفقة لجنة النشر وإلا كان ذلك سابقة خطيرة يشيب لها الولدان !

إن اللجنة ترد على كل من يسألها - وما أكثر المتسائلين - بأن ديوانك مطبوع على نفقتك الخاصة . . . خوفاً من خروج الشعراء في مظاهرات شعبية صاحبة يهتفون فيها ضد هذا الاستثناء ، وبخاصة في هذا الوقت الذى قضت فيه الوزارة المصرية الحاضرة على الاستثناءات . . .
 وفى ضوء هذه الحقيقة المرة جاءنى إبراهيم يوماً لأبحث له عن وسيلة يستطيع أن يطبع بها ديوانه ، وفكرت طويلاً ثم قلت : تقدم بشعرك لمسابقة المجمع وأنا كفيل بأن تظفر بالجائزة الأولى ، فإذا ما ظفرت بها فقد استقرت فى جيبيك مائة وخمسون جنيهاً كافية لطبع الديوان . . .

وارتسمت علامات اليأس وخيبة الأمل على وجهه وهو يقول : إن المجمع لا يمنح جوائزه إلا للشعر السخيف ، وهذا بشهادتك أنت ، فكيف تنتظر من تلك الأذواق الفاسدة أن تمنح شعري جائزة ؟ وهنا قلت له وأنا أعنى ما أقول : اسمع يا هذا . . إن الذى سيحكم على الشعر فى مسابقة هذا العام هو الأستاذ العقاد ، أتفهمنى ؟ عليك أن تنظم ثلاث قصائد فى كل قصيدة « فكرة منظومة » ، وإياك أن تسمح لشعورك بأن يطل برأسه من خلال هذه القصائد . . أعنى أنه يجب أن تفكر ولا تشعر . . ثم ضع هذه القصائد الثلاث فى أول الديوان ، سيقراً العقاد القصيدة الأولى وبها سيعجب ، وسيقرأ العقاد القصيدة الثانية ولها سيطرب ، وسيقرأ الثالثة وعندئذ يبلغ الطرب مداه والإعجاب منتهاه . . وبعد ذلك لن يقرأ شيئاً بإذن الله ، لأنه سيظن أن البضاعة كلها من هذا الطراز !

ونفذ إبراهيم ما أشرت عليه به . . وأقبل اليوم الموعود وذهبنا معا إلى المجمع . . وعندما أعلن العقاد فوز إبراهيم بالجائزة الأولى كدت أطلق ضحكة رنانة تهتز لوقعها الجدران . . وهكذا يا فدوى ضمنت له نفقات طبع الديوان .

وأعود مرة ثانية أو ثالثة إلى بعض ما جاء برسالتك لأقول : إننى أشكر الظروف التى دفعت الأستاذ الناعورى إلى إرسال الخبر لمجلة « الأديب » لأن ذلك قد عجل بطبع الديوان . . ولا عليك من ناحية كتابى لأننى قد انتهيت منه والحمد لله ، كل ما يشغلنى الآن هو هذا الحرج الذى يسببه لى أن لجنة النشر تريد أن تطبعه وأن دار المعارف تريد أن تطبعه ، وما أشبهنى بزواج الاثنتين : إذا رضيت هذه غضبت تلك ، ولكننى سأضطر إلى طبعه عند لجنة النشر لأنها لم تتأخر عن

الاستجابة لرغبتى بخصوص طبع ديوانك ، وهذا موقف لا أستطيع أن أنساه .

ولقد رغبت إلى يا فدوى فى أن أحدثك عن ناهد رحمها الله . .
إنها يا فدوى قصة طويلة معقدة التفاصيل ، قصة أود أن أكتبها قريبا
فى « الرسالة » مع تغيير طفيف فى نهايتها حتى لا يكتشف القراء حقيقة
البطلة التى استشهدت فى سبيل واقع نفسى يختلف عن الواقع الذى
ألفه الناس . . أريد أن أكتبها لأنها كانت تمثل جزءا من حياتى ظل
حتى اليوم وهوبقية من ماض مجهول . مهما يكن من شىء فسأحدثك
عن مأساتها النفسية فى رسالة مقبلة ، وأما الحديث عن مكانى من
القصة فسأرجئه إلى أن تقرأها كاملة فى يوم من الأيام .

هل قرأت العدد الماضى من مجلة « الأديب » ؟ هل وقفت عند تلك
الإشارة العابرة التى خصنى بها الأستاذ أبير ؟ تلك الإشارة التى قال
فيها إن أحد الناشئين العراقيين أرسل إليه بعض القصص التافهة فلم
ينشرها فلجأ إلى أحد الكتاب المصريين المحترمين فى القاهرة فشنها
هذا علينا حربا لا هوادة فيها فى مجلة الرسالة اتهمنا فيها بأننا لا ننشر فى
الأديب إلا للذين يدفعون . . لست أدري يا فدوى ما الذى جعله
يعود إلى هذا الموضوع الذى حدثتك عنه فى رسالة سابقة ؟ هل أنا
حقا شنت عليه حربا لا هوادة فيها كما يقول ، أم وقفت موقف
القاضى العادل الذى ترك حرية الكلام لكل من الطرفين
المتخاصمين ، ثم لم يحاول أن يصدر حكما وإنما ترك هذا الحكم
للقراء ؟ ترى هل يظن أديب أن قلمى قد صمت فانتهزها فرصة
ليتكلم ؟ هل يريد هذا الرجل أن أقول إنه لولا كلمة منى لما طبع كتابه
فى دار المعارف ولما قدر له أن يرى النور ؟ هل يريد أن أقول له إن
المشرفين على تلك الدار لم يطبعوا كتابه إلا ونصب أعينهم عامل واحد

هو الشفقة على حالته المادية ، أما رأيهم في الكتاب وفي صاحبه
فمعروف ؟ صدقيني يا فدوى لقد كنت على وشك أن أتناول قلمي
لأرد عليه في الرسالة لولا أنني رأيت أن في ذلك إحراجا لبعض
الناس ، وأقصد بهم المشرفين على تلك الدار .

وعلى ذكر ذلك العدد من مجلة الأديب هل قرأت ذلك المقال الذي
كتبته نازك الملائكة ؟ لقد قرأته هنا في البيت وكان معي الشاعر محمود
حسن إسماعيل . . إن نازك معجبة بشعر محمود كل الإعجاب ،
ولا تفتأ تبدي إعجابها بهذا الشعر في شتى المناسبات ، وتبعا لهذا دار
بيني وبينه عنها حديث طويل ، حديث اضطر في نهايته إلى أن يخضع
لوجهة نظر النقد وهي أن نازك الملائكة لا يمكن أن تقارن بفدوى
طوقان . . كان أمامي في تلك اللحظة ديوانها « شظايا ورماد » وهو
لا يزال أمامي وأنا أكتب إليك هذه السطور ، وكان أمامي في تلك
اللحظة أيضا بعض الملازم التي أراجعها من ديوانك ، وقلت لمحمود
وأنا أنخير بعض القصائد من شعرها وشعرك : تعال يا حضرة الشاعر
لنقارن بين شعر وشعر !! . ما هو الميزان الذي تريد أن تزن به ؟
فقال على الفور : الأداء النفسى طبعاً ، وهنا بدأت عملية التطبيق .
وانتهت العملية بأن آمن محمود إيماناً صادقا بأن نازك لا يمكن أن تقارن
بفدوى . . وحين قال إن قصيدتك « إلى صورة » ، تعادل في قيمتها
الفنية كل ما حواه « شظايا ورماد » من شعر ، نظرت إليه مبتسماً وأنا
أقول : الآن فقط عرفت إنك تتذوق الشعر الممتاز . وحين هم محمود
بأن يعترض على هذه الدعابة الخبيثة قلت له : طبعاً يا أخى . .
لأنك كنت بالأمس تتذوق مثل هذا الشعر الذى تقول فيه نازك :

ومضى عامان « ممطوطان » مرا في شحوب
كان عمرى خربة يصبغها لون الغروب

أتعجبك كلمة « ممطوطان » هذه حين ترد في النثر ولا أقول في الشعر ؟ أشهد لو وردت مثل هذه الكلمة في شعر فدوى لسخطت عليها إلى يوم يبعثون ! ثم هل تعجبك مرة أخرى « قعر روحى » عندما تقول :

وأحسست في قعر روحى جنونا
وشوقا عميقا كبحر عميق

أقسم لو نطقت فدوى بـ « قعر روحى » هذه لهبطت شاعريتها في رأيى إلى مستوى شاعرية الدكتور زكى أبو شادى عليه رحمة الله . . . زكى أبو شادى الذى يقول في وصف البحر :

يتكسر الموج المشعشع فوقه
كتكسر البيض الكبير الحجم !

معذرة يا فدوى فقد انتهى السطر قبل أن أضع عشرين ألف علامة من علامات التعجب والتهكم وما شئت من مترادفات . . لقد كان بعض الخلفاء يهتف إذا سمع بيتا جميلا من الشعر وهو يشير إلى الشاعر : احشوا فمه جوهر . ترى لو قدر للدكتور أبو شادى أن يعيش في عصر أولئك الخلفاء ونطق أمام أحدهم بهذا البيت ، فبأى شيء يا فدوى كان سيحشى فمه ؟ أنا فى انتظار جوابك فى الرسالة القادمة وآمل أن أسمع هذا الجواب .

أما صبورق المتواضعة التى كرمتها كل هذا التكريم فلست أدرى كيف أشكر لك هذا الشعور النبيل ، وأما إحساسك نحوى ، هذا الإحساس الذى تحارين فى تشخيصه كما تقولين فأود أن أخرجك من هذه الحيرة بأن أقول إنه إحساس الأخوة ، وإحساس الأخت العزيزة

نحو أخ يود من أعماق قلبه أن يملأ بعض الفراغ الذى تركه أخوك وأخى . . إبراهيم طوقان .

وبقى قولك انك لا تحتاجين من نسخ الديوان إلا خمسين نسخة ، وتريدين مع ذلك أن تدفعى ثمنها للجنة النشر للجامعيين . . ما أظرفك يا فدوى . أتعلمين أن اللجنة قد قررت أن ترسل إليك ما شئت من النسخ كهدية بلا مقابل ، تقديرا وتحية ؟ أما هديتى لك فهو جهد متواضع بذلته فى إخراج الديوان حتى غدا وهو تحفة فنية . . والهدية الثانية جهد آخر متواضع يوم أن أكتب عنه على صفحات « الرسالة » . ودمت لمن سيظل دائما يذكرك .

أنور المعداوى

التعليق الأول على الرسالة الثامنة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى « الشاعر الآخر » فى حياة فدوى طوقان ، أما الشاعر الأول ، فقد سبق الحديث عنه وعن علاقته بفدوى ، وهو الشاعر الراحل إبراهيم نجا ، الذى كان مثالا عاليا لطيبة النفس والإخلاص والعواطف النبيلة ، والذى كان شاعرا موهوبا وأن كان لم يستطع أن يحتل مكانة بارزة فى الشعر المعاصر ؛ لضعف ثقافته الأجنبية وقلة تجربته فى الحياة ، ولأنه كان شاعرا رومانسيا فى الخمسينات والستينات من هذا القرن حين كانت الرومانسية تذوى وتذبل وتراجع عن مكانتها الأدبية . هذا هو الشاعر الأول فى حياة فدوى طوقان ، أما الشاعر الآخر فهو الشاعر المصرى « ك . أ » ، وقد كنت أود أن أذكر اسمه كاملا ، لولا أن المعداوى قد أشار فى رسالته إلى حياته العائلية بما قد يسبىء إليه وإلى عائلته مما يمنعنى من ذكر اسمه الصريح . هذا الشاعر الآخر ما زال يعيش بيننا ، وما زال يكتب وينشر إنتاجه الشعرى الغزير ، وهو شاعر ذو نفس شعرى كلاسيكى ، وهو فى هذا الإطار شاعر جيد

يتميز بصياغته الشعرية القوية السهلة ، وباندفاعه العاطفي العنيف ، وقد عجز الشاعر رغم موهبته عن تحقيق شيء له قيمة في الشعر العربي المعاصر ، لضعف ثقافته ، وبعده ، في موضوعاته ونظراته للحياة والناس ، عن روح العصر ، حيث نحس ونحن نقرأ له بأنه شاعر من العصر الجاهلي يعيش بيننا ، والنتيجة أنه أصبح شخصية فنية غير مقنعة ، فلا هو شاعر جاهلي نقرأ شعره كما نقرأ الشعراء العباسيين مقدرين لهم ظروفهم وظروف عصرهم ، ولا هو شاعر معاصر يحس بالتجارب الإنسانية والتجارب الفنية الجديدة التي يعيشها الناس في هذا العصر ، فليس من المألوف ولا من المقبول بالنسبة للذوق العصري - على سبيل المثال - أن يفخر الشاعر بنفسه على طريقة المتنبي ، ومع ذلك فنحن نجد لهذا « الشاعر الآخر » شعرا كثيرا في الفخر والنظر إلى نفسه على أنه أهم شخص في العالم وإلى شعره على أنه أرقى شعر عرفه هذا العصر . . ذلك كله شيء بعيد كل البعد عما يمكن أن يقبله الذوق في عصرنا أو تقبله مقاييس الأدب أو مقاييس الأخلاق ، وهذا كله قد أبعد الشاعر عن أن يحتل مكانة لها قيمة في عالم الشعر العربي الحديث .

ومن المعروف أن هذا الشاعر الآخر قد التقى بفدوى طوقان عندما شارك - متطوعاً - في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، ويبدو أنه قد جرح هناك ، وهو ما يشير إليه المعداوى في رسالته بقوله « . . لقد اشترك يوما في حرب فلسطين وجرح هناك ، وأغلب الظن أن ما شاهده من معارك قد أثر بعض التأثير في قواه العقلية » ، وهذا الذي يقوله أنور يتردد كثيرا حول شخصية الشاعر الذي لم تساعد الظروف على التعرف إليه بصورة مباشرة .

يتحدث أنور المعداوى في رسالته بعد ذلك عن « إبراهيم نجا »

ويشير إلى أنه أعاد رسائل فدوى إليها بعد تدخل منه ، وفي ظني أنه كان سيقوم بإعادة هذه الرسائل إلى فدوى حتى لو لم يتدخل المعداوى ؛ فقد كان إبراهيم نجا إنسانا طيبا لا يفكر ولا يستطيع أن يفكر في إيذاء مشاعر الآخرين .

والقصة التي يرويها المعداوى بعد ذلك عن فوز « إبراهيم نجا » بجائزة المجمع اللغوى سنة ١٩٥٢ قصة طريفة حقا ، ولكنها تكشف لنا - إلى جانب طرافتها - عن رأى المعداوى فى شعر العقاد ومفهومه للشعر معا ، ورأى المعداوى هنا صحيح تماما ، فقصائد العقاد فى غالبيتها العظمى هى « أفكار منظومة » ، وحسبنا أن نقرأ على سبيل المثال قصيدته « أمام قصص الجييون فى حديقة الحيوان » ، وهى قصيدة نموذجية فى هذا المجال ، فقد كتب لها العقاد مقدمة نثرية تشرح فكرته عن موضوع القصيدة ، ثم كتب القصيدة بعد ذلك نظما للفكرة ، يقول العقاد فى المقدمة النثرية للقصيدة :

« القروء العليا هى الشمبانزى والأرانج أتانغ والغورلا والجييون وهو نوع وحده فى رأى الكثيرين من النشوتين ، لأنه صغير الحجم يختلف التركيب بعض الاختلاف . ومن هذه القروء العليا ما يصلح - من الوجهة الشعرية - أبا للفلاسفة والحكماء وهو « الشمبانزى » لتأمله وسكونه واشمئزازه من الحياة ، ومنها ما يصلح أبا لرجال المطاعم والوقائع وهو « الغورلا » لبطشه وهياجه وقوة عضله ، ولكن « الجييون » وحده هو الذى يصلح من الوجهة الشعرية أبا للفنانين والراقصين لأنه لعوب طروب ، رشيى الحركة خفيف الوثوب ، يقضى الكثير من أوقاته فى الرقص والمناوشة ، ويجب أن يعرض للناس ألعابه وبدواته ، وإذا صعد أو هبط فى مثل ملح البصر

فلانما يصعد ويهبط في حركات موزونة متعادلة كأنما يوقعها على أنغام موسيقية لا تخطيء في مساواة الوقت ومضاهاة المسافة ، فإذا شهدته فاسأل نفسك : ما بال هذا القافز الماهر قد وقف حيث هو في « سلم الرقى » ولم يأت إلى أعلى درجات السلم كلها صعودا ووثبا في بضعة ملايين من السنين ؟ .

هذا سؤال ، سؤال آخر تعود فتسأله : ماذا يفيد من الصعود إن كان قد صعد ، الطعام المطبوخ ؟ هو يأكل طعامه الآن نيئا وذلك أنفع أو يأكله مطبوخا على يد غيره وذلك أدنى إلى الراحة !

أو يفيد العلم ؟ قصاراه إذن أن يقول « لست أدري » كما يقول الإنسان كلما واجه معضلات الحياة .

ثم يكتب العقاد بعد ذلك قصيدته فلا يفعل شيئا إلا أن ينظم ما عبر عنه من « أفكار » كانت تبدو في مقدمة العقاد الثرية أفضل بكثير مما هي عليه في قصيدته ، يقول العقاد في القصيدة مخاطبا « الجييون » :

انتظر يا صديق شيئا فشيئا
تطبخ القوت كله بيديكا
غير أن أخال ما كان نيئا
منه أجدى في الحالتين عليك
انتظر يا صديق مليون عام
أو ملايين ، لست والله أدري
إن تدانيت بعدها من مقامى
فقصارى المطاف أن لست تدري

فهذه الأبيات هي « أفكار منظومة » حول نظرية النشوء والارتقاء ورأى العقاد فيها من خلال تأملاته حول « الجييون » ، وهذا هو شعر العقاد في معظمه ، فهو شعر العقل الجاف والأفكار المنظومة ، وليس شعر القلب الحار والتجارب الإنسانية الواسعة ، ومن هنا تبدو فكرة المعداوى حول شعر العقاد سليمة .

ولعل الشاعر ابراهيم نجما قد أخذ بنصيحة المعداوى الذكية الطريفة فكتب عدة قصائد تقوم على أساس الأفكار المنظومة ، وهذه القصائد أعجبت العقاد فمنحه جائزة المجمع اللغوى للشعر عن عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ . إلا أن هذا الديوان لم يصدر إلا سنة ١٩٦٢ ، ولم يكتب له المعداوى مقدمة نقدية ؛ فقد كان المعداوى أيامها غارقا في أزيمته النفسية العنيفة ، وكانت هذه السنة والسنوات الثلاث التالية حتى وفاته من أقل سنواته عملا وإنتاجا ومن أكثرها حزنا وابتعادا عن الحياة والناس .

يتحدث المعداوى في رسالته الثامنة - من جديد - عن الشاعرة المصرية ناهد طه عبد البردون أن يضيف شيئا الى ما كتبه عن هذه الشاعرة وما أشرنا اليه في الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، كما أن المعداوى لم يكتب شيئا آخر عن هذه الشاعرة كما وعد في هذه الرسالة بعد ذلك الفصل الذى كتبه في مجلة « الرسالة » بمناسبة وفاة الشاعرة الشابة سنة ١٩٥٠ ، ثم عاد فنشره في كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » .

في هذه الرسالة أيضا إشارة جديدة إلى البير أديب ومجلته « الأديب » وإلى كتابه « لمن » الذى نشرته دار المعارف في مصر ، وقد أشرنا إلى مشكلة مجلة « الأديب » وموقف المعداوى من هذه المشكلة في

الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، ومن الواضح أن المعداوى كان شديد الحساسية لكل ما يقال عنه وخاصة في الوطن العربي ، وهذه ميزة هامة في أنور المعداوى ، فقد كان يعتبر نفسه كاتباً عربياً لا كاتباً مصرياً ، وكان يحاول بقوة أن يتابع الحياة الأدبية والثقافية في الوطن العربي ، وكان يدعم هذه المتابعة بصلات شخصية قوية مع الكثيرين من أدباء الوطن العربي خارج مصر ، والحق أنني لم أعرف أديباً مصرياً في جيل المعداوى كان حريصاً على الاتصال بالأدباء العرب خارج مصر مثلما كان المعداوى حريصاً على صلته بهؤلاء الأدباء .

وكان حرص المعداوى على صلته بالأدباء العرب خارج مصر يأخذ صورة المتابعة لإنتاج هؤلاء الأدباء ونقده وتقديمه للقراء ، وصورة المساعدة على نشر هذا الإنتاج ، حيث كانت مصر في الأربعينات وأوائل الخمسينات هي القائدة والرائدة في ميدان النشر والثقافة في الوطن العربي كله ، وقد تعرضت مكانة مصر الثقافية بعد ذلك للاضطراب ؛ مما جعل طه حسين يقول قوله المشهورة « . . لقد انتقلت عاصمة الثقافة العربية من القاهرة إلى بيروت » . وقد بلغ من حرص المعداوى على صلته بالأدباء العرب أنه كان يساعدهم مساعدات شخصية خارج نطاق الأدب ، فكان بعضهم يرسل إليه أوراق أولاده لتقديمها إلى المعاهد والجامعات والمدارس في مصر ، وكان بعضهم يعتمد عليه في دخول المستشفيات والتماس العلاج في مصر . . . كان المعداوى عربى النزعة والميول والثقافة ، وكان من أكثر الكتاب إحساساً بعروبة مصر ، وبأن مصر لها مكان الأم في الوطن العربي كله ، وكان المعداوى يحس في ذلك كله بسعادة حقيقة لا افتعال فيها ، وكان يتصرف في هذا المجال بإيمان كامل وعظيم . ولعلنا من خلال رسائل المعداوى نلاحظ بسهولة أنه كان شديد

الحماس لفدوى طوقان ، وقد كان لهذا الحماس - ولا شك - جانب شخصي خاص ، ولكنه كان من ناحية أخرى جزءاً من إيمانه بالعروبة وبدور مصر الرائد في الوطن العربي والثقافة العربية .

وأذكر أنني عندما جئت إلى القاهرة من قريتي في ريف المنصورة لأول مرة سنة ١٩٥١ ، والتقيت بالمعداوى ، وتوثقت بينه وبينى الصلات ... منذ تلك الأيام ، كنت أجده ، كلما التقيت به محاطاً بالعديد من الأدباء العرب الوافدين إلى القاهرة من شتى العواصم العربية ، كنت أجده هؤلاء الأدباء محيطين به في مكتبه بوزارة المعارف ، وفي ندوته بمقهى عبد الله بالجيزة ، ثم في ندوته التي انتقل إليها بعد هدم مقهى عبد الله وهي ندوة مقهى أنديانا بالدقي ، وبقيت جلساته وندواته عامرة على الدوام بالأدباء العرب حتى مرضه الأخير ووفاته سنة ١٩٦٥ .

في هذه الرسالة إشارة إلى قصيدة فدوى « مع لاجئة في العيد » حيث يقول المعداوى عن هذه القصيدة : « . . إنها القصيدة التي أعزها لأنها كانت واسطة التقارب بين روحين »

والمعداوى يقصد بذلك أن أول اتصال بين فدوى وبينه كان عن طريق هذه القصيدة ، فقد نشرت فدوى هذه القصيدة في مجلة الرسالة وأهدتها للمعداوى ، وعلق المعداوى على القصيدة في الرسالة ، ويعد هذا التعليق بدأت بينهما صلة شخصية خاصة عن طريق الرسائل ، ومن هنا يقول المعداوى عن هذه القصيدة إنها « كانت واسطة التقارب بين روحين » .

على الرسالة الثامنة

حول شعر نازك الملائكة وآرائها النقدية

تتضمن هذه الرسالة مقارنة بين شعر فدوى طوقان وشعر نازك الملائكة ، وقبل التعليق على هذه المقارنة يجب أن نسجل عدة ملاحظات .

أولاً : هذا الحديث النقدي جاء في رسالة خاصة إلى فدوى ، ولا شك أن المعداوى لم يكن يقدر أن هذه الرسالة ستنتشر في يوم من الأيام، والفرق بين « رأى » يظهر في مقال ينشره صاحبه على الناس و« رأى » يقوله صاحبه في رسالة خاصة هو فرق كبير . . . وعلينا أن نضع في اعتبارنا هذه الملاحظة ونحن نناقش رأى المعداوى في نازك الملائكة .

ثانيا : لا شك أن المعدادى قد انساق إلى هذه المقارنة ليس بداف
من رأيه الخاص فقط ، ولكن بدافع من المجاملة لعدوى ؛ ذلك

فدوى ونازك هما أكبر شاعرتين في الوطن العربي ، والمقارنة بينهما يمكن أن تخطر دأئها على البال بالنسبة للنقاد والباحثين ، وربما كان المعداوى يريد أن يثبت لفدوى - عن طريق المقارنة الأدبية - مزيدا من وده وتقديره ، وفي اعتقادي أن فدوى نفسها لم تكن توافق المعداوى على رأيه في نازك ، وأذكر أنني قرأت لفدوى قصيدة نشرتها في مجلة « الرسالة » وأعادت نشرها في ديوانها الأول ، وهي قصيدة « قلب يتعذب » وقد قدمت فدوى هذه القصيدة عند نشرها في مجلة الرسالة بهذا الإهداء :

« هدية إلى صديقتي الشاعرة الرفيعة نازك الملائكة » ، ولا شك أن مثل هذا الإهداء يؤيد إحساسى بأن فدوى لم تكن توافق المعداوى على رأيه في الخط من شاعرية نازك وفي محاسبة شعرها كله على أساس أبيات ضعيفة نجد مثلها عند أى شاعر مهما كان وزنه ومقامه بين كبار الشعراء .

ثالثا : ليس من شك عندي مع ذلك - خارج جميع الاعتبارات السابقة - أن المعداوى لو كان يكتب مقالا نقديا يريد نشره على الرأى العام الأدبى لكان قد فضل شعر فدوى على شعر نازك كما فعل في هذه الرسالة ، والسبب واضح ، وهو أن المعداوى بطبيعته العاطفية كان يفضل دائما ذلك الشعر الذى يكون غنيا بما فيه من جنوح إلى الوجدان والعاطفة أكثر من الشعر الذى ينجح إلى الفكر والصور العقلية . . . وشعر فدوى ينبع في أكثره من العاطفة والوجدان بينما ينبع شعر نازك في معظمه من العقل والتأمل والمراقبة والتفكير والثقافة الواسعة العميقة . . . إن الوجدان في شعر فدوى أقوى ، والفكر في شعر نازك أقوى ، والاختيار الأقرب إلى طبع المعداوى هو أن يجد نفسه وذوقه وعواطفه في شعر فدوى أكثر مما يجد ذلك كله في شعر نازك .

بعد هذه الملاحظات الثلاث نقف عند قول المعدادى بأن نازك « معجبة بشعر محمود حسن إسماعيل كل الإعجاب » .. وهذا القول صحيح في مجمله ، ولكن نازك ليست شاعرة كبيرة وحسب ، ولكنها ناقدة كبيرة أيضا ، لها أفكارها وآراؤها النقدية الهامة والأصيلة ؛ ولذلك فنحن نجد ان إعجابها بشعر محمود حسن إسماعيل لم يكن إعجابا مطلقا بلا قيود ، بل لقد كانت نازك تنتقد « محمود » في بعض الأحيان نقدا دقيقا ذكيا رغم إعجابها به ومحبتها لشعره .

وإذا راجعنا كتاب نازك الهام « قضايا الشعر المعاصر » الذى يضع نازك في الصف الأول بين كبار نقاد الشعر العربى ، فإننا نجد أنها ذكرت محمود حسن إسماعيل أكثر من مرة بالإعجاب والتقدير ، وذكرته أكثر من مرة بالنقد وسجلت عليه بعض المآخذ الفنية ، ففى مجال الإعجاب والتقدير كتبت نازك فى أحد فصول الكتاب وهو فصل عنوانه « أساليب التكرار فى الشعر » تتحدث عن أسلوب من أساليب التكرار وهو « تكرار كلمة واحدة فى أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية فى قصيدة » تقول نازك « ص ٢٣٠ - الطبعة الأولى من الكتاب » :

« ومن النماذج المبتكرة تكرار كلمة « نسيت » فى قصيدة « نهر النسيان » لمحمود حسن اسماعيل ، فهذا تكرار يتعلق تعلقا مباشرا ببناء القصيدة العام ، وهو أحد الأسباب التى تجعلنا نعدده تكرارا ناجحا غير لفظى ، كما نعد القصيدة نفسها واحدة من أجل ما كتب شعراؤنا المعاصرون ، ولعل من المناسب أن أقتطف نموذجا منها ليلاحظ القارئ العناية الكبيرة التى صبها الشاعر على ما يلى لفظة « نسيت » وهو سر جمال التكرار ونجاحه :

ونسيت الأنسام تنقل في المرح صلاة الطيور للغدران
ونسيت النجوم وهى على الأفق نشيد مبعر الأوزان
ونسيت الربيع وهو نديم الشعر والطير والهوى والأمان
ونسيت الظلام وهو أسمى الأرض وتابوت شجوها الحيران
ونسيت الأكواخ وهى قلوب داميات تلفعت بالدخان
ونسيت القصور وهى قبور ضاحكات البلى من البهتان

هذا نموذج يتوفر فيه الشرطان ، فاللفظ المكرر متين
الارتباط بالسياق ، وما بعده قد لقي عناية الشاعر الكاملة .

وهكذا تسجل نازك إعجابها بشعر محمود إسماعيل ولكننا نجد في
الكتاب نفسه وفي الفصل نفسه نمودجا آخر تتقد فيه نازك محمود حسن
إسماعيل وتسجل عليه بعض الملاحظات حيث تقول
« ص ٢٣٦ » إنها ستقف لحظة عند قضية اختتام القصائد بتكرار
مقاطع سابقة منها وهو أسلوب غير نادر في شعرنا اليوم ، « في الواقع أن
كثيرا من هذه الخواتيم تحيى غاية في الرداءة ، والسبب أن بعض
الشعراء الضعفاء يلجأون إلى التكرار تهربا من اختتام القصيدة
اختتاماً طبيعياً ، ومن طبيعة التكرار أنه يوحى بانتهاء القصيدة
وبذلك يستطيع أن يخدع القارئ العادى . على أن العيب الفنى لا
يفوت على قارئ متذوق يتحسس جمال التكرار ويدرك سر البلاغة
فيه . وسأختار لهذا التكرار المضلل نمودجا لشاعر نؤمن بشاعريته ، فلا
خير في أمثلة نقتطفها من شعراء لا قيمة لهم ، قصيدة « الكوخ » من
ديوان « أغاني الكوخ » الصادر سنة ١٩٣٤ لمحمود حسن إسماعيل ،
وهى قصيدة طويلة ، ضغطت فيها القافية الموحدة على الشاعر حتى
أبرمته وجعلته يتهرب من الخاتمة فأجهز على القصيدة بتكرار المطلع
الذى كان لسوء الحظ مطلقاً رديثاً :

بعثر عليه الدمع ما صفقت
في قلبك الألمان يا شاعر
واحرق له الأجفان مامسها
برح الأسى والحزن يا ساهر

ونحن نجد في كتاب نازك ملاحظات نقدية أخرى سجلت فيها عددا من المآخذ الفنية على شعر محمود حسن إسماعيل ، وهكذا نجد أن نازك تحمل في نفسها إعجابا واعيا بشعر محمود حسن إسماعيل ، وهو إعجاب لا يغفل أبدا عن تسجيل العيوب ونقدها في شعر الشاعر .

يقول المعداوى بعد ذلك على لسان محمود حسن إسماعيل :

« إن قصيدة فدوى « إلى صورة » تعادل كل ما حواه ديوان « شظايا ورماد » لنازك من شعر » .

ترى هل أعلن محمود حسن إسماعيل هذا الرأي مجاملة للمعداوى الذى لا يخفى إعرازه وحماسه لفدوى طوقان وشعرها أم قاله تعبيرا عن رأى أدبى كامل ومدروس ؟ . . فى ظنى أن هذا الرأى كان مصدره المجاملة ولم يكن مصدره الرأى الأدبى الذى يعبر عن اقتناع حقيقى .

عل أننا لو عدنا إلى قصيدة فدوى « إلى صورة » وهى القصيدة المنشورة فى ديوانها الأول « . . وحدى مع الأيام » لوجدنا أن هذه القصيدة هى فى الحقيقة عمل فنى رائع ، إنها قصيدة من أجمل قصائد فدوى ومن أجمل قصائد الشعر العربى على الإطلاق ، وسوف أنقل القصيدة هنا بأكملها لروعتها وتماسكها ووحدتها الفنية وصعوبة فصل أبياتها عن بعضها البعض :

اذهبي واعبري الصحارى إليه
 فإذا ما احتواك بين يديه
 ولحت الأشواق في مقلتيه
 مائجات أشعة وظلالا
 مفعمات ضراعة وابتهاالا
 فاحذري ، لا تعبري ، لا تبوحى
 لا تبينى تأثرا وانفعالا
 واكتمى عنه ما يزلزل روحى
 منه ، واطوى هواى عن عينيه
 هو لى فتنة ، ولكن دعيه
 مستفزا ، يشك فى حبيبه
 ليس يدرى بما يؤج بصدرى
 من حريق مدمر مستطير
 وامثلى أنت صورة بكاء
 وجهها خامد . . بلا تعبير
 ميت القلب والهوى والشعور
 فإذا الليل سف منه الجناح
 ومضت فى انسراحها الأرواح
 تتلاقى على مهاد الأثير
 عبر آفاق عالم مسحور
 عالم الحلم ، مسبح اللاشعور
 فاسبقى أنت كل حلم إليه
 واستقرى هناك فى جفنيه
 عانقى روحه ، ورفى عليه
 أنشديه شعري وغنى لحونى

في هواه ، بُثيه كل شجون
 صوّري لهفقي له وحنيني
 حدثيه عن صبوت وجنون
 حديثه .. حتى يلوح الصباح
 فإذا قبّل السنى عينيه
 وصحا ، لم يجد هناك لديه
 غير لا شيء مائلا في يديه
 وارجعى أنت صورة بكاء
 وجهها خامد بلا تعبير
 ميت القلب والهوى والشعور
 هكذا ، وليظل حبي سرا
 غامضا ، إن للغموض لسحرا
 أسرا يجذب النفوس إليه
 حيث تبقى مشدودة في يديه
 ليس تقوى على الفكك فكوني
 أنت مثل لديه عمقا وغورا
 هكذا ، وليظل نهب الظنون
 تائها بين شكه واليقن !

تلك هي قصيدة فلوى الرائعة التي تستحق أن تكون من روائع الشعر
 العربى المعاصر ؛ لبساطتها وصدقها وعمق التجربة النفسية التي تصورها
 وتعبر عنها . لقد جمعت هذه القصيدة بين دقة البناء
 الفنى وروعة التعبير عن العاطفة الأنثوية الرقيقة الصادقة التي تعيش
 فى جو من الحياء والكبرياء ، والتردد بين الإفضاء والكتمان .

إنها بحق قصيدة رائعة .

ولكن هل تميز لنا مقاييس النقد الصحيح أن نقول إن هذه القصيدة تعادل في قيمتها الفنية كل ما حواه ديوان نازك « شظايا ورماد » من الشعر ؟ ذلك موقف نقدي فيه الكثير من الشطط ، بل فيه الكثير من الظلم والتجنى ، وهو في آخر الأمر رأى خاطيء وغير صحيح ، وفي رأى أنه لا ضرورة أصلا للمقارنة بين الشاعرتين ؛ فكل منهما تمثل مدرسة شعرية مختلفة عن الأخرى ، ففدوى - كما أشرت من قبل - شاعرة عاطفية حساسة تعتمد في شعرها على الانفعال بعواطفها المختلفة نحو الحياة والناس ، بينما نجد نازك شاعرة تفكر بعقلها كثيرا ، فهي تختار فكرة قصيدتها وتحللها وتضيف إليها من ثقافتها الواسعة ، وتحرص كل الحرص على بناء قصيدتها بناء فنيا مدروسا ، وهذا لون من الشعر تعلقو فيه قيمة الفكر والعقل على الوجدان والعاطفة ؛ ولذلك فنحن نجد عالم فدوى الشعرى مختلفا كل الاختلاف عن عالم نازك الشعرى بحيث تصبح المقارنة بينهما غير مجدية وغير ضرورية .

وينقد المعداوى قول نازك :

ومضى عامان « ممطوطان » مرا في شحوب
كان عمرى خربة يصبغها لون الغروب

وفي نقد المعداوى لهذا البيت نجده على حق تماما عندما يقول :
« . . أتعجبك كلمة « ممطوطان » حين ترد في النثر ولا أقول في الشعر » . . ثم يعترض المعداوى بحق مرة أخرى على بيت آخر لنازك أو على تعبير آخر لها فيقول : « . . ثم هل تعجبك مرة أخرى « قعر روحى » عندما تقول :

وأحسست في قعر روحى جنونا وشوقا عميقا كبحر عميق

ويعلق المعداوى تعليقا طريفا على هذا البيت عندما يقول :
« أقسم لو نطقت فدوى بقعر روحى هذه لهبطت شاعريتها في رأبى
إلى مستوى شاعرية الدكتور زكى أبو شادى عليه رحمة الله . . زكى
أبو شادى الذى يقول :

يتكسر الموج المشعشع حوله كتكسر البيض الكبير الحجم ! »

إن المعداوى محق تماما في نقده لبيتى نازك ، ومحق تماما في نقده
لبيت « أبو شادى » وسخريته من هذا البيت ، ولكن إذا كانت
شاعرية « أبو شادى » في كثير من الاحوال في مستوى بيته عن « البحر » ،
فإن شاعرية نازك أرقى بكثير مما في البيتين اللذين انتقدتهما المعداوى ، ورغم
أننا نصادف أحيانا عند نازك بعض الألفاظ والعبارات التى تخلو من روح
الشعر وتميل ميلا واضحا إلى « الثرية » العادية ، وهو أمر شائع في الشعر
الجديد كله - رغم هذا فإننا نجد في شعر نازك الكثير
من القيم الفنية والفكرية العالية ، ومن الظلم أن نقيس إنتاج شاعرة
كبيرة غزيرة الانتاج عميقة التأثير في شعرنا المعاصر بمقياس بيتين أو
ثلاثة أبيات أو مائة بيت ، حتى لو كانت هذه الأبيات كلها خالية من
الشاعرية خالية من الجمال .

الرسالة التاسعة

فدوى العزيزة :

الآن فقط أستطيع أن أمسك بالقلم لأكتب إليك ، . أما قبل ذلك . . قبل ذلك بشهر قصير جدا في حساب الزمن ولكنه طويل جدا في حساب الشعور . فلم أكن أستطيع أن أمسك بالقلم لأكتب إليك ! شهر كامل وأنا طريح الفراش مشلول الحركة وحيد بلا صديق أو حبيب ، وما أكثر الأصدقاء والأحباء . . تعرضت لحالة مرضية قال عنها الطبيب إنها تقتضى عملية جراحية ، وقبل أن أستسلم لمبضع الجراح قلت لنفسى : لماذا تززعج أصدقائك وأحبائك ؟ قل لهم إنك ذاهب لتصطاف ولو كنت ذاهبا لتموت . . ألا يكفى أن الحياة تزعجهم في كل لحظة حتى تحيىء أنت فتزيدهم قلقا على قلق ؟ ! وهكذا قررت يا فدوى ومضيت في طريقي إلى مبضع الجراح . . أما أنت فلم أشأ أن أقول لك شيئا ، لم أشأ أن أحملك فوق الامك آلام إنسان آخر ، هو هذا الذى يكتب إليك . . ومع ذلك فقد كنت أحس دائما أنك إلى جانبي ، وكنت أقول لطيفك

الحبيب كلما مر بالخيال طيف العدم : يا صديقى أسمعنى رثاءك !
 وببتسم طيفك الحبيب وهو يقول لى فى صوت يقطر من نبراته الأمل :
 أوهام . وحين تنقضى ، سأكون أنا الذى أسمع رأيك فى « وحدى
 مع الأيام » ! كان طيفك هو الذى يؤنسنى فى وحدتى . ويحمل إلى
 الدواء ، ويضمّد الجراح . . وحين غادرت سرير المرض إلى فضاء
 الله ، واستروح الجسد المضنى بعد عوادي السقم أنسام العافية ،
 كان هو - أقصد طيفك - أول صديق يصفاح النفس ويعانق
 الروح . . وكانت المصافحة فى كتاب وكان العناق فى رسالة ، ولن
 أنسى له ما حييت هذا الوفاء !

تلقيت رسالتك الأخيرة إذن وتلقيت ديوانك ، وارتسمت على
 شفتى ابتسامة عابرة وأنا أقرأ سطورك وأقف عند تساؤلك عن سر
 انقطاعى عن الكتابة إليك . . يا عجباً لتوارد الخواطر بينك وبين
 الأصدقاء الذين ظنوا كما ظننت أننى كنت أصطاف ! قلت لهم ذلك
 ولم أقل لك ، ومع هذا فقد تواردت الخواطر أو تواردت الظنون فى
 نسق عجيب . . من هنا يا فدوى ارتسمت على شفتى ابتسامة
 عابرة ، ودعوت الله من قلبى ألا يكتب على أحد من عباده أن
 يصطاف بين جدران مستشفى وتحت رعاية طبيب !

حسبى هذا ردا على تساؤلك لأعود إلى رسالتك وأشكر لك
 هديتك ، لقد خرجت من كلماتك بأن طبع الديوان قد أثار إعجابك كما
 أثار إعجاب الكثيرين عندكم إلى حد بعيد ! أنا سعيد يا فدوى بهذا
 النبأ الذى أشعرنى بأننى قد بذلت « شيئا » من أجلك ، هو هذا الجهد
 المتواضع الذى كان حديث الناس هنا كما كان حديثهم هناك . . أقول
 هذا لأن الذين رأوا الديوان فى مصر قد أخرجوا تواضعى بثنائهم على
 إخراجه الفنى وبخاصة على لوحة الغلاف ، حتى لقد اقترح أحد

الأدباء الظرفاء أن أترك الاشتغال بفن الأدب لأشتغل بفن الطباعة ! ترى هل توافقينه على هذا الرأي ؟! أخشى أن يدفعني ثناؤك وثناء الناس إلى حد تنفيذ هذا الاقتراح الطريف ، كما قلت للسيدة وداد سكاكيني وأنا أهدي إليها نسخة من ديوانك حين بهرها لإخراجه فلم يكن لها غيره من حديث ، ومعذرة إذا قلت « غيره » لأن حديثها عن شعرك قد سجلته من قبل على صفحات « الرسالة » ومن هنا اقتصر تعليقها على طبع الديوان ! ومرة أخرى ترتسم على شفتي ابتسامة عابرة حين تطليين إلى بمناسبة إعجابك بلوحة الغلاف ، أن أبلغ صاحب تلك الريشة المبدعة آيات تقديرك وثنائك . . يؤسفني يا فدوى ألا أستطيع تلبية رغبتك لأن الفنان الذى رسم تلك اللوحة ليس من مصر ولا من الشرق أولا ، ولأنه ثانيا قد انتقل إلى رحمة الله ! إن لتلك اللوحة الفاتنة قصة ، وهى أننى أملك مجموعة كاملة من لوحات متحف « اللوفر » بألوانها الطبيعية ، وعددا من المجموعات الأخرى من المتاحف العالمية . . أعنى أن اللوحات التى عندى منقولة نقلا أميناً عن الأصل الموجود فى تلك المتاحف ومنها اللوحة التى تخيرتها لغلاف ديوانك ، هذه اللوحة التى يوجد أصلها فى متحف واشنطن تحت هذا العنوان « صلاة . . فى محراب الأمل » !

كنت مفتونا بهذه اللوحة ، بظلالها ، بألوانها ، بفكرتها الرائعة . . وعندما بدأت طبع ديوانك قررت بيني وبين نفسي أن تكون هى لا غيرها صورة الغلاف ، ومن هنا اقترحت يوما أن تغيرى اسم الديوان وأن تجعليه « وحدي مع الأيام » بدلا من « أشواق الحياة » لأن فكرة اللوحة تتفق من الناحية الإيجابية مع العنوان الأول ، ولا تتفق مع العنوان الأخير ، وإن كنت قد أخفيت عنك هذه الحقيقة وقلت لك إن التسمية المقترحة تناسب من ناحية ظلالها

النفسية شعر الديوان . . وقد فعلت ذلك حتى أطالعك يوما بهذه المفاجأة الفنية التي أحدثت في نفسك أثرها الجميل !

هذه يا فدوى هي القصة . . أما فكرة اللوحة فهي كما قلت تماما أشبه بقصيدة ، قصيدة ملونة تستمد قيمتها الفنية مما تزخر به من قوة إيجابية . . هذه الفتاة التي تشع من نظراتها كل معاني اللهفة والضراعة والابتهاال ، تمثل لحظة من لحظات الصلاة هي لحظة السجود ، إنها تتطلع إلى « الغد الأخضر » ، هذا الغد الذي تمثله الشجرة المورقة . . إنها تتطلع إليه ، أو قولي إنها تصلى له وتبتهل وتتضرع . . أما هذه الطبقات الأربع من الضباب الكثيف فتمثل في مجموعها ظلمة الأيام ، أو تجهيم الزمن ، أو قتام الحياة ، وكلها إحياء باليأس . . ومن خلال هذا اليأس وضبابه تبرز صورة من صور الأمل هي تلك الشجرة المورقة . أو ذلك الغد الأخضر الذي اتجهت إليه العينان في حديث طويل وسجد في محرابه الروح والجسد !!

كل هذه المعاني قد شرحتها للسيدة وداد سكاكيني حين راحت تسألني عن عنوان اللوحة وفكرتها الفنية . . ولقد كان من توارد الخواطر بيني وبينك أن تهدي إلى بمناسبة العيد لوحة « فابولا » وكأنك كنت تشعرين شعورا خفيا بأنني قد أهديت إليك لوحة « صلاة في محراب الأمل » . . وسبحان من ربط بذلك الخيط الشعوري بين روحين ! إن لوحة « فابولا » عندي يا فدوى ، ولكن النسخة التي تلقيتها منك ولو أنها طبق الأصل ، إلا أنها قد بدت لعيني أكثر جمالا من الأخرى وأوفر فتنة لأن روحك قد جملتها بظلال الوفاء !

وبمناسبة الحديث عن ديوانك أقول لك إنه قد ظهر عنه إعلانان على صفحات الرسالة ، وحين اتصلت بهم في المجلة بشأن الإعلان

الثالث أبلغت أن هناك مقالا عن الديوان سيظهر في القريب ، وهو للأستاذ/كامل السوافيرى ، وقد ظهر المقال بالفعل فى عدد الرسالة الذى صدر منذ يومين . . أما الإعلانات الأخرى فقد نشرت جريدة « المصرى » اليومية سبعة منها فى سبعة أيام ، وكان ذلك عن طريق لجنة النشر للجامعيين !

ولقد قلت لك فى آخر رسالة بعثت بها إليك إننى سأقوم باهداء بعض النسخ إلى رجال الصحافة والأدب فى مصر ، وقد فعلت . . أما السيدة وداد سكاكينى فقد أصبح لديها نسخة منك ونسخة منى ، وكذلك الأستاذ الزيات ، لأننى قد أهديت إلى كل منها نسخة عقب صدور الديوان . . وأما ذلك الصديق الشاعر الذى قلت لى إنك بعثت إليه بديوانك ردا للدين الذى عليك فلا اعتراض لى على ما فعلت ، ما دام مصدر الإهداء هو الناحية الذوقية لا الناحية الشعورية ! وهذه المناسبة أود أن أعبر لك عن خالص شكرى لهذه الروح الطيبة التى تقبلت بها رسالتى الأخيرة وما حفلت به من نصائح وتوجيهات . . الحق يا فدوى أننى كنت أخشى أن تغضبك صراحتى أو أن تثيرك قسوتى ، ولكنك كنت عند حسن الظن حين تلقيت كلماتى على أنها صادرة من أخ لا يفترق حبه لك عن حبه لشقيقاته وقد يزيد عليه !

ولقد خرجت من رسالتيك الأخيرتين بأن كلمتى قد أحدثت فى نفسك أثرها المشهود ، حين أكدت لى أن تحولا ملموسا قد طرأ على نظرتك إلى الحياة والناس . . أنا أقدر هذه المعركة الداخلية التى تستخدم فى أعماقك نتيجة لهذا التحول الجديد ، إن أعظم المعارك يا فدوى وأجلها وأخطرها شأنها هى تلك التى نتصر فيها على أنفسنا . . لأن الانتصار على النفس شىء عظيم !!

لماذا لم يرد في رسالتك أى ذكر لاسم سعيد تقى الدين وأنت
تحدثينى عن الأساء التى أهديت إليها ديوانك ؟ أظن أننى أوصيتك
يوما بأن تهدى إليه أول نسخة ، ومازلت مصرا على أن تعملى بتلك
الوصية لأنك تدركين المعنى الذى أهدف إليه . . أما أنا فأكتب إليك
هذه الرسالة قبل أن أودع القاهرة إلى الريف ، وسأمكث هناك شهرا
آخرين أهلى طلبا للراحة والاستجمام ، حيث أعود إلى القاهرة مرة
أخرى عقب عطلة عيد الأضحى إن شاء الله . . ويوم أن تقدرلى
هذه العودة سأشرع فى طبع كتابى الجديد لأن المرض قد حال بينى وبين
هذه الأمنية ، ثم أطلع القراء برأى المتواضع فى ديوانك الحبيب ،
ولا أدري إن كان ذلك سيتم على صفحات « الرسالة » أم على
صفحات « مجلتى » التى سيصدرها قريبا الأستاذ أحمد الصاوى محمد
الذى طلب إلى الإشراف على تحريرها ، أم على صفحات مجلة لبنانية
جديدة ستصدرها « دار العلم للملايين » ببيروت وقد كتب إلى
أصحاب الدار عارضين على أن أكون عضوا فى الهيئة التأسيسية
المشرفة على إصدارها وتحريرها . . . مهما يكن من شىء أدع ذلك
لتطورات الغد القريب . . ولك أيتها العزيزة الغالية أعظم مشاعر
الأخوة وأصدق آيات المودة من المخلص :

١٩٥٢ / ٨ / ٦

أنور المعداوى

تعليق على الرسالة التاسعة

يشير المداوى فى هذه الرسالة إلى « المرض الأول » الذى تعرض له ، وهذا المرض هو مبرض « الكلى » وكان المداوى يشكو من « حصوة » تسبب له آلاما حادة ، ولم يكن هناك من علاج لحالة المداوى بالذات إلا عن طريق عملية جراحية كانت فى تلك الأيام - ١٩٥٢ - خطيرة ، وقد كان المداوى يعانى من هذا المرض معاناة شديدة ، كان الألم الحاد يهاجمه فى الليل فيوقظه ويؤرقه ويدفعه إلى الصراخ العنيف ، وكان يحدثنى عن هذه الليالى القاسية فيقول : إن هذه الليالى كانت من أكثر لحظات العمر تجديدا لإيمانى بالله وتأكيدا لهذا الإيمان ، ففى لحظات الألم العنيف يشعر الإنسان أنه وحيد فى هذا العالم ، ولا يخفف من هذه الوحدة المرة إلا شعور كبير يولد فى أعماق الإنسان بأن الله موجود فى قلب الصمت والوحدة وعذاب الإنسان مع الألم الكبير . وكان يقول لى أيضا : إن لحظات الألم التى تهاجمه بقسوة وعنف فى ظلام الليل تجعله يحس بنوع من الحاجة إلى الآخرين ، وتجعله يدرك معنى الزواج وأهميته ، خاصة إذا كان زواجا

موفقا ناجحا يلتقى فيه قلبان على الحب والوفاء قبل أن يلتقيا على لذة الجسد ومصلحة العيش . وكان يقول لى أيضا : يا خوفي من أن أموت وحيدا فى الظلام ، فبين الألم الذى أعانيه وبين الموت خيط رفيع لا أكاد أراه . . فى قبضة هذا الألم يبدو لى أننى مع الله والموت والظلام فى حجرة مغلقة بلا أبواب ، هنا تبدو الأهمية الكبرى لأن يكون لى جوارك قلب يؤنسك وتقول بين يديه : آه ، ثم يكون شاهدا على موتك ، حتى لا يموت الإنسان وحيدا بهذه الصورة المحزنة .

تلك هى المعانى التى كان يحدثنى عنها أنور المعداوى وهو يصور لى الأزمات العنيفة التى كانت تسببها له آلام « المفص الكلوى » وهى آلام بالغة القسوة .

كانت العملية الجراحية التى أنبأه الأطباء بضرورة إجرائها خطيرة ، ومع ذلك وافق على إجراء هذه العملية خلاصا من الألم ، وقد قال لى المعداوى إنه عندما قرر إجراء هذه العملية طلب من الاطباء أن يخدروه تخديرا نصفيا لا تخديرا كاملا وأصر على ذلك ، وكانت فلسفته فى ذلك أنه يريد أن يموت وهو مستيقظ واع ولا يريد أن يموت وهو نائم ويخدر إذا كان من المقدر له أن يموت فى هذه العملية الجراحية الخطيرة .

ومع ذلك يبدو لى أن المعداوى لم يكن قد أجرى العملية الجراحية عند كتابة هذه الرسالة وإنما هى فحوص طبية أجراها تمهيدا للعملية ؛ يدلنى على ذلك أن الرسالة ما تزال مليئة بالمرح والتفاؤل والإقبال على الحياة ، بينما كانت فترة إجراءاته للعملية فترة حزينة مقبضة فى حياته ، وهذا اللون الحزين اليائس من المشاعر سوف نحس به منعكسا على رسائله التالية التى بدأت فيها نغمة الحزن تعلو على كل

النغمات في حياة المداوى ، وأصبح فيها « الأسى » هو « المايسترو » الكبير في هذه الحياة .

في هذه الرسالة نتوقف أمام اهتمام المداوى بفن الرسم ، وقد كان المداوى في الحقيقة يحب إلى جانب الأدب فنيين كبيرين ، الأول هو فن الرسم والثاني هو فن الموسيقى ، كان يعشق الأدب والرسم والموسيقى ، وكان يحاول دائما أن يقتنى في بيته البسيط بالجيزة ثم بالدقي بعد ذلك عددا من اللوحات العالمية المنقولة نقلا جيدا عن أصولها في متاحف العالم ، كما أنه كان يحرص على الاستماع لروائع الموسيقى العالمية كلما أتاحت له فرصة ، وقد انعكس اهتمامه بالرسم والموسيقى في أدبه على عنايته البالغة بالأسلوب من جانبين : الجانب الأول هو عنايته بأن يرسم صورا للناس والأشياء بقلمه ، وما أكثر الصور واللوحات التي كان يرسمها في كتابته والتي نستطيع أن نلمسها بوضوح من خلال رسائله المنشورة في هذا الكتاب ، ويكفى أن نشير إلى الصورة التي رسمها في هذه الرسالة لذلك اللقاء بينه وبين طيف فدوى كما كان يتخيله ، أو نتوقف لحظات عند تحليله للوحة غلاف الديوان الأول لفدوى الذي أشرف على طبعه واختار له لوحة الغلاف بدوقه الفني الخاص . . أما الجانب الثاني الذي نحسه في كتابات المداوى إلى جانب التصوير والتجسيد فهو جانب « الموسيقى » ، فقد كان يعنى عناية واضحة بالإيقاع في كتابته . كان يحرص على موسيقى اللفظ وموسيقى اللفظ وموسيقى الجملة والعبارة ، وهذا ما نستطيع أيضا أن نلاحظه بسهولة ويسر في رسائله إلى فدوى طوقان . إن أسلوب المداوى من ألمع الأساليب « الموسيقية » - إذا صح التعبير - في أدبنا المعاصر ، إنه أسلوب موسيقى جذاب يفيض بالشاعرية والجمال وحسن الإيقاع .

على أن المعداوى - على اهتمامه البالغ بالرسم والموسيقى - لم يكتب كثيرا عن هذين الفنين ، وإنما استفاد منها في أدبه أكثر مما استفاد منها كموضوعات لهذا الأدب .

والحقيقة أن المعداوى قد ترك في ذهنى انطبعا رئيسيا من خلال قراءتى له ومن خلال صداقتى معه وتلمذتى الطويلة على يديه ، وهذا الانطباع الذى تركه المعداوى فى ذهنى هو أنه كاتب أرستقراطى الذوق ، رغم أنه كان يعيش حياة بسيطة بسبب إمكانياته المادية المحدودة والتى لم يسع أبدا إلى زيادتها بدافع من تعففه وحرصه على كرامته ، وقد كان قادرا على أن يزيد دخله زيادة كبيرة ، لو سمح لنفسه بأن يسطرق أبواب الصحافة ودور النشر والإذاعة والتلفزيون . كان المعداوى أرستقراطى الذوق رغم شعبية حياته ، وكان متأثرا أشد التأثير بالجو الأدبى فى فرنسا فى القرن التاسع عشر ، حيث انتشرت الصالونات الأدبية ، وامتلأت باريس بمباهج الأرستقراطية الفنية داخل هذه الصالونات ، عندما كان الحديث يدور عن أحدث اللوحات وأحدث الألحان وأحدث الروايات والمسرحيات والقصائد ، وكان هذه الجومليثا بالأناقة و« الشياكة » فى الملابس والحديث وأساليب السلوك والتعامل ، وكان مليثا أيضا بالمغامرات العاطفية والمؤامرات والدسائس السياسية ، وقد كان المعداوى مغرما بهذا العصر وبالقراءة عنه وعن أبطاله من الفنانين ، ولكن المعداوى لم يأخذ من هذا الجو الذى أحبه وقرأ عنه كثيرا إلا أرستقراطية الذوق الفنى رغم بساطة إمكانياته وشعبية حياته الشخصية ، وقد كان المعداوى كثيرا ما يروى لى تلك القصة المعروفة عن الروائى الفرنسى العظيم بلزاك ، وهو أحد أبطال المجتمع الباريسى فى القرن التاسع عشر وأحد نجومه ، كان بلزاك يكتب على جدران منزله الفارغ من الأثاث : هنا لوحة لدافنشى وهنا لوحة

لرافاييل . . إلخ . . وكان يستعيز بهذا الخيال الفنى عن الحقيقة التى كان يتمناها لبيته ونفسه وحياته ، حيث كان يود أن يغرق فى عالم من الرخاء الفنى الملىء باللوحات الرائعة والموسيقى العظيمة . وإن لم تكن إمكانياته المادية تسعفه بسبب إسرافه وكثرة ديونه .

كان المعداوى يروى لى هذه القصة وكأنه - دون أن يدرك - يعنى بها نفسه ، فلم يكن يملك من الإمكانيات المادية ما يساعده على اقتناء لوحات ثمينة وكبيرة ، ولكنه كان يتخيل هذا الرخاء الفنى ويحلم به ويقرأ كثيرا عن « باريس » القرن التاسع عشر ، ويركب على جناح خياله إلى باريس بلزأك وهو جولوامرتين وشاتوبريان وفرانز ليست ، ويتصور نفسه دائما جزءا من هذه الأرستقراطية الفنية البديعة بكل ما فيها من فن وسحر ، بعيدا عما فيها من دسائس ومؤامرات .

من هنا كان المعداوى حريصا على أناقته الشخصية ، حريصا على أن تكون لديه لوحات جميلة من الفن الرومانسى العظيم ، حريصا على أن يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، وبشكل عام فإنه كان حريصا على أن يكون هذا الفتى الرومانسى الباريسى ابن القرن التاسع عشر ، وإن كانت هذه الروح الرومانسية الباريسية الأرستقراطية قد حلت فى فتى عربى موهوب محدود الإمكانيات من الناحية المادية هو أنور المعداوى ، ولعل ذلك كان أحد أسرار أزمة المعداوى ومحنته فى حياته ، فما كان العصر يقبل هذا النموذج ، ولم يكن ليقيم وزنا لمثل هذه الروح ؛ مما جعله بعيدا عن عصره غريبا عنه غير قادر على التلاؤم مع روحه الواقعية التى لا يستطيع فيها أن يتفرغ لأناقة الحياة أو أناقة الفن .

بقيت فى رسالة المعداوى عدة إشارات تحتاج إلى توضيح :

١ - يقول المعداوى « . . وأما ذلك الصديق الشاعر الذى قلت لى إنك قد بعثت إليه ديوانك ردا للدين الذى عليك له فلا اعتراض على ما فعلت » .

وفى ظنى أن الشاعر الذى يشير إليه المعداوى هو الشاعر المصرى « ك . أ » الذى تحدث عنه المعداوى فى الرسالة السابقة ، والذى كان بينه وبين فدوى علاقة عاطفية بعد أن عرفته فى فلسطين متطوعا فى الحرب ضد اليهود سنة ١٩٤٨ ، أما الدين الذى له على فدوى فهو على الأغلب أنه أهدى لها ديوانه الشعرى الأول فردت هذا الدين بإهداء ديوانها الأول إليه .

٢ - يتساءل المعداوى « لماذا لم يرد فى رسالتك أى ذكر لاسم سعيد تقى الدين وأنت تحدثينى عن الأسماء التى أهديت إليها ديوانك ؟ أظن أننى أوصيتك يوما بأن تهدى إليه أول نسخة ، وما زلت مصرا على أن تعملى بتلك الوصية لأنك تدركين المعنى الذى أهدف إليه . . . » .

والمعداوى يشير إلى أن الأديب اللبنانى الكبير سعيد تقى الدين كان قد وعد بإصدار ديوان فدوى طوقان الأول وأخذ منها القصائد لتحقيق هذا الوعد فلم يفعل شيئا . . وكان المعداوى يقترح على فدوى أن ترسل إلى الأديب اللبنانى أول نسخة من ديوانها تأنيبا له وعتابا عليه !

٣ - يقول المعداوى إنه بعد أن يعود من الاستجمام فى قريته « . . سأشرع فى طبع كتاب الجديد لأن المرض قد حال بينى وبين تحقيق هذه الأمنية ، ثم أطلع القراء برأى المتواضع فى ديوانك الحبيب » .

أما الكتاب الذى يشير إليه المعداوى فهو كتاب « على محمود شاعر

الأداء النفسى » ، والحقيقة أن هذا الكتاب لم يطبع بعد عودة
 المعداوى من قرينته فى صيف ١٩٥٢ ، وإنما طبع - كما أشرنا من
 قبل - بعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة وقبيل وفاة المعداوى سنة
 ١٩٦٥ ، وقد ظهر هذا الكتاب باسم « على محمود طه الشاعر
 والإنسان » وقد طبعته وزارة الثقافة العراقية ، وكان ذلك - كما أشرنا
 من قبل أيضا - بسعى من الأديب العراقى محى الدين إسماعيل ، أما
 مقال المعداوى عن فدوى طوقان فلم يكتبه المعداوى على إطلاق ،
 وتوفى دون أن يكتب المقال أو يحقق هذا الوعد الذى كان من أعز
 وعوده على نفسه .

الرسالة العاشرة

فدوى العزيزة . .

منذ يومين اثنين عدت إلى القاهرة ، وعندما ذهبت إلى مكتبى
بوزارة المعارف ، وجدت فى انتظارى كثيرا من الأصدقاء أنت فى
طليعتهم ممثلة فى رسالتك الحبيبة ! ما كان أعجب هذا اللقاء وما كان
أروع ، لأنه تخير المناسبة التى تترك أثرها فى النفس والشعور . . ماذا
أقول لك ؟ أشهد لقد شغلنى هذا الزائر الأثير عن بقية الزائرين
لحظات ، لأنه من دونهم جميعا قد استلهم قلبه فأحس أننى قد
عدت ، فجاء يستقبلنى بالفكر والروح وكأننا كنا على ميعاد . . لقد
كنت أنت ممثلة فى رسالتك ، هذا الزائر الأثير ! جئت تستقبلينى
وتسألين عنى ، وكان قلبك هو الذى يسأل فى لهفة صامته أنطقها
الكلمات . هذا القلب الذى ابتهل فى محراب الأمل من أجل ، أنا
أقدره ، ولا أدرى كيف أشكره !

أنا عاجز عن شكرك يا أختاه ، لأننى أمام فيض من العاطفة الأخوية التى تعجز القلم حين ينشد التعبير وتعقد اللسان . . رأيت إلى الذى يهزه موقف من مواقف الفرح الغامر والنشوة الجارفة ، حين يريد أن يتسم من قلبه فيتحول الابتسام فى عينيه إلى دموع ؟ كذلك حال الذى يهزه موقف من مواقف الوفاء الصادق والعاطفة الخالصة حين يريد أن يتحدث من أعماقه فيتحول الحديث على لسانه إلى صمت ، أنا يا فدوى هذا الإنسان الأخير !

معذرة إذا ما عجزت عن شكرك ، أما الجواب عن سؤالك فقد عدت موفور الصحة مكتمل العافية ، والفضل كل الفضل لطلول البقاء فى الريف . . هناك أيضا كنت إلى جانبى ، طال الشوق إليك فرأيتك تسعين إلى من وراء الأمان والأبعاد ، وكأننى كنت أناديك وكأنك كنت تليين النداء . . ذات يوم أدت مفتاح الراديو وأنا لا أعلم ما سوف يحمله إلى الأثير ، كنت أريد أن أستمع إلى أى شىء يبدد من حولى ضجيج السكون ، هذا الضجيج الذى تحسه النفس عندما يكون الإنسان منفردا فى ربوع الريف . . وإذا بى أسمع صوتا خيل لى أنه صوتك ، لأنه كان يردد شعرا أعرف أنه شعرك ، وكان الشعر فى « سفح عيال »^(١) ، وعندما انتهت المذبة من تلاوة القصيدة أدركت أن الصوت ات من محطة الشرق الأدنى ، ولكنه وأسفاه لم يكن الصوت الذى أريد !

أرأيت كيف كنت إلى جانبى فى القاهرة وكيف كنت إلى جانبى فى الريف ، فى ضيافة المرضى وفى رحاب العافية ، أنت يا أجمل نموذج من نماذج النبل ويا أروع صورة من صور الوفاء !؟

(١) قصيدة لفدوى طوقان بهذا الاسم سبقت الإشارة إليها و « عيال » اسم جبل فى فلسطين .

وبعد ذلك تشكين في أن منزلتك عندي هي منزلة تلك الإنسانية الأخرى التي ودعت الحياة يوما وذهبت إلى لقاء الله ؟ لشد ما تظلميني يا فدوى وتظلمين في هذا القلب الذي لم يتسع لإنسانه كما اتسع لك عندما طرقت أبوابه في يوم من الأيام . . « قديسة » لأنها لم تقل في الحب شعرا وأنت « مذنبه » لأنك طفت بشعرك حول هذا الحب وكانت أبياتك في معبده صلوات شعور ؟ من يصدق هذا الكلام ومن يتقبل هذا المنطق ؟ لا يافدوى . . إن الحب عاطفة مقدسة ، وإذا كنت قد اعترضت يوما على حبك فهو اعتراض على أسلوب هذا الحب ، على أن صلوات شعورك قد رتلت يوما في معبد لا تعي جدرانه حرارة الدعاء !

أنت قديسة لأنك عرفت الحب على حقيقته المثلى ، وهو مناجاة بريئة ، وهو سباحات نقية ، وهو عاطفة مقدسة ، وهو دعاء تحول في قيامة الشعر إلى غناء . . ومن قال لك إن الإنسانية الأخرى لم تعرف الحب ولم تسجد بشعرها وشعورها في محرابه ؟ !

لقد كانت ظروفها قاسية ، ولولا الظروف لنفذ صوت قلبها إلى آذان الناس ، ولتضوع أرج عاطفتها من صفحات ديوان . . لم تستطع هي أن تقول شيئا وسأقول أنا كل شيء ، يوم أن أكتب قصتها و « قصته » ، وأهديها إلى كل إنسان يسأل الأقدار ولا جواب ، ويلقى الله دائما وملء عينيه نظرة فيها الأسى وفيها العتاب . قديسة ، كلمة قتلها لها وهي في رحاب العدم وأقولها لك وأنت في رحاب الحياة !

ترى هل أنت معي يا فدوى وأنا أغترف من نبع الشعور هذه الكلمات ؟ لماذا إذن تتحدثين عن الموت وتشيرين إلى الرثاء ؟ بالله لا

تزعجى الخاطر منى ولا تعصفى بسكينة الوجدان ، وحسى أنى سمعت يوما هذه النبوءة من إنسانة أخرى ذهبت إلى لقاء الله . . فى المرة الأولى كان قلبى يحدثنى بأن النبوءة ستصدق ، وستحقق ، أما فى هذه المرة فيحدثنى قلبى حديثا آخر كله أمل وكله رجاء ، وما تعود قلبى أن يكذب على كلما فزعت إليه أطلب الأمان من الغد المجهول . . دعيك إذن من هذه الخواطر السود ، فما كانت الحياة تستحق أن نلقاها وفوق أعيننا منظار أسود ! يا طالما سألت نفسى كلما تجهم لى وجه الحياة . كم تساوى الحياة ، ويا طالما لقيتها وعلى شفتى بسمه عريضة كلما سمعت الجواب . . كم أحب لك أن تفلسفى الحياة كما أفلسفها أنا هذه الفلسفة التى تتصل بالواقع ولا تقترن بالخيال ! كم تساوى الحياة ؟ واجهى نفسك بهذا السؤال دائما كلما لاحت فى الأفق غمامة سوداء ، وعندئذ ينقشع السواد من أفق النفس وتتبدد الغيوم ، هذه كلمات كنت أود أن أقولها لك منذ أمد بعيد ، وهأنذا أقولها اليوم وأكرر ما قلت ، وآمل أن تعلقى فوق جدار الفكر هذه اللوحة الغالية : « كم تساوى الحياة » ؟!

ستقولين إننى الذى بدأت بحديث الموت والرتاء . . نعم يا فدوى إننى الذى بدأت ، ولكنها كانت أوهام مريض ، مريض لم يتخل حتى وهو فى قبضة الجراح عن فلسفته : كم تساوى الحياة . . ولولا هذه الفلسفة لما استطاع أن يكون شجاعا وهو يواجه معركة يتقرر فيها المصير ، ثم هكذا أنا كلما تجهم لى وجه الحياة وما أكثر ما تجهم ، وحسبك أن أقول لك فى صراحة قد تذهلك : إننى إنسان يعيش دون أن يكون له فى الحياة أمل فى غد أخضر . . ومع ذلك يقول عنه كل الناس ما أسعده ، لأنهم يرونه دائما وعلى شفثيه بسمه عريضة ، بسمه لو أدركوا سرها لانتهى إليهم السر فى هذه الكلمات : كم تساوى الحياة ؟!

قد تقولين لى : وماذا أفعل إذا كنت قد خلقت بهذا الشعور ؟ قد تقولين لى هذا فأقول لك : ولماذا نتلقى نحن الحياة بشعورنا وحده ثم لا نسمح لصوت العقل بأن يرتفع ولمشعل الفكر بأن يرسل أضواءه كلما تكاثف الظلام ؟ إن منطق الشعور يا فدوى قد يكون بعيد الأثر فى النفس قوى الأصداء ، ولكنه لا يقوى على الصمود أمام منطق العقل حين نحتكم إليه ونتيح له الفرصة ليأخذ مكانه من منصة القضاء .. ترى هل تقنعك هذه الكلمات أم يحتاج الأمر إلى أن أحضر بنفسى إلى نابلس ، لأقنعك بضجيج اللسان إذا ما عجز عن الإقناع صرير القلم ؟!

بعد هذا كله أعود إلى رسالتك لأتحدث عن ديوانك .. إن الديوان قدلقى رواجاً منقطع النظير ، ولهذا أهنيء نفسى وأهتسك ! ليس الرواج مقصوراً على مصر ، لأن كثيراً من المكتبات فى البلاد العربية قد أرسلت إلى لجنة النشر تطلب كميات مناسبة ، وقد قامت اللجنة بتوريد الكميات المطلوبة .. أما أنا فكانت واثقا كل الثقة من هذه النتيجة ، لأنى قد خبرت طويلاً سوق الأدب وأذواق القراء ، ومن هنا أقدمت على طبع الديوان وأنا مطمئن وتحملت أمام اللجنة كل التبعات ، ومنها إصرارى على أن يطبع هذه الطباعة الأنيفة مهما بلغت التكاليف !

ولقد قبل الديوان من الأدباء والنقاد هنا بكثير من الإعجاب والإطراء ، حتى ليسابق بعض شبان الأدب من الملتفين حولي والمخلصين لى ، إلى الكتابة عنه هنا وهناك .. كتب منهم الأستاذ كامل السوافيرى فى « الرسالة » ، والأستاذان الشاعران كمال نشأت وفوزى العنتيل فى « الثقافة » ، ولعلك قد اطلعت على المقالات الثلاث ! ولا تكلفى نفسك عناء التفكير فى إهداء نسخ إليهم لأنهم

كتبوا بعد أن تلقوا منى نسخا مهداة . . ولقد أعطيتهم مطلق الحرية في أن يكتبوا عن الديوان ما يشاءون حتى لا يظن بعض الناس هنا تبعاً لما بيني وبين هؤلاء الذين كتبوا من صلات ، أننى قد وجهتهم توجيهاً خاصاً فيها أبدوا حول شعرك من آراء ! ترى ما هو رأيك في هذه المقالات الثلاث ؟ أود أن أسمع هذا الرأي .

أما عن الأستاذ « صارو » الذى تسألين عن عنوانه فهو واحد من أولئك المحيطين بى أيضاً ، وقد أهديت إليه نسخة من الديوان عقب ظهوره ، وإذن فلا داعى إلى التفكير فى إهداء منك . . ولا أعرف عنوان الأستاذ الشارونى حتى أوافيك به ، ومهما يكن من شىء فاقى لا أوافقك على هذا الكرم « الحماقى » الذى يدفعك إلى إهداء (كتاب) لكل من أهدى إليك قصيدة أو قصة !

بقى أن أقول لك إننى لم أتلق كتابى الأستاذ الناعورى ولا رسالته ، وأرجو أن تنقل إليه هذه الحقيقة المؤسفة . . إننى ما تعودت يا فدوى أن أهمل الرد على الرسائل الخاصة ، ولقد رددت على مئات الرسائل التى كانت تصلنى من شتى الأقطار العربية يوم أن كنت أكتب فى « الرسالة » ، لأن المسألة عندى تتعلق بالذوق قبل أى شىء آخر ، فكيف يظن الأستاذ الناعورى أننى أهملت الرد عليه ؟! يؤسفنى هذا ، ويؤسفنى أيضاً أننى لا أستطيع أن ألبى رغبته فى أن أشارك بقلمى فى تحرير مجلته ، لأننى آليت على نفسى ألا أكتب إلا فى مجلة يكتب فيها أدباء ممتازون . . ممتازون بأفكارهم لا بأسمائهم ! من هنا تركت « الرسالة » رغم إلحاح الأستاذ الزيات على بأن أعود ، وتركت « الكتاب » رغم أننى كنت قد اتفقت مع رئيس تحريرها على أن أوصل الكتابة . هناك أمل واحد يتركز فى تلك المجلة المنتظرة التى حدثتك عنها من قبل ، وهى مجلة (الآداب) التى ستصدرها فى

بيروت (دار العلم للملايين) ولقد اتفقت معهم بعد أن تلقيت منهم - أقصد من أصحاب الدار - ثلاث رسائل يلحون فيها أن أكون ضمن هيئة التحرير الدائمة التي ستتكون من ثلاثة كتاب من كل قطر عربي ، حيث وقع اختيارهم في مصر على طه حسين وتوفيق الحكيم وأنور المعداوي . . إن هذه المجلة ستكون مجده ضخمة يا فدوى ، لأن أصحابها سينفقون عليها بسخاء ، ولأن أهدافهم مثالية ، جوهرها بعث الأدب العربي الحديث بعثا واعيا ، وسد الفراغ الهائل الذي تحسه الحياة الأدبية في كل قطر عربي من ناحية عدم وجود مجلة أدبية ممتازة !

لهذا كله أثرت أن أمتنع عن الكتابة في أى مجلة حتى تصدر مجلة « الآداب » في أول يناير سنة ١٩٥٣ ولكني - إكراما لك - سأعود إلى « الرسالة » مرة واحدة لأكتب عن ديوانك ، وسأرجىء الكتابة بعض الوقت حتى يفرغ كل النقد من مقالاتهم ، لأنه قد يخطر لي أن أعقب على بعض آرائهم إذا ما كانت هذه الآراء مخالفة لأصول النقد ، ولهذا أكون شاكرا لو بعثت إليّ بعدد من المجلة التي يصدرها الأستاذ الناعوري وهو العدد الذي ظهر فيه مقاله عن ديوانك ، كما أرجو أن تبعثني إلى أيضا بأى مقال آخر يكون قد كتب عندكم عن الديوان . . سأعود إلى « الرسالة » مرة واحدة كما قلت إكراما لك ، لأنني في هذه الأيام أكتفى من مطالعة (الرسالة) بقراءة فهرس المقالات ! لقد انحدرت (الرسالة) يا فدوى انحدارا مؤسفا حتى بلغ الأمر بالأستاذ الزيات أن يأتي بأديب ناشئ لا يحمل شيئا من المؤهلات الثقافية أو الدراسية هو أنور الجندى ليحل محل الأستاذ خضر . . إن الأستاذ خضر قد ترك الرسالة بعد أن تركتها أنا حيث أرسل إلى الأستاذ الزيات يقول له : من بقى في « الرسالة » بعد المعداوي حتى أكتب فيها ؟ معذرة إذا انقطعت عن الكتابة !

أما من جهتي فقد فعلت المستحيل يا فدوى في سبيل النهوض بالرسالة ، وحين اقترحت على الأستاذ الزيات أن يستكتب بعض الأدباء المحترمين بصفة دائمة ، اعتذروا بأن « الرسالة » لا تستطيع أن تدفع لهم أجورا دائمة ! لم أجد بدا من ترك « الرسالة » لأنني لا أستطيع أن أتحمّل أكثر مما تحمّلت ، وهو أن أواصل الكتابة وسط هذا السيل المنهمر من المقالات التافهة والكتاب الفارغين ! هذا شيء ، وهناك شيء آخر ، وهو أن كثيرا من الناس هنا كانوا يعتقدون أنني أشرف على « الرسالة » إشرافا كاملا ، ولهذا كانوا يؤخذونني في كثير من الأحيان على هبوط مستوى التحرير ، وكنت أشعر بكثير من الحرج حين أصارحهم بالحقيقة ، وهي أن الأستاذ الزيات هو المسئول . . كنت أصارحهم بهذه الحقيقة وأنا أتألم ، لأن دفع التهمة عن نفسي معناه أن تلتصق بالزيات وهو صديق . وما تعودت يوما أن أطعن الأصدقاء من ناحية تقديرهم لقيم الأدب وفهمهم لرسالته !

أما عن مرض « بغض الأهل » فقد أصبت به يوما يا أختاه ، وعانيت منه ما عانيت أنت وإن اختلفت الدوافع وتنوعت الأسباب ، وإذن فلا تخشى أن ألك بشيء من اللوم أو بشيء من الإنكار ! وأما عن عبارة الإهداء التي وجهتها إلى ذلك الشاعر الصديق فقد كانت قاسية وموجعة ومع ذلك فقد أعجبت بصياغتها الفنية كل الإعجاب . . وبقي حديثك عن أخويك غرورحمي ، أما الأول فقد خرجت من كلماتك عنه بأنه فتى ذو مزاج « أمريكي » ! كيف يستطيع لنفسه أن يقضى أعواما لا يرى فيها أسرته الحبيبة ، ثم يسافر إلى ذلك البلد النائي دون أن يودعكم يا فدوى ؟! هذا مسلك لا يرضيني . . وإذا قلت إنه لا يرضيني فلا يأخذك العجب من هذا الحكم حين أقول لك بأنه يخالف طبيعتي النفسية ، طبيعتي التي تفرض على دائما أن

أقضى كل عطلة صيفية بين والدتي وشقيقاتي ، دون أن أسمع لنفسى بأن أضيع يوما واحدا من هذه العطلة بعيدا عنهن . . ماذا أفعل يا فدوى وأنا الإنسان الوحيد لمن بعد الله ؟ لقد عرضت على وزارة المعارف أكثر من مرة أن توفدني إلى السوربون لنيل الدكتوراه ، ومع ذلك فقد رفضت العرض الجميل لسبب واحد هو أن والدتي وشقيقاتي لا يطيعن شعورهن أن أكون بعيدا عنهن عامين أو ثلاثة ، هناك في بلد يعز عليهن أن يذهبن إليه مسرعات إذا تعرضت لمفاجأة من مفاجآت القدر .

منطق لا أوافق عليه بالعقل ولكني أوافق عليه بالشعور ، لأنني أضع نصب عيني حقيقة قلوب ضعيفة لا تقوى على الصمود أمام عواصف الأوهام ! ومع ذلك فأنا لا أملك إلا أن أصفح عن سلوكي عما دامت فدوى تحمل له كل هذا الحب والإعجاب . . ثم كيف حال أخيك الآخر ، وكيف حال « حنان » ؟ أنا أعلم أن لك أختا بهذا الاسم وأود أن أعرفكم جميعا وأطمئن عليكم من خلال السطور والكلمات . . ترى هل تهوى أختك الأدب والشعر أم أنها في واد آخر غير واديك ؟ ختاماً أبعث إليك بأخلص آيات المودة وأصدق مشاعر الأخوة ، ودمت لمن يذكرك :

أنور المعداوي

تعليق على الرسالة العاشرة

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « فى سفح عيال » وهى إحدى قصائد ديوان فدوى الأول « . . وحدى مع الأيام » ، وقد أشرت إلى هذه القصيدة فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى « تلك الإنسانية الأخرى التى ودعت الحياة يوما وذهبت إلى لقاء الله » ، وهذه الإنسانية التى يتحدث عنها المعداوى هى الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » ، ومن الواضح أن فدوى قد تحدثت فى إحدى رسائلها إلى المعداوى عن هذه الشاعرة ، ويمكننا أن نفهم من رسالة المعداوى أن فدوى تقول إنها لا تحتل فى قلب المعداوى مكانة ناهد ، وتعجب على المعداوى بسبب هذا الموقف الشعورى ، ثم تقول له : هل لأن ناهد لم تقل فى الحب شعرا أصبحت قديسة ، أما أنا فلأنى أقول شعرا فى الحب فقد أصبحت عندك مذنبه ؟ . . وهذه الإشارة من جانب فدوى تعنى أن الشاعرة المصرية لم تكتب عن الحب فى شعرها ، وهذا صحيح - فيما اطلعت عليه من شعر ناهد المنشور - فقد كانت تتحدث فى شعرها عن الفن

وغن السعادة والشقاء والأمل واليأس ، أى أن شعرها كان نوعاً من التأملات الفلسفية فى مشاكل النفس وفى مشاكل الحياة الإنسانية ، بينما يفيض شعر فدوى بالحديث عن الحب والتجربة العاطفية أكثر مما يتوقف عند التأملات الفلسفية فى مصير الإنسان .

ويشير المعداوى إلى أنه سوف يكتب قصتها وقصته فى يوم من الأيام ، وهو يعنى فى هذه الكلمات أنه سوف يكتب قصة الشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » مع « المعداوى » نفسه ، والحقيقة أنه لم يكتب شيئاً فى هذا المجال ، بعد المقال الذى نشره فى مجلة الرسالة ثم نشره بعد ذلك فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » .

ويشير المعداوى كذلك إلى أن « ناهد » كانت تتنبأ بأنها ستموت ، وهو ما حدث بالفعل . حيث ماتت فى فجر شبها سنة ١٩٥٠ ، ويشير المعداوى إلى أن فدوى هى الأخرى تتنبأ لنفسها بالموت وتعليقاً على هذا التنبؤ يقول « . . . أما فى هذه المرة فيحدثنى قلبى حديثاً آخر كله أمل وكله رجاء ، وما تعود قلبى أن يكذب علىّ كلما فزعت إليه أطلب الأمان من الغد المجهول . . دعيك إذن من هذه الخواطر السود ، فما كانت الحياة يوماً تستحق أن نلقاها وفوق أعيننا منظار أسود . . » .

وفى هذه الرسالة نحس أن العلاقة بين فدوى والمعداوى قد بدأت تتجاوز حدود الصداقة إلى حافة الحب ، وإن كان من الواضح أن فدوى كانت تحوم منذ البداية بأسئلتها حول قلب المعداوى وعلاقته بالمرأة ، ولكن رسالة المعداوى العاشرة ، والتى هى موضوع هذا التعليق ، تنبئنا بأن فدوى قد تجاوزت التلميح إلى التصريح ، وأنها الآن إنما تشعر بحب صريح نحو المعداوى ، وأنها تتساءل : لماذا لم

يتحرك قلب المعداوى لها ولم يتجاوب معها حتى الآن ؟ ، وأخذت تحاول أن تجد تفسيراً لذلك في تعلقه بالشاعرة المصرية « ناهد طه عبد البر » ، . ونلاحظ في هذه الرسالة أن المعداوى يرد في لباقة على فدوى دون أن يعلن تجاوبه العاطفى الصريح معها ، وهو التجاوب الذى سوف نجده قويا وصريحا من جانب المعداوى فى الرسائل التالية لهذه الرسالة . . . لقد سقطت جميع التحفظات فى رسائل المعداوى الأخيرة فأعلن لفدوى حبه وهواه بعد فترة من المراوغة ومحاولة التأكيد على معانى « الأخوة » بينه وبين فدوى . وفى ظنى أن المعداوى كان يريد من فدوى أن تبدأ بالكلمة الأولى فى « الحب » ، كان يشجعها على ذلك بقوة ولكن بطريقة غير مباشرة ، وكان يغريها بحماسة لها ولفنها ، وكان ينقد بقوة وذكاء الشاعرين المصريين اللذين تجاوبت سعهما فدوى قبل أن تعرفه ، وكأنه بذلك كان يزيل بقايا الماضى من طريقه يوما بعد يوم ، ولكن فى صبر وأناة .

وشخصية فدوى كما يكشف عنها شعرها ذات طبيعة بسيطة غير معقدة ولا ملتوية ، إنها طبيعة صريحة صادقة عاطفية تبحث دائما عن شخص جدير بها تثق به وتعتمد عليه وتلقى برأسها على كتفيه ؛ ولذلك فقد سبقت أنور المعداوى وأعلنت عواطفها له وبدأت تتخلص من كل الماضى وتنسأه . وإنسانه مثل فدوى لابد أن تتأثر بالموقف العملى للمعداوى ، فلقد تحمس لديوانها الأول وسهر على نشره ، وأخذ يحرس اسمها فى الحياة الأدبية ويرعاه ، وعندما صدر ديوانها اعتبره عملا خاصا به ، وأخذ يهديه إلى الأدباء وينتظر كلمتهم فيه ويدعوهم إلى الكتابة عنه ، لقد « توحدا » مع فدوى توحيدا كاملا ، وإذا كان يحاول أن يتحفظ فى رسائله فإنه لم يكن يتحفظ فى سلوكه وتصرفاته ، وإذا كان يؤكد فى رسائله حتى الآن على معانى

الأخوة فهو يؤكد في كل خطوة عملية له على معنى واحد هو : الحب ،
والحب بأوسع معانيه وأعمقها وأشدّها حرارة وقوة .

ولعلني أكون قد فسرت شيئاً من هذا الموقف في الفصل الأول من
هذا الكتاب ، فالمعداوى يريد بكل قوته أن يحب ، ولكنه يخشى من
هذا الحب للأسباب التي حاولت أن أشرحها في الفصل الأول .

على أننا نجد في هذه الرسالة ما يثير ملحوظة ثانوية ولكنها ذات
دلالة ، فالمعداوى يقول لفدوى « . . وحسبك أن أقول لك في
صراحة قد تذهلك : أنني إنسان يعيش دون أن يكون له في الحياة أمل
في غد أخضر . . . » .

وكان المعداوى في أول هذه الرسالة قد أشار إلى قصيدة فدوى « في
سفح عيال » ، وهذه القصيدة كتبها فدوى في البدايات الأولى
لعلاقتها بالمعداوى ، وإذا قرأنا المقطع الأول من القصيدة وجدنا فيه
عبارة « الغد الأخضر » بنصها ، وفي ظني أن استخدام المعداوى في
رسائله لعبارة الغد الأخضر ، إنما هو إشارة واضحة إلى قصيدة فدوى
التي تقول فيها :

ها أنا وحدي في ثنايا الجبل
كأنني أسطورة تائهة
تهمسها الريح بأذن السفوح
ها أنا والفضاء حولي غزل
والكون عشق ورؤى والهه
وأنت في قلبي وعيني روح
يوميء لي نحو غد أخضر
يغفو الشذا في دربه المزهر

وهكذا نجد أن المعداوى كان يغرى فدوى بتصرفاته المتحمسة المتعاطفة بأن تتقدم بعواطفها نحوه خطوات وخطوات ، بينما كان يحاول في رسائله أحيانا أن يصدها عن هذا التقدم ويمنعها من الوقوع في أسر العاطفة ، ولا شك أن المعداوى كان يدرك أن هذه المحاولة في صدد فدوى عاطفيا لن يكون لها بالتأكيد إلا تأثير عكسى ، هنا تشعر الأنثى الطبيعية أن سرا ما في قلب فتاها يجب قهره والتغلب عليه ، وقد ظنت فدوى أن السر هو تعلق المعداوى عاطفيا بالشاعرة المصرية الراحلة « ناهد » ، وكان هذا التصور عند فدوى حافزا لها على مزيد من التعلق العاطفى بالمعداوى لعلها تستطيع أن تنزع من قلبه أثر هواه القديم .

على أننا نلمح في هذه الرسالة لمسة خفيفة من لمسات « الغيرة » في قلب المعداوى عندما يقول لفدوى : « . . . ومهما يكن من شيء فإنى لا أوافقك على هذا الكرم « الحائى » الذى يدفعك إلى إهداء « كتاب » لكل من أهدى إليك قصيدة أو قصة » .

بقيت في هذه الرسالة إشارة إلى أسماء بعض الأدباء وهم : الأستاذ يوسف الشارونى القصاص والناقد المصرى ، والأستاذ عباس خضر الكاتب والناقد المصرى الذى كان يكتب بابا أسبوعيا في مجلة « الرسالة » بعنوان « الأدب والفن في أسبوع » ، والأستاذ عيسى الناعورى وهو أديب وكاتب أردنى . وهذه كلها أسماء معروفة للقارئ العربى المتابع لحركة أدبنا الحديث .

أود أن أتوقف لحظة عند اسم من الأسماء التى أشار إليها المعداوى في رسالته وهو « الأستاذ صبارو » . . . إنه أديب مصرى قرأت له بعض القصائد والمقالات في مجلة « الرسالة » في أواخر عهدها ، واسمه الكامل

« عثمان عبد الرحيم صارو » ، ولعله كان واحدا من رجال التربية والتعليم في مصر ، وكان يعيش في الصعيد بحكم عمله أو بحكم نشأته ، واهتمام فدوى طوقان به وسؤالها عنه يعود إلى أنها كانت قد جاءت إلى مصر في زيارة لها سنة ١٩٥٠ ، وكتبت عن هذه الزيارة قصيدة جميلة بعنوان « في مصر » نشرتها في مجلة « الرسالة » ثم ديوانها الأول « . . وحدي مع الأيام » ، وفي هذه القصيدة تقول وأنا أنقلها هنا بنصها :

يا مصر ، حلم ساحر الألوان ، رافق كل عمري
كم داعبت روحى رؤاه فرف روحى خلف صدرى
حلم كظل الواحة الخضراء في صحراء قفر
أن أجتلى هذا الحمى ، وأضمه قلبا وعين
واليوم ، في حلم أنا ، أم يقظة أم بين
صدحت بقلبي إذ وطئت ثراك أنغام سواحر
فكأنما في قلبي المأخوذ غنى ألف طائر
وغرقت في أمواج إحساس بعيد الغور فائز
أنا هنا ؟ أنا هنا في مصر في الوادي النيل ؟
أنا هنا في النيل ، في الأهرام ، في ظل النخيل ؟
وتلفتت عيناي في دهش ، وفي لهف غريب
ماذا ؟ هنا الدنيا الخلوب تثير أهواء القلوب
ماذا ؟ هنا نار الحياة توج صارخة للهب
في كل مجلى فتنة ، رقصت وسحر مد ظله
ماذا ؟ أمصر أم رؤى أسطورة من ألف ليله
كيف اتجهت تجاوب وصدى لموسيقى الوجود
في النيل يعزف لحنه الأبدى للشط السعيد

فى وشوشات النسمة المعطار ، فى النخل الميود
 حقى النجوم هنا أحس لهن ألحانا شجيه
 حقى السحاب إخاله تحدوه موسيقى خفيه
 يا مصر ، بى عطش إلى فرح الحياة إلى الصفاء
 يا مصر ، نحن هناك أموات بمقبرة الشقاء
 لا يطمئن بنا قرار . . لا يمانقنا رجاء
 لا شىء إلا ضحكة الهزء المرير على المباسم
 كالضحكة الخرساء قد ييست على فك الجماجم
 نفسى مصدعة . . فضمينى لأنسى فيك نفسى
 قست الحياة وأترعت بمرارة الآلام كأسى
 والظلمة السوداء مطبقة على روحى وحسى
 فاحنى على وزودينى من مفاتنك الجميله
 هى نهرة لم أدر كيف سخت بها الدنيا البخيله
 ياليتنى يا مصر نجم فى سمائك يخفق
 ياليتنى فى نيلك الأزلى موج يدفق
 ياليتنى لغز ، أبو الهول احتواه مغلق
 تمهى وتنسحق الدهور مواكبا ، وأنا هنا
 بعض خفى من كيائك لست أدرك ما أنا
 يا مصر ، حلم ساحر الألوان رافق كل عمرى
 كم داعبت روحى رؤاه ، فرف روحى خلف صدرى
 حلم كظل الواحة الخضراء فى صحراء قفر
 أن أجتلى هذا الحمى . . وأضمه قلبا وعين
 واليوم فى حلم أنا أم يقظة ؟ أم بين بين

هذه هى قصيدة فدوى « فى مصر » وهى قصيدة رائعة وتكشف

بوضوح معنى الأمل الذى كانت تمثله مصر بالنسبة للعربى الفلسطينى فى تلك الأيام البائسة - ١٩٥٠ - التى تلت قيام دولة إسرائيل حيث كان الحزن يسيطر على روح الفلسطينيين ويملؤها بالآلم ، ومن ناحية أخرى فقد كانت مصر تمثل بالنسبة لفدوى معنى الحضارة والتقدم والحرية الاجتماعية ، فى مقابل ما كانت تعانيه فى نابلس من حياة اجتماعية مغلقة جامدة ، لا تناسب روح فدوى التى تريد أن تنطلق فى حرية ، وأن تعبر عن نفسها بلا قيود ولا عقبات ، كانت مصر بالنسبة لفدوى ترمز للأمل العام فى التحرر من الصهيونية، وكانت ترمز - وهذا هو الأساس الوجدانى والفكرى فى قصيدتها - لمعانى التحرر الاجتماعى والإنسانى من قيود التخلف الحضارى الذى كانت تعاني منه فى مجتمعها الضيق المغلق ، وهذا المعنى هو سر هذه الهزة الوجدانية الصادقة التى تعبر عنها فدوى فى قصيدتها الجميلة بعد أن رأت مصر لأول مرة .

بعد أن نشرت فدوى هذه القصيدة بأسابيع نشر الأستاذ « عبد الرحيم عثمان صارو » قصيدة بعنوان « زائرة الحمى » أهداها إلى فدوى طوقان بقوله « إلى شاعرة العواطف النبيلة الأنسة الفاضلة فدوى عبد الفتاح طوقان . . . تحية إعجاب وتكريم » وقد اختار الشاعر عنوان قصيدته « زائرة الحمى » من قول فدوى فى مطلع قصيدتها :

يا مصر ، حلم ساحر الألوان ، رافق كل عمرى

.. .. .

.. .. .

أن أجتلى هذا الحمى ، وأضمه قلبا وعين

وجاءت قصيدة الأستاذ « صارو » بعد ذلك خماسية ومن البحر نفسه الذى كتب منه فدوى قصيدتها ، وقصيدة « صارو » قصيدة جميلة رقيقة دافئة مليئة بالصدق والنشوة الروحية ، أنقلها هنا بأكملها لعذوبتها وقيمتها الذاتية من ناحية ، ولما تسجله من صبور للحياة الأدبية العربية فى أوائل الخمسينات ، ولما تلقى من ضوء بسيط على شاعر مصرى مجهول ربما لو ساعدته الظروف الأدبية والواقعية لقدم شيئا للأدب أكثر مما قدمه وهو قليل ومجهول عند الأدباء العرب .

يقول الشاعر عبد الرحيم عثمان صارو الذى كتب قصيدته من مدينة « طهطا » بالصعيد :

أهلا بزائرة الحمى ، أهلا بمقدمك الأغر
بأحب شاعرة تطالع خاطرى بأحب شعر
ينهل من شفق العواطف والخيال المستسر^(١)
أنى حلت من الحمى ، حيثك جانحة وعين
أهلا بزائرة الحمى ، عفوا فلسنت من الزوائر
لست الغريبة عن حمى ، وإن تباعدت المخاض^(٢)
عفوا فأنت شقيقى فى الروح ، فى نسب المشاعر
وحماك^(٣) والهفى عليه من الذئاب ، من الدخيل
هو ما علمت جوى حمى ودمع أهداب النخيل
أختاه . . أية فرحة طافت على وتر القلوب
فترنثت خفقاتها - طربسا - بمقدمك الحبيب

(١) المستسر أى المخفى .

(٢) المخاض من الخضار أى النبات والاصول .

(٣) أى فلسطين .

أهوى أعبر عن شعور النيل بالكلم الرغيب
فأرى مقاليد البيان لدى عاصية مدله
فلتعذريني إن عبيت فلم أبين إلا أقله
لوددت لو أنى قدمت إليك من جوف الصعيد
أروى النواظر بالتلاقى والنواظر بالنشيد
لكنها بعض القيود ، وبعض أغلال الوجود
وشواغل قصت خطاى ، وزهرتاي الأدمية^(١)
أختاه هذى مصر في حلل الصباحة والرواء
والنيل نشوان الضفاف يتيه من فرح اللقاء
فترشفي كأس الهناء ، ورددي لحن الصفاء
وأنسى به شكوى الزمان فقد يؤوب إياب نادم
قدح المقادر لم يزل متنقلا فوق المباسم
لم تشتكين من الزمان وما عدوت حدود أمس ؟
لا تنصق ليأس ، ما خلق الشباب نديم يأس
من كان مثلك في يديه معارف الدنيا الجميله
جعل المسرة في الحياة وفرحة الدنيا سبيله
أختاه ألف تحية لك من قلوب تخفق
لو كان ينبوع البيان على فمي يتدفق
لنظمت ما زخر الفؤاد به وألوى المنطق
إن لم تكن كل المنى ذى ، فلتكن رمز المنى
شتان بين جناحك الضافي وخافقي^(٢) أنا
أهلا بزائرة الحمى ، أهلا بمقدمك الأغر

(١) أى ابتائى .

(٢) الخافية هى الريشة المخفية في جناح الطائر .

بأحب شاعرة تطالع خاطري بأحب شعر
ينهل من شفق العواطف والخيال المستسر
أنى حللت من الحمى ، حيتك جانحة وعين
وهفت تقبل خطوك الحان شفاه الضفتين

تكشف لنا هذه القصيدة البديعة عن المكانة التي استطاعت فدوى طوقان أن تحتلها بسرعة في الأوساط الأدبية المصرية سنة ١٩٥٠ ، أى بعد سنوات قليلة من بداية نشر قصائدها على الناس في القاهرة ، ولم تحتل فدوى مكانتها فقط في أوساط المثقفين المصريين في العاصمة ، بل احتلت هذه المكانة وكسبت هذه الشعبية الأدبية في أوساط الأدباء المصريين المتشربين في الأقاليم ، مثل هذا الشاعر الأديب الصعيدى « صارو » الذى كتب قصيدته تعبيراً عن فرحته بزيارة فدوى لمصر ، والذى كان يتمنى أن يأتى إليها من الصعيد - :

لوددت لو أنى قدمت إليك من جوف الصعيد

على أننا نلاحظ على قصيدة الشاعر صارو أنه لم يدرك قضية فدوى تماماً ، فالحزن الذى تعانيه فدوى مصدرة مأساة وطنها من ناحية ، ومشكلة بيئتها الاجتماعية من ناحية أخرى . . . ولذلك فالشاعر يستنكر على فدوى حزنها ويرى فى ذلك تناقضاً مع شبابها الذى ينبغى أن ينبض بالفرح ، ويكفيها كما يقول الشاعر أنها فنانة موهوبة تملك قيامة الشعر الجميل ، إن هذا الشاعر الصعيدى لم يستوعب مشكلة فدوى بصورة كاملة ؛ فجاءت قصيدته مجرد تحية جميلة من قلب طيب برىء ينظر إلى الحياة نظرة « ريفية » بسيطة ، وهذا هو فى رأى ما أعطى للقصيدة مسحة لا شك فيها من الجمال والعذوبة ، فالبساطة والبراءة بل السذاجة أحياناً تحمل كلها شيئاً من ملامح الفن

الجميل الأصيل ، ويكفينا من هذه القصيدة أنها تحمل ترحيب رجل
صعدي طيب وموهوب وصاحب عاطفة أبوية كريمة بإنسانة وفنانة
يعتز بها ويفنها الجميل .

الرسالة الحادية عشرة

فدوى . . يا قطعة من نفسى :

كانت رسالتك الأخيرة أجمل رسائلك جميعا ، أتدرين لماذا ؟ . .
لأنها حملت إلى صورة ، ولأن الصورة قد نقلت إلى ابتسامة . . .
ابتسامة حلوة مشرقة ، فيها لأول مرة احتفاء بالحياة ، لقد كانت
الصورة يا فدوى صورتك ، وكانت البسمة بنت شفيتك . . ولقد
نظرت إلى هذه المولودة المرححة وهى تستقبل الحياة على « مهد » ثغرك
فراعنى منها أنها ابنة « طبيعية » وليست « متبناة » . .

صدقينى إذا قلت لك إن « مرصد » الشعور ، أمام هذه
الابتسامة قد سجل « هزة » عنيفة . . هزة فرح غامر وسعادة جارفة
لأنك بهذه الابتسامة الحلوة المشرقة ، قد بدأت تنظرين إلى الحياة من
خلال منظار أبيض . . منظار كم أحب للذين أحبهم ألا تكفربه
أعينهم فى يوم من الأيام . . لقد كنت يائسا من إقناع عينيك بفائدة
هذا المنظار ، وهى أن ترى من خلال عدسته الصافية ، كل مشاهد

الحياة كما رسمتها يد القدر ، بكل ما فيها من أضواء وظلال . . كنت يائسا بالأمس ، أما اليوم ، فإن نسمة رحية عذبة ، بدأت تهب من فجاج الأمل على خبايا الروح . . هذه النسمة قد أثارته بسمه وليدة استقبلت الحياة منذ أيام ، مرحة على مهد ثغرك .

ماذا أقول لك ؟ إننى سعيد حين أرى هذه الطفلة الحبيبة^(١) وقد أنجبتها نصائحى المتواضعة . . وأكون أكثر سعادة لو رأيته تملأ الدنيا « صياحا » فى الغد القريب ، أعنى يوم أن تتحول البسمة الصامتة إلى ضحكة صاخبة . . هكذا فليكن لقاءنا للحياة . . نبث عن المسرات إذا اعترضت طريقنا الهموم ، ونلتمس البسمات إذا اضطربت فى أعيننا الدموع ، ونفتش عن الينابيع إذا لفحتنا فى رحلة الوجود حرارة الصحراء . . إننى حين أطلب إليك أن تبسمنى فى وجه الحياة دائما أكون قد تجاوزت الواقع وأسرفت فى طلب المحال . . ذلك لأن الحياة ليست صافية فى كل وقت وليست جميلة فى كل حين ، وإنما الذى أطلبه هو ألا نستسلم للحظات الأسى والشجن ، حتى لا نشغل ونحن أسرى الظلام عن أن الحياة مليئة بالضياء . .

هل أنت معى يا فدوى وأنا أهدي إليك هذه الكلمات ؟ إن الدنيا التى تلوع أحيانا بقسوتها تروع أحيانا ببهجتها ، فإذا ما غفلنا عما فيها من جوانب مضيئة فليس الذنب ذنب الدنيا ولكنه ذنب المنظار الأسود ، المنظار الذى استسلمت له بعض الأيدي وخضعت لأسره بعض العيون .

لقد قلت لك إننى إنسان يعيش دون أن يكون له أمل فى غد

(١) يقصد المعداوى هنا بالطفلة الحبيبة ابتسامة فدوى فى الصورة التى أرسلتها إليه .

أخضر ، ولقد أدهشتك هذه المفاجأة . . لست أدري لماذا لم يدهشك
قولي الآخر ، وهو أنني على الرغم من هذه الحقيقة أعيش وملء فمي
ابتسامة عريضة . ابتسامة يحسدني عليها كثير من الناس ؟! هنا
يا فدوى موضع الدهشة وهنا يجب أن تكون ! هل معنى هذا أنني لا
أتألم ؟ كلا . . ولكن فلسفتي هي أنني كما أستقبل أحزان الحياة بعمق
فيجب أن أستقبل بنفس العمق أفراح الحياة ، بل ويجب أن يكون
لهذه الأفراح من حفاوة الشعور أوفى نصيب ! لا أستطيع أن أقول لك
إنني هكذا خلقت ، ولكن أقول إنني هكذا تعودت . . عند هذه الكلمة
الأخيرة أود أن تقف وأن تطيلي الوقوف ، لأن كل ما أريده
منك هو أن تتعودي رؤية الأشياء من خلال منظار أبيض ، حتى تظهر
منك الحياة كما ظفرت في صورتك الأخيرة بكثير من أمثال تلك البسمة
البيضاء .

عندنا يا فدوى مثل عامي يقول « من عاشر القوم ثلاثين يوم بقي
منهم » . . إنه مثل صادق في كثير من الأحيان ، ولست أدري لم لم
يصدق عليك هذا المثل مع أنك عاشرت « حنان »^(١) المرححة المبهجة
أكثر من ثلاثين يوما ؟! كيف لم تصبك العدوى من « حنان » ؟ عدوى
المرح والبهجة والانطلاق ؟ يظهر أن هذه العدوى لكى تصابى بها
محتاجة إلى عملية « نقل دم » . . أعنى أن حنان يجب أن تتبرع ببعض
دمها لأختها فدوى خدمة للفن والإنسانية ! عندئذ تنتقل العدوى ،
وعندئذ أستطيع أن أطمئن على مستقبل هذه الابتسامة الوليدة . .
هل تسمحين - إذا أمكن - أن تنقل إليها خالص إعجابي بهذه الحفاوة
الرائعة التي تستقبل بها الحياة ؟ أقول « إذا أمكن » لأننى لا أعلم إذا

(١) هي حنان طوقان أخت فدوى .

كنت قد أطلعتها على ما دار بيننا من حديث ، ولأننى أريد أن يقتصر إعجابى على هذه الناحية وحدها إشفافاً من لسانها الطويل ، فيما لو طلبت إليك أن تنقل إليها إعجاباً بوجهها الجميل . .

إن وجه « حنان » الفاتن يذكرنى بوجه آخر أكثر فتنة . . وجه غابت عن عيني صاحبه ولم تغب عن فكرى معاليه ! هذه الإنسانية هى بطله « من الأعماق » . . القصة الوحيدة التى غمست الريشة فى دماء القلب لأكتبها بالمداد الأحمر ! لقد أثرت أنت الذكريات حين أشرت إلى هذه القصة فى رسالتك الأخيرة ، وكنت صادقة الحدس وأنت تطوفين حولها بأفكارك المتسائلة : لماذا أعيش دون أن يكون لى فى الحياة أمل فى غد أخضر ؟! . . إذن فاسمعى بداية القصة أما القصة نفسها فسأقصها عليك كاملة فى رسالتى المقبلة ، إن فى هذه البداية يا فدوى مفاجأة . . مفاجأة قد تذهلك أكثر مما أذهلتك حكاية « الغد الأخضر » ! . فى يوم ما ، وكان ذلك فى أمسية الربيع تحت سماء القاهرة ، وعند أطراف الصحراء فى « مصر الجديدة » . . هناك فى ذلك « الكازينو » الأنيق الذى يقصده الهاربون من الصخب والضجيج كنت أجلس مع « ناهد » رحمها الله . . كنا نساكن فى أقصى الجنوب من القاهرة . هى على الضفة الشرقية من النيل وأنا على الضفة الغربية . ومع ذلك فلم نكن نستطيع أن نلتقى إلا هناك . فى أقصى الشمال . فى مصر الجديدة . . لم تكن تحب أن يراها أحد . ولهذا كانت تفضل هذا المكان البعيد حتى تأمن عيون الرقباء ، وهى القديسة الطاهرة النقية .

فى تلك الأمسية رتب القدر لقاءً عجيباً . . لقاء ملا قلبى بالأسى وملاً عينها بالدموع . . تلفتت « ناهد » إلى الخلف مرة ثم لاحظت

بعدها أن شيئاً ما قد شغلها عما كنا فيه من حديث ! تلفت مرة ثانية وثالثة وقد ارتسم على محياها سؤال حائر ينتظر منى الجواب . . ومالت على أذن هامة : هناك سيدة تتطلع إلينا في فضول ، في فضول عجيب . . تتطلع إلى مرة ، وتتطلع إليك مرات . . وكأنها تعرفك حق المعرفة . . إنها جميلة جداً يا أنور . . انظر . . ونظرت إلى الخلف لأرى الوجه الفضولي الجميل الذى شغل ناهد بفضوله وجماله . . والتقت العيون في نظرة نفاذة ، مرتبكة ، حائرة ، لا تعرف ماذا تقول . . وكانت لحظة رهيبة من تلك اللحظات التى يحتاج المرء فيها إلى قوة خارقة فوق طاقة البشر ، ليتماسك ، ويستقر ، وهو فى مهب عاصفة شعورية مدمرة ! فى تلك اللحظة عجزت طاقتى الإنسانية المحدودة عن المقاومة . ومن هنا شهدت ناهد بوضوح فوق قساعات وجهى آثار العاصفة . . وروعت القديسة العزيزة وهى تتطلع إلى فى ذهول وتسأل ، ولم تنتظر الجواب لأنها راحت تنظر إلى الخلف مرة أخرى فى فضول ، تريد أن تستشف الحقيقة المستترة وراء سر مجهول . . وماها السر العميق حين ارتدت إلى نظراتها فى لهفة ضارعة ، وضغطت على يدي وهى تهمس فى صوت مبتهل : انظر يا أنور . . إنها تبكى ! وتحاملت على نفسى ، ومرة أخرى نظرت . . وعندما رأيتها تبكى خيل إلى أن الدنيا كلها تبكى . . وفى اللحظة التى نسيت فيها الزمان والمكان وهممت أن أندفع إليها ، ومنديل فى يدي ، لأجفف به دموع الدنيا كانت هى قد غادرت الكازينو فى صمت مثير !!

وهدأت العاصفة قليلاً وبدأت ناهد تسأل من جديد : إن هذه الدموع قد قالت كل شيء . . فمن هى ! وارتسمت على شففى ابتسامة باهتة وأنا أقول : أيهمك أن تعرفها يا ناهد ؟ إذن فاستعدى للمفاجأة . . إنها يا ناهد . . إنها بطلة « من الأعماق » !! وتطلعت

إلى يرحمها الله في شيء من الذعر، والهلع، والشك الملح العاصف
 العنيف وهي تهتف قائلة : ماذا تقول . . بطلّة « من الأعماق » التي
 ماتت . . منذ عامين ؟! أنور . . هل قابلت على محمود طه قبل أن
 تأتي إلى هنا ؟! وقلت وأنا موزع الشعور بين الضحك والبكاء :
 ما هذا يا ناهد . . كيف تظنين أنني قد مررت بحانة « الملاح
 التائه » ؟! إن الحانة كانت هنا منذ لحظات . . الحانة الوحيدة التي
 غبت فيها عن الوعي . . إنها لم تمت يا ناهد كما قلت يوماً للقراء . .
 وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين ، فلأنها قد خرجت في ذلك الحين
 من حياتي . . وليس الموت في حقيقته يا عزيزتي الشاعرة ، إلا خروجاً
 من الحياة . . إنه انصراف . . إنه رحيل . . أتحين أن تعرفي لماذا
 ماتت في الإنسانية الفاتنة التي كانت هنا منذ قليل ؟ إذن فإسمعي قصة
 أضخم تضحية يمكن أن يقدم عليها إنسان . . وحين انتهيت من سرد
 القصة هتفت ناهد من وراء الدموع : لقد كانت تضحيته أعظم ،
 لقد أرغمت أنت على التضحية ، أما هي فقد أقدمت عليها
 راضية . . آه إن نظراتها كانت تتهمني ، والآن فقط أدركت سر هذه
 النظرات . . يا ليتها كانت تعلم . . يا ليت !!

* * *

« هنا صفحتان منزوعتان من هذه الرسالة نزعتهما فدوى ، وقد
 أشارت إلى ذلك في رسالتها التي تلقيتها منها مع رسائل المعداوى ،
 والتي نشرتها بالنص في مقدمة الكتاب ، تقول فدوى : « سترى أنني
 حذفت صفتين من الرسالة المؤرخة في ٤ / ١١ / ١٩٥٢ ففى
 هاتين الصفحتين ورد ذكر أسماء وحديث بصدد تلك الأسماء - وهم
 من نابلس - أؤثر أن أبقيه مطويًا ، وأؤكد لك أن الحديث ذاك لا يغنى

المعرفة ولا يضيف إليها جديدا . . حقا إن فيه دليلا على خفة روح
أنور وحس النكتة لديه ولكن أعتقد أنك وأصدقائه وعارفه لا يعوزهم
مثل هذا الدليل . . »

انتهى كلام فدوى ، ونعود بعد ذلك إلى رسالة أنور حيث يبدؤ الجزء
التالى غير مرتبط تماما مع ما قبله . . يقول المعدادى :

لقد كان تفسيرك لهذه الظاهرة النفسية هو نفس التفسير الذى
انتهيت إليه قبل أن أتلقى رسالتك . . قولى لى : هل اشتغلت يوما بمباحث
علم النفس المرضى ؟ لقد سألتنى عما إذا كنت قد نظمت
الشعر فى يوم من الأيام ، فلماذا لا أسألك بدورى إذا كنت قد قرأت
« فرويد » و « أدلر » فى بحوثهما النفسية ؟ أنا يا فدوى ألقى الحياة
دائما بقلب الشاعر ، ولكنى تعودت أن أعاملها بعقل الفيلسوف ،
ولهذا السبب وحده طغى ضجيج الضحكات فى حياتى على حديث
الدموع . . وسوف لا أتهرب من السؤال المقصود عندما أقول لك :
نعم ، لقد نظمت الشعر فى يوم من الأيام ، وكان شعرا جميلا
يا فدوى ، ولكننى لم أنشر منه شيئا ولن أنشر . . لماذا ؟ لأننى
أصبحت واقعا مغرقا فى الواقعية ولأن شعرى كان رومانسيا مغرقا فى
الرومانسية ٥ إننى اليوم لا أستسيغ الشعر الرومانسى إلا إذا كان
شعرا أنثويا ، لأن الرومانسية هى النزعة الصادقة التى تعبر عن طبيعة
المرأة الخالدة . . أضيق بالشعر الرومانسى لو قاله رجل ، ومن هنا
أصبحت أضيق بشعر أبى القاسم الشابى ، وأحب الشعر الرومانسى
لو قالته امرأة ، ومن هنا أصبحت معجبا بشعر فدوى طوقان . لقد
سألنى الزيات يوما هذا السؤال كما وجهه إلى الكثيرون ، ولقد أجبتهم
بهذا الجواب . . وأصر الزيات ذات مساء على أن يسمع بعض هذا
الشعر فتهربت ، مدعيا أننى نسيتته فلم أعد أحفظ شيئا ، أما أنت

يا فدوى فسأسمعك بعض هذا يوم أن أحضر إلى نابلس . . وعلى ذكر نابلس ، هل حقاً^(١) ؟ أم أن المسألة مما ينطبق عليه قول المنولوج الشعبي في مصر « يا أسامى بلاش في بلاش . . . معانيها رقيقة وسامية » ؟!

وعلى فكرة أيضاً يا فدوى ، هل في نابلس أوتيلات نوم ومطاعم محترمة ؟ لا بد من الجواب بصراحة ، لأنني يوم أن أحضر إلى نابلس فلن أحل ضيفاً إلا على قلوبكم فقط . . إن المسألة في غاية البساطة ، من الممكن جداً إذا لم أجد في نابلس أوتيلات ومطاعم أن أكون معكم طيلة النهار ثم أعود قبيل المغرب إلى عمان أو بيروت ، وهذا حل موفق لمشكلة النوم ، أما مشكلة الأكل فيمكن التغلب عليها بأن يكون حضوري إليكم في شهر رمضان . . ما رأيك . . أنا في انتظار هذا الرأي !

وعلى ذكر هذا اللقاء المنتظر ، أقول لك : يظهر يا فدوى أن بيننا لونا من توارد الأرواح . . لقد ذكرت لي أنك منذ شهرين قد حضرت إلى مصر على جناح الأحلام ، أقسم لك يا فدوى ، أقسم بكل عزيز ، أنك في أحلامي أنا قد حضرت إلى مصر ، والتقينا ، ودار بيننا حديث طويل كله شوق ، وكله مودة ، وكله إخاء . . وأقسم لك يا فدوى . أقسم بكل عزيز أن ذلك أيضاً ، كان منذ شهرين . . ومن يلدرى فقد تكون رؤياك ورؤياك قد وقعتا في ليلة واحدة . . أما أنك قد أفقت من نومك دون أن نلتقى ، فمرجهه إلى تلك الرواسب النفسية التي تتخلف من عالم الأحلام . . إنها رواسب تلك الذكري القريبة التي كان مسرحها الإسكندرية !

(١) هنا كلمة أو كلمات سقطت من المداوى سهواً في الرسالة مما يجعل المعنى غامضاً .

وماذا بقى أيضا يا فدوى العزيزة .. بقيت مسألتان : الأولى هى تلك القصيدة التى نشرت لك فى العدد الأول من « القلم الجديد » لماذا لم ترسلنى إلى هذه القصيدة يوم أن أرسلت إلى شعرك حتى كان يمكن ضمها إلى شعر الديوان ؟ أنا عاتب عليك يا فدوى .. إنها قصيدة مدهشة تستحقين عليها خالص التهنتة ، وأكتفى بهذا حتى لا يملأ نفسك شىء من الغرور !!

أما المسألة الثانية فهى تلك الرسالة الأخرى التى وصلتني داخل رسالتك .. مرة أخرى تستحقين خالص التهنتة على هذا الموقف الحازم الذى انتصرت فيه على نفسك ! ولقد كنت صريحة حين ذكرت لى حكاية الأم التى تخلت عن طفلها .. أنا يا فدوى خبير بقلب المرأة ، ولهذا لم تدهشنى هذه الصراحة ! غير أنى أحب أيضا أن أعالج هذا المرض الأخير .. وفى رأى أن أنجح الطرق فى علاجه هى أن تبعدى عن نفسك عوامل الإثارة ، أقصد العوامل المادية ، أقصد تلك الرسائل التى تحتفظين بها والتى بعثت منها إلى بواحدة .. هل أمزقها أم أرسلها إليك لتمزيقها أو لترديها إليه كما فعلت ذلك حيال إنسان آخر ؟! أرجو أن تقتنعى بجدوى هذا العلاج .. وعلى ذكر ذلك الإنسان الآخر ، من هى أختك التى كانت قد حضرت معك إلى الإسكندرية ؟ هل هى حنان ؟ وهل أخوك الذى كان معكما هو رضى ؟ معذرة من هذه الأسئلة الإضافية التى مبعثها أننى أريد أن أتحدث إليك وأطيل الحديث ، ودمت لمن يذكرك دائما :

١٩٥٢ / ١١ / ٤

أنور المعداوى

تعليق على الرسالة الحادية عشرة

يتحدث المعداوى في هذه الرسالة عن علاقته العاطفية الأولى والأساسية في حياته ، وهى تلك العلاقة التى كتب عنها قصته أو مقالته الوجدانية التى سماها « من الأعماق » ، وقد حاول المعداوى أن يكتب القصة عدة مرات ، وكانت « من الأعماق » هى قصته الأولى ، كما كتب بعد ذلك قصة قصته أخرى هى « من وراء الأبد » وترجم عددا من القصص القصيرة عن اللغة الفرنسية ، كما كتب أيضا قصة « مدام ريكاميه » التى تعتمد على مادة واقعية من حياة المجتمع الرافنى فى القرن التاسع عشر والتى اقتبسها من بعض المراجع الرافنية ، وقد أشرنا إليها فى مقدمة هذا الكتاب . وهذه - فيما أعلم - كل محاولاته فى هذا المجال وأقصد به مجال القصة .

نعود بعد ذلك إلى قصة « من الأعماق » التى يشير المعداوى إلى بطلتها فى هذه الرسالة ، إن هذه القصة - كما قال لى المعداوى مرارا -

تصور حبه الأول والأكبر في حياته كلها ، ولقد كانت بطلتها كما روى
لى فاتنة الجمال^(١) ، وقصة « من الأعماق » تكاد تكون نوعاً من
التصوير الواقعي المباشر لحكاية هذا الحب باستثناء نهاية القصة التي لم
تكن واقعية كما قال المعداوى في رسالته . . ففي القصة كتب
المعداوى أن البطلة قد ماتت ، وفي هذه الرسالة يقول إنها لم تمت .

ولابد من الإشارة هنا الى أن « من الأعماق » ليست قصة بالمعنى
الفنى المعروف ، بل هى أقرب إلى أن تكون مقالة وجدانية صور فيها
الكاتب مشاعره الشخصية من خلال بعض الأحداث التي مرت
بحياته .

وقصة « من الأعماق » ليس فيها أحداث كثيرة ، فالمعداوى
يتحدث فيها عن البطل بضمير الغائب ، ويتحدث عن البطلة دون
أن يسميها ، وتتلخص القصة في أن البطل الذى يوحى لنا المعداوى
بأنه هو الكاتب نفسه قد أحب البطلة وأحبته ، ونستطيع أن نتوقف
هنا لنقرأ - مقطعا من هذه القصة - إذا جاز لنا أن نسميها قصة - وهو
مقطع يصور لنا الحب بين البطل أى المعداوى وبين البطلة التي لا
نعرف اسمها . . يقول المعداوى :

« . . . وفي تلك الدار من ذلك الحى كان هواه . . يذهب إليها
مع الصبح . . وحين يقبل الليل ، وكلما هزه الشوق وطال الحنين ،
ولن ينسى كيف كانت تستقبله الدار يوم كان يقصد إليها ، ملء يديه

(١) لم يذكر لى أنور المعداوى اسم هذه الحبيبة ، وإن كان قد أعلن بذلك ، وقد سمعت من
أحد الأصدقاء أنها المثلة « م . ف » ، وكانت في عصرها من أجمل الجميلات ، وهى
من أصل ألماني ، وليس عندي ما يثبت صحة هذا الكلام أو ينفيه ، وما زالت هذه
التمثلة الكبيرة على قيد الحياة .

زهر ، وملء عينيه أمل . . وملء قلبه حب . . وملء نفسه دنيا من الأحلام . . أبدا لن ينسى الوجه الذى كان يتلقاه باليدين حين يقبل ، وبالروح حين يجلس ، وبالدهاء حين ينصرف مودعا إلى لقاء قريب . . ولن ينسى أنها كانت تهوى الأدب ، وتعشق الفن ، ويملك عليها المشاعر كل معنى جميل . . ولن ينسى أن صلته بها كانت عن هذا الطريق الذى جمع بين قلبها وقلبه . . وبين طبعها وطبعه ، وبين شعورها وشعوره . . ومن أجل هذا كله كان يدفع إليها بكل كتاب يقرؤه . . وكل مقال يكتبه . . وكل أثر من آثار الفن يعلم أنه يلقي من نفسها هوى ورعاية .

لقد كانت تعجب به حين يتحدث ، وحين يقرأ ، وحين يكتب . . أما هو ، فيشهد أنه لم يكن يكتب إلا لها ، لها وحدها ، لم يكن يهيمه أن يرضى عنه الناس ما دامت هى راضية ، ولم يكن يحفل بأن يتحدث عنه أحد ما دامت هى تتحدث عنه . . ولقد بلغ به الغرور وهو فى غمرة إعجابها به حدا جعله يعتقد أن ليس هناك من يكتب خيرا منه ، ولا من يفهم خيرا منه ، ولا من يتذوق آثار الأدب والفن خيرا منه . . وكان حين يسألها عن أى المجلات الأدبية تحب ، وحين يتلقى جوابها مشفوعا بأسباب التفضيل والإيثار ، يبعث إلى هذه المجلة بمقال وإلى تلك بغيره . . لقد كان يود دائما أن يرى نفسه إلى جانبها ، حتى إذا عاتبته يوما على غيابه الذى طال اعتذر لها بأنه كان معها بالفكر والروح وحسبها وحسبه أن يلقاها وتلقاه . . بين السطور والكلمات . . »

فى هذا المقطع يصور لنا المعداوى قصة حبه وقصة علاقته بفتاة ؛ ولكنه فى المقطع الأخير للقصة يفاجئنا بهذه النهاية حيث يقول :

« وأبدا لن ينسى يا دار هواه ، يا من كنت وحى قلمه ومهبط
إلهامه وحديث أمانيه . . . لن ينسى حين غاب عنك أياما ثم ذهب
ليرى أهللك فى آخر يوم من رمضان . . ملء يديه كما كان بالأمس
زهر ، وملء عينيه أمل ، وملء قلبه حب ، وملء نفسه دنيا من
الأحلام . . لقد كنت يا دار واجه ، كئيبة ، يمرح فى جنباتك
الصمت ويطبق السكون . . أين يا دار من كانت تفتح له أبواب
الشعور بالدنيا على مصاريعها ؟ أين . . أين ؟ لقد قالوا له إنها
مريضة . . مريضة ؟ وهرع إلى حجرتها مسلوب الوعى مرتاع
الخطو ، ملتاع الضمير ، وأخذ مكانه إلى جانبها وتناول يديها بين
يديه ، وألقى على الوجه الشاحب نظرة سكب فيها من ذوب قلبه كل
ما أدخرته له الليالى وحفظته الأيام .

أما هى فلم تنطق بكلمة ، لقد أطبقت شفيتها الذابلتين وشع من
عينها بريق عتاب لونته الدموع . . .

وأطرق برأسه إلى الأرض برهة ، وطوفت نظراته الذاهلة هنا
وهناك كأنما تبحث عن الألفاظ الحيرى فى ساعة اللقاء الرهيب . . .
واستطاع بعد جهد أن يجمع شتات نفسه ليقول لها : لا أدري كيف
أعتذر إليك . . أحقا كنت غائبا وأنت مريضة . . كيف بالله لم
يحدثنى قلبى ؟ ألا تغفرين لى ؟ . . .

ويا لحظة الغفران كم خففت من وخز ضميره . . وكم حملت من
عبء عذابه ، وكم قربت بينه وبين الله .

ومضى يحادثها وتحديثه ، ويا عجباً . . لقد عاد إلى الوجه الشاحب
إشراقه الفجر ، وإلى الوجنة الذابلة نضارة الزرد ، وإلى النظرة
الفاترة صفاء النبع ، وإلى الجسد المنهك تدفق العافية .

وقالت له وهي تستوى في سريرها جالسة : انظر . . ألا ترى أن العافية قد عادت إلى بعودتك ؟ فأجاب والفرحة الجارفة تهز كل ذرة في كيانه : لو كنت أعلم لعدتك قبل اليوم ، ولما تركتك نهبا لعوادي السقم . . ومضى يحدثها وتحديثه ، ويقرأ لها وتصغى إليه . . وبينها لها من قصور الأوهام . . ما شاءت له فنونه وشجونه » .

ثم يختم المعداوى قصته بهذا المقطع :

« . . . ويودعها وتودعه . . وينطلق عائدا إلى بيته على أن يراها في صباح العيد . . ولم يكن يدرك أن ما رآه من ومضات العافية حين جلس إليها كان أشبه بومضات المصباح قد فرغ زيتة ، فهو يرسل أسطح أضوائه قبل أن ينطفئ ، ويترك الحياة من حوله يخبث في النور تحت قبضة الظلام .

لقد طوى الموت في المساء صفحة عمر ، وغيب القبر في الصباح أحلام عذراء ، ولقد رغبت إليه أن يكتب قصته الأولى ، فإليك يا قبرها يقدم أول قصة وآخر قصة .

وكل حقيقة بعدها وهم ، وكل واقع بعدها خيال ، وكل إيمان بعدها شك ، وكل وجود بعدها عدم . . . وكل معنى من معاني الخير والجمال بعدها هباء . . » .

وقد نشر المعداوى هذه القصة في العدد ٧٩١ من مجلة « الرسالة » ، وهو العدد الصادر في ٣٠ أغسطس ١٩٤٨ ولهذا التاريخ مغزى خاص سأشير إليه بعد قليل .

من الواضح في رسالة المعداوى إلى فدوى أن بطلته « من الأعماق » لم تمت ، وأن الذي حدث هو فراق بينه وبين حبيبته لسبب ما ، فهو

يقول في رسالته إلى فدوى : « إنها لم تمت كما قلت يوما للقراء ، وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين ، فلأنها قد خرجت في ذلك الحين من حياتي وليس الموت في حقيقته إلا خروجا من الحياة . . » .

لم يشرح المعداوى سبب فشل علاقته ببطله « من الأعماق » ، وقد سمعت منه مرارا قوله بأن بطله « من الأعماق » لم تمت ولكنها خرجت من حياته ، إلا أنني لم أستطع أبدا أن أحصل على تفسير لفشل العلاقة .

وكان المعداوى دائما ينتهز الفرص المختلفة ليتحدث عن بطله « من الأعماق » ، بل كان أحيانا يفتعل هذه الفرص ، كما نرى في رسالته إلى فدوى ، حيث انتقل من حديثه عن جمال « حنان » أخت فدوى إلى الحديث عن جمال ببطله من الأعماق التي كانت - عنده - أكثر جمالا وفتنة .

ويروى المعداوى في هذه الرسالة واقعة له مع الشاعرة المصرية « ناهد عبد البر » التي أشرنا إليها مرارا في الصفحات السابقة ، وفي ظني أن هذه الواقعة لم تحدث ، كما أشرت من قبل ، فقد حدثني المعداوى عن ناهد كثيرا ، وأكد لي أنه لم يرها على الإطلاق ، وأن كل ما كان بينها هو أحاديث تليفونية ثم قصائدها التي كانت تبعثها إليه لينشرها في مجلة « الرسالة » أو في جريدة « الأهرام » .

وفي اعتقادي أن قصة لقاءه بناهد في « كازينو » مصر الجديدة لم تحدث ، فالقصة التي يرويها في رسالته إلى فدوى غريبة بعض الشيء . . أن توجد امرأة وحيدة ، ثم تنظر إليه وتبكي ، ثم تخرج مسرعة دون كلام . . . ذلك خيال من خيالات المعداوى البريئة التي كان يبتكرها أحيانا لخدمة غرض من الأغراض ، والغرض هنا هو أن يعرض أمام فدوى علاقاته العاطفية المختلفة . . .

وهناك دليل يجعل الشك في هذه القصة التي يرويها المعداوى أقرب ما يكون إلى اليقين ، فهو يقول للشاعرة ناهد ، إنها لم تمت يا ناهد كما قلت يوما للقراء . . وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين فلأنها قد خرجت في ذلك الحين من حياتي . . وليس الموت في حقيقته يا عزيزتي الشاعرة إلا خروجا من الحياة . . إنه انصراف ، إنه رحيل » .

لقد كتب المعداوى قصته « من الأعماق » في أغسطس سنة ١٩٤٨ . . . وهو يقول للشاعرة ناهد مشيرا إلى قصة « من الأعماق » وإذا كنت قد قلت ذلك منذ عامين . . الخ » ، ومعنى ذلك أن لقاء المعداوى مع ناهد كان في أغسطس سنة ١٩٥٠ أو بعد ذلك ، وإذا علمنا أن الشاعرة ناهد كانت قد ماتت في أغسطس سنة ١٩٥٠ بعد مرض استمر عدة شهور فإن شيئا ما يكون غير حقيقى في هذه القصة ، لقد نسى المعداوى تاريخ وفاة ناهد ، فتخيل القصة كما تخيل من قبل وفاة بطلة « من الأعماق » .

من ناحية أخرى تقول الشاعرة ناهد للمعداوى في هذه القصة التي أراها خيالا في خيال : « . . أنور هل قابلت على محمود طه قبل أن تأتى إلى هنا ؟ » . . . ومعنى هذا السؤال الذى توجهه ناهد للمعداوى هو أن المعداوى قد لقي الشاعر على محمود طه وشرب معه خمرًا جعلته يتخيل بعض الأشياء . . . وهنا أيضا يلقي لنا المعداوى بدليل آخر غير مقصود على ما فى قصته من خيال ، فإذا كانت هذه القصة قد وقعت بعد نشر « من الأعماق » بستين ، فمعنى هذا كما أشرت فى السطور السابقة أن هذا اللقاء مع الشاعرة ناهد قد تم فى أغسطس سنة ١٩٥٠ أو بعد ذلك . . . وفى هذا التاريخ لم تكن ناهد وحدها قد ماتت بل كان على محمود طه أيضا قد مات قبل ذلك وبالتحديد فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٩ ، فلا معنى لأن تقول له الشاعرة : هل قابلت على

محمود طه قبل أن نحضر إلى هنا . وهذا كله يقطع بأن قصة لقاء المعداوى مع الشاعرة ناهد كانت خيالاً من خيالاته البريئة .

والواقع أنه لا لوم على المعداوى ؛ فقد كان يكتب رسالة خاصة ولم يكن يكتب دراسة يتحرى فيها الحقائق ويلتزم فيها بالدقة التامة ، لقد كان المعداوى يكتب ما كتب بدوافع نفسية خاصة ، وهى دوافع مقبولة و بريئة فى علاقة مثل علاقته بفدوى ، وفى ظنى أنه كان يهدف إلى إثارة فدوى وتحريك عواطفها نحوه بما يروى لها عن علاقاته العاطفية وعن إعجاب ناهد وبطلة « من الأعماق » به : أدبيا وإنسانا فى الوقت نفسه .

أما قصة بطلة « من الأعماق » فقد تعرضت لها فى مقدمة الكتاب ، وحاولت أن أقدم اجتهادى الخاص فى تفسير الفشل العاطفى الذى كان يتعرض له المعداوى باستمرار .

بقى فى الرسالة ما يشير إليه المعداوى إشارة غير واضحة لنا بسبب الورقتين اللتين حذفتهما فدوى من هذه الرسالة . . يقول المعداوى « . . . لقد كان تفسيرك لهذه الظاهرة النفسية هو نفس التفسير الذى انتهيت إليه قبل أن أتلقي رسالتك » . . .

أية ظاهرة يتحدث عنها المعداوى ؟ فى ظنى أنه يتحدث عن ظاهرة « بغض الأهل » التى أشار إليها فى رسالة سابقة ، ولست أدرى ما التفسير الذى وصلت إليه فدوى ؛ وذلك بالطبع لأن رسائل فدوى غير موجودة بين أيدينا .

تمتلىء هذه الرسالة الجميلة كما هو واضح بروح من الألفة والود وخفة الروح ، وكان المعداوى قد أصبح جزءاً من عائلة فدوى . . .

وهذه دائما كانت طريقة المعداوى فى تعامله مع من يحبهم ، فقد كان طليبا عاطفيا مليئا بروح الدعابة والحنان الصادق والثقة بالنفس ، وخاصة فى الفترة التى كان فيها ما زال قادرا على محاصرة أحزانه والتغلب عليها . ولقد كانت هذه الرسالة بالذات هى آخر رسائل المعداوى المتفائلة ، وبعدها بدأت قصته مع الألام والهموم التى انتهت بموته .

الرسالة الشادية عشرة

عزيزتى يا فدوى

أنا واثق من أنك لم تنسى هذا الإنسان الذى يكتب إليك لأنه هو نفسه لم يستطع أن ينساك منذ أن قال لك ذات يوم وداعا . وأنا واثق من أنك قد تساءلت بينك وبين نفسك عن سر انقطاعه عن القراء منذ أربعة أشهر ، حيث كان يلقاهم ويلقاك على صفحات « الآداب » . . ألا ما أطولها فترة مرت عليه ، لأنها كانت حافلة بالألم والعذاب . . وما كان أقسى نهايتها بالنسبة إلى الفكر والشعور . لأن هناك عملية جراحية خطيرة تنتظره بعد أيام . . ولم يكن هناك مفر لأنها الأمل الوحيد فى الخلاص من عذابه ، عذاب الجسم والنفس الذى استمر أربعة أشهر وكأنها أربعة قرون طوال . . وعلى الرغم من هذا كله فإنه ما يزال يحتفظ بابتسامته التى تعرفينها عنه ، ولولا هذه الابتسامة لانهار كل شيء ، وفقد الإيمان بكل شيء . . إن من الأشياء العزيزة عليه ، التى ظل مؤمنا بها حتى هذه اللحظة ، ما كان بينك وبينه من صلوات الروح . . ولهذا فقد آثر أن يكتب إليك قبل

أن يضع مصيره بين يدي الجراح ! لقد كتب إليك من قبل ، يوم تعرض لمثل هذه المحنة ، ولكن بعد أن قدرت له النجاة . . وكم كان يود أن يرجىء هذه الرسالة كما أرجأ تلك حتى لا يزعجك . ولكنه خشى أن يكون في الغيب المجهول ما لا ينتظره ويتوقعه فيحرم من لقاءك . . ولوبين السطور والكلمات . . إنه يعتقد أن دعواتك له لن تذهب هباء لأنها دعوات قلب حزين تركه منذ عام في نابلس . كما ترك دعوات قلب حزين آخر في الريف منذ أيام . . لأنها قلب أمه وقلبك . والقلوب الحزينة دائماً هي أقرب ما تكون إلى الله !!

أنا في انتظار رسالة منك تطمئنني عليك . . تشرح لي فيها كل شيء عن حياتك منذ أن خرجت يوماً من حياتك . . أتذكرين قصيدتك « دوامة الغبار » ؟ لقد بللتها اليوم بدموعي أنا الذي لم أبك يوم أن كتبت « من الأعماق » . . سأحدثك عن وقعها الآن على نفسي في رسالة مقبلة . وسأحدثك كثيراً عن أشياء كثيرة يوم أن أعود إلى الحياة وسأعود بإذن الله . . سأعود إليك مرة أخرى يافدوى العزيرة . . ولا يهمني أن أعود إلى الأدب وإلى القراء !

أنا يافدوى ما زلت أبتسم . . وسوف أشعر أنك بجانبى وأنا تحت مبضع الجراح . ويكفى هذا الشعور لتزداد ابتسامتى إشراقاً وستكونين وحدك بجانبى لأننى أخفيت الخبر عن أمى وأخوات . . وكفاهن ما لقين من أجل . . لقد قلت لك بالأمس وداعاً وأقول لك اليوم : إلى اللقاء .

من المخلص
أنور المعداوى

١٩٥٣ / ١٠ / ٢٤

تعليق على الرسالة الثانية عشرة

يدوى أن هناك رسالة مفقودة بين هذه الرسالة والرسالة التي قبلها ، أقول ذلك لأن المعداوى يبدأ هذه الرسالة بقوله « أنا واثق من أنك لم تنسى هذا الإنسان الذي يكتب إليك » ، لأنه هو نفسه لم يستطع أن ينسأك منذ أن قال لك ذات يوم وداعا . . . » والسؤال هنا هو : متى قال المعداوى لفدوى طوقان وداعا ؟ لابد أن يكون ذلك في لقاء بينهما أو في رسالة منه إليها ، ومن المؤكد أن المعداوى لم يلتق بفدوى طوقان ، ولذلك فلا بد أن يكون قد قال لها كلمة الوداع في رسالة ليست بين أيدينا ، ولابد أن تكون هذه الرسالة قد تسببت في انقطاع الصلة بين المعداوى وفدوى ؛ فالمعداوى يقول في هذه الرسالة « أنا في انتظار رسالة منك تطمئننى عليك . . تشرحين لى فيها كل شىء عن حياتك منذ أن خرجت يوما من حياتك . . » ولابد أن يكون هذا الخروج من حياة فدوى قد تم في الفترة ما بين شهر نوفمبر ١٩٥٢ - وهو تاريخ الرسالة السابقة على هذه الرسالة أو بعدها بقليل - وشهر أكتوبر سنة ١٩٥٣ وهو تاريخ هذه الرسالة التي نعلق عليها .

أغلب الظن أن هناك رسالة أخرى كتبها المعداوى إلى فدوى بعد رسالة شهر نوفمبر ١٩٥٢ بقليل ، وهى الرسالة التى على أثرها وقعت القطيعة بينهما لمدة عام تقريبا .

يشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى المرض الذى يعانيه والعملية الجراحية التى أصبح من الضرورى أن يجربها له الأطباء . أما المرض فهو ذلك الذى أشرت إليه فى الصفحات السابقة وهو مرض « الكلى » حيث كان المعداوى يشكو من « حصوة » كان لابد لإخراجها من إجراء عملي جراحية خطيرة . وعندما تعرض للأزمة المرضية فى المرة الأولى تم علاجه منها بدون « عملية » ، أما الآن فقد أصبح من الضرورى أن يجرى « العملية » الخطيرة ؛ مما أشعره أنه على حافة الموت ، وهذا هو ما دفعه إلى أن يكتب لفدوى هذه الرسالة التى لا يكاد المعداوى يخفى فيها حقيقة عواطفه نحو فدوى حتى ولو بستار شفاف . إنه يجب فدوى ويشعر بحاجته إليها فى وقت المحنة ، وفى الأيام السابقة على العملية الجراحية التى أجراها بعد هذه الرسالة بحوالى شهرين .

ويشير المعداوى فى هذه الرسالة إلى قصيدة « دوامة الغبار » التى كتبها فدوى على أثر الأزمة التى تعرضت لها علاقتها بالمعداوى . والتى لا نعرف لها سببا واضحا . وإن كان المعداوى سيحاول فى رسائله الباقية أن يلقي بعض الضوء على هذه القطيعة وأسبابها ، خاصة وقد كان واضحا أنه هو الذى بدأ هذه القطيعة .

وتكشف لنا قصيدة « دوامة الغبار » عن ألم فدوى بسبب هذه القطيعة ، وعن حيرتها وحزنها ولوعتها المرة وحنينها الجارف للعودة إلى هذه الصلة التى كانت تدفئ حياتها وتعطيها الكثير من الحنان والأمل .

وقصيدة « دوامة الغبار » مثل رسالة المعدادوى تقطعان بأن العلاقة بين فدوى والمعدادوى قد وصلت إلى قمة التجاوب العاطفى على طريقتهما المثالية الرومانسية أى : الحب عن طريق الرسائل والقصائد ، دون أن يزيد الأمر على ذلك خطوة واحدة فى طريق التعارف واللقاء الواقعى .

ونستطيع أن نقرأ قصيدة فدوى كاملة على ضوء ارتباطها بتلك الأزمة التى نشأت بينها وبين المعدادوى . وسنرى فيها - كما رأينا فى الرسالة التى نعلق عليها للمعدادوى - حبا حقيقيا لا شك فيه بين القلبين .

نقول فدوى فى « دوامة الغبار » . . . حيث تكشف لنا فدوى كل الخطوط الرئيسية لقصتها مع المعدادوى :

عام قريب
كانت حياى قبله
شبحا يدب على جديب
متعثرا بالصبحر بالأشواك
بالقدر الرهيب
حتى رآك
روحي تهل على كآبته
فتترعه يداك
فرحا وإشعاعا غريب
عام قصير
سرنا معا فيه على درى الوعر
جنباً إلى جنب ، وملء عيوننا
دفع الشـمـور

والعاطفه
وإذا الحياة على صدى
خطواتنا المتآلفه
خضراء تورق في الصخور
عام ومر
ودجا غبار حولنا
هاجت به ريح القدر
وتلمستك يدي وفي عيني ليل معتكر
وارتاع قلبي
رجعت إلى يدي ميسة الدماء
بثلج رعي
لا صوت منك ولا أثر
ووقفت وحدي
في وحشة التوهان . في يتم الغريب
وقفت وحدي
تصطك روحى في فراغ الدرب من دعر وبرد
وعلى فمى
إشراقة ماتت ، وفي قلبي
تنبؤ ملهم
أنى سألقي العمر وحدي
لا تبعد
وبعثها من غور يأسى
في الفضاء المربد
وبقيت أهتف من قرارة وحشتى :
لا تبعد

أنا خائفه
قلبي الوحيد يحس ، يسمع
دمدمات العاصفه
خلف الفراغ الأسود
أمسك يدي
سر بي ، غبار الأرض منعقد على دنيا غدي
يعمى خطاي المجفلات على طريقي الموصد
هذا الغبار
دوامة دارت بها حولي
أعاصير القفار
تلوى بعمري المجهد
كيف الهروب ؟
والعاصف الجبار يسقى الدرب وحشى المهبوب
شرس الجناح يسوط أقدامى
على القفر الرهيب
والهاويه
تصفى على البعد القريب
إلى صدى أقداميه
بين التواءات الدروب
لا تبعد
وبقيت أصرخ من قرارة وحشى :
لا تبعد
فتبدد الريح النداء مع الصدى المتبدد
وبقيت وحدى
حيرى ، أدور ، أصارع الدوامة الهوجاء

وحدى عبر الطريق الموصد

هذه هى القصيدة الجميلة المؤثرة التى كتبها فدوى عن أزمة العلاقة بينها وبين المعدادى . . والقصيدة - على ضوء التجربة الخاصة التى نبعت - منها تلبو واضحة ويعيلة عن أى تعقيد . إنها تكشف عن الأزمة النفسية للشاعرة ، وتكشف عن الدور الذى لعبته شخصية المعدادى عن طريق رسائله فى نفس فدوى وقلبها وحياتها العاطفية . لقد كانت العلاقة بينهما صادقة وقوية ، وكان المفروض أن تثمر هذه العلاقة وأن تتطور . ولكنها كانت علاقة قائمة بين طرفين كل منهما مثقل بقيود وعقبات لا يمكن أن تنتهى إلا بالحزن والأسى وانقطاع الأمل فى النجاح العاطفى كلما لاح لهذا الأمل بريق فى الطريق .

الرسالة الثالثة عشر

عزيزتى يا فدوى :

هل تعلمين أننى - منذ أن تلقيت رسالتك - أجتاز فترة خشح فيها الألم على حد تعبيرك ؟ أنا والله لا أجاملك ولكنها الحقيقة .. الحقيقة العجيبة التى تشبه المعجزة فى عصر أصبح لا يؤمن بالمعجزات ! حتى أعصابى المنهارة التى أثبت الكشف الطبى أنها قد بلغت أقصى درجات التلف . والتى اضطر بسببها الطبيب إلى أن يرجىء العملية الجراحية شهرا بأكمله . حتى أعصابى هذه قد استردت أكثر مما فقدته من حيوية ونشاط ! وقال لى الطبيب لا تقرأ ولا تكتب . ولا تفكر حتى تنقضى هذه الأيام الثلاثون . . ومع ذلك فقد قررت أن أكتب إليك وأقرأ لك ، وأفكر فيك ! .

قررت أن أكتب إليك لأقول لك إن رسالتك قد هزتنى هذا عنيفا . . وأعمق هزة تعرض لها كيانى كله هى إشفاقك من الكتابة

إلى صديقى سهيل إدريس لتسألني عنى . خشية أن يخبرنى فأذكرك
عنده بما لا تحيين ! ماذا أقول لك ؟ أقسم لك بأمى . وهى قسمى
المفضل بعد الله . أننى فى زحمة الخواطر السود فى يوم عصيب من أيام
مرضى بالريف . كانت لى أمنية واحدة هى أن أصل يوما إلى
القاهرة . لماذا ؟ حتى أستطيع أن أمزق كل رسائلك التى بعثت بها
إلى ، خشيت أن يطلع عليها إنسان بعدى ! وعندما قدر لى أن أعود
تنفسبت الصعداء . لأن الأيدى التى ستعبت بأوراقى ستجد بينها
رسائل كثيرة مماثلة ، ولكنها لن تجد رسائل فدوى . . فدوى التى
لا أريد أن يعلم أسرارها المودعة لدى إنسان !

وحتى هذه اللحظة يضطرب فى أعماقى صراع رهيب . . صراع
بين شعورين خفيين لا أدرى أيهما أصدق ، شعور يقول لى اليوم وكم
ألح على بالأمس : مزق هذه الرسائل لأنك فى يوم قريب ستلقى
الله ، وهذه الوديعة لا تتركها للناس . . وشعور آخر يصرخ بأعلى
صوته حتى يكاد يقيد كلتا يدي : إنك ستعود ، وستعيش بين هذه
الذكريات . . ولن تهون عليك . . أبقى عليها إذن ولا تصدق حديث
الأوهام ! واستمعت للنداء الأخير يا فدوى حتى أرجع إليك ، ألا
ترين أننا مهما صدقناه وملنا إليه فهو نداء المجهول ؟ مهما يكن من
شئ فيكفيك أن أصور لك هذا الصراع لتعرفى أى إنسان هذا الذى
أشفقت عليه يوما من أن يذكرك بما لا تحيين !

وتخيلين أننى ظلمتك . . وتودين أن تعتبى على فى يوم من
الأيام . . لا مفر إذن من أن أقول لك كل شئ ، وأن أكشف لك
عن السر الحقيقى الكامن وراء القطيعة . . ولقد آن أن أتكلم ،
وبصراحة ! ومرة أخرى أقسم لك بأمى ، وهى قسمى المفضل بعد

الله . . أن كل ما سأقوله هنا هو الحقيقة السافرة التي أخفيت بها بالأمس وراء قناع !

لماذا كتبت إليك لأقول لك « مرغما » إننا يجب أن نفرق ؟ نعم لقد كنت مرغما يا فدوى . . كنت أشعر شعورا صادقا أن ما بيننا من علاقة كان شيئا فوق الصداقة وفوق الإعجاب ، أو أنه على الأقل قد تخطى هذه المرحلة في الأيام الأخيرة . . ترى هل أنا مخطيء ؟ لا أظن ! . . وكنت أحس أننا نختفي وراء الألفاظ أونجبر الألفاظ على أن تتجه اتجاهها غير الذي نريد . . يحاول كل قلب أن يفضى بما عنده فلا يستطيع ، فيظل بعاطفته من وراء ستار شفاف صنعته لباقة القلم . . ترى هل أنا مخطيء مرة أخرى ؟ لا أظن ! وأشفقت يا فدوى من الغد . . الغد الذي سيحمل لكل منا بين طياته معاني العذاب . . إن أبلغ العذاب عندي أن تكون هناك عاطفتان متبادلتان ، ثم لا تستطيع أحدهما أن تقول للأخرى بصوت جهير : إنني أحبك . . لأنها تحس من قرارة نبضها أنه حب بغير أمل .

من هنا قلت لك ذات يوم وداعا ، وكنت أعتمد على الزمن . . الزمن الذي تعود الأحياء أن يلجأوا إليه كلما استعصى عليهم حل مشكلة من المشكلات ، هذا الطبيب الذي يعالج مرضاه دائما بتلك الجرعة الخالدة . . جرعة النسيان ! ولكنك يا فدوى تحدت أوامر الطبيب العظيم ونبتت دواءه . . ثم تناولت جرعة أخرى وقدمت لي منها قطرات في « دوامة الغبار » . . وكانت مرة المذاق !

بعد هذا كله من الذي يعتب يا فدوى ؟ أنت أم أنا ؟ ! . . وتقولين إنك كنت على مثل اليقين يوم أن نشرت « دوامة الغبار » من أنها ستصادف من قلبي جذرانا باردة . . لشد ما تظلمين قلبي

يا شاعرة . . . ألا تعلمين أن هذا القلب قد رد على « دوامة الغبار » . . بخفقاته العميقة في « حيرة الفن والإنسانية » ؟^(١) أرجعى إلى ذلك المقال واقرأيه . . لأنك كنت وراء كل سطر من سطره ، حتى لو كانت بدايته تشير إلى إنسانة أخرى هي صاحبة « من الأعماق » . . ويجب أن تعرفي أن هذا المقال كان معدا للنشر في عدد « الآداب » الذى تلا قصيدتك ، ولكن ماذا أفعل وصديقى رئيس التحرير يكتب إلى راجيا أن أكتب عن جبران بمناسبة ذكره ؟ لقد قبلت رجاءه على مضض لأننى لم أكن أحب أن أرجى « حيرة الفن والإنسانية » إلى عدد آخر . . ولا أكتملك أننى أشفقت يومئذ كل الإشفاق من أن تظنى بـ الظنون ، لأننى حملت على « مى » حملة شعواء . . بالله يا فدوى ألم يخطر لك مثلا أننى كنت أعنيك وأنا أتحدث عن مى ؟ صديقى لقد خشيت أن يكون هذا الوهم الطريف قد دار يوما بخلدك !

وتقولين لى تشجع . . يكفى أن أقول لك يا فدوى إن العملية الجراحية التى تنتظرني يفر منها أشجع الشجعان ، ومع ذلك سأقدم عليها . . شىء واحد هو الذى يخيفنى هو أن تعيش أُمى وحيدة . . أنا لم أحدثك كثيرا عن أُمى^(٢) . . لأنها تعيش يا فدوى فى رغد من العيش ، فهى من هذه الناحية لا تحتاج إلى . . بل لعل أنا الذى احتاج إلى معونتها المادية بسبب إسرافي . . إن وحدتها الشعرية هى التى تخيفنى .

(١) خلقت هنا من هذه الرسالة ثلاثة أسطر فى حديث المداوى عن لمة وجدت أن من المستحيل أن تتحملها حياتنا الفكرية وتأخذها كل معناها الطيب المهيض ، وقد تغير الظروف فاستطيع أن أثبت هذه السطور الثلاثة فى طبعة قادمة من هذا الكتاب .

إننى أكتب إليك الآن من مقهى جميل من مقاهى القاهرة والسماء
توشك أن تمطر أو هى تنذر بالمطر ، وليس أحب من المطر إلى قلبى . .
إنه يا فدوى يرطب مشاعرى وينعش فى أعماقى هوامد الذكريات .
ألا ليتك كنت معى لتتذوقى جمال القاهرة تحت المطر ! ما علينا . .
كيف حالك الآن ؟ بل كيف حالكم جميعا ؟ أنا فى انتظار رسالتك
التي أرجو أن تكون باسمه . . ولك خالص الشوق وعاطر التحية من
المخلص :

أنور المعداوى

١٩٥٣ / ١١ / ١٢

تعليق على الرسالة الثالثة عشرة

في هذه الرسالة يحاول المداوى أن يبرر القطيعة التي وقعت بينه وبين فدوى بإرادته وبطلب منه ، والسبب كما يقول المداوى هو أن العلاقة بينهما قد وصلت إلى درجة عالية من الحب العنيف ، وأن هذا الحب سوف يعيش بغير أمل ، وأن هذا كله نوع من العذاب ينبغي تجنبه والقضاء عليه .

وخلال هذه القطيعة كتبت فدوى قصيدتها « دوامة الغبار » ، وكان تأثير هذه القصيدة وما فيها من حزن ولهفة ولوعة كبيرا على المداوى ، كما لعب المرض دورا في التأثير عليه ؛ فعلا يكتب إلى فدوى ويتجاوز سائر التحفظات ، ويعلن في هذه الرسالة إعلانا صريحا صادقا أنه يجب فدوى حبا حقيقيا كبيرا .

وهذه أول رسالة يعلن فيها المداوى عن حبه بصراحة ، وكانت رسائله السابقة تحوم حول هذا الموضوع دون أن تصرح به ، وفي هذه

الرسالة يشير المعداوى إلى مقالة له عنوانها « حيرة الفن والإنسانية » ، وقد نشر المعداوى هذه المقالة في مجلة « الآداب » في عددها الصادر في يونيو ١٩٥٣ ، وجاء هذا المقال على شكل رد على رسالة من الأديب الفنان محمد أبوالمعاطي أبو النجا ، وهو أحد أصدقاء المعداوى وتلاميذه ، وجوهر هذا المقال هو أن المعداوى يشكو من خلوه حياته من المرأة ، ويتحدث عن امرأة معينة فقدتها ، ومن يومها فقد طعم الحياة ، وفي هذه الرسالة التي نعلق عليها ، يقول لفدوى إنه كان يعينها عندما كان يتحدث عن المرأة في حياته ، وإن كان قد أشار إلى امرأة أخرى هي بطللة « من الأعماق » ، وكان في الحقيقة يعنى فدوى طوقان في كل سطر .

يقول المعداوى في رسالته إلى فدوى مشيراً إلى مقاله « حيرة الفن والإنسانية » : « أرجعني إلى ذلك المقال وأقربيه ، لأنك كنت وراء كل سطر من سطره ، حتى ولو كانت بدايته تشير إلى إنسانة أخرى هي صاحبة من الأعماق » .

ويقول المعداوى في مقاله « حيرة الفن والإنسانية » بعد مقدمة يشير فيها إلى بطللة « من الأعماق » التي يقول في رسالته إنه لم يكن يقصدها وإنما كان يقصد فدوى :

« .. أرايت يا صديقي إلى تلك الحيرة .. حيرة الأمس التي كانت أشبه بحيرة الفكرة الشريفة المعذبة التي لم تجد دفء خاطر تأوى إليه ؟ أو حيرة الجندي الذي خرج من المعركة وهو معفر الرأس بغبار الهزيمة .. ثم عاد بعد ذلك ليجد أحبابه تحت ركام الانقراض .. لقد كانت حيرة فيها الشعور بالقلق ، والشعور بالعجز ، والشعور بالضيق ، ومصدر هذه المشاعر المتعددة واحد لا جدال فيه ، هو

فراغ الحياة من امرأة . . امرأة « بعينها » يا ويحنا إذا لم نجدها ،
ويا ويلنا إذا وجدناها . . ثم فقدناها . . ثم عشنا من بعدها نفتش
عن النموذج ، ونبحث عن المثال !

قبل أن يجدها صاحب هذا القلم كان يعيش في مثل حيرتك ،
هذه الحيرة التي يفقد صاحبها الإيمان بكل شيء : الإيمان بالنفس
والإيمان بالدين ، والإيمان بالفن ، والإيمان بكل مثل أعلى يدثر أعجاد
الحياة بوشى الطموح ! كان يسير في طريق الحياة ولا يعرف إلى
أين . . لم يكن له هدف يسعى إليه . . ولم تكن له غاية تسد خطاه ،
ولم يكن له أمل ، كل ما يذكره أنه لقي من مرارة السير في الصحراء
ما لم يلقه إنسان . . لقي فيها الشوك ولقى فيها القيظ ، ولقى فيها
الصخر ، وذاق ما ذاق من سقى الرمال ولفح السمائم ، وحين
وجدتها هتف من أعماقه وهو يصور نقلة الشعور من حال إلى حال ،
ويذكر أنه لمح يوما على البعد واحة ، وأنه وقف مشدوها لا يصدق
عينيه وقال لنفسه : سراب ، ومضى في طريقه لا يلوى على شيء . .
وفجأة ، قالت له قدماء تمهل ، وقالت له عيناه تأمل ، وقالت له
نفسه : من هنا يا صاحبى الطريق . . لقد آن للآغب^(١) أن
يستجم ، وللمجهد أن يستريح وللسفينة الحيرى في خضم الحياة أن
تبلغ الشاطئ .

ونظر إلى السماء نظرة حار فيها دمع واضطرب بريق : واحة في
صحراء . . ونبع يتدفق ماؤه ؟ وزهرة ندية بالعطر فواحة بالأرج ؟ . .
كل هذه الأشياء يا رب له ؟ أين كانت وأين كان ؟ . . وابستم للحياة

(١) الآغب : الإنسان الذى أصابه اللغوب ، واللغوب هو التعب .

من قلبه . . وأضفى عليها من روحه وقبس لها من حبه وألقى بالماضى كله فى مهاوى العدم . . لقد كان يعيش فى حاضره ، حاضره الذى داعبته رؤى من المستقبل الباسم ، ورقصت على حواشيه أطياف من الأمل الوليد ، وانطلقت من أرجائه صبيحة العمر الذى بعث . . هناك حيث ينتظره المجد تدفعه إليه يد حانية ، وقلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وروح برح بها الشوق إلى لقاء روح . . ويا بعد الدنيا التى كانت فى وهمه والدنيا التى تراءت لعينيه !

قال ذلك قبل أن يلقاها . . وحين لقيها وسكبت فى وجوده أول قطرة من قطرات الإيمان . . وعندما تعاهدا على أن يهب كل منهما للآخر نفسه ، ويومه وغده ، وكل دنياه ، لم يكن يعلم أن هناك يوما فى قبضة المجهول سينزع من كتاب العمر كل صفحة سجلت فترة البعث ، وحددت لحظة الميلاد ، إنه اليوم الذى فقدها فيه . . وفقد معها كل ما أنجبت له من أطفال ، أطفال لا تلد مثلهم الأمهات لأنهم كانوا عباقرة . . كان فيهم طفل يهيم بالجمال ويعشق النغم واسمه الفن ، وكان فيهم طفل يذوب حنانا ويفيض رقة واسمه الحب ، وكان فيهم طفل ترسم على قسماته مخايل النبوة وبوادر المعجزة واسمه الإلهام ، خرجت أمهم من حياق فى ليلة عيد ، وخرجوا هم وراءها يشيعونها إلى القبر ، ثم هاموا بعد ذلك على وجوههم فى الطرقات .

أعرفت يا صديقى لماذا فقدت أطفالك . . أو لماذا تعيش بغير أطفال ؟ إن الأطفال العباقرة لا تنجبهم غير أم عبقرية . . امرأة « بعينها » كما قلت لك . . امرأة إذا فقدنا الإيمان بالنفس ، كانت هى اليد الخفية التى تدفعنا بعنف إلى الأمام . . وإذا فقدنا الإيمان بالفن ،

كانت هي الشرارة الفكرية التي تشعل النار في الرماد . . وإذا فقدنا الإيمان بالدين كانت هي السلم الذي نرتضيه لنصعد قدما إلى حقيقة الله .

إنها المرأة التي « تلمح » الدمعة وهي تنحدر من حنايا الضلوع إلى أهداب الجفون ، فتجففها قبل أن تنسكب .

إنها المرأة التي « ترصد » البسمة وهي تتدفق من أغوار الشعور إلى أطراف الشفاه ، فتعانقها قبل أن تنطلق .

إنها تلك التي تفرش طريق الحياة بزهر الشوق ، وترش دروب النفس بعطر الأمل ، وإذا شاءت صبت الزهر والعطر في قارورة الوجدان .

إنها المرأة التي نصطلي دفء هواها ونحن في شتاء العمر فلا تصطك أيامنا من برد الوحدة ولا ترتجف ليالينا من صقيع الوحشة ، ولا تهتز نوافذ أرواحنا كلما عصفت من حولها رياح الفراغ . إنها تلك التي تغني مشاعرنا فلا تتسول ، وتؤوي عواطفنا فلا تتشرد ، وتشعرنا ونحن بجوارها أننا لم نكن يوما فقراء . . بلا ثروة . . وغرباء بلا وطن .

هذه المرأة ، يبحث عنها يا صديقي . . فتش عنها في كل مكان . . وإذا لم تجدها اليوم فعش على الأمل الجميل في أنك ستجدها غدا ، إن جمال الأمل يتمثل في قدرته على جعل الخيال واقعا والوهم حقيقة .

وإذا وجدتها يوما ما فهنيئا لك . . عندئذ ستشعر بكبريائك

كمخلوق ، وبِعظمتك كخالق^(١) . . . وعندئذ لن يحار الفن . . ولن تحار الإنسانية . . » .

في هذا المقال يتحدث المعداوى في حزن ولوعة وشاعرية عن « فدوى طوقان » وعن فترة الانقطاع بينهما ، وذلك - بالطبع - دون أن يذكر اسمها ، وهو يسجل هنا أنه فقد هذه المرأة التي يحبها ، ويسجل أيضا أن فقدانه لها قد أحدث اضطرابا كبيرا في حياته الوجدانية بل وفي شتى جوانب حياته الأخرى .

ولكن هذا المقال الرومانسى الجميل لا يكشف لنا عن أسباب فقدانه لحبيبته ، كما أنه لم يكشف لنا عن هذه الأسباب في هذه الرسالة التي نعلق عليها إلا بقوله : « إنه يخاف من هذا الحب لأنه حب بغير أمل ، فلمّاذا يرى المعداوى أن حبه لفدوى بغير أمل ، ولمّاذا حاول أن يقطع ما بينه وبين فدوى ؟ تلك كلها أسئلة تحتاج إلى تفسير ، وقد حاولت أن أفسرها في مقدمة الكتاب ، وخلاصة رأيي أنه كان هناك شيء ما يمنع المعداوى من الزواج ، وأغلب ظنى أنه كان يعاني من مرض أخفاه عن الناس غير مرض الكلى ومرض ضغط الدم ، وأنه عجز عن التغلب على هذا المرض والشفاء منه ، بل إن أغلب الظن أنه لم يصارح به أطباءه حتى يعالجوه منه ؛ لشدة كبريائه واعتزازه برجولته .

يشير المعداوى بعد ذلك إلى مقاله عن « مى » ويقول لفدوى « . . ولا أكتملك أننى أشفقت يومئذ كل الإشفاق من أن تظنى بى الظنون

(١) الخالق بمعنى خالق الفن أى الفنان .

لأننى حملت على « مى » حملة شعواء . . بالله يا فدوى ألم يخطر على بالك مثلاً أننى كنت أعنيك وأنا أتحدث عن مى ؟ صدقنى لقد خشيت أن يكون هذا الوهم الطريف قد دار يوماً بخلدك . . »

لقد نشر المعداوى بحثه عن « مى » فى مجلة « الأدب » ثم جمعه بعد ذلك مع مجموعة من الدراسات الأخرى فى كتابه « كلمات فى الأدب » ، وقد أشرنا إلى هذا المقال فى المقدمة ، ومضمون هذا المقال - كما سبق أن قلت - يقوم على اتهام « مى » بأنها معدومة الأنوثة ، وأنها لم تكن شخصية طبيعية فى هذا المجال ، وكان المعداوى يتحدث عن « مى » من خلال رسائلها مع جبران ، على أن فدوى لتكن مثل « مى » - كما صورها المعداوى - تحاول أن تخفى عواطفها الأنثوية ، ولكن الذى كان يفعل ذلك هو المعداوى ، حيث كان يحاول أن يخفى عواطفه كرجل نحو تلك التى يحبها ويكتب إليها ، وهو الذى حاول أن يهرب من هذا الحب ، بل لقد هرب فعلاً وبادر بالقطيعة عدة شهور ، وقال لفدوى وداعاً ، وتوقف عن الكتابة إليها ، ثم عاد يكتب من جديد عندما دامه المرض وأحس بمראה الوحدة الوجدانية .

ولست أشك فى أن المعداوى ، حتى دون أن يقصد ، كان يضع أمامه صورة فدوى وهو يكتب مقاله عن « مى » . . فقد كان يناقش « مى » من خلال رسائلها مع جبران ، وكان جبران يحب « مى » دون أن يراها أو تراه ، وهى حالة مشابهة من ناحية الإطار العام لحالة فدوى والمعداوى ، حيث قامت بينهما عاطفة من خلال الرسائل دون أن يكون هناك لقاء مباشر . وربما لم يكن المعداوى يقصد فدوى وهو يتحدث عن « مى » ، ولكنه كان على الأقل يحذر فدوى تحذيراً غير مباشر من أن تتعرض لاتهام مثل اتهامه لى بأنها كانت تعاني - كما يقول - « من الأنوثة المقتولة » ، وإذا ما قتلت الأنوثة فى أعماق المرأة فقد قتل

إحساسها بالرجل وانمحت الفوارق الجنسية في عالم الشعور . . يبدو الرجل في منظرها وهو لا يختلف عنها في شيء ، لأنها حرمت حاسة الجنس وسلبت توجيه الغريزة » .

إن اتهام المداوى لمى ليس اتهاماً لفلوى ، ولكن كتابة هذا المقال في فترة القطيعة بين المداوى وفدوى يعني بصورة لا شعورية على الأقل أن المداوى يحاول أن يؤثر في فلوى ويحذرها من أى موقف متردد من جانبها إزاءه . . . وموقف المداوى هنا معقد ولا شك ؛ فهو الذى بدأ بالقطيعة ، ومع ذلك فهو الذى يحذر فدوى بطريقة غير مباشرة !! ولا تفسير لهذا الأمر إلا أن المداوى ، هذا الكاتب الفنان الحساس ، إنما كان يعاني من قلق كبير ويحس بمشكلة من المشاكل القاسية التى لم يستطع أن يتغلب عليها ، وقد حاولت أن أفسر هذا الأمر في مقدمة الكتاب . . وخلاصة هذا الأمر أنه كان يعاني من مرض يمنعه من الزواج والالتقاء الكامل بالمرأة التى يجبها^(١) .

(١) أشير هنا مرة أخرى - كما أشرت في المقدمة - إلى أن هذا المرض ليس بالضرورة مرضاً جنسياً صريحاً ، ولكنه قد يكون مرضاً من الأمراض العضوية التى يعرف صاحبها أن الزواج معها خطر وضرر .

الرسالة الرابعة عشرة

عزيزق يا فسدوى

أكتب إليك الآن من المستشفى . . وهذا هو اليوم الرابع عشر يمر على منذ انتهاء العملية الجراحية . . أحيى أنا ؟ إننى لا أكاد أصدق ! لا أكاد على الرغم من أننى أستطيع اليوم أن أمسك بالقلم ، دون أن تهز يدى ، وأكتب إليك !!

هل تعرفين الموت ، إنك لا تعرفينه إلا عن طريق الخيال . . أما أنا فقد عرفت عن طريق الواقع وصاحبتة لمدة خمس دقائق . . رأيته رأى العين ، ولقيته لقاء الشعور ، وتجولت معه لحظات فى وادى العدم . . ثم افترقنا أخيرا بمعجزة ، حيث تركته وحيدا وعدت إلى عالم الأحياء ، كيف حدثت المعجزة ، وكيف بعثت ، علم ذلك عند الله . . وعند قلبك الذى توجه إليه يوما بالدعاء !!

هل أصف لك ما حدث ؟ إن شعورى الآن لا يقوى على الوصف .. فلترجىء الحديث إذن إلى الغد القريب ، لأقول لك كل شيء .. لقد كنت أومن بالأمس بقول « تشارلس مورجان » فى إحدى قصصه « كل ما فى الحياة من حقائق : الفن والحب والموت » .. لا يا فدوى ، إن الموت وحده هو كل ما فى الحياة من حقائق .

تسألين عني ؟ إننى أنا الذى يسأل عنك .. هل سمعت قبل اليوم أن الموتى يسألون عن الأحياء ؟ معجزة أخرى .. وكم فى حياتى من معجزات ! تستطيعين الآن أن تطمئنى .. أما عن وقع رسالتك الأخيرة على نفسى فمعدرة ، إن شعورى الآن لا يقوى مرة أخرى على الوصف ، وليكن موعدنا أيضا ذلك الغد القريب .. لست أدري كيف أشكرك ، وكيف أصور لك اليوم مكانك من قلبى ودنياى .

لقد أوجحت إلى رسالتك الأخيرة أنك قد كتبت لى بعد رسالتى الثانية .. بالله هل تستطيعين أن تعيدى ذلك الذى كتبت ؟ إن تلك الرسالة لم تقع بين يدى ، وإن الأسف على ضياعها ليملاً أرجاء نفسى .. ماذا قلت يا فدوى تعقياً على تلك النواحي التى كشفت لك عنها فى رسالتى الأخيرة ؟

أنا فى انتظار رسالتك وبين جنبى لهفة الشوق إلى اكتشاف المجهول .. واسلمى لمن سيدرك ما دام حيا .

أنور المعداوى

٢٨ / ١٢ / ١٩٥٣

الرسالة الخامسة عشرة

عزيزق يا فسدوى

رسالتى الماضيه كتبتها لك من هناك .. من المستشفى . أما رسالتى الحاضره فأكتبها إليك من هنا .. من بيقى .. لقد عدت منذ لحظات بعد جولة طويلة بالسيارة فى شوارع القاهره ، عدت لأكتب إليك لأنك طلبت إلى ألا أتاخر بالكتابة ، ولولا هذه الرغبة الحبيبه . لولاها وحدها لبقيت أسامر القاهره حتى الصباح .. ترى هل هى القاهره ؟ لا يا فدوى .. إنها الحياه ، خرجت أستقبلها بعد طول الفراق ، أفتح لها القلب وأمد اليدين ، وأهتف بالشوق وأهمس بالحنين ، وأناجيها بحديث طويل كله عتاب .. وحين أصطلت كلماتى بدفئها واغترف شعورى من نبعها ، وامتلات نفسى بجماها وشبعت عيناي ، رأيت أن أعود إلى هنا لأستقبلك أنت !

تركت حياه واستقبلت حياه .. وأضاءت كلتاها وجودى وأعادت

إلى كل شيء فقدته في الظلام ، وما كان أضمن أشياءي التي فقدتها في
الظلام . . فتشت نفسي عن صفاتها حتى وجدته ، وبحث فمي عن
بسمته حتى لقيها ، وراح قلبي يسأل عن إيمانه حتى عثر عليه . .
كنت حياة مع الحياة ، وكنت نورا مع النور ، ومن خلال هذا المعنى
الكبير الذي سطع في وجودي وتوهج في دنياي أقبس الآن هذه
الكلمات المضيئة .

لقد عدت أؤمن من جديد بقول مورجان : الفن والحب والموت ،
كل ما في الحياة من حقائق . . الحقيقة الأولى سجلتها قصيدتك ،
والحقيقة الثانية سجلتها رسالتك ، والحقيقة الثالثة حددتها التجربة
المريرة ، تجرّبتي التي عرفت فيها الوجود والعدم . . ثلاث حقائق
يا فدوى ، ولكن يجب أن تؤمنى معى بأن أصدقها وأعمقها وأقواها
هو الموت . . تسألينى لماذا ؟ لأن الموت هو الشيء الوحيد الذى يمكن
أن يفرق بينى وبينك !!

ترى هل طمأنتك هذه العبارة الأخيرة على أننى لن أقول لك بعد
اليوم : وداعا ؟ إنها كلمة قلتها لك بالأمس وشرحت لك دوافعها
النفسية ، قلتها ولم أكن أعلم أنها ستحدث كل هذا الأثر في
حياتك . . ولشد ما أتوق اليوم إلى لقاءك لأعتذر إليك ، ولأقول لك
كما قلت بالأمس : لقد كنت أشفق عليك يا فدوى ، أشفق عليك
من حب لا أمل فيه ، حتى هذه الأمنية الصغيرة ، أمنية اللقاء بين إنسان
وإنسانة يعيش أحدهما في القاهرة ويعيش الآخر في نابلس . . وأقول
لك أيضا لقد كنت أحاول أن أجعلها فلسفة بأن أتركك للزمن ليقدم
إليك بيديه الحانيتين جرعة النسيان . . ولم أكن أعلم أن لك أنت
الأخرى فلسفة حين قلت لى إن أملك من وراء الحب هو الحب

ذاته . . هو أن يجد الإنسان في هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ، لأننى سأكون إلى جانبك : بكل خولجة نفس ، وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دقات الشعور . وتساألينى الرأى فى هذه الفلسفة فأقول لك . . اننى مؤمن بها لأننى أؤمن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح .

لن أشفق عليك إذن يا فدوى العزيزة ، يا شريكة حياتى ولو فصلت بيننا الأماد والأبعاد . . نعم أنت شريكة الحياة طالت أم قصرت ، ابتسمت أم تجهمت ، حكمت بالبعد بين نابلس والقاهرة أم جادت بالقرب وأذنت باللقاء ! لقد أصبحت أؤمن بكل شىء جميل من أجلك . . نفس الإيمان العميق الذى عشت فيه بالأمس البعيد وأحاله الأمس القريب إلى كفر ، هناك حيث بعثر الظلام كل ما أملك وفقر الزمن فاه ليلتهم كل رصيد من الذكريات . . سأعود إلى الفن وأتذوقه ، وسأهب الحب وأتلقاه ، ما دام هناك قلب يخفق ، وبسمة تشرق ، وإنسانه مثلك تحمل بين جنبيها كل هذه العاطفة لإنسان !!

وماذا أقول لك بعد ذلك يا فدوى ، ترى هل يرضيك هذا النداء ، ويطمئنك على مكانك من قلبى ؟ ! إنك تسألينى أن أصور لك صراعى مع الموت . . ألا توافقينى على أننا يجب أن نرجىء هذا الحديث ما دمنا نتحدث عن الحياة ؟ ! فلنرجئه إذن يا فدوى ، وأعدك بأن أقص عليك كل شىء فى رسالة مقبلة . . ولا يهيك أمر هؤلاء الذين قد لا ترضيهم « عودة » لأنها لا تحفل بعودة اللاجئين !! اتركى لى مهمة الرد عليهم إذا ما خطر لأحدهم أن يتعرض لهذه القصيدة العزيزة بكلمة أو كلمات ، وسأعرف كيف أدافع عن الفن والإنسانية . . ولعلها تكون أول فرصة أعود فيها إلى صفحات

« الآداب » بعد أن اعتذرت أكثر من مرة لرئيس التحرير الصديق
بأننى لن أعود يوماً إلى القلم . أصبح أنى لن أعود إليه بعد أن
عدت إليك ؟ محال ! . . واسلمى لهذا العائد بعد طول الغياب .

أنور المعداوى

١٩٥٤ / ١ / ١٥

تعليق على الرسالتين

الرابعة عشرة والخامسة عشرة

يتكرر الحديث في هاتين الرسالتين عن الموت ، وذلك على أثر العملية الجراحية التي أجراها الأطباء للمعداوى ، وهى عملية إخراج « الحصوة » من إحدى الكليتين ، ولقد كان شعور المعداوى فى تلك الفترة هو حقا شعور المقبل على الموت ، كان لديه تصور بأنه لن ينجو من هذه العملية الجراحية أبدا ، والغريب أن حديث المعداوى عن الموت كان يبدو للكثيرين من أصدقائه وهما من الأوهام ونزعة من نزعاته المتشائمة التى تدفعه إلى الحديث عن الموت حتى ولو لم يكن هناك سبب من الأسباب ، بل لقد كان البعض يتصور أن المعداوى يفتعل قصة مرضه ، حتى فدوى نفسها تصورت فى الفترة الأخيرة من علاقتها بالمعداوى أن المرض الذى يتحدث عنه لم يكن على الصورة التى يصورها المعداوى فى رسائله ، تقول فدوى فى الرسالة التى

تلقيتها منها مع رسائل المداوى حول هذه النقطة : « فى العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذى كان يسببه لى أنور بانقطاعه المفاجئ عني ، ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتى تجاهه . وتسلمت على تبعا لهذا الوهم كبرياء غبية وحمقاء خلقت عندي إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مائة فى المائة ، لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلى وصممت على رفع جدار بيني وبينه . وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » .

. . هذا الذى تقوله فدوى طوقان ، لا يعبر عن حالها وحدها مع المداوى ، وإنما يعبر عن حال الكثيرين من أصدقائه ، فقد كان الكثيرون يتصورون أنه يبالغ فى قضية مرضه ، وبالأخص هؤلاء الذين كانوا يرونه ويتصلون به ، حيث كان يبدو أمامهم قوى البنية معافى من الأمراض الظاهرة ، ولذلك فقد أحس الكثيرون من أصدقاء أنور - وأنا منهم - بنفس الندم الذى أحست به فدوى بعد وفاته المفاجئة . إننا لم نكن نصدق بما فيه الكفاية عندما كان يحدثنا عن المرض أو يحدثنا عن الموت ، بينما كان المداوى يعانى من شيء حقيقى فى داخله ، وكان يحس أنه يواجه معركة مع الموت ، وقد انتصر عليه الموت أخيرا وهو فى سن الخامسة والأربعين ، وحين كان شبح الموت يبدو لنا بعيدا عن المداوى كل البعد . إن المداوى لم يكن يلهو فى حديثه عن الموت بل كان صادقا . فقد كان يعاشر الموت ويصارع ويحس بأنه معرض له فى أى لحظة بسبب الأمراض التى كان يعانى منها ، وعلى رأسها الكلى وضغط الدم .

حتى عندما سافر إلى قريته قبل وفاته بـ ٤ سنوات وهجر القاهرة وترك العمل فى وزارة التربية والتعليم وترك القراءة والكتابة واعتزل

الدنيا والناس . . . حتى عندما فعل ذلك كنا نتصور موقفه نوعا من الاحتجاج على ما أصابه في الحياة الأدبية من إهمال وعدم رعاية . وكان يقول لنا إن هذه العزلة مفروضة عليه بسبب المرض الذى يعانیه وهو نوع من ضغط الدم الخبيث الذى يسبب له أرقا وكآبة نفسية . . كنا نتصور أن الكآبة النفسية والرغبة في الهروب والعزلة لا علاقة لها بالمرض العضوى ، وأنها كلها ناتجة عن سوء معاملة الحياة الأدبية للمعداوى وعدم إتاحة الفرصة له حتى يعبر عن رأيه وفكره .

ولذلك كان موت المعداوى سنة ١٩٦٥ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره مفاجأة وصدمة لكل أصدقائه . رغم ما كان يكرره أمام هؤلاء الأصدقاء منذ سنوات عديدة من أنه يتوقع الموت فى أى لحظة .

ومحدثنا المعداوى فى رسالته الرابعة عشرة عن الموت فقط ؛ ذلك لأنه كان لا يزال فى المستشفى بعد إجراء العملية الجراحية . أما فى الرسالة الخامسة عشرة فيعود إلى ثالوثه المفضل وهو « الفن والحب والموت » ؛ إذ إن آماله فى الحياة كانت قد انتعشت بنجاح العملية الجراحية الخطيرة التى أجريت له . ويستوقفنا فى هذه الرسالة حديثه الذى بلغ أقصى درجات الصراحة عن حبه لفدوى ، حد أن يقول لها فى رسالته « يا شريكة حياتى » ، وهذه العبارة لا تقال عادة إلا للزوجة . ولكننا لا نلمح فى هذه الرسالة أى محاولة من جانب المعداوى لتحويل عبارة « شريكة الحياة » إلى حقيقة واقعية ، فكل الذى يطلبه من فدوى هو أن تكتب إليه ، ولا شىء غير ذلك . . لم يحاول أن يسعى لكى يحقق أى لقاء معها ، ولم يحاول أن يشير إلى إمكانية الزواج منها ، أو ضرورة القيام بمحاولة فى هذا المجال . بل لقد أسعده كل السعادة تعريف فدوى للحب ، وأعلن موافقته على هذا

التعريف وحماسه له . فالهدف من وراء الحب هو الحب ذاته كما تقول فدوى وهو الهدف الذى يتحمس المعدادوى له ويردده ويؤكد فيه يقول : « إن أملك من وراء الحب هو الحب ذاته . هو أن يجد الإنسان فى هذه الحياة من يقول له إنك لن تقف وحدك ؛ لأننى سأكون إلى جانبك ، بكل خلجة نفس ، وبكل خفقة قلب ، وبكل دفقة من دفقات الشعور . . . وتسألينى الرأى فى هذا الفلسفة فأقول لك : إننى مؤمن بها لأننى أؤمن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح » .

هذا التعريف للحب الذى يرتضيه المعدادوى بل ويتحمس له يعود بنا إلى التساؤل الذى طرحته فى المقدمة والذى أميل إلى الأخذ به ، فقد كان المعدادوى يعانى من مرض أخفاه على الناس ، وكان هذا المرض يمنعه من الزواج ، ولست أشك فى أن مثل هذا المرض كان جرحا عميقا يعانى منه المعدادوى ، خاصة أنه كان شديد الكبرياء والاعتزاز بنفسه وكرامته ، كما كانت تتوفر له فى الوقت نفسه كل مظاهر الرجولة المكتملة ، بل والجذابة أيضا ، فقد كان المعدادوى وسيما مديد القامة شديد الأناقة صاحب ضحكة رنانة عالية ، ولم يكن ليمنعه من الزواج إلا عائق من هذا النوع الذى أتصوره والذى كان شديد الكتمان له ، وإن كنت لا أشك أن مثل هذا المرض قد عرضه لآلام عنيفة وعذاب نفسى كبير ، ومثل هذا المرض هو الذى يمكن أن يدفعه إلى محاولة قطع علاقته بفدوى دون سبب واضح ، وأن يعود إليها بعد أن تعلن له أن هدفها من وراء الحب هو الحب ذاته . . . وعندما تسأله رأيه فى هذه الفلسفة يقول لها : « إننى مؤمن بها لأننى أؤمن بالفن ، الفن الذى يرتفع بالإنسانية من أرض المادة إلى سماء الروح » . . ثم يقول لفدوى بعد ذلك : « يا شريكة حياتى » دون أن يقوم بأى محاولة لتحقيق هذه

الشركة ، معتبرا أن هذه الشركة تقوم على أساس من العواطف المتبادلة عن طريق الرسائل ، ومعتبرا أن هذه الرسائل تحقق له اكتفاء العاطفي الكامل دون أن يشعر بأى نقص من أى نوع . وقد رضيت فدوى بهذا الموقف ، وكان المعداوى يخشى أن يزعجها هذا الأمر ؛ فسارع إلى أن يطلب إليها قطع العلاقة بينهما ، ولما اطمأن إلى مفهومها للحب عاد إليها واطمأن قلبه ، وزالت من نفسه كل مظاهر الخوف على مستقبل العلاقة بينهما .

يشير المعداوى فى آخر رسالته الخامسة عشرة إلى قصيدة « العودة » لفدوى ، وكانت فدوى قد كتبت هذه القصيدة بعد عودة العلاقة بينها وبين المعداوى ، ومن الواضح أن فدوى تعرضت بعد نشر هذه القصيدة إلى لوم وجهه إليها البعض لأنها اهتمت « بالعودة » العاطفية دون أن تهتم « بالعودة الوطنية » وهى عودة اللاجئين إلى فلسطين . . وهذا رأى غير مقبول إن كان قد أبداه البعض فعلا تعليقا على هذه القصيدة ، فالقضية العامة لا تستفيد على الإطلاق من قتل العواطف الإنسانية ورفضها حتى لو كانت عواطف فردية وذاتية ، وأذكر هنا ما قاله أفلاطون فى محاوراته من أن : « الحب هو أقلم العواطف جميعها ومن أشدها بأسا ، فهو القوة التى تميل الشاب العادى بطلا ، فالعاشق يستحى أن يظهر الجبن أمام من يحب . ولو تهيأ لى جيش من العشاق لفتحت به العالم كله » . . والحقيقة أن الحب لا يتناقض مع الوطنية ، فالوطنية فضيلة كبرى . والفضيلة تقوى بالفضائل الأخرى ولا تضعف . والحب فضيلة تغذى الوطنية وتشعلها وتدفعها إلى الأمام ؛ ولذلك فالذين يتقبلون قصيدة « العودة » على أساس أنها قصيدة عاطفية وأن كلمة « العودة » لا يصح أن تستخدم إلا فى معنى واحد هو عودة اللاجئين . . . مثل هؤلاء الناقدين لقصيدة « العودة »

إنما يمثلون نوعا من التزمت الضار الذى لا يفيد الفن أو الفكر أو
الوطنية أو الإحساس الإنسانى السليم .

ونعود إلى قصيدة « العودة » التى كتبها فدوى حين عادت
علاقتها بالمعداوى بعد انقطاع دام ما يقرب من عام كامل ، تقول
فدوى :

وأطل وجهك مشرقا من خلف عام
عام طويل ظل فى عمرى يدب كألف عام
عام ظللت أجره خلفى وأزحف فى الظلام
وعواصف تلجج تصطك حولى والطريق
كانت تضيق كأنها أمل يضيق
ويضيع فى تيه القتسام .

عام طويل ظل يفصلنا به بحر صموت
بحر دحت أمواجه وتجمدت ، بحر تموت
فيه الحياة وتفرق الخلجات فى برد السكوت
وأنا على شطى الأصم
أنا والفراغ وليل وهمى
أصغى لعل صدئ يمر
بى ، علّ شيئا منك ، همس ، نبأ
شيئا يمر
بى منك عبر مدى السكوت
لا شيء ، إلا وطأة ثقلت وصمت مستمر

عام ، ودبت بعده في البحر معجزة الحياه
لم أدر كيف ، هناك رفت بغتة فوق المياه
وهفت حمامه
زرقاء في طهر السماء ، هفت إلى على غمامه
وطوت جناحيها وقرت في يديه



ورنت إليه
وتنفست دفئا وعطرا
وشممت فيها منك شيئا هاجني وجدا وذكرى
فمضيت ألثم ريشها
وجعلت صدري عشيها
وشعرت أنك عدت ، أنك في الطريق
واجتاحني فرح الفريق
حضنته سلطان النجاء



وأطل وجهك من بعيد
حلوا يرف على وجودي
ورأيت أحزان تموت على تعانق راحتينا
وأضاء في فمك ابتسام
البسمة الجليل التي أحبتها منذ التينا
عادت تضيء كأنها قلب النهار

وتصب في نفسى فيشر بها دمي
 ويعبها قلبى الظمى
 ونسيت آلامى الكبار
 ونسيت في فرح اللقاء عذاب عام
 عام طويل ظل في عمري يدب كآلف عام

هذه هي قصيدة فدوى بنصها ، وهي تحكى قصة القطيعة المفاجئة
 بين فدوى والمعداوى وأثر هذه القطيعة على نفس الشاعرة ، ومن
 الواضح أنه كان أثرا أليما قاسيا ، فقد ظلت الشاعرة خلال عام
 القطيعة تنتظر شيئا وترجو أن يتغير الموقف الذى دفعها إلى وحدة
 نفسية حادة :

أنا والفراغ وليل وهمى
 أصغى لعل صدى يمر
 بي عل شيئا منك ، همس ، نبأ
 شيئا يمر
 بي منك عبر مدى السكوت
 لا شيء إلا وطأة ثقلت وصمت مستمر

هذا الفراغ النفسى ، وهذه الوحشة المرة التى كانت تعانيتها
 الشاعرة وهذا الوهم الأسود الكثيب . . . تغيرت كلها فجأة عندما
 تلقت رسالة المعداوى التى كتبها إليها بعد انقطاع ، وهى على
 الأغلب الرسالة الثانية عشرة ، وقد صورت غلوى هذه الرسالة على
 أنها « حمامة زرقاء » ، واختير غلوى للون الأزرق يرمز في ظنى إلى أن
 كل الرسائل التى كتبها المعداوى إلى غلوى كانت مكتوبة بخطه
 الجميل الأنيق على ورق « أزرق » ، ومن هنا احتل اللون الأزرق
 مكانته في وجدان الشاعرة وفي قصيدتها :

عام ودبت بعده في البحر معجزة الحياه
 لم أدر كيف ، هناك رقت بغتة فوق المياه
 وهفت حمامه
 زرقاء ، في طهر السماء ، هفت إلى على غمامه
 وطوت جناحيها وقرت في يديه
 ورنّت إليسه
 وتنفست دفئا وعطرا
 وشمنت فيها منك شيئا هاجنى وجدا وذكرى
 فمضيت ألثم ريشها
 وجعلت صدرى عشا
 وتواصل الشاعرة تعبيرها الجميل الصادق عن فرحتها بعودة
 حبيبها :

وشمرت أنك عدت ، أنك في الطريق
 واجتاحنى فرح الغريق
 حضنته سلطان النجاه

ونستطيع أن نلاحظ أخيرا ما تكشفه لنا هذه القصيدة البديعة بوضوح من
 مثالية عاطفية لا تمت للحيلة الواقعية بصلة ، وكأن هذا الحب في حيلة
 فدوى وأنور هو الحب الأول في حياة صبية وصبي صغيرين بريئين
 لا يعرفان من أمور العاطفة شيئا سوى اللهفة والحنين ، ويكفى أن
 نقرأ هذا البيت من قصيدة فدوى لنجد أمامنا تجسيدا لهذه المثالية
 العاطفية المتطرفة ، تقول فدوى :

ورأيت أحزاني تموت هل تعانق زاحيتنا

لقد اطمأن قلب الشاعرة وهدأت عواطفها وماتت أحزانها لمجرد
 العناق بين يديها وحبيبها . . وباليته كان جنات حقيقي . لقد كان
 عناقا بين اليدين في الخيال .

الرسالة السادسة عشرة

عزيزتى يا فسدوى

لعلك سألت نفسك ألف مرة ، لماذا انقطعت عن الكتابة إليك ؟
أما أنا فقد حاولت مرارا أن أكتب إليك ولكننى أشفقت . . أشفقت
عليك من مثل هذا الذى أكتبه إليك الآن مرغما على كتابته . . لأننى
منذ ثلاثة أشهر وأنا منقطع عن الناس ، أعيش وحدى ، بكل ما فى
الوحدة من معان نفسية لا مادية ، ومنذ ثلاثة أشهر وأنا أترقب
لحظة ، لحظة واحدة أتخلص فيها من نفسى لأخلو فيها إلى نفسى ،
التي هى أنت ، فلا أكاد أظفر بهذه الأمنية التى أصبحت اليوم أجمل
ما فى الحياة من أمنيات .

فى مثل هذا الجو القاتم الذى أحال الحياة فى عيى ظلاما قررت أن
أكتب إليك ، ولكم ترددت حتى لا أضيف إلى أفق حياتك ضبابا فوق
ضباب ، ولكننى رأيت أن صمقى سيثير فى سماء نفسك سحبا داكنة

من الشكوك والأوهام . . أمران أحلاهما مر ، ولشد ما يحزنني أن
أضطر اضطرارا إلى أن أعكس على حياة الآخرين ، وخاصة هؤلاء
الذين أحبهم ، ظلال نفسي وهي تلتقط صور التعبير في الظلام !

لست أدري يا فدوى ماذا حدث لي . . كل مشهد من مشاهد
الوجود في عيني قد تغير ، وكل طعم للحياة في فمي وكل مذاق ! .
الشباب المرح الضحك المتفائل قد تحول إلى إنسان آخر ، إنسان أوشك أن
يفقد إيمانه بكل شيء حتى بنفسه ، وسبحان من يضمخ ليل شعوره
الطويل بعطر النهار . . أليكون القدر قد ضاق بشبابه المتدفق فأحب أن
يذيقه طعم الكهولة ؟ وما طعمها يا فدوى إذا لم يكن هو البسمة التي
تفيض حتى لتنسى سحرها الشفاء ، والأمل الذي يضيع حتى لتنكر
أنه المشاعر ، والنار التي تنطفئ حتى لتضيق برمادها القلوب ،
والنور الذي يولي حتى لتكفر العيون بأن في الدنيا ضياء ؟ !

أهذا هو القلم الذي كان يكتب إليك بالأمس وأفراح الوجود تقطر
من مداده ، وتراقص بين سطوره ، وتلقى دروس الرجاء على جموع
البائسين من الحياة ، المشفقين من الغد ، الهارين من المصير ؟ معذرة
يا فدوى ، فأنا اليوم كما قلت لك إنسان آخر . . إنسان أراد غلصا
أن يعود إلى سابق أيامه فعبست في وجهه الأيام ، وتجهم له القدر ،
ورحل عن وجوده الأمل كضيف عابر أبى أن يقيم . . أبى وبأ طالما
لقي في رحابي من حفاوة الروح ما لم يلقه في رحاب الناس .

لم يكن بودي أن أكتب إليك كلمة واحدة مما كتبت ، ولكنني
كرهت يا فدوى أن أكذب عليك في مثل هذه اللحظات التي لا يجدي
فيها التستر على الواقع بكلمات قد تبدو مضيئة ، بينما تتخبط في

دروها الحقيقة وهى معصوبة العينين . . الحقيقة السافرة التى تقول لك إن حالتى الصحية قد عادت إلى ما كانت عليه ، لأن العملية الجراحية السابقة لم تكن حاسمة . . ويصر الأطباء على إجراء عملية أخرى، وإلا قضيت بقية عمرى فى كهولة جسدية . . وتقول أُمى : محال . . وتحضر إلى القاهرة لتلازمنى حتى لا أقدم على المخاطرة الثانية ، وكفى ما حدث فى المخاطرة الأولى ولم تعلم به إلا بعد حين . . ولشد ما يعذبنى الآن منطق هذه الأمومة ، منطقها الذى يؤثر رؤية الكهولة إشفاقا من رؤية العدم .

هذا هو الوضع الشاذ الذى انتهت إليه ، ولست أدري ماذا أفعل ، إننى ما تعودت قط أن أغضب هذه الأم العزيزة فى يوم من الأيام ، ولهذا يخوننى العزم كلما فكرت فى طريقة معينة لإبعادها عن القاهرة حتى أنفذ رغبة الأطباء . ويضيقنى شعور آخر ويؤرقنى ويعرضنى لمزيد من العذاب حين أتخيل موقفا آخر أصل فيه إلى ما أريد ، ثم يحدث مثلا أن يصيبنى شيء ما كانت تشفق منه وتحشاه . . ماذا يكون حالها ؟ ماذا يكون ؟

ألا تعذرينى يا فدوى على أننى لم أكن أستطيع أن أكتب إليك طيلة هذه الفترة الماضية ، حتى لا أطلعك بمثل هذه القصة الحزينة ؟ . . أقسم لك ما نسيتك يوما ، وما طغى ضجيج ألمى على صوت وجودك فى قلبى ، كما طغى على أصوات الآخرين ، ومن يدري . . فقد تعود البسمة إلى شفتى غدا أو بعد غد ، ويعود إليك قللى كما كان بالأمس وأفراح الوجود تقطر من مداده ، وتراقص بين سطوره ، لتلقى دروس الرجاء على جموع اليائسين من الحياة ! ألا يحدثك قلبك بشيء من هذا كله ؟ أنا فى انتظار هذا الحديث !

وكيف حالك أنت ؟ إننى منذ حين لم أقرأ لك شيئاً ، وكم طال
 ترقبى لقصيدتك التى حدثنى عنها فى آخر رسائلك . . أياكون
 انقطاعى عنك هو الذى شغلك عن الفن وعن الناس ؟ أنا مقدر
 لشعورك ولظنونك إن كان قد خطر ببالك بعض الظنون ! وإننى
 لعاجز عن شكرك على هديتك التى لم يقدر لى حتى الآن أن أراها
 بسبب ظروفى التى شرحتها لك ، والتى أبعدتنى عن القاهرة فترة
 طويلة قضيتها فى الريف . . ترى ماذا حدث بشأنها وماذا كتب إليك
 عنها العزيز وائل ؟ ألف شكر لك وله على كل حال . وسلمت لمن
 يتהל إلى الله أن يعيده إليك كما أعاده بالأمس .

أنور المعداوى

١٢ / ٥ / ١٩٥٤

تعليق على الرسالة السادسة عشرة

هذه إحدى الرسالتين اللتين تحدثت عنهما فدوى في رسالتها التي كتبتها لي حيث تقول « . . في العامين الأخيرين من مراسلاتنا كنت قد ضقت ذرعا بالتوتر والألم الذي كان يسببه لي أنور بانقطاعه المفاجيء عني ثم عودته من جديد معتذرا بالمرض . وحين تكرر ذلك توهمت أنه كان يحب اللعب بعاطفتي تجاهه ، وتسلطت على تبعها لهذا الوهم كبرياء غبية وحقاء خلقت عندي إحساسا خاطئا بأن قصة مرضه كانت غير حقيقية مائة في المائة ، لذلك لم أرد على آخر رسالتين بعث بهما إلي وصممت على رفع جدار بيني وبينه ، وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » .

وتكشف لنا رسالة المعداوى عن روح اليأس التي عادت إليه ، فسيطرت عليه من خلالها كآبة كبيرة شاملة ، والسبب الرئيسي لهذه الحالة هو مرضه الجسدى ، وفشل العملية الجراحية ، وإن كنت

للمحق لم أسمع منه شيئا عن هذا الموضوع على الإطلاق ، ومع ذلك فلا يمكن أن أنسى أنه بالفعل كان متألما وحزيناً في تلك الفترة ، ولكن ذلك كله كان يعود فيها بدا لنا إلى أن الحياة الأدبية لم تعد تعامله كما كانت تعامله قبل سنوات قليلة ، فقد كانت مجلة « الرسالة » في تلك الفترة - منتصف سنة ١٩٥٤ - قد أغلقت أبوابها منذ أكثر من عام ، وكانت هذه المجلة هي التي عاش فيها أجمل أيام مجده الأدبي ، والتي كان صوته فيها مسموعا وكانت كلمته الأدبية عالية ومدوية ، ولكن الحياة الأدبية بدأت تتغير الآن ، وبدأ المعداوى يبحث عن مكانه في هذه الحياة دون أن يجد إلا أصدقاء لمجده القديم ، وكان هذا الوضع هو الذى يبدو لنا سببا رئيسيا من أسباب تعاسته وشقاء نفسه .

ولكن المعداوى يكشف لنا في هذه الرسالة عن قصة أخرى ، هي قصة فشل العملية الجراحية التي أجريت له ، هل كان فشل هذه العملية حقيقة أم أنه كان محاولة من المعداوى لتغطية مرض آخر كان يشفيه ولكنه يريد إخفاءه ؟ لست أدري . ولكن الذى لا شك فيه أنه كان يعانى ألما كبيرا ، وأن حالته النفسية التي عبر عنها في هذه الرسالة كانت حالة حقيقية ولم تكن وهما من الأوهام ، ولقد كان من سوء حظ المعداوى - ولا شك - أن فلولى لم تعد تصدقه ، وأنها أخذت منه هذا الموقف القاسى فلم تعد تكتب إليه ولم تعد ترد على رسائله ؛ فقد كان المعداوى يجد سعادة حقيقية في رسائل فدوى إليه ، وكان ينظر إلى هذه الرسائل كنوع من أنواع العلاج لروحه ونفسه . . . كانت هذه الرسائل دواء له وشفاء ؛ ولذلك كان انقطاعها عنه سببا من أسباب ازدياد تعاسته وإحساسه بالوحدة . . . ورغم أن المعداوى كان شديد الكتمان لآلامه وكان شجاعا في تحميله لهذه الآلام ، وكان حريصا على أن يواجه أحزان الدنيا بكبرياء حقيقية لا تتزعزع . . . رغم هذا كله

فإن السنوات التي تلت عام ١٩٥٤ كانت في حياته سنوات ألم وحزن ولم تكن سنوات نشوة وفرح ، وكان القريبون منه - وأنا أحدهم - يشعرون بذلك دون أن يفهموا بالضبط أسباب هذا الشعور القاتم الذي بدأ يداهم منذ تلك السنوات ولم يفارقه حتى وفاته .

صحيح أنه كان يمر بين الحين والحين بلحظة من لحظات الفرح والنشوة ، عندما تظهر له مقالة في إحدى المجلات ويجد لها صدى في الأوساط الأدبية ، أو عندما يلتقى في ندوته بمقهى « عبد الله » أو مقهى « أنديانا » بلديبٍ عربي جاء يسعى إليه ويحمل إليه صدى من أصداء مجله القديم أيام « الرسالة » ، أو عندما تعرض عليه مجلة أدبية جديدة أن يشارك في تحريرها ، أو ما إلى ذلك من دواعي الفرح التي كان يتنفّس لها قلبه بين الحين والحين ، وما كان أيسر الأسباب التي كانت تمنحه النشوة والفرح ، ومع ذلك فلم تكن الحياة الأدبية بما كان يستحقه من الاهتمام والرعاية ، ولم يكن هو يسعى إلى شيء أو إلى

أحد ، كان ينتظر دائما أن يأتي إليه الناس أو تأتي الأشياء ، ولكن الناس والأشياء قليلا ما كانوا يجيئون .

ولهذا تحالفت عليه أسباب الحزن واليأس . . سبب داخل من مرضه الذي يعانیه ، والذي كان فيه - على ما أعتقد - جانب يخفيه عن الناس وهو ذلك الجانب الذي كان يمنعه من الزواج أو الارتباط بمن يجب ، وسبب خارجي يأتيه من المجتمع الأدبي الذي أساء معاملته المعداوى منذ سنة ١٩٥٤ أو قبلها بقليل بعد أن كان قد أحسن استقباله ما بين سنوات ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وتلك هي مأساة المعداوى التي حاولنا أن نشرحها ونلقى عليها الضوء في مقدمة هذا الكتاب .

الرسالة السابعة عشرة

عزيزتى فدوى

كلما سمحت طاقتي النفسية بأن أتناول القلم لأكتب رسالة إلى عزيز ، فتقئ أن هذا العزيز هو أنت . . ومع ذلك فإن هذا العزيز الأثير لم يرد على آخر رسالة بعثت بها إليه ، لماذا ؟ حتى الآن لا أدري ، لقد كانت رسالة قائمة ، تعشرت كلماتها فى الظلام وهى تتلمس طريقها إلى قلبك . . معذرة لهذا القلب إذا ضاق يوما برؤية ماضى حبيب أطل على وجوده ، من خلال ثوب أسود ! أنا « الآن » واحد ممن يكرهون السواد فى كل شئ ، حتى فى لون هذا المداد الذى أكتب به إليك . . ولكم أتمنى أن يتحول تحت يدي إلى مداد أبيض ، عصرته الأحلام من أوراق زنبقة ، ليهب منه على روحك وعينيك . . عطر مضى !

أتعرفين هذا المداد ؟ أنا أذكر أننى ضمخت به إليك أكثر من رسالة ، وأريد أن أضمح به منذ الآن كل رسائل المقبله ، حتى تحتفظ

هى الأخرى بكل ما فيها من صفاء العطور والأضواء .. إن أجمل الأشياء يا فدوى هو ما يحمل إلى نفوسنا لونا ورائحة ، ولهذا كانت قصيدتك الأخيرة فى « الأداب » بالنسبة إلى مقاييسى الشعرية ، من أجمل الزهور فى حديقة الشعر كله .

إن طلائع النور التى زحفت إلى أرجاء نفسى منذ فترة قريبة ، هى التى تضىء الطريق اليوم لكلمات كانت بالأمس عمياء ، فإذا بها الآن ترد مبصرة .. لقد كنت دائما أنتظر يا فدوى ، ولكنه كان انتظارا فى الظلام ، عند ذلك الجسر الكبير الذى طلبت إلى أن أمضى نحوه .. يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك هناك ، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذى كان يسلبنى الرؤية ، رؤية كل شىء .

كم ألح على الشوق ، وكم عدت للماضى ، وكم عشت فى الذكرى ، وكم وكم وكم .. ولكننى كنت محتاجا إلى من يحمل إلى مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك .

كان ذلك بالأمس ، أما اليوم .. لم تعد حياى « مقفرة منك » .. إنك الآن ملء هذه الحياة إحساسا ورؤية ، كل ما ينقصنى هو أن أنتظرك « حقيقة » عند الجسر الكبير ، وهذه هى مشكلتنا الوحيدة .. أنا أشعر أن كلينا ولو أنه يعيش فى وطنه ، محتاج إلى وطن كبير ، إلى ذلك الوطن الذى ينسى فيه غربته الروح ، الوطن الشعورى الذى يتحول فيه كل اثنين إلى واحد ، ويصبح هذا الواحد هو كل الناس .. أليس كذلك يا فدوى ، يا وطنى الذى أريد أن أرحل إليه ؟

إننى فى الوقت الذى أعود فيه إليك ، أعود إلى عزيز آخر وهو الأدب . ما كان أطول هذه الفترة التى فرقت بينى وبين أعز حبيبين ،

حتى لقد خيل إلى يوما أن الصدا قد غلف القلب والقلم ، وباله من خيال . أما عن عودتي إليك فقد عرفت حقيقتها من خلال هذه السطور . . أما عن عودتي إلى الأدب فتتلخص في أمرين : أولهما أن جريدة القاهرة المصرية المسائية قد دعتنى إلى المشاركة في تحرير صفحتها الأدبية التى ستصدر ابتداء من الأربعاء المقبل ، أعنى بعد غد . . وقد قررت أن أقصر عليها جهودي . ومن جهة أخرى فقد أعلنت الجهات المسئولة هنا عن جوائز الدولة للأدب والعلم والقانون لعام ١٩٥٤ ، حيث خصصت جائزة الأدب وقدرها ألف جنيه للنقد الأدبي . . ولهذا فقد قررت أن أتقدم للمسابقة بكتابى عن « الأداء النفسى » مطبقا على شعر على محمود طه ، وسأبادر بطبع هذا الكتاب بعد مراجعته مرة أخرى وكلى أمل فى الظفر بالجائزة . . إنها عودة إلى الحب والفن وهما الآن يا فدوى بالنسبة إلى كل ما فى الحياة من حقائق . . أتذكرين ؟

كيف حالك الآن ؟ سؤال يهمنى أن أعرف جوابه . . ثم ، أراضية عنى يا فدوى ؟ إليك والمجاملة العاطفية عندما تجيبين عن هذا السؤال الآخر . . كوني صريحة وانقل إلى كل ما يمكن أن يكون فى نفسك من رواسب ، إن هذا وحده يريحنى . قد تسألينى عن سر هذا التساؤل فأقول لك : إنه قصيدتك الأخيرة فى « الأداب » . . كان فيها يا فدوى شىء من المرارة ، مرارة الشك على الأقل فى أن المنادى قد لا يلفح بحرارة النداء . لقد أحسست هذا المعنى وأنا وحدى الذى يستطيع أن يحسه . وأنا وحدى الذى يشعر بمرارة ظنونك ، ومرارة المشكلة الضخمة التى يثيرها دائما أن كلينا يعيش بعيدا عن الآخر . . أنا واثق من أننا لو كنا معا فى مكان واحد ولو ليوم واحد لحلت المشكلة ، لأن نظرة من العين أو همسة من الشفة أو ضغطة من اليد

كانت تغنى عن فراق أعوام ، لأنها الرصيد المادى الذى تعيش عليه النفس وهى آمنة من شكوك الغد المجهول . . صدقينى إذا قلت لك إننى أفكر كثيرا فى أن أترك عملى هنا إذا ما قدر لى أن أجدها عملا مناسباً فى أى بلد يقربنى منك ، وأكون أسعد إنسان إذا كان هذا البلد مثلاً هو نابلس . . يقولون هنا يا فدوى عن كل مصرى يعمل بعيداً عن وطنه إنه يسعى وراء الرزق . . ولهذا رفضت عدة عروض مغرية فى أقطار عربية بعيدة ، بعيدة عنك . . لو كان من بينها قطر واحد يجاور المكان الذى أنت فيه ، لرحلت إليه دون أن أشفق من كلام الناس ، سيكون عذرى عندهم أنفى لا أسعى وراء الرزق ، وإنما أسعى وراء وطن . . وطنى الشعورى عند ذلك الجسر الكبير .

أنا أحلم بهذا اليوم . . عندئذ تستطيعين أن تقدمى للناس ديواناً آخر ليس بعنوانه « وحدى مع الأيام » لأن عنوانه سيكون كما أقترح وأحب سيكون « لست وحدى » .

وأظنك بعد هذا تحيين أن تعرفى شيئاً عن واقع حياق فى هذه الأيام ؛ اسمعى يا فدوى : إن حالتى الصحية الآن جيدة ، وهذا هو كل ما أطلبه من الحياة ، لأننى بذلك أكون راضياً عن كل شىء . وحتى عن ذلك الوضع السخيف الذى وضعتنى فيه وزارة المعارف المصرية . . لقد أقصيت عن عملى القديم عدة مرات فنقلت من مكان إلى مكان . . ، ولا هدف من وراء ذلك إلا تعمد المضايقة . . والسبب هو أننى إنسان متعب فعلاً للرؤساء ، وكل ما يتعب الرؤساء هنا أننى أعاملهم على قدر منصبى الثقافى ، وأنهم يحبون أن يعاملونى على قدر مناصبهم الحكومية ! من هنا حدثت عدة مصادمات تبعتها عدة تنقلات ، كان آخرها منذ يومين حيث صدر قرار جديد بنقلى إلى مكان لا يمكن أن يطيقه إنسان مثلى ، ولهذا أضربت عن التنفيذ . .

وأنا الآن في بيتي مشغول بشيء واحد ، هو هذه الرسالة التي أكتبها إليك .

اسمعي مرة أخرى يا فدوى . . ما دامت صحتي جيدة فليحدث كل شيء . . وما دمت أنت باقية ، فليذهب كل شيء . . ومع ذلك فاطمئني لأن هناك حنيئا ينازعني إلى الاشتغال بالصحافة . . وعلى المسؤولين أن يتفضلوا مشكورين بإصدار قرار جديد يريحني من رق الوظائف الرسمية^(١) .

تري هل تصل إليكم جريدة « القاهرة » حتى أطمئن إلى أنك ستلاقيني فيها كلقائي لك على صفحات « الآداب » ؟ إنني أفضل يا فدوى أن يكتب الأدب في الصحف اليومية على أن يكتب في المجلات الأدبية ، ذلك لأنه هناك مضمون الزواج لدى القراء من شتى الطبقات ، أما هنا - أعني حين يكتب في مجلة خاصة - فهو مقصور على طبقة معينة من الجمهور القارئ محدودة العدد ، ومن الخير للأدب في هذه الأيام أن يكون متاحا لكل الناس .

ماذا بقي لأقوله لك ؟ بقيت أشياء كثيرة أدعو الله من قلبي أن يجمع بيننا يوما لأقولها لك عند ذلك الجسر الكبير ونحن نمشي :

نمشي وقد طال الطريق بنا
فنود لو نمشي إلى الأبد
ونود لو خلت الحياة لنا

(١) يقصد المعداوى بهذه العبارة أن على المسؤولين أن يصدروا قرارا يفصله من العمل .

كطريقنا وغدت بلا أحد

وسلام عليك ، وعلى نابلس ، وعلى الجسر الكبير ، وعلى
الوفاء . . ودمت لمن يذكرك حتى في صمته .

أنور المعداوي

١٣-٩-١٩٥٤

تعليق على الرسالة السابعة عشرة

هذه هي آخر رسالة كتبها المعداوى الى فدوى طوقان ولم ترد عليها فدوى وصممت - كما تقول - على رفع جدار بينها وبين المعداوى « وكانت النهاية عند هذا الجدار المصمت » . . والسبب - كما أشرت في الصفحات السابقة - هو شك فدوى في قصة مرضه وفي انقطاعه المفاجيء عنها ثم عودته المفاجئة إليها ؛ مما أوهمها بأنه « كان يحب اللعب بعاطفتها نجاهه » .

والحقيقة كانت غير ما تصورته فدوى ، فلقد كان المعداوى في هذه الفترة بالذات أحوج ما يكون إليها ؛ ذلك لأنه وقع في مشكلة أخرى غير مشكلة مرضه وهي مشكلته في عمله .

وهذه المشكلة العملية لها قصة أشرنا إليها في المقدمة ؛ فقد كان المعداوى يعمل بالإدارة العامة للثقافة في وزارة التربية والتعليم التي كان اسمها وزارة المعارف آنذاك ، وكانت هذه الإدارة تقوم - على

نطلق ضيق - بوظيفة وزارة الثقافة التي لم تكن قد أنشئت في مصر ولا في أى مكان آخر من الوطن العربى في ذلك الحين ، وكانت مهمة المعداوى بالذات هى كتابة تقارير عن الكتب الأدبية والثقافية المختلفة وترشيح ما يصلح منها لكى تشتري وزارة المعارف كميات من هذه الكتب تضمها إلى مكتبات المدارس .

وإدارة الثقافة هى التي كان يتولاها عدد كبير من أدبائنا المعروفين ، فقد تولاها طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وغيرهم من كبار الأدباء ، وكان المعداوى سعيدا في عمله بهذه الإدارة ؛ حيث كان العمل يناسب طبيعته وميوله واهتماماته الأدبية والثقافية ، ولم يكن عليه في هذا العمل مشقة كبيرة ، بل كان يجد في هذا العمل راحة حقيقية كاملة ، وكان يجد فرصة لتحويل مكتبه إلى ندوة ثقافية دائمة يستقبل فيها أصدقاءه وتلاميذه من الأدباء والمثقفين .

وقد بدأت مشكلة المعداوى في هذا العمل - كما أشرنا في المقدمة - عندما تولى الدكتور سليمان حزين منصب المدير العام لإدارة الثقافة ، فقد حدث صدام عنيف بين الدكتور حزين والمعداوى . . وكان سبب الصدام أن الدكتور حزين اعترض على بعض تقارير المعداوى وحاول أن يجري فيها تعديلا بحجة وجود بعض الأخطاء اللغوية والتعبيرية فيها . وهنا ثار المعداوى ثورة عنيفة في وجه رئيسه وأفهمه أنه لا يملك أن يقوم بتعديل ما يكتبه المعداوى فالمعداوى أديب كبير ، وإذا كان هناك من يخطئ في اللغة والتعبير فهو الدكتور حزين وليس أنور المعداوى .

وكنتم الدكتور حزين سخطه مؤقتا ، وبعد فترة انتقل الدكتور حزين من منصبه كمدير لإدارة الثقافة إلى وكيل لوزارة المعارف

وأصبح مسئولاً عن كل موظفى وزارة المعارف ، وبينهم موظفو الإدارة العامة للثقافة التى كان المعداوى لا يزال موظفاً فيها ، وهنا جاء العقاب ، فقد أصدر الدكتور حزين قراراً بنقل المعداوى من وظيفته إلى وظيفة مدرس للغة العربية بمدرسة « خليل أغا » الثانوية بالقاهرة ، وكان هذا القرار صدمة كبرى وقاسية لأنور المعداوى ، فليس من المعقول بعد أن بذل المعداوى ما بذله من جهد فى الحياة الأدبية أن يتحول فجأة إلى الالتزام اليومي بالذهاب إلى مدرسة ثانوية يقوم فيها بتدريس النحو والإنشاء والمحفوظات للتلاميذ ، ثم كيف يقوم هذا الناقد الثائر المتمرد بتدريس نصوص أدبية له فيها رأيه الخاص ، الذى قد يتعارض مع رأى السائد بين المسئولين عن التعليم ؟

هل يقول للتلاميذ إن هذه القصائد مثلاً من الأدب الجيد وهو لا يؤمن بذلك ؟ . . مستحيل . . إنها مهنة لا تناسبه على الإطلاق ولا تصلح له ولا تليق به ، ولم يكن هناك مبرر لمثل هذا الإجراء الذى اتخذته الدكتور سليمان حزين ضد أنور المعداوى . . إن الدكتور حزين رجل فاضل وهو من علمائنا الكبار ، ولكن هذا لا يمنعنا من القول : إن قراره ضد المعداوى كان قراراً قاسياً أشد القسوة ، وكان قراراً فيه ظلم كبير لهذا الأديب ، ولست أبالغ - وأنا أعرف المعداوى عن قرب - إذا قلت إن هذا القرار قد ضاعف مرض المعداوى وحطم حياته النفسية وأسرع بموته .

لقد امتنع المعداوى عن تنفيذ القرار فى البداية ، وكان يأمل أن يكون هناك حل لهذه المشكلة ، وأن تتراجع وزارة المعارف عن موقفها ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ولم يكن المعداوى يعيش فى

رخاء يمكنه من الاستغناء عن الوظيفة ، فاضطر آخر الأمر إلى تنفيذ القرار . وكانت حالته المعنوية في تلك الفترة في أقسى درجات التدهور والهبوط ، ولكنه كان يحاول أن يتماسك وأن يتحمل ويصبر في لون من ألوان الكبرياء المجروحة المتألمة .

ومن هنا - في رأيي - كانت رغبة المعداوى صادقة في الرحيل خارج مصر ولو وجد فرصة فلا شك أنه كان سوف يرحل ، ولكنه لم يتعود على أن يطلب شيئا من أحد ، ولم تحاول فدوى من جانبها أن تيسر له عملا في نابلس ، ربما لأنها كانت قد اتخذت قرارا بمقاطعة المعداوى ، وربما لأن نابلس لم يكن فيها عمل يناسب المعداوى .

على أن المعداوى لم يستمر في عمله كمدرس ، بل انقطع بعد فترة عن الذهاب إلى المدرسة ، وصدر قرار بفصله من وزارة المعارف ، وبقي فترة أخرى بلا عمل ، كان يقضى معظمها في قريته ، وبعضها كان يقضيه في القاهرة ، إلى أن أنتهى به الأمر إلى تعيينه موظفا بالمكافأة ، أى موظفا غير مثبت على درجة من الدرجات الحكومية في وزارة الثقافة بعد إنشاء هذه الوزارة ، وقد ظل في هذا العمل حتى وفاته سنة ١٩٦٥ .

كلما تذكرت هذه السنوات التي امتدت في حياة أنور المعداوى من سنة ١٩٥٤ حتى ١٩٦٥ شعرت بحزن حقيقى كبير ؛ ذلك لأن الحياة الأدبية كانت قاسية أشد القسوة على هذا الأديب الناقد الحساس الموهوب ، وكأن الحياة الأدبية كانت تعاقبه على جرأته وصراحته ، وكأنها كانت تنتقم منه انتقاما مرا فيه الكثير من العمد والقصد والتدبير . والذي يمكننا أن نخرج به من محنة المعداوى هو : أن الناقد في مجتمعاتنا المتخلفة التي لم تتعود على احترام حرية الرأى لابد أن

يتعرض للأذى الشديد ، خاصة اذا كان هذا الناقد صريحا وجريئا
وبعيدا عن الانتباه إلى تجمع له نفوذ ، فالصراحة والجرأة في النقد
جريمة لابد أن يتلقى صاحبها العقاب عليها ويدفع الثمن .

وقد دفع المعداوى الثمن ودفعه آخرون من النقاد الذين تعودوا أن
يلتزموا بضميرهم الأدبي كلما واجهوا عملا فنيا أو قضية من قضايا
الفكر والثقافة ، وكانوا على الدوام معترزين بأنفسهم ويكرامتهم
الأدبية .

ولقد حاول المعداوى أن يخرج من الحصار المضروب حوله وذلك
عندما اتفق مع جريدة « القاهرة » المسائية للعمل بها . ولكن الجريدة
- مع الأسف - ولدت ضعيفة ماديا وأدبيا ، ولم يقدر للمعداوى أن
يكتب فيها سوى عدد قليل من المقالات ، وأذكر أن المقال الأول الذى
فى هذه الجريدة قد ضاعف متاعب المعداوى ولم يخفف منها ، وكان
سببا من الأسباب التى عرضته لمزيد من المتاعب حتى آخر يوم فى
حياته ، كان هذا المقال هجوما عنيفا قاسيا على أدب يوسف
السباعى ، ولم يكن المعداوى يعلم أن هذا المقال الجريء سوف يكون
لعنة عليه حتى يوم وفاته ، فيوسف السباعى لم يغفر للمعداوى هذا
المقال على الإطلاق وبذلك ازدادت متاعب المعداوى بعمله فى
صحيفة « القاهرة » ولم يكن هذا العمل حلا لأزمته بل كان من
عوامل زيادة الأزمة .

على أن جريدة « القاهرة » لم تعيش طويلا فقد أغلقت أبوابها ،
وتوقف المعداوى عن الكتابة فيها منذ البداية ، ولكن مقاله عن
السباعى قد أثار عليه متاعب قاسية .

ويهمنا هنا - من باب التسجيل التاريخي - أن ننقل نص مقال

المعداوى فى جريدة « القاهرة » . فهذا المقال يكشف لنا عن العنف الذى كان يتسم به نقد المعداوى ، وعن الحدة التى كان يخوض بها معاركه فى سبيل ما يؤمن أنه الحق ، كما أن هذا المقال كان سببا من الاسباب القوية للمعاناة التى تعرض لها فى الحياة الادبية ومن هنا يصبح المقال وثيقة أدبية لها أهميتها وقيمتها .

وقد نشر المعداوى هذا المقال فى عدد جريدة « القاهرة » الصادر فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ، وكان عنوان المقال هو « خارات أدب ومعربدون وسكارى » وهذا هو نص مقال المعداوى :

« فى حياتنا الأدبية اليوم ظاهرة عجيبة . . ليست هى على كل حال ظاهرة الركود الذى يعانىها الأدب منذ حين ، لأن هذا الركود عارض مؤقت سيزول حتما إذا ما زالت أسبابه ودواعيه ، وليست هى ظاهرة اختفاء الأقلام الرصينة لتحل محلها الأقلام الهزيلة ، لأن هذا الوضع مطابق تماما للنظرية الاقتصادية التى تقول لك : إن العملة الرديئة تطرد العملة النظيفة من السوق . . ليست هذه ولا تلك ، وإنما هى ظاهرة الاستهتار المدمر الذى تحولت معه بعض المجالات التى تتحدث عن الأدب إلى خارات ، وتحول معه بعض الكتاب إلى مجموعة من السكارى والمعربدون !

هذا السكر فى الأدب ، السكر الذى ينتج عنه مثل هذه العريضة ، ما هى مقدماته عند هذا الفريق من الكتاب ؟

مقدماته أنهم يعرفون تماما قيمة الأشربة . . يعرفون أن هناك شرابا لا طاقة لهم به ، لأنه يكلفهم الوقت وليس لديهم وقت ، ويكلفهم الجهد وليس لديهم جهد ، ويكلفهم العناية الذى لا تحتمله أعصابهم الرقيقة . . هذا الشراب المرتفع الثمن اسمه علم ،

وثقافة ، ومعرفة . ولهذا نبذوه ! وكان طبيعيا بعد ذلك أن يتجهوا الى الشراب الآخر ، الى الخمرة الرخيصة ، خمرة الفراغ المعتق في دنان الخمر الرخيص . . ومن هنا تخرج الالفاظ من أفواههم وهى تترنج ، وتنطلق الافكار من رؤوسهم وهى تعربد ؟

أشنع أنواع العريضة الفكرية هى أن يتحلل الكاتب من كل القيود التى تحدد صفات الأديب . . ثم يسلك نفسه بعد ذلك فى عداد الأدباء فينتج ، ثم فى عداد الموجهين فيوجه ، متخيلا أنه « صاحب رسالة جديدة » يريد أن يفرضها على الناس . . إن الكاتب الذى نعينه من وراء هذه الكلمات قصاص شاب ، لم يتقيد فى كتابة القصة بأى قيد من القيود الفنية التى يعرفها النقد ، ومع ذلك فهو أكثر قصاصينا الشبان قراء وأضحخمهم إنتاجا . . لانه يكتب القصة بنفس البساطة التى تدخن بها أنت سيجارتك . ويمسك القلم كما تمسك أنت بعود الثقاب ، ويبدأ عملية الكتابة كما تبدأ أنت عملية التدخين ، ويملأ الصفحات كلاما كما تملأ أنت الجودخانا ، وتنتهى القصة من بين يديه ، كما تنتهى السيجارة بين شفتيك ، أعنى أن كليهما تتحول الى « عقب » . . وكل الفارق بينكما أنك تقذف بأعقاب سيجارتك الى الأرض وهو يقذف بأعقاب قصته الى المطبعة ! يكتب القصة ببساطة لأن مفهومها فى ذهنه مفهوم بسيط . . . حكاية مسلية ولا شىء غير الحكاية المسلية وكفى الله القصاصين من أمثاله شر القيود . . وإذا كنت ممن يعرفون عدد طلاب التسلية من أنصاف المتعلمين فى مصر - هؤلاء المولعين بجمع أعقاب القصص - فستدرك على الفور لماذا كان صاحبنا أكثر كتابنا القصصين الشبان قراء !

لقد ألغى قيود الفن فى كتابة القصة لأنه يجهل تلك القيود ، وحين بقى أمامه قيد واحد خاص بمشكلة التعبير وهو قيد اللغة ، راح

يطالب بلغائه أيضا لأنه يجهله . . كل أديب يستحق أن نطلق عليه صفة الأديب يحاول أن يعوض جانب النقص فيه بالاطلاع والدراسة ، لتكمل بين يديه الأدوات . . وهذا هو منطق الأدباء الواعين ، أما صاحبنا فهو من طراز عجيب . . منطق أنه كل شيء يجهله لا يصح أن يعالج بالعلم وإنما يعالج بالإلغاء . . وهو منطق نعرفه عند فريق من الناس ، فريق كلما اعترضته مشكلة صعبة من مشكلات الحياة لجأ إلى الحل المريح ، والحل المريح هنا هو أن يقصد إلى أقرب خمارة ليلغى عقله ، وبهذا العلاج تلغى المشكلة . . إنه منطق السكارى والمهربدين !

هذا الكاتب مريض ، ومن حقه على النقد أن يعالجه ، وعلاجه هو أن يبصره بقيمة القيود . . القيود الفنية التي يلتزمها القصاص ليستطيع أن يكتب القصة ، وهي تلك التي ألغاهها بالأمس ، والقيود اللغوية التي يجب أن يلتزمها الكاتب ليستطيع أن يلتقي مع الأدباء ، وهي هذه التي يطالب بلغائها اليوم . . وإننا لنرجو أن يقتنع ، فيلغى إنتاجه القديم مثلا وكذلك أفكاره الجديدة ، واسمع يا حضرة الأستاذ :

إن الفن في كل صورة من صوره ما هو إلا عملية اختيار . . والقصة كصورة من صور الفن لا بد أن تخضع لهذا المقياس ، لا بد مثلا أن تختار لحظة « ممتازة » أو موقفا « ممتازا » من الواقع الذي نعيش فيه . . ونقول لحظة ممتازة أو موقفا ممتازا لأن الواقع في جوهره ما هو إلا مجموعة ضخمة من اللحظات والمواقف ، تترايط وتتشابك ، وتتعدد ليكون منها المضمون المادى للحياة . أمام هذه الزحمة التي تختلط فيها الماديات بالمعنويات ، تبدأ أول تجربة فنية واعية لتواجه كاتب القصة . . عليه أن « يختار » من خلال هذه الزحمة اللحظة

الموحية أو الموقف المضىء . عليه أن يقتطع أجزاء خاصة من جسم الواقع ، ليقدّم إلينا هذا الواقع من خلال أكثر أجزائه إشعاعاً وإضاءة . . وحتى هذه اللحظات المختارة ، يفضل فيها من جهة الفن أن تكون لحظات إيجابية لا سلبية ، ذلك لأن هناك فرقاً بين عمل يقدم إلينا « قصة » وبين عمل آخر يقدم إلينا « صورة » ، والفارق بين لحظة من الطراز الأول وبين لحظة من الطراز الأخير هو الذى يؤدى إلى امتياز القصة على الصورة . . إن مصدر امتياز القصة على الصورة هو أن الإيجابية هناك ناتجة عن تصوير « مشكلة » وإن السلبية هنا ناتجة عن تصوير « حادثة » . . وهذه هى المرحلة التطويرية فى عملية الاختيار .

بعد هذا تبقى التجربة الثانية ، ونعنى بها الناحية « التكنيكية » فى كتابة القصة . . إنها العملية التى تتمثل فى وضع « التصميم الفنى » وما يشتمل عليه هذا التصميم من خطوط ، أولها خط الاتجاه المادى الذى يعبر عن الواقع الخارجى للمشكلة ، ثم خط الاتجاه النفسى الذى يصور انعكاس هذا الواقع على الوجود الداخلى للشخصية ، حين يتحول هذا الانعكاس إلى مجموعة من السلوك تبرز الناحية الإيجابية فى القصة . ثم هذا الخط الأخير ونعنى به خط اللمسات الموحية ، تلك نفسية (١)

بهذه المقاييس أو بهذه القيود ، تكون القصة قصة . . وحين تلغى هذه المقاييس ، أو هذه القيود ، تكون القصة حكاية مسلية ، تكتب

(١) هذه الجملة وما قبلها مضطرب فى النص الذى نشرته الجريدة ، وعلينا أن نفهم ما يقصده الكاتب من خلال السياق ، وهو أن تكون اللمسات الموحية لمساة نفسية .

ببساطة مستهترة . . تماما كهذه الكلمات التي كتبت بهذا اللون من البساطة بقلم هذا الكاتب حول قيود اللغة ، في أول صفحة من المجلة الوحيدة التي يقال إنها تحمل لواء الأدب في مصر . . ودعني أقدم إليك نموذجاً من تلك الألفاظ المترنحة والأفكار المعقدة .

« فمازلت ألحن حتى الآن . . ومازلت أسمع اللحن فأقبله ببساطة » لاحظ كلمة البساطة هنا « دون أن تترك في أذن أقل ضيق أو تبرم . وأنا لم أضيق يوماً بنقد وجه إلى في النحو ، رغم أن موجهي النقد أنفسهم ضاقوا بي واعتبروا هذا الخطأ في النحو وصمة يجب أن أمحوها . فقد أنبئني عمي على هذا الخطأ ، ثم أنبئني الزميلة ابنة الشاطيء في نقدها لأحد كتبي لأنها وجدت به ما يربو على المائة غلطة ، ثم أنبئني عديلي عباس حسن أستاذ اللغة العربية بدار العلوم لأنني أخطأت في حديث لي بالإذاعة سبعا وعشرين غلطة ! لماذا كل هذا التعب » لاحظ مرة أخرى أن الكاتب لا يريد أن يتعب . . الآن العرب منذ ألف سنة رفعوا هذه ونصبوا تلك ؟ ليكن . . لنحافظ على تراثهم كما هو ، على أن نحلل لغتنا من أثقاله وقيوده « لاحظ مرة ثالثة أنه يضيق بالقيود » . . ونقولها بأبسط الطرق . . لنسكن آخر الكلمة ، ولنبتل التنوين ، ولنقل الجمع بالياء فقط ، ولتكن الصفة العددية مطابقة للموصوف مهما كان العدد ، ولنحرم أدوات الجزم والنصب من سلطانها في الجزم والنصب والحذف ، لنتحلل من كل هذا ولنعرف الممنوعات من الصرف ، ولنتحدث بلغتنا دون خوف من لحن أو خطأ ، يجب أن يزول احتكار اللغة بقيودها وقواعدها ونحوها وصرفها . . وأنا واثق أنه لن يأسف على ذلك إلا جيل الشيوخ من أدبائنا ، محترفو اللغة العربية في وزارة المعارف والأزهر والجامعة ، ولا أظننا - من أجل هؤلاء - يجب أن نظل راسفين في تلك الأغلال الملعونة ؟ ! » .

يريد الكاتب من وراء هذه « الرسالة » الجديدة التي يحملها إلى الأدياء ، أن يقنعهم بترك هذه اللغة التي يكتب بها وتزخر بكل هذه القيود ، لماذا ؟ لأنه هو « شخصا » لا يجيد الكتابة بمثل هذه اللغة ، ترى هل تستطيع البساطة المستهترّة أن تفهم القيمة من هذه القيود ، حين نتحدث عن تلك القيمة في كلمات واضحة وموجزة ؟

اسمع مرة أخرى يا حضرة الأستاذ :

إن اللغة التي تريدها وتريد للأدياء أن يكتبوا بها هي اللغة العامية ، أو هي اللغة التي ستنتهي بنا حتما إلى أن نكتب الأدب بلغة العوام . . إلى هنا ونقف قليلا لنحقق لك كل ما تطمع فيه من خيال ، وهو أن كل المثقفين في مصر سيستجيبون لدعوتك ويكتبون بلغتك ، أقصد باللغة التي تريد . . إذا حدث هذا فليس من شك في أنه سيكون حلا موفقا للمشكلة ، أعني مشكلتك الشخصية المعقدة . . ولكن ماذا نفعل إذا كان ثمن التغلب على هذه المشكلة الفردية ، هو قيام مشكلة أخرى أكثر تعقيدا لأنها مشكلة جماعية ؟

ترى هل تدرك حقيقة هذه المشكلة الأخيرة ؟ إنها تتلخص في أن اللغة العامية تختلف في مصر عنها في بقية أقطار العروبة ، ومعنى هذا أن أدبنا الذي سيكتب بلغتك سيحجز هنا ولن يتخطى الحدود . . لن يقبله لبنان مثلا لأنه لن يفهمه ، وكذلك لن يقبله العراق ولن يقبله سوريا وتونس ومراكش وكل بلد عربي يعجز عن أن يتفاهم مع هذا الأدب . . والنتيجة واحدة فيما لو استجاب العراقيون أو اللبنانيون مثلا لدعوة محلية ماثلة ، وكتبوا الأدب بلغتهم العامية ثم حاولوا القيام بتصديره إلى مصر !

أعتقد بعد هذه الكلمات أننا لا نستطيع أن نضحى بمشكلة

الجماعة في سبيل مشكلة فرد . . فرد عاجز عن أن يكتب باللغة الوحيدة التي لا يمكن بغيرها أن تفاهم كل هذه الأقطار . . من هنا يجب أن يدرك هذا الفرد أن تلك القيود التي يدعو إلى إلغائها ببساطة هي أساس البناء التعبيري لتلك اللغة التي يحرص على بقائها غيره من الأدباء ، لأنها الأداة الأولى لتكوين وحدة فكرية كاملة بين البلاد العربية !

ولم إلى أن نكتب عن بقية السكاري والمعريدين في المقالات القادمة ، أود أن أطمئن صاحب الدعوة الجريئة إلى أنني لست واحدا من محترفي اللغة العربية في وزارة المعارف والأزهر والجامعة . . وإنما أنا واحد من الأدباء ! »

هذا هو مقال المعداوي ضد يوسف السباعي ، ويمكننا أن نأخذ عليه أنه ناقش رأى السباعي في اللغة العربية ، ولم يناقش أدبه مناقشة تطبيقية ، أى أن المعداوي لم يقدم نماذج لما يعترض عليه في أدب السباعي ، واكتفى المعداوي بالهجوم العام على السباعي وأدبه ، أما بالنسبة لقضية اللغة العربية فإن موقف المعداوي واضح ومفهوم ، فقد اختار فقرات من مقال للسباعي نشره في مجلة « الرسالة الجديدة » التي كانت تصدر في القاهرة سنة ١٩٥٤ وكان السباعي رئيسا لتحريرها ، وبذلك كانت مناقشة المعداوي لأراء السباعي في اللغة العربية مقنعة ، خاصة أن رأى المعداوي صحيح ورأى السباعي خاطيء لا يمكن الموافقة عليه .

ولقد كان من الضروري بالنسبة للمعداوي أن يدعم رأيه في أدب السباعي - وهو أدب سطحي في مجمله - بنماذج وشواهد تجعله أكثر إقناعا ووضوحا كما فعل في مناقشته لموضوع اللغة .

وبعد أن ظهرت مقالة المعداوى فى جريدة « القاهرة » نشر السباعى فى مجلة « الرسالة الجديدة » - كرد غير مباشر على هجوم المعداوى - مقالا قديما كان المعداوى قد نشره سنة ١٩٤٦ وكان فى هذا المقال يمدح يوسف السباعى .

وقد أعيد نشر هذا المقال الذى مدح فيه المعداوى يوسف السباعى فى كتاب صدر أخيرا بعنوان « الفكر والفن فى أدب يوسف السباعى » وهذا الكتاب موجود فى الأسواق ويين أيدي القراء .

وقد عقب المعداوى على إعادة نشر مقاله القديم فى مدح يوسف السباعى بمقال فى جريدة « القاهرة » أيضا تحت عنوان « قصة مقال فى مجلة أدبية » ، وهذا المقال الثانى نشرته جريدة « القاهرة » فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وفيما يلى نص هذا المقال :

« شكرا لتلك المجلة التى يقال إنها تحمل لواء الأدب فى مصر . . . شكرا لأنها تفضلت فنشرت لى مقالا قديما سبق نشره ولأنها قد وضعت المقال فى إطار جميل « ملون » يدل على عناية خاصة ، ولأنها - وهذا هو الأهم - لم توضح للقراء لماذا كتب هذا المقال ، وأين نشر من قبل ، ومتى ! لباقة ما فى ذلك شك . . لأن المحرر اللبق قد حاول أن يخدع القراء فيوهمهم بأن المقال جديد ، وأننى قد أرسلته إليه منذ شهر مثلا أو شهرين فلما تأخر نشره هاجمته على صفحات « القاهرة » وبذلك يصفق القراء لهذا التناقض الخطير بين رأى الأول فى أدبه الخالد ، وبين رأى الأخير الذى أعلنته هنا منذ أسبوعين . . لباقة مدهشة ، ولكن عيب هذه اللباقة أنها تخدش جسم الحقيقة ، الحقيقة التى تبسم ساخرة لتقول لك : إن هذا المقال قد نشر منذ ثمانية أعوام ، وفى مجلة اسمها « العالم العربى » وأنه ما كتب إلا لغرض

واحد هو تشجيع قصاص مصرى ناشئ كان يخطو فى ذلك الحين خطواته الأولى وهو مستند إلى أذرع النقاد .

منذ ثمانية أعوام تبدأ قصة هذا المقال ، أو قصة الشاب الذى أخرج أول كتاب ليقدمه إلى ناقد ، طالبا إليه فى أدب جم ورجاء صادق ، أن يساعده بكلمة يستطيع بها وبكلمة أخرى من غيره ، أن يشق طريقه .

ذلك الشاب هو محرر المجلة التى يقال إنها تحمل لواء الأدب فى مصر ، وهذا الناقد هو كاتب هذه السطور ، ولم يتردد هذا الناقد فى أن يأخذ بيد القصاص الناشئ لسبيين : أولهما أن كتابه الأول كان يبشر بموهبة يمكن أن تثمر لو وجهت التوجيه الفنى الصحيح ، وثانيهما أن كلمة تشجيع لو طبعت بطابع التساهل يمكن أن يكون لها فعل السحر فى تحويل خطوة الناشئ المتعثرة إلى خطوات زاحفة . . من هنا كتبت تلك الكلمة ورجوت بعض الأصدقاء أن يشجعوه بكلمات مماثلة ، ثم رحنا جميعا نرقب الخطوات المنتظرة للقصاص الشاب فإذا هى خطوات زاحفة فعلا . . ولكن إلى الوراء .

هذه هى قصة المقال القديم الذى نشر منذ ثمانية أعوام ثم أعيد نشره منذ خمسة أيام . . المقال الذى لم يخل من عبارة تحذير بعد كل عبارتين من عبارات التشجيع وهو لون من ألوان « التحفظ » الذى لا بد منه للناقد وهو يتحدث عن الإنتاج الأول لكل كاتب ، وإليك بعض النماذج التعبيرية المتحفظة كما نشرت فى تلك المجلة الأدبية : « لو قدر لهذه القصة أن تعالج فى شئ من الأناة والاحتشاد وسعة الوقت ، لكان من الممكن أن تحتل مكانها فى الصدارة من هذا اللون القصصى الطريف الذى لا نلمسه كثيرا إلا فى القصة الغربية ، ولكن

المؤلف ليس لديه من الوقت ما يحتشد فيه لفنه الاحتشاد الذى يرضينى كناقذ قبل أن يرضينى كقارىء ، فهو قصاص مكثر ، مكثر إلى حد لا يطاق ، وأخشى أن يدفعه الإكثار إلى أن يكرر نفسه ، حين تستنفذ طاقته الفنية فى هذه الخطة التى تجبى على مواهبه . . لقد كنت ألس وأنا أقرأ « نائب عزرائيل » أثر هذه الخطة واضحا فى بعض فصول القصة ، وكنت أشعر أنه لا يكاد يلتقط أنفاسه من السرعة ، السرعة التى كانت تدفعه فى بعض الأحيان إلى شيء من « الكلفة » ، إن السرعة فى رأى جنابة على الفن والفنان ، وإن هذه الخطة التى ارتضاها لنفسه تكاد تدفع بإعجابى إلى أن يكون سخطا .

ما الذى كان يريده منى بعد كل هذا التحذير ؟ لقد حذف من المقال بعض العبارات التى تفسر قولى عنه إنه قصاص مكثر لغرض مقصود ، هو أن يخفى أسماء الصحف التى كان ينشر فيها قصصه قبل أن يطبع كتابه الأول ، وهى صحف توقفت عن الصدور منذ سنوات . . لماذا ؟ ليوهم القراء بأن الإكثار الذى أعنيه كان متعلقا بكتب أخرى قبل هذا الكتاب ، وبذلك يوهمهم مرة أخرى بأن المقال لم يكتب عنه وهو أديب ناشئ وإنما كتب عنه وهو أستاذ كبير . . ما الذى كان يريده منى كما قلت ؟ أكان يريد أن أسكت عنه وهو يعبث بمفهوم القصة حتى أفسد هذا المفهوم فى أذهان القراء ؟ أم كان يريد أن أؤيده فى دعوته الجريئة إلى الغاء قيود اللغة لأساعده فى حل مشكلته المعقدة ؟ لقد أفهمته أنها مشكلة جماعة لا مشكلة فرد ولكنه لم يستطع أن يفهم . . أو لعله فهم ولكنه أنانى عاجز يبحث عن مصلحته ولو على حساب مجموعة من الأقطار لا يمكنها إذا أرضينا أنانيته وعجزه ، أن تفاهم فكريا وهى تكتب الأدب بلغة العوام .

وبذلك يتهى مقال المعداوى الثانى فى جريدة « القاهرة » ، وقد كان

هذا المقال هو أيضا مقال المعداوى الأخير في هذه الجريدة التي بنى على العمل فيها أحلاما كبيرة ، ولكن هذه الأحلام ذهبت كلها مع الريح ، وكل ما جاء في هذا المقال الثاني للمعداوى حق وصدق وتبرير قوى لموقف المعداوى ولمقاله القديم في تشجيع يوسف السباعى عندما كان يخطو خطواته الأولى في الحياة الأدبية .

نعود بعد ذلك إلى رسالة المعداوى الأخيرة إلى فدوى ، لنجد أنه كان في هذه الرسالة يحلم حلما آخر بأن ينال جائزة الدولة الأدبية عن كتابه « على محمود طه شاعر الأداء النفسى » . . وقد تحقق هذا الحلم فعلا ولكن بطريقة مأساوية غريبة .

كان المعداوى يحلم بأن ينال هذه الجائزة عام ١٩٥٥ ، ولكن دوامة الهموم التي حاصرت حياته وملأتها بالمشاغل والمشاكل لم تتح له أن يطبع كتابه في ذلك الوقت ، وبالتالي فإنه لم يتقدم به لنيل الجائزة ، ولو أنه طبع هذا الكتاب في ذلك العام وتقدم إلى الجائزة لما استطاع أن ينالها بحال من الأحوال . .

اذ كيف تفكر الأجهزة الثقافية في تكريم المعداوى ، وهى التي لم تفكر في الدفاع عنه ضد قرار نقله الى العمل بالتدريس ، ولم تفكر في توفير عمل له عندما تعرض للبطالة الكاملة ؟ !

كان ذلك وهما من أوهام المعداوى . . وقد كانت الأوهام في بعض الأحيان من المسكنات التي كان يلجأ إليها طلبا للهدوء والراحة المؤقتة من الضنى والعذاب .

وتشاء الأقدار ألا يصدر كتاب المعداوى عن « على محمود طه » إلا في بغداد وفي سنة ١٩٦٥ ، وقبل وفاته بشهور ، ثم تشاء الأقدار أن

يكون موته المفاجيء سببا في أن يهتز ضمير الحياة الأدبية خلال الشهور التي تلت هذه الوفاة المفاجئة . وتحت ضغط هذا الضمير الذي اهتز أخيرا وبعد فوات الأوان تقرر منح أنور المعداوى جائزة الدولة عن كتابه « على محمود طه » .

وهكذا تحقق حلم المعداوى ، ولكن بعد أن مات ، ولم ينل هو الجائزة بل نالها ورثته ، وكان في الأمر شيء أضحك المحبين للمعداوى والحزانى عليه ، أضحكهم وهم في شدة أساهم على وفاته .

هذا الأمر هو أن الجائزة التي نالها المعداوى هي « جائزة الدولة التشجيعية » ! ، وقد تساءلنا يوما - وهذا سر الضحك الذي هو كالبكاء - على أى شيء يشجعون المعداوى ؟ ! ، هل يشجعونه بعد أن مات ؟ ! ، أم أنهم يشجعونه على الموت نفسه ؟ أم أنهم يكافئونهم لأنه رحل عن الدنيا وأراح الناس من قلمه الصريح الجريء ؟

وبعيدا عن الضحك والبكاء فإن العبرة في هذا الموقف واضحة :

يظل الأديب الحر يعانى في حياته أشد المعاناة ولا يجد من يمد إليه يديه ، وبعد أن يموت تسعى مواكب التكريم إليه كجزء مكمل لجنائزته ، وهو تكريم محدود لا يدوم وإنما هي أيام أو أسابيع أو شهور ، ثم يعود النسيان ليسدل ستاره من جديد على الأديب الراحل .

وهذا ما حدث للمعداوى .

نال الجائزة بعد الوقت الذي كان يتمنى أن ينالها فيه بعشر

سنوات ، ونال هذه الجائزة بعد أن مات ، وقد كان أشد ما يكون حاجة إليها - مهنويا وماديا - في حياته لا بعد موته .

ونالها ثم سكنت الحياة الأدبية عن ذكره سكوت القبر ، وبقي اسمه منسيا وإنتاجه ضائعا أو شبه ضائع إلى اليوم ! .

ماذا بقي في رسالة المعداوى الأخيرة إلى فدوى ؟

بقيت إشارات إلى بعض قصائد فدوى .

يقول المعداوى : « . . ولكنى كنت محتاجا إلى من يحمل إلى مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك » ويقول أيضا : « لقد كنت دائما أنتظرك يا فدوى ، ولكنه كان انتظارا في الظلام عند ذلك الجسر الكبير الذى طلبت إلى أن أمضى نحوه . . يا طالما ذهبت إليه وانتظرتك هناك ، ولكن آه من ذلك الظلام الرهيب الذى كان يسلبنى الرؤية ، رؤية كل شيء » .

في هذه الكلمات يشير المعداوى إلى قصيدة لفدوى كتبتها من وحى علاقتها العاطفية بالمعداوى ، وهى قصيدة « انتظرنى » ، وفى هذه القصيدة تشير إلى « الجسر الكبير » ، ولعل هذا الجسر هو الجسر الذى يربط الضفة الغربية بالضفة الشرقية لنهر الأردن ، لعله كذلك ، أو لعله جسر خيالى وهى صنعته أحلام الحب التى تعيش فيها الشاعرة وتنسج منها كل ما تريد من أشياء ومواقف .

تقول فدوى في هذه القصيدة :

حين تبدو الحياة في يومك المقفر
مضى كتيبة مملولة

ويلح الشوق اللجوج فتدعون
 ودونى مجاملى وبرارى
 وأمامى شوامخ الاسوار
 فأمض نحو الجسر الكبير مع الذكرى
 ورعشاتها المذاب الجميله
 سترانى هناك أمشى إلى جنبك
 أنت استفراقتى وابتهالى
 وأنا كنزك الذى تحتويه
 بيدى باخل وحرص ضنين
 وتواريه عن فضول المعيون
 والأصيل الملون الخلو يطويناء
 حبيبين ناسجى آمال
 وسنمضى معا إلى الضفة الأخرى
 بعيدا عن اصطخاب المدينه
 فى الطريق المدود نمشى ..
 وللصمت خشوع يلف جو هوانا
 ليس إلا النجوى ووقع خطانا
 وطمأنينة تكلل روحينا
 وأمن وراحة وسكينه
 وسنمشى ونحن نجهل من يدفعنا
 فى المدى وما سنلاقى
 وسنمشى معا بعيدا ولا ندرى
 متى ينتهى الطريق الوثير
 أو إلى أين سوف يفضى المسير
 ونداء المجهول صوت خفى

هاتف من قرارة الأعماق
وسنبقى هناك نمشى ولا نعلم إلا
شيئا يحسه قلبانا
هو إيماننا المقدس بالحب
نوى في أغوارنا المجهول
وحَدانا على الدروب الطويلة
وزكنا شعلة يضيء بمعينينا
فنمضى على سناها كلانا

ويقول المداوى في رسالته :

« كم أَلح على الشوق ، وكم عدت للماضى وكم عشت في
الذكرى ، وكم وكم وكم .. ولكنى كنت محتاجا إلى من يحمل إلى
مصباحا ولو صغيرا ، لأستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن
أراك » .

في هذه الكلمات التى يكتبها المداوى في رسالته اشارة الى المقطع
الأخير من قصيدة « انتظرني » الذى تقول فيه فدوى :

هكذا كلما أَلح عليك الشوق
عد للماضى ، وعش في الذكرى
واحى أيامنا ونحن على النهر
ونيسان ضاحك في الضفاف
راقص الظل رائع الأطياف
وانتظرني ، غدا سيجمعنا الحب
شتيتين في حماء استقرا

أما البيتان اللذان ختم بهما المداوى رسالته الأخيرة وهما :

فنبود لو نمشى إلى الأبد	نمشى وقد طال الطريق بنا
كطريقنا وغدت بلا أحد	ونبود لو خلت الحياة لنا

. . هذان البيتان الجميلان هما من شعر الشاعر الكبير إبراهيم ناجى ، وقد كان المداوى يردد هما كثيرا .

آخر كلمات المداوى

في أوائل ١٩٦٤ عاد المداوى من قريته بعد فترة طويلة قضاها هناك أسيرا للمرض الذى كان يعاوده بين الحين والحين ، والذى زاد هذه المرأة فلم يعد مرض « الكلى » فقط ، ولكنه أصبح بالإضافة إلى ذلك نوعا من « ضغط الدم الخبيث » الذى يستعصى على الدواء المألوف لضغط الدم ، وعندما عاد المداوى من قريته أسرع إلى وسجلت معه حديثا طويلا نشرته في جريدة الجمهورية حيث كنت أعمل في ذلك الحين محررا أدبيا لها ، وقد كان هذا الحديث هو آخر كلمات المداوى ؛ لأنه مات بعد ذلك بعام وبعض عام ، وقد قضى العام الأخير من حياته متعبا حزينا لا يفكر في كتابة أو إنتاج . وقد كان في هذا الحديث تصوير لكثير من جوانب فكره ونفسه ، ولذلك فلأن أقدمه هنا دون أن أقدم الأسئلة التى وجهتها إليه ، فإن هذه الأسئلة تتضح من إجابته عليها ، وفي هذه الكلمات ما يساعدنا على

استكمال صورة المداوى وصورة مرحلة من حياتنا الأدبية ما زلنا نعيش إلى اليوم في بعض نتائجها وأصدائها المختلفة .

وهذه هي كلمات المداوى التي حرصت على تسجيلها بنصها تقريبا . . . يقول المداوى :

■ ١ ■

وأنا مريض كان هناك معنى يعذبني أكثر مما يعذبني المرض ، وهذا المعنى هو أنني هارب من الحياة أرفض للحياة . ومما عذبني أكثر أنني لم أكن أستطيع أن أحمل قلمي في تلك الفترة لأقول للأصدقاء الذين كتبوا عني ورددوا هذا المعنى ووجهوا نفس الاتهام في مودة وحب وإشفاق . . . لم أكن أستطيع أن أقول لهم جميعا : إني أومن - وما زلت - أن الحياة تستحق أن تعاش ، وأني طوال عمري أحب الحياة حبا عميقا ، وألقاها دائما بقلبي قبل فكري ، وأكن لها مودة عميقة مهما ملأت قلبي بالفرح أو ملأت عيني بالدموع . إن في الحياة قيما كثيرة يستحق أن يعيش من أجلها الإنسان ، والإنسان المفكر بوجه خاص ، ليؤمن بها ويدافع عنها ويقف في وجه من يعطل سيرها أو يعوق حركتها . . وهذا في رأيي هو واجب الكاتب ومسئولية الفنان ، ومن هنا مكثت عشرة أشهر أقاوم بكل ما أملك من قوة عوامل المرض ودوافع الهزيمة وشبح الموت ، وكان أشد ما أخشاه أن أهزم في هذه المعركة ويصدق الناس أنني هربت من الحياة ورفضت الحياة ، وحتى اليوم ما تزال المقاومة مستمرة والنضال محتدما ، وبهمني أن أقول ذلك وأؤكد لكل الذين كتبوا إلى مشفقين جزعين من أن تكون حياتي قد توجت في أثناء المحنة بهذا الشعار ، شعار « الهروب

من الحياة « الذى أطلقه على أصدقائى ممن هزتهم أزمتى فتناولوا أقلامهم فى شرف ونبيل يحدوهم فى ذلك لإشفاق على مصيرى . وما دام دافعهم الحب والمودة فإننى بقدر ما أذكر لهم - هؤلاء الشرفاء - أنهم عذبوني باتهامهم ، فإنى أذكر لهم أيضا أنهم أشعرونى أن الدنيا لا تزال بخير وأن الحياة تستحق أن تعاش .

■ ٢ ■

لقد عاهدت نفسى طوال عمرى أن احترم ضميرى أكثر مما أحترم الشهرة والمجد والتصفيق والتكالب على المادة . ولهذا قل لإنتاجى - كما قلت لى وأنت صادق - فى الأعوام الأخيرة بعد أن كان إنتاجى فى الأعوام التى سبقتها يصافح أيدى القراء كل أسبوع .

كنت فى تلك الأعوام السابقة أود لو أتيتحت لى الفرصة لكى أكتب كل يوم وليس كل أسبوع ، كانت الحياة الأدبية فى ذلك الحين نظيفة ، على رغم تخلف الإنتاج الأدبى فى كثير من نواحيه : ناحية التطور مثلا فى شكله ومضمونه ، ناحية الاتصال الواسع بالأدب العالمى ، ناحية الكم العدى بالنسبة إلى الأقلام الجادة .

رغم هذا كله فإن الحياة الأدبية كانت نظيفة ، وأنا أقصد بكلمة نظيفة أن المجاملات التى تهدد القيم وتهرب من كلمة المسئولية وتعبث بالأصول والتقاليد خاصة فى ميدان النقد الأدبى . . هذه المجاملات لم تكن بهذه الكثرة المخيفة التى نطالعتها فى الأعوام الأخيرة ، من هنا لجأت فى كثير من الأحيان إلى الصمت ، وأنا أعتبر الصمت - على عكس ما يظن الكثيرون - لونا عميقا من إبداء الرأى ، فأنا حين أصمت فمعنى ذلك أننى أقول كلمتى ، وكلمتى التى أعنيها هى أن

ما أراه من إنتاج لا يستطيع أن يدفعني إلى أن أتكلم ، والصمت مرة أخرى لون من الاحتجاج والقرف ، ومع ذلك كله فقد كان هناك إنتاج يرغمني على أن أبذل عزلي لأقدمه إلى القراء ؛ لأن الصمت هنا يعتبر جريمة .

وبهذه المناسبة أحب أن أقول لك إنني شاهدت بعض المسرحيات التي صفت لها كثير من النقاد في مجالسهم الخاصة وعلى صفحات الصحف مع أنها لا تستحق شيئا من هذا الضجيج ، ولو كان هناك ضمير أدبي وخشى هؤلاء النقاد أن تسوء علاقات الصداقة بينهم وبين صاحب هذه المسرحية أو تلك فقد كان يجب على الأقل أن يصمتوا .

لقد اضطررت أخيرا إلى أن أقاطع أكثر ما يعرض على المسرح من أعمال فنية ، وفقدت تبعا لذلك كثيرا من الصداقات . إنني أعتقد اعتقادا راسخا أن القارئ مسئول منا نحن النقاد ، وأنا مسئولون عنه أكثر مما نحن مسئولون عن كتاب المسرح ، لأننا إذا جاملنا كاتبنا مسرحيا صديقا ، فلنأنا نجامله على حساب ألوف القراء ، وإذا احتفظنا عن طريق المجاملة بصداقة كاتب واحد واحترامه ، فقد خسرنا في مقابل ذلك صداقة هذه الألوف من القراء واحترامهم لنا ، ونكون بذلك قد ارتكبنا جريمة .

■ ٣ ■

في تلك الفترة التي صمت فيها عن التعليق على تلك الأعمال المسرحية كتبت دراسة عن « المسرح الاتجاهي بين سارتر وتشيكوف^(١) » كانت نفسي تنازعني إلى أن أكتب عن مسرح

(١) هذه الدراسة منشورة في كتاب المداوى « كلمات في الأدب » وكلمة « الاتجاهي » هنا هي ترجمة المداوى الخاصة لكلمة « إيديولوجي » .

الأساتذة في الخارج حتى يستفيد « مسرح التلاميذ » في الداخل .

وكانت هناك أشياء - كما قلت لك - ترغمني على أن أتكلم ، فقد أرغمتني مثلا ثلاثية نجيب محفوظ على أن أكتب دراستين طويلتين عنها ، كما أرغمتني رواية « اللص والكلاب^(١) » لنجيب محفوظ أيضا على أن أكتب عنها دراسة نقدية .

وفي رأيي أننا كنقاد يجب أن نقول كلمة الحق ، ومن الأكرم لنا أن نصمت إذا كنا محرجين ، وأنا في الواقع إذا صمت فلنأصمت احتجاجا على النقد أكثر مما أحتج على الإنتاج الهابط نفسه ، وبدلا من أن أكتب عن هذا الإنتاج الهابط وأتحدث عن عيوبه ومآخذه ، فمن الأجدي عندي أن أكتب دراسات توجه أصحاب هذا الإنتاج دون أن أهاجمهم حتى لا يقال - كما قيل أكثر من مرة - إنني أثبط من عزائمهم أو أضع الصخور في طريقهم .

وقد يحتاج البعض بأنى لم أكتب عن قصاص ممتاز مثل يوسف إدريس ، والذي عاقني حتى اليوم عن الكتابة عنه هو أنه ككاتب قصة قصيرة مر بمراحل عديدة ومتطورة ، ومن واجب الناقد أن يكتب عن كل هذه المراحل ويساير فيها خطوط التطور ومنهج الكاتب ، وهذا ما عاقني مؤقتا عن الكتابة حتى أستطيع أن أكتب بصورة متكاملة ، فلا يكفي أن يكتب الناقد دراسة عن قصة قصيرة أو مجموعة قصصية واحدة لكاتب مثل يوسف إدريس .

(١) هاتان الدراستان عن ثلاثية نجيب محفوظ ، والدراسة الثالثة عن « اللص والكلاب » منشورة كلها في كتاب « كلمات في الأدب » للمعداوى .



أنت بالذات كصديق قديم تتابع كل اتجاهاتى الفكرية ، تعرف أننى أرفض أدب اللامعقول ، لأننى أرفضه بكل إصرار واقتناع ؛ ذلك لأننى أؤمن أن رسالة الفن - فى أصل من أصولها - هى أن يفهم القارئ أولاً عن الكاتب أو الفنان ، فإذا لم يستطع الكاتب أن يوصل إلى القارئ مضمون أفكاره ، وأن يوضح له ما يريد أن يقول ، وأن يقوده فى وضوح تام عبر الدروب ، فهو لم يؤد من واجبه شيئاً .

أنا أعترف أن الحياة تبدو فى كثير من جوانبها غير منطقية وغير معقولة ، فهل من مهمة الفن أن يزيد من كثافة اللامعقول وأن يعقد ما فى الحياة من لا منطقية ؟ ! ، العكس فى رأى هو الصحيح . إننا يجب أن نقدم الحياة للناس وهى معقولة ومنطقية ؛ على الأقل حتى يكون دور الفن هو أن يحبب الناس فى الحياة ، وأن يقدمها إليهم فى صورة تخلو من التعقيد وتجسد ما فيها من بشاعة .

إن رسالة الفن هى أن يقدم الحياة وهى منطقية معقولة ؛ حتى لا تشيع فى أرجائها كثافة الظلام الذى يمكن أن ينعكس بدوره على الجانب النفسى للجماهير . ومن هنا كان النقد مثلاً يعيب على كاتب القصة أن يبنى أحداثه على المصادفات ، مع أن الحياة - والفن يعبر عنها - فى كثير من اتجاهاتها مليئة بالمصادفات . . لماذا ؟ ، لأن الفن يريد أن يخلق منطقاً للحياة ويريد أن يعطيها صفة المعقولة ، يريد أن يقدمها فى الإطار الذى لا غرابة فيه ولا شذوذ ولا بعد عن المعقولة .

أنا أكره أدب الظلام ، الأدب الذى لا يقود القارئ إلى النور ،

وأكره كذلك أدب اليأس ، أنا أكره كافكا وأكره ألبر كامى وأكره
بيكيت ، ولا يمنع هذا من اعترافى بعبقريتهم الفنية .



إن الذين يتهمون الشعر الجديد بأنه لم يأت بجديد مخطئون . فهذا
الشعر قد نقل الشعر العربى من شكل إلى شكل . نقله من نظام
الأسطر البيئية المتساوية التى كانت تحد من قدرة الانطلاق الصياغى
للشاعر إلى نظام التفاعيل الحرة التى تتيح لقدرة الشاعر التعبيرية أن
تنتقل إلى أقصى الحدود . وليس معنى التفاعيل الحرة أنه غير
موزون . فهو موزون بالتأكيد ويساير الأصول العروضية
ولا يخالفها . . لا يخالفها إلا فى نظام التفاعيل فقط .

ومن ناحية المضمون نستطيع أن نقول إن هذا الشعر قد أتى أيضا
بجديد . هذا الجديد فى رأى هو « القالب الملحمى » الذى يميز هذا
الشعر ، وبخاصة عند قلة من شعرائنا المثقفين ، فقد استخلمت
الأسطورة بطريقة ملحمية عند بعض هؤلاء الشعراء ، وهو ما لم يكن
له وجود عند الشاعر القديم أو الشاعر المعاصر .

إلا أن الشعر الجديد له عيوب خطيرة ، والعيوب ليس مصدرها
هذا الشعر نفسه ولكن مصدرها الشعراء أنفسهم ، فلقد أصبح
الكثيرون منهم نسخا مكررة من الأقلية التى كان لها فضل البداية ،
وتبعاً لذلك فقدت الشخصية الشعرية أصالتها عند أكثرهم ، يضاف
إلى هذا تلك القوالب الثرية التى يصبون فيها مضامينهم الفكرية ،
هذه الثرية - وهى ما نسميه بلغة الأداء الركيك - يجب أن تكون فى
المستوى اللائق بكل مضمون شعرى رفيع ؛ لأن الأداء الركيك

لا يستطيع أن يوصل مضمونا شعريا جيدا إلى وجُذان القارىء ،
وفقدان الشخصية الشعرية له ضرره البالغ على الشعراء أنفسهم ؛
لأنهم - هؤلاء المقلدين - يفقدون وجوههم الخاصة في زحمة الوجوه
الفنية الكثيرة .

نريد من كل شاعر أن يكون له طعمه الخاص ووجهه المتميز وإلا
فإن وجها واحدا يستطيع أن يغنينا عن كل الوجوه .

■ ٦ ■

لقد كتبت عن نجيب محفوظ قبل أن أعرفه ، وبعد ذلك توطدت
صداقتنا . وما أقوله لك عن نجيب محفوظ أقوله لك عن على محمود
طه . فإعجابي بهما وتقديرى لهما قد سبقا ما بينى وبينهما من صداقة .
وأحب أنؤكد لك أنني أبذل مودتي ووفائي للفن أولا ، بمعنى أن
هناك من الكتاب والفنانين من تربطنى بهم صداقة قد تكون أقوى من
صداقتى لشاعر مثل على محمود طه أو كاتب مثل نجيب محفوظ ، ومع
ذلك فلم أكتب عنهم يوما من الأيام كلمة واحدة ، ذلك لأننى أفرق
بطريقة صارمة بين صداقتى لكاتب من الكتاب - أقصد صداقتى
الشخصية - وصداقتى لفنه ، فقد يحدث فى كثير من الأحيان أن
تكون بينى وبين فنان معين مودة عميقة لفنه ثم لا تكون هناك أى مودة
بينى وبين شخصه ، والعكس صحيح أيضا .

من هنا يتبين لك أن الأساس عندى هو المودة بينى وبين العمل
نفسه ، وأنت تعلم أننى حريص كل الحرص على ألا أجامل أحدا
- مهما كان صديقا - على حساب الفن . وإذا كان تقديرى لعلى محمود
طه قد يبلغ حد الإسراف فهدر رأى الشخصى الذى يقوم على تقييمى

الخاص لفنه ، وقد يختلف معى نقاد آخرون فى هذا التقييم ، ولكن رأى فى الشاعر لا يقوم أبدا على أساس من المجاملة ؛ لأن تقديرى له قبل أن أعرفه هو نفسه تقديرى له بعد أن عرفته . وكذلك الأمر فىما يختص بكتاب مثل نجيب محفوظ ، هذا الكاتب الذى يتهمنى البعض أيضا أننى أسرف فى تقديره .

إننى أقول كلمتى وأمشى ولكنها كلمة الحق . . أو ما أعتقد أنه الحق .

لقد كانت صداقتى لعللى محمود طه عاملا هاما فى معرفتى لكل الجوانب الخاصة فى حياته الذاتية . وساعدتنى هذه المعرفة على أن أدرس شعره على ضوء حياته ؛ لأن الكاتب الباحث فى حاجة ملحة إلى معرفة كل الاتجاهات فى حياة من يكتب عنهم حتى يستطيع أن يربط ربطا حيويا فعالا بين الفنان وبين إنتاجه ، وأن يفسر على ضوء هذه العملية مختلف الاتجاهات الفنية والنفسية فى حياة الفنان ، وأعتقد أن هذا هو ما قمت به فى كتابى عن على محمود طه الذى سوف يصدر قريبا .



الالتزام فى الأدب هو أن يعيش الفنان تجربة عصره . أو بمعنى آخر يعيش تجربة الجموع ، وفى سبيل هذه الجموع يجب أن يكرس فنه ، أو بمعنى ثالث يجب أن يجعل فنه فى خدمة قضية الإنسان ، فإذا نادينا بهذا الأدب فإننا نكون قد أردنا أن نشهر سلاحا جديدا فى وجه أعداء الإنسان . وإذا كان هناك كتاب أو شعراء قد لبسوا أقنعة مستعارة أو لطحوا وجوههم بالمساحيق المزيفة ليظهروا فى نظر القراء بمظهر تقدمى أو التزامى فالذنب فى رأى ليس ذنب الالتزام وإنما هو ذنب الذين

يؤمنون به إيمانا خارجيا ، ويسيرون تحت لوائه طمعا في شهرة عارضة أو تصفيق رخيص ، والنتيجة هي تلك النماذج الرديئة التي ملأت حياتنا الأدبية وخاصة في ميدان الشعر والقصة ، وقد تطفو قطع الفلين فوق السطح ولكنها ستظل دائما قطعاً من الفلين .



مذهبي في الحياة هو :
أولا : مادام هناك غد فلا ياس .
ثانيا : حرية الإنسان وكرامته هما أرفع ما في الحياة من قيم .



أود أن أؤكد لك أنني أحترم المرأة وأقدر دورها في بناء الأسرة والمجتمع ، وبخاصة المرأة العاملة والمتقفة ، فليس إضراب عن الزواج ناتجا عن عدم تقديرى للمرأة أو للدور الذى تقوم به في حياتنا ، ولكنه يرجع إلى سبب آخر أقوله لك بمنتهى الصراحة :

لقد تعودت أن أعيش شجاعا ومرفوع الرأس ، والزواج بمسئولياته ومشكلاته قد يرغم إنسانا مثل على أن يتخلى عن شجاعته وهو يواجه الحياة من أجل مستقبله ومستقبل أولاده ، وأنا لا أريد أن أكون هذا الرجل . وقد يرغمه أيضا - في سبيل ذلك - على أن يخنى رأسه لمطالب العيش وضغط الحاجة . ومرة أخرى لا أريد أن أكون هذا الرجل . وأؤكد لك أنني أحمل في حياتي من المسؤوليات ما يفوق إنشاء بيت وتكوين أسرة ، وأنت تعرف ذلك ، فليس موقفى هروبا من مواجهة المسؤولية أو من تحمل التبعات .

ومع ذلك فأنا أنصح الآخرين بالزواج وعلى رأسهم أنت !
ولا تنس آخر الأمر أنني أشعر بعد أن تجاوزت الأربعين أنني قد
تخطيت مرحلة الشباب المتفتح للحياة .
وهكذا انتهت آخر كلمات المعداوى

فاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع أنور المعداوى وأدبه وحياته وعصره وعلاقته بفدوى طوقان تظهر أمامنا بعض النتائج الواضحة التي تستحق أن نضعها أمامنا ، لعلنا نجد فيها ضوءاً ينير طريق الذين يعيشون في قلب الحياة الأدبية ويعانون من مشاكلها ومصاعبها المختلفة .

فنحن نجد أن أنور المعداوى قد تعب وانهمز في معركة حياته ؛ لأنه رفع راية المثالية والكرامة والكبرياء ، ورفض أن يطلب شيئاً من أحد ، ويبقى في موقفه ينتظر أن تتحرك الحياة الأدبية نحوه وتعترف له بحقوقه وتعطيه قدره ومكانته ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وظل المعداوى يعاني ويتألم حتى مات وحيداً ، ولم يكذ يشعر بموته إلا عدد قليل من الأدباء والأصدقاء . أين الخطأ هنا ؟ هل هو خطأ المعداوى أو خطأ الحياة الأدبية ؟ ، الحقيقة أن مثالية السلوك والحرص على الكرامة والكبرياء شيء أساسي في حياة أى أديب حقيقى أصيل ،

ولكن هذه المثالية وهذا الحرص على الكرامة والكبرياء لا يبرران السلبية في حياة أى أديب . ولقد كان المعداوى محققاً كل الحق في حرصه على كرامته وتضحيته من أجل هذه الكرامة ، بل وكان شجاعاً وعظيماً في هذا الموقف ، ولكنه من ناحية أخرى كان سلبياً ، لم يشأ أن يتحرك نحو الحياة الأدبية ليفرض لنفسه مكاناً فيها . والسبب في ذلك هو أنه اعتصم بنوع من « الذاتية » حجب عنه جوانب الرؤية الموضوعية الكاملة للحياة الأدبية .

ولو تخلص المعداوى من ذاتيته الكثيفة لاستطاع أن يكافح ويناضل داخل الحياة الأدبية أكثر مما فعل ، ولا استطاع أن يواجهه كل ما أصابه بقدر أكبر من الصبر والفهم والاحتمال ، فعلى الأديب الذى يريد أن يؤدي رسالته واجب كبير هو أن يتخلى بقدر ما يستطيع عن النظرة الذاتية للواقع العربى ، فى الميدان الثقافى أو فى غيره من الميادين ، وسوف يجد الأديب الصادق من خلال النظرة الموضوعية أننا ما زلنا نعيش فى مجتمع يضع الأدب وسائر فروع الثقافة على الهامش ، ولم يصل مجتمعنا بعد إلى اعتبار الثقافة عنصراً أساسياً من عناصر بنية هذا المجتمع ؛ ولذلك فمن الطبيعى أمام هذا الوضع أن يتعرض الكتاب والأدباء للإهمال والإنكار ، نتيجة لهذه الأزمة الحضارية التى يعانىها المجتمع العربى ويشكو منها ، وعلينا أن نتذكر أن معظم كتاب الجيل الأول مثل طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وهىكل لم يستطيعوا أبداً أن يحتلوا مكانهم فى مجتمعنا عن طريق الأدب وحده ، بل عن طريق أعمال أخرى يعترف بها المجتمع ويحترمها ، فبعضهم عمل بالسياسة ، وساعدته السياسة على أن يحتل مكانته الأدبية ، ومعظمهم عملوا بالصحافة ، وبعضهم عمل بالجامعة ، وهم جميعاً اهتموا بأن يكتبوا فى قضايا الدين حتى

يستطيعوا أن يصلوا للقارئ العربى العادى ، ولو اكتفى هؤلاء الأدباء بكتاباتهم الأدبية لما استطاعوا أن يحققوا ما حققوه من مكانة ونفوذ معنوى فى المجتمع العربى ، كل ذلك رغم أن أدبهم كان أرقى ما قدموه من إنتاج ، ولكن الأدب وحده فى مجتمع مثل مجتمعنا لا يكفى لفتح طريق الحياة أمام صاحبه ، ولقد كان فى ذلك الجيل نفسه ادباء بارزون آخرون ، اقتصروا فى إنتاجهم على الادب والثقافة فلم يحققوا نجاحا مذكورا فى المجتمع ، وعانوا فى حياتهم معاناة كبيرة رغم أنهم أصلا موهوبون وأصحاب نتاج غزير وفير مثل زكى مبارك وعبد الرحمن شكرى ومصطفى صادق الرافعى .

التصق المعداوى إذن بذاتيته ، ولم يدرك أنه كان يتعرض لأزمة لا بد أن يعانيتها كل كاتب موهوب فى مجتمع لم يعترف بعد بدور الثقافة وأهمية هذا الدور ، وتصور المعداوى أن محتته ككاتب هى محنة خاصة ، بينما كانت المشكلة - وما زالت - مشكلة عامة تتصل بوضع الثقافة فى المجتمع العربى . ومن هنا كثرت كلمة « أنا » فى كتابات المعداوى ، وكثر تأكيدته لذاته وتمجيده لها كرد فعل لما كان يلقاه من متاعب ومصاعب ، ولم يستطع المعداوى فى اللحظات الحرجة من حياته أن يخرج من هذه الدائرة الذاتية القاسية ، وبإليته استطاع أن يخرج منها ، إذن لاكتشف أن كل الموهوبين كانوا يعانون ما يعانيه ، ولكن بعضهم كان يرى ضرورة مواصلة الكفاح والصبر على مكاره الحياة الأدبية والثقافية ، حتى يتطور المجتمع وينتشر فيه نور العلم ، فيعرف للثقافة قيمتها وللمثقفين دورهم ، أما المعداوى فكان من النوع الذى استسلم لغضبه على الأوضاع الثقافية ، فانسحب واستسلم لآلامه الداخلية العنيفة حتى قضت عليه .

تكشف كتابات المعداوى ومعاركة من ناحية أخرى أن بعض المشاكل والقضايا الحادة التي كانت تشغل الحياة الأدبية في أوائل الخمسينات كانت مشاكل ثانوية إلى حد كبير ، كان هناك نوع من خلو البال الأدبي إذا صح التعبير ، فهذا شاعر يكتب باسم شاعرة وشاعر آخر يتحایل للحصول على جائزة المجمع اللغوى ، وما إلى ذلك من المشكلات والقضايا . . . هل كان ذلك طابعا للعصر كله ؟ فى اعتقادى أن هذه الفترة كانت تغل بالتجاهات خفية لم تكن ظاهرة على السطح ، وقد كان على المعداوى أن يبحث عن هذه الاتجاهات الخفية حتى لا تفاجئه ، ولكنه تصور أن ظاهر الحياة الأدبية فى أوائل الخمسينات هو كل شيء ، ولم يكن هذا صحيحا ، فقد كانت هناك تيارات قوية تعمل فى باطن الأرض ، وكان أهمها التيار الواقعى الجديد الذى بدأ يلعب دوره بعنف فى حياتنا الأدبية منذ ١٩٥٤ ، والمعداوى لم ينتبه لهذا التيار إلا بعد ظهوره بفترة غير قصيرة ، وأن كان قد استطاع فى آخر الأمر أن يستوعب هذا التيار ويتعايش معه ، ولو طال به العمر لأصبح واحدا من فرسانه .

هل كانت حياتنا الأدبية هى وحدها التى تعانى من المشاكل التى جعلت من المعداوى ضحية وفريسة وحملته من الهموم ما ساهم فى القضاء عليه ؟ . . . الحق أن الحياة الأدبية لم تكن هى وحدها التى تعانى من هذه المشاكل ، فحياتنا الاجتماعية فى الوطن العربى كله كانت تعانى من هموم أكبر وأخطر ، وهى قصة حب المعداوى لفدوى طوقان تتعرض للمشاكل والصعوبات حتى تحتنق ولا يبقى لنا منها سوى قليل من العطر وكثير من الهموم والأحزان .

لقد عاش المعداوى وهو يحلم بأن يؤدى دورا أدبيا بارزا فأصابه

الإحباط والفشل بعد أن قطع في طريق المجد الأدبي خطوات قومية لأمعة ، وكان يريد أن يحب ، فلم ينل من الحب إلا السراب ، وشدته دوامة الأسى في المجتمع العربي وقضت عليه . وعندما مات اهتز الضمير الأدبي لحظات قليلة جدا ، وأثمرت هذه الهزة منح اسم المعداوى جائزة الدولة التشجيعية ! في الأدب . ثم نام الضمير الأدبي من جديد وما زال نائما حتى اليوم بالنسبة لهذا الأديب الشجاع الموهوب الذي عانى الكثير .

قصة المعداوى ستظل تذكرنا بأننا يجب أن نبتعد عن النظرة الذاتية للأمور حتى نتمكن من معرفة الحقائق الموضوعية ، وستظل هذه القصة تذكرنا بأن الثقافة ما زالت عنصرا غريبا على مجتمعا العربي ولم تدخل في البناء الأصلي لهذا المجتمع ، وقد كان على المعداوى - لو تخلص من ذاتيته - أن يدرك هذه الحقيقة فيستريح ويتخفف من آلامه وهمومه ، ويزداد صبرا على مهنة القلم أو محنة القلم بتعبير أصبح ، ويعلم أن واجب الأديب الحقيقي في بلادنا مثل واجب المحارب الذي يخوض المعارك في أصعب الظروف .

على أن قصة المعداوى ستظل تذكرنا أيضا بأن مهنة « النقد » بالتحديد في مجتمعا العربي مهنة صعبة وشائكة ، وهي مهنة تعرض صاحبها للكثير من المتاعب والهموم والضربات ، والحياة الأدبية العربية - كجزء من التخلف الثقافي العام - لا تستطيع أن تتحمل ناقدًا حرا صريحا مثل المعداوى دون أن تضع العراقيل في الطريق والألغام تحت الأقدام .

وأخيرا فإن الحب في مجتمعا العربي ما زال عاطفة صعبة محاصرة، وربما استطاع الجيل الذي جاء بعد المعداوى أن يحقق بعض التقدم

ويتنزع لنفسه بعض الحقوق . . . ولكن ذلك كله لا يكفي ،
فما زالت العاطفة الإنسانية ، عاطفة الحب الحقيقي الصادق ، محاطة
بكثير من الأسوار الشائكة التي يجب أن تتحطم ، حتى يتحطم معها
الحزن الذي يضعف قدرة الإنسان على السعادة والمشاركة في بناء
الحياة والمجتمع .

رحم الله المعداوى . . . ورحمنا جميعا معه مما نعانيه في الحياة
الأدبية والاجتماعية من هموم وقيود وأحزان .

شقة ١٠ أغسطس ١٩٥٠

أخي أنور

فتية رافعة كادوك ، فتية إنسانيتك

وعبد ندي حبيب وعلف الشجرة المعوية (ن. ط. ح) التي أدلت مع السبع
رمات مع الورد كما يقول لاميدي " ركنف ساشاركن في الورد حيا ، فانت
الرسالة ، فحيتا ، فانت من حق الشجر أن يحكي الشجر ، رماقن
اسم الشجرة بالثلاثة ، وما هو الحب ، قرينة موت " تهدي إلى
روح الشجرة المعوية (ن. ط. ح) التي تلقت كما يتعني فزهر وعاشت
كالميتة الزامنة ركنف تركت عفا وعظرا ، بالورد ، وأعلنا ، فلن
استطاع الموت أن يحوّلها من الوجود ، فلن يستطيع أن يحوّل
نذرها من العوس .

١٠

أعود إلى لعب فأقول : لقد رددت أن تلوث في كتاب مشترك
للعب ، مع الناس ، وما تدرى لعل فندم الرسل التي تبادلنا
صحات " الرسالة " سؤالا فائمة الكتاب في غنية هذا
الكتاب الذي يجعل الرأي ركنف إلى الرأي ، والفكرة ثقلا
إلى الفكرة ، معبر الكتاب - يولف - معبر ، ويضم سعيا ، ولكن
هذا أن يتفهم المعنية الإقلياتية فلن شعلت بعض الحواطر واستقرت
في بعض العوس فلن تشعل فاطمية ولن تستقر في بعض فاما أرمي
العدا فلن داهب أن يلقب ركنف ، في فزهر ، وأنت من يتفهم
بينة بعض دون غيرها من البينات ركنف بعينه دون غيره من الأولاد ، ولعل
الذين رعدوا لأنهم أن يكشف من الحوت ركنف عن الدخيل ، ويجعل
الذين تطلق إلى قرأت العوس ، وحسب الأرد - أن يرد - عا
سكة العادام وتجنه القلاب .

بعض حقيبة الحيتة ونكره الورد

صبره شوقي

● صورة لإحدى رسائل الأديبة السورية هجران شوقي إلى المعداوي ،
وقد تبين أن هجران هو اسم مستعار للشاعر أنور العطار ●

القاهرة ، ١٢ / ٦ / ١٩٤٧

عزيزي يا فدي

كلما سمعت لها حتى بنفسية بأن اتناول لعلهم لو كنت رسالة إلى عزيزي ، فتقني أن كنت العزيز صلات
.. ومع ذلك فإن كنت العزيز الأثير لم يرد على آخر رسالة بعثت به إليه ، لماذا ؟ حتى الآن .
يا فدي ! لقد كانت رسالة فاشلة ، فقلت كلامي في الحزن وهي تنس طريقي إلى قلبك .. فقلت
لهذا القلب إذا صار يوما برؤية ما يحسب أهل على جوده ، من عيون نوب مود ! أنا " بون"
واحد صبي كبرهون السواد على شيء ، حتى لا يكون لك الدار الذي كتب به إليك .. ولكنهم
أن تحولت تحت يدي إلى مراد أبعد ، عصيته الأدهم سوادا رقيقة ، ليهب منه على
رؤيتك وعينك .. على شيء !

أنفسية كنت لماذا ؟ أنا أذكر حتى صفت به إليك أكثر رسالة ، وأريد أن أضع به فدي .
الآن نحن رسالة المصلحة ، حتى تنفذ حتى الأخرى بكل ما قبل مرصفا ، البطون والأصدا .. إن
أجمل الأشياء يا فدي هو ما يجعل إلى نفوسنا لونا وزخما ، ولهذا كانت قصيدتك الأهم في
" الأدب " بالنسبة إلى متابعي الشجيرة ، ما جعل الزهور في حقيقة الشجر كله !

إن لمودع البون التي زعمت إلى إجاد نفسي منذ فترة قريبة ، هي التي قضى ، الطرية اليوم الحيات
كانت بالأسر عباد ، فإذا بل الآن نزل بصيرة .. لقد كنت دائما أنظرك يا فدي ، ولكنه كان
انطلاقا في الحزن ، فلهذا ذلك الجسر الكبير " الذي لم يلبث أن أضعي فيه .. يا غالما ذهبت
إليه وانظرتك صفتك ، ولكنه آه من ذلك الظلم الرقيق الذي يلبس الرؤية ، رؤية كل شيء
كم " ألح على السوء ، ولم يزل للمضي ، ولم يفت في الذكرك " ولم ولم ولم .. ولكنني كنت متحاجلا

إلى ما جعلت ذات مصباحا ولمصباحا ، لا يستطيع كلما جئت إلى الجسر الكبير أن أراك !
كان ذلك بالأسر ، أما اليوم .. يا فدي ، لم تعد حياق تنفخ منك " .. إنك بون بل وصلة ليل
إحسا ساد رؤية . كل ما ينطوي هو أن انظرك " منصفة " هذا الجسر الكبير ، هذه هي شظايا
الرؤية .. أنا أشعر شعورا عميقا بأن كلينا ولرناه يعينه في ولنه ، تحتاج إلى ولنه كبير ، إلى
ذلك الولن الذي نسي فيه غربة الروح ، " الولن الشعري " الذي تحول فيه إلى أسير إلى واحد

● صورة للصفحة الأولى من آخر رسالة كتبها المعداوي إلى فدي طوقان ●

وراء الزهرة، وإليها، أسمى وراء ذلك.. ونحن السعداء عند ذلك الجسر الكبير..
 أنا أعلم هذا الجسر.. عندئذ فستطيع أن تعرفي للناس وديانا آخر ليس غريباً، وطمحاً فيكم،
 ونظراً لأن عنوانه سيكون كما أفتيح وأحب، سيكون مشهوراً، لنستدركه! ١
 وأخيراً بعد هذا نجيبه أن نعرف شيئاً من واقع حياتنا هذه الأيام.. اسمي يافدوى، وإن حياتي
 بسيطة لأن حبيبة، وهذا هو كل ما أطلبه من الحياة، لأنني بذلك أكون راضية عن كل شيء، وحتى
 عند ذلك الوضع البسيط الذي قضيت فيه وزارة المعارف العصرية! لقد أقضيت عملي التوجيهي في
 حرات فقلت من كان إلى مكان، ولا تعرف من وراء ذلك إلا شعرة الحقيقة.. وليس هذا رأيي
 في شأن شعيرة العدل للروايات، ولكن ما ينبغي الروايات هنا أن تكون على قدر حقيقي، الحقيقة
 وأنهم يقولون أن هذا هو كل شيء، فما يصنعهم الحكمة! من هذا حقيقتي مرة بعد مرات فبقولهم مرة بعد مرات
 كان آخرها عند جويته حيث صدر قرار جدير بنفسي إلى مكان لا يمكن أن يكون فيه إنسان مثلي، وهذا
 أعجبني من التفتيش.. وأنا الآن في بيتي شغول بشيء واحد، هو هذه الرسالة التي أكتبها إليك، حتى
 اسمي مرة أخرى يافدوى! ما دامت صحتي جيدة، فليمررت كل شيء، ولا رمت أنت باقية في حياتي
 بعد شيء! ومع ذلك فأخبرني لأن هذا ليس غريباً بل هو إلى الأبد في الحقيقة.. وعلى المستر حبيب
 قد يتفقدوا شكوكهم بوجوده في جويته، ليس من بعد الروايات الرسمية! ٢
 نوع من نقد إليكم جويته! "الفاخرة" على أنها إلى أن يكون سعادتي في كل شيء، لأن
 صفتها "الزوايا"؟ يعني أفضل يافدوى أن يكون الزوايا في الصحف الجريدة عن أن يكون في الجرائد
 "الزوايا" ذلك لأنه هناك مضمون الزواج الذي القراء من شتى الطبقات.. أما هذا.. نحن فيه كمن
 في مجلة خاصة.. فهو مقصور على فئة معينة من القراء القادرين على فهمه، وهذا هو الجسر الكبير
 في هذه الأيام أن يكون متاحاً لكل الناس..
 ماذا نقول لأقول لك؟ بنيت أشياء كثيرة، وأمر الله صديقي أن يجمع بيننا يدنا في هذا الجسر
 الجسر الكبير ونحوه شيء.. نعيش في عالمنا المزدحم.. فنود لو نعيش في الزوايا
 ونود لو نزلت الحياة لنا كل شيئاً.. ونحن في الزوايا
 وسهرت علينا، وعلى الناس، وعلى الجسر الكبير، وعلى الرفاء.. ومن الجسر الكبير نحن في صحتنا
 نحن في هذا الجسر { الفاخرة - البهينة }
 { متاع المنفعة - فخرها }

كتب أخرى للمؤلف

- ١ - في أزمة الثقافة المصرية .
- ٢ - أبو القاسم الشابي « شاعر الحب والثورة » .
- ٣ - ثورة الفقراء .
- ٤ - في أضواء المسرح .
- ٥ - أدباء معاصرون .
- ٦ - مقعد صغير أمام الستار « دراسات في النقد المسرحي » .
- ٧ - أدباء ومواقف .
- ٨ - أصوات غاضبة في الأدب والنقد .
- ٩ - كلمات في الفن .
- ١٠ - محمود درويش « شاعر الأرض المحتلة » .
- ١١ - الانعزاليون في مصر - رد على د . لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين .
- ١٢ - أدب وعروبة .
- ١٣ - عباس العقاد بين اليمين واليسار .
- ١٤ - تأملات في الإنسان .

تحت الطبع

- ١ - كفا في شاعر الانسانية .
- ٢ - دفاع عن طه حسين .
- ٣ - أزمة الثقافة في مصر .
- ٤ - بصراحة أدبية .
- ٥ - أدباء ومواقف - الجزء الثاني .
- ٦ - أدباء ومواقف - الجزء الثالث .
- ٧ - مع الرواية العربية : دراسات نقدية .
- ٨ - هل كان العقاد شاعراً ؟
- ٩ - شخصيات وقضايا مسرحية .
- ١٠ - سينمائيات .
- ١١ - كتابات في الغرب .
- ١٢ - بين السياسة والثقافة .
- ١٣ - الفن والانسان في أدب نجيب محفوظ
- ١٤ - عباقرة ومجانين .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
● مقدمة	٧
● مقدمة الطبعة الأولى	١٧
● أنور المعداوى ورسائله	٣١
● أنور المعداوى وأدبه	٤٣
● أنور المعداوى ومأساته الخاصة	٧٣
● الرسالة الأولى	١٠١
● التعليق على الرسالة الأولى	١٠٥
● الرسالة الثانية	١١١
● التعليق على الرسالة الثانية	١١٥
● الرسالة الثالثة	١١٩
● التعليق على الرسالة الثالثة	١٢٧
● الرسالة الرابعة	١٣٥
● التعليق على الرسالة الرابعة	١٣٩
● الرسالة الخامسة	١٤٣
● التعليق الأول على الرسالة الخامسة :	
● حول الشاعرة المصرية ن . ط . ع	١٤٩

الموضوع	الصفحة
التعليق الثاني على الرسالة الخامسة	١٧١
● الرسالة السادسة	١٧٩
التعليق الأول على الرسالة السادسة	١٨٧
التعليق الثاني على الرسالة السادسة :	
بين فدوى طوقان وشاعر مصري	١٩١
التعليق الثالث على الرسالة السادسة :	
قصة الأدبية السوزية هجران شوقي	٢١١
التعليق الرابع على الرسالة السادسة :	
حول المتنبي وشعره	٢٣٧
● الرسالة السابعة	٢٤٧
التعليق على الرسالة السابعة	٢٥١
● الرسالة الثامنة	٢٥٩
التعليق الأول على الرسالة الثامنة	٢٧١
التعليق الثاني على الرسالة الثامنة :	
حول شعر نازك الملائكة وآرائها النقدية	٢٧٩
● الرسالة التاسعة	٢٨٩
التعليق على الرسالة التاسعة	٢٩٥
● الرسالة العاشرة	٣٠٣
التعليق على الرسالة العاشرة	٣١٣
● الرسالة الحادية عشرة	٣٢٥
التعليق على الرسالة الحادية عشرة	٣٣٥

الموضوع	الصفحة
● الرسالة الثانية عشرة	٣٤٥
التعليق على الرسالة الثانية عشرة	٣٤٧
● الرسالة الثالثة عشرة	٣٥٣
التعليق على الرسالة الثالثة عشرة	٣٥٩
● الرسالة الرابعة عشرة	٣٦٧
● الرسالة الخامسة عشرة	٣٦٩
التعليق على الرسالتين الرابعة عشرة والخامسة عشرة	٣٧٣
● الرسالة السادسة عشرة	٣٨٣
التعليق على الرسالة السادسة عشرة	٣٨٧
● الرسالة السابعة عشرة	٣٩١
التعليق على الرسالة السابعة عشرة	٣٩٧
● آخر كلمات المداوى	٤١٩
● خاتمة	٤٣١
● ملاحق	٤٣٧

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب سبعة عشرة رسالة كتبها الأديب والناقد المصرى المعروف أنور المعداوى إلى الشاعرة الفلسطينية الكبيرة فدوى طوقان ، وتكشف هذه الرسائل عن قصة حب صادقة وعفيفة نشأت بين الناقد المصرى والشاعرة الفلسطينية ، وقد اعترفت فدوى طوقان فى شجاعة وأمانة بهذا الحب ، ولا يكتفى هذا الكتاب الهام بما جاء فى الرسائل من إشارات وأحداث ، بل يكشف من خلال دراسة دقيقة شاملة للرسائل عن جوانب كثيرة أخرى فى حياة فدوى طوقان وفى حياة المعداوى وفى حياة آخر من الأدبيات والأدباء العرب المعاصرين . ويعتمد الكتاب على منهج واضح هو مناقشة القضايا المختلفة للحياة الأدبية بمنتهى الصراحة وبدون أى محاولة لإخفاء شئ أو التستر على شئ ، ذلك لأن مؤلف الكتاب الأديب الناقد رجاء النقاش يؤمن - كما أوضح فى مقدمة الكتاب - بأن الحياة الأدبية العربية تعيش فى جو من الكتمان وإخفاء الحقائق والحذر بصورة أساءت إلى الواقع الثقافى والواقع الاجتماعى على السواء ، ولا يوجد حل أمام الأدب والإنسان فى المجتمع العربى إلا عن طريق مواجهة المشاكل وعدم الهروب منها والكشف عنها فى صراحة كاملة ، وفى هذا الكتاب محاولة جادة وجريئة فى هذا المجال ، وهى محاولة تخترق حاجز التقليد والخوف فى التفكير العربى ، وتتحدى روح الحذر والتستر والمجاملة وإخفاء الحقائق فى الأدب والحياة معا .